



200 Year
Institute of Orientalism
معهد الأستشراق
1818-2018

الأكادیمی فیتالی . ف . ناؤومکین

الاسلام والشرق

الثقافة والسياسة
مقالات .. ودراسات .. وتقارير

ترجمة
د . محمد رياض

دار نشر
أبناء روسيا
Russian News
www.russiannewsar.com

ترجمة لكتاب
الإسلام والمسلمون
تأليف / ف.ف. ناؤمكين

Перевод книги
«Ислам и Мусульмане»
Автор / Наумкин Виталий



المؤسسة المصرية الروسية
للثقافة والعلوم

Египетско-российский
фонд культуры и наук
www.a.rfcs.org

بالتعاون مع



Institute of Orientalism

الناشر
أنداء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير
د. حسين الشافعي
secetary_ert@yahoo.com
المراسلات

114 ش جوزيف تيتو - برج رقم (2) الدور
الثالث - النهضة الجديدة - القاهرة -
جمهورية مصر العربية .

Tel. & Fax: +(202)219 271 57 & 58

الإخراج الفني
أحمد عثمان - أيمن العيسوي

ترجمة / د. محمد رياض

الطباعة
دار الطباعة المتميزة
مدينة العبور - القاهرة

Tel. & Fax: +(202)44789644 & 46

الطبعة الأولى 2018

دار نشر أنباء روسيا

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر.
لا يحق إعادة طبع أو نسخ محتويات هذا الكتاب
إلكترونياً أو ضوئياً دونما إذن كتابي من الناشر.

رقم الإيداع

2297 / 2017

الأكاديمية الروسية للعلوم
معهد الاستشراق
مركز الدراسات العربية والإسلامية
جامعة موسكو الحكومية
م. ف. لومونوسوف
كلية السياسة العالمية

الأكاديمي ف. ف. ناؤمكين

الإسلام والمسلمون

الثقافة والسياسة
مقالات ودراسات وتقارير



دار نشر «أخبار روسيا»

www.russiannewsar.com

obeikan.com

مقدمة

الكتاب بين أيدينا للمستشرق المعروف الأكاديمي فيتالي ناؤمكين، والذي عمل عميداً لمعهد الإستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية حتى وقت قريب: «الإسلام والمسلمون: الثقافة، والسياسة» هو مجموعة من المقالات والدراسات والتقارير التي نشرها ناؤمكين في كتابه الذي صدر بنفس العنوان منذ سنوات بالروسية، ويأخذنا ناؤمكين فيه في جولة فلسفية سياسية ثقافية متوقفاً أمام قضايا ما زالت خلافية ورؤى لحال بعض بلادنا كاشفاً حال الإسلام والمسلمين من وجهة نظره.

فما بين دراسة حول قضية «حرية الإرادة والجبر الإلهي»، والتي يعرض ناؤمكين لها كأحد أهم القضايا ذات الطابع الأخلاقي والديني والفلسفي في العقيدة الإسلامية، والتي امتدت جذورها لمفكري اليونان القديمة، يستعرض فيها تفسيرات للإمام أبو حامد الغزالي، والحلاج ويخلص فيها إلى ما أعلنه الغزالي من "تحمل الإنسان المسؤولية عن أفعاله، إذ يمنحه الله حرية اختيار الفعل خيراً كان أو شراً، وعليه - الإنسان - رفض فعل السيئات وإدانة فعلها وفاقليها.

ينتقل بنا ناؤمكين من قضية «الحرية والجبر» إلى قضية المفهوم التقليدي للخاصة والعامّة في الثقافة العربية الإسلامية، وهو مفهوم في جوهره يعترف بتفوق مجموعة محدودة أو موهوبة بالفطرة على عامة الناس.

يبين كاتبنا أن هذا المفهوم يتعارض مع مبدأ المساواة التامة بين الناس، ويتناول آراء "عبد الله بن المقفع" (٧٢١-٧٥٧) الذي كان يرى أن الشرفاء والوجهاء من الناس هم الخاصة، وما عداهم فمن العامة، وتطور فهمه في الفصل

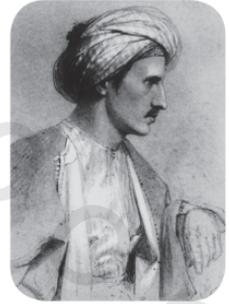
بين الخاصة والعامة بتطور الزمن حتى صار الخواص هم «الأولياء» في كتابات كثير من المتصوفة المسلمين كما جاء في كتاب «عبد الكريم الجيلاني» «الإنسان الكامل»، وهو - الإنسان الكامل - ذلك الشخص الذي يتحد مع الكيان الإلهي على الهيئة التي خلق عليها ، وهو ما يوصف به الأنبياء والأولياء، ويصل بنا ناؤمكين إلى موقف أولي الأمر من العامة والخاصة وانحيازهم لكل فريق وفق مصالحهم .



كانت المواجهة بين العامة للنخبة المتعلقة هي ما جعلت أولي الأمر في الغالب ينتصرون للعامة تملقاً لهم ، وتمثل هي التملق في إضطهاد الفلسفة والفلاسفة ، وحول سؤال : هل كان فلاسفة العصور الوسطى من المسلمين موحدين ومؤمنين ؟ رأي أحمد أمين أن ابن رشد والفارابي وابن سينا ومن على شاكلتهم آمنوا بالله

وبالنبوة ليس كما يؤمن العامة ، معتقدين أن الدين يوجد لأولئك العامة من الناس ، وكانت النخبة الفلسفية تركز بدرجة كبيرة على العقل أكثر من الإيمان .

حول مصر .. وهي الدولة العربية التي لم يكتب عن سواها مثلما كتب عنها يدور قسم هام من كتاب ناؤمكين في عدة أجزاء ، منها تحليلاً ودراسة للكتاب الأشهر عن أخلاق وعادات المصريين في



النصف الأول من القرن التاسع عشر لإدوارد لين ، والذي ألفه في عهد محمد علي بعد زيارته لمصر والتي كانت

أولها عام ١٨٢٨ ، ورصد فيه «إدوارد لين» سعي محمد علي إلى تحويل مصر لدولة قوية مستقلة ، واخضاع البلاد العربية لسلطته وانتزاعها من سطوة الباب العالي . ويستعرض ناؤمكين في كتابه آراء عدد من المستشرقين السوفيت في هذه الحقبة من بينهم



لوتسكي ، نوروف، وأومانيتس، ورافالوفيتش ، وكوفاليفسكي وغيرهم ، كما يستعرض لمحات من حياة مصريين أثروا في تاريخ الاستعراب الروسي من بينهم الشيخ محمد عياد الطنطاوي* ، أول معلم للروسية في الإمبراطورية الروسية والذي أوفده محمد علي في الفترة من ١٨٤٠ - ١٨٦١ ، وتوفي ودفن بروسيا ، وحمدي سلام الشيوخي المصري الذي سافر للاتحاد السوفيتي عام ١٩٢٤ ، وكافح حتى أنهى تعليمه العالي في الطب، وعمل مترجماً وكاتباً وشاعراً .

يستطرد ناؤمكين في عرض موجز لمتقطعات من مؤلف إدوار لين الضيقة وأثارها مشاركاً في نمط الحياة المحلية صانعاً رسوماً تفصيلية وقياسات دقيقة ورسداً ناقداً للعادات والتقاليد والسلوكيات السائدة آنذاك .

جزء تالي في كتابنا يستعرض فيه الأكاديمي «ناؤمكين» بالتفصيل فترة حاسمة في تاريخ مصر الحديث خلال فترة العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، وهو بحث قدمه ناؤمكين في مؤتمر دولي عن تاريخ الحرب الباردة عقد بإيطاليا في أكتوبر ٢٠٠١ ، إلى جانب تقرير للمؤلف عن الدبلوماسية السوفيتية في الشرق الأوسط أثناء أزمة ١٩٥٦ ، وهو التقرير الذي قدمه للمؤتمر العالمي الأول للدراسات الشرق أوسطية في سبتمبر ٢٠٠٢ كاشفاً عن الكثير من الوثائق الأرشيفية - التي رفعت عنها السرية مؤخراً - من سجلات السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي لتسليط الضوء على سياستها في الشرق الأوسط بشأن أزمة السويس قبل واثناء العدوان ، والتي كانت أولوياتها دعم الدول العربية واتسمت فيه ببياناتها بنقد متصاعد للسياسة الإسرائيلية ، وهو ما تجلّى في إنذار الحكومة السوفيتية المشهور آنذاك .

الجزء الأخير عن مصر في هذا القسم يتناول فيه ناؤمكين فصول من كتاب: الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر «لعبد اللطيف البغدادى» ، وهي دراسة تناولها المؤلف



(*) صدر عن دار نشر أبناء روسيا الجزئين الأول والثاني لمخطوطة «تحفة الأكفاء بأخبار بلاد روسيا» عن الشيخ محمد عياد الطنطاوي «للدكتور حسين الشافعي» ونحت الإصدار الجزء الثالث ، دراسة وتحقيق الدكتور علي متولي الباحث بدار الكتب والوثائق القومية . في مقدمته لكتاب حول نفس الموضوع صدر عن مركز الدراسات السياسية والتاريخية بموسكو عام ٢٠٠٤ .



البغدادي كان باحثاً لا يشق له غبار في عصره، إنتقل لمصر في عام ١١٩٣ وكتب كتباً علمية متميزة وحظى بشهرة في مجالات المعرفة، وقد كتب مؤلفه إلى حاكم مصر العادل (١٢٠٠-١٢١٨) بحيث لا يترك شيئاً ذو صلة بأقاليم البلاد إلا وكان على علم بها، ولا يكون شيئاً يتعلق بمصالح مواطنيه حيثما كانوا، إلا وقد شمله برعايته .

كانت عينا البغدادي الباحثة عن الظواهر المعيشية وراء رصده للطرق المستخدمة في البناء عند المصريين، والتفريخ وطرق طهي الطعام وتقنية قياس منسوب نهر النيل وعالم الحيوان في مصر مما يخبرنا بقوة ملاحظته وصدقه وفهمه لما يتطرق له من ظواهر .

يستعرض فيتالي ناؤمكين أيضاً في كتابه تفاصيل أول بعثة دبلوماسية برئاسة الأمير فيصل عام ١٩٣٢ م إلى الإتحاد السوفيتي بعد إنتهاء توحيد أراض السعودية وكذا حقائق عن الوضع المالي



والإقتصادي في المملكة الذي كان يزداد سوءاً، إذ غدت موسكو - آنذاك - شريكاً جذاباً من الناحية الإقتصادية إذ كان يمكنها تصدير مواد غذائية وبتترول وآلات ومعدات كانت السعودية في أمس الحاجة لهم .

يذكر ناؤمكين أن أسباباً غير معروفة عاقت الحكومة السوفيتية عن تقديم قرض للمملكة العربية طلبه الأمير فيصل - الملك فيما بعد - خلال زيارته، لكنه يعتقد أن الإسراع بالتحديث والتنفيذ لخطة التنمية الخمسية الثانية بالإتحاد السوفيتي كان قد إبتلع كل الموارد المتاحة آنذاك .

عن نجاحات وإنجازات مهمة بن سعود التوحيدية، ونقلاً عن السجلات الدبلوماسية الروسية يحدثنا "فيتالي ناؤمكين" في كتابه :

«الإسلام والمسلمون» وربما للمرة الأولى عن جهود عبد العزيز بن سعود لإنشاء الدولة المركزية في شبه الجزيرة العربية، إعتد الكاتب على وثائق رفعت عنها حجب السرية من أرشيف الخارجية الروسية في نهاية العشرينات، فيكشف نصوص تقارير سرية بعث بها الدبلوماسيين السوفيت إلى مراكزهم رصدوا فيه تطور علاقات بن سعود مع دول الشرق والغرب .

الجزء الهام من كتاب "فيتالي ناؤمكين"، حول اليمن، وعن "جزيرة سقطري" يضم بحثاً علمياً حول النصوص الفلكلورية السقطرية ساهم بها المؤلف في كتاب



عن أكاديمية العلوم الروسية مع يورخوموفسكي صدر في ١٩٩٥ سجلاً فيه مادة علمية جمعها خلال دراسة ميدانية لجزيرة سقطري من رواة، وشملت نصوصاً عن الأساطير والخرافات القبلية والحكايات والنكات والشعائر والطقوس والشعر الشعبي، قام ناؤمكين بترجمة هذه النصوص لتقدم لنا صوراً مختلفة من أدب لم تكتب لغته بل تداولها الرواة .

كتاب "الإسلام والمسلمون: الثقافة والسياسة" كتاب ممتع لمستشرق غزير المعرفة عمل على ترجمته الدكتور محمد رياض ترجمة حاذقة، ويصدر في إطار مساهمة المؤسسة المصرية للثقافة والعلوم في الاحتفال بالذكرى ٢٠٠ لتأسيس معهد الإستشرق التابع لأكاديمية العلوم الروسية (١٨١٨-٢٠١٨) مع مجموعة أخرى من الكتب والإصدارات بهذه المناسبة.. فإقرأ.. ما لم تقرؤه من قبل .

لدينا

دكتور / حسين الشافعي

رئيس المؤسسة المصرية للثقافة والعلوم
رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير مجلة "أنباء روسيا"

obeikan.com

ف. ف. ناؤمكين
الإسلام والمسلمون
الثقافة والسياسة
مقالات ودراسات وتقارير

نبذة عن الكتاب

الكتاب فصول مختارة من كتب ومقالات ودراسات وتقارير ومحاضرات للباحث المعروف في العلوم التاريخية فيتالي ناؤومكين . كتبت على مدار ٤٠ سنة من النشاط العلمي والتربوي . وهذه الدراسات تتناول الجوانب التاريخية المختلفة ، والحياة السياسية الحديثة ، والدولية ، والثقافية ، والدينية للمجتمعات الإسلامية. وفيها تم البحث على نطاق واسع قضايا التاريخ النظرية ، والعلوم السياسية ، والتسلسل الزمني ، والفلسفة ، وعلم الأجناس ، وعلم اللغة في سياق الثقافة الإسلامية. ويخاطب الكتاب شريحة عريضة من القراء المهتمين بالشرق والعالم الإسلامي .



دار نشر «أنباء روسيا»

www.russiannewsar.com

obeikan.com

مقدمة المؤلف للطبعة العربية

في الحياة المهنية لكل شخص همومٌ تجبره أن يتفكر للتوصل إلى نتائج . وتعد هذه السطور عند الكاتب نتاجاً لتلك الهموم ؛ فهي تغطي نحو خمسين عاماً من النشاط العلمي ، والتربوي عقب التخرج في العام ١٩٦٨م في معهد اللغات الشرقية (الآن معهد بلدان آسيا وإفريقيا) بجامعة موسكو الحكومية المسماة «لومونوسوف» والذي يتزامن مع قرب الاحتفال بال مئوية الثانية (في العام القادم ٢٠١٨) على إنشاء معهد الاستشراق بأكاديمية العلوم الروسية حيث عملت فيه لمدة ربع قرن تقريباً.

وكنتيجة لتفكير غير طويل ظهرت فكرة نشر بعض الفصول ، والمقالات ، والتقارير ، والمحاضرات ، التي ألقيتها في المؤتمرات ، والندوات ، والتي كانت قد كتبت خلال تلك الفترة . ونشرت بعض هذه الأعمال في روسيا ، والبعض الآخر في الخارج ، ولكن نظراً لمحدودية نسخ مطبوعاتنا العلمية وقدمها ، فإنها غير متاحة اليوم ، ولرغبتي في أن تجد قارئاً مهتماً ها هي ترجمتها نقدمها لقارئ العربية، وقد سعى إليها الصديق العزيز ، والهمام الدكتور حسين الشافعي - رئيس المؤسسة المصرية الروسية للثقافة والعلوم - وقد حمل مسؤولية زيادة حركة الترجمة والنشر من الروسية للعربية في السنوات الأخيرة ليسد عجزاً ضخماً في المكتبة العربية، وليشيد جسراً هاماً للتواصل الثقافي بين شعبينا. والبعض من الموضوعات الواردة هنا وخاصة التقارير لم تنشر من قبل .

وقد قمت باختيار تلك الأعمال ، والتي وإن كانت تنتمي إلى مجالات مختلفة من العلوم الإنسانية مثل: التاريخ، والعلوم السياسية، وعلم الأجناس، والعلاقات الدولية، وعلم اللغة إلا أنه يربطها موضوع عام وهو الإسلام وحياة المجتمعات والدول الإسلامية. لم أدخل أية تعديلات مهمة على تلك الأعمال التي تم نشرها منذ سنوات عديدة، باستثناء بعض الاختصارات والتعديلات غير المهمة .

فيتالى ناومكين

obeikan.com

نظرية الكسب في كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي (*)

تعد قضية «حرية الإرادة والجبر الإلهي» من أهم القضايا ذات الطابع الأخلاقي، والديني، والفلسفي في العقيدة الإسلامية. ومن المعروف أن هذه القضية شغلت عقول مفكري اليونان القديمة والمسيحية المبكرة. وكان من بين علماء المسلمين الذين حاولوا حل قضية حرية الإرادة الإمام أبو حامد الغزالي (١٠٥٥-١١١١) الفيلسوف الديني والفقهاء والعالم بالشرعية والصوفي الكبير.

تنحصر القضية بشكل عام في ثلاثة محاور رئيسية هي :

١. هل الإنسان حر في أفعاله؟
 ٢. كيفية التوفيق بين خضوع الإنسان لله في أفعاله، ومسئوليته الأخلاقية عنها؟
 ٣. كيف نفسر إرادة الله الخير لعباده على الأرض، وحضور الشرور عليها؟
- هذا ولم يرد في القرآن والسنة أهم مصدرين للعقيدة الإسلامية إجابة محددة على هذه الأسئلة. وأصبحت تلك القضايا منذ قيام الدولة العربية الإسلامية مادة للمجادل العنيف.

وجميع آيات القرآن المتعلقة بهذه القضية يمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات .

(*) نشر المقال في مجلد : الأدب الكلاسيكي للشرق .. موسكو : العلم هيئة التحرير الرئيسية للأدب الشرقي ١٩٧٢ . ص. ١١ - ٢٠ .

المجموعة الأولى : تتحدث عن التبعية الكاملة للإنسان في أفعاله الله . ونورد على سبيل المثال الآية (١٢٥/٦) : « فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ^١ » وكذلك الآية (١٠٠/١٠) « وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ^٢ . وتحدث عن الجبر الآية رقم (٩/١٦) « وَعَلَى اللَّهِ قَسْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ^٣ »، والآية (٣/٧٦) « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا^٤ » والآية (٥٢/٤) « أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا^٥ » .

المجموعة الثانية: من الآيات على النقيض من ذلك ، تؤكد على الحرية الكاملة للإنسان في أفعاله . ونورد على سبيل المثال الآية (٢٥/٣٨) : « إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ...^٦ . والآية (١٦ / ٤١) « وَأَمَّا تُمُودٌ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى^٧ . كما تنتمي لهذه المجموعة الآية (٨٦/١٧) « وَلَئِن شِئْنَا لَنُدْهِبَنَّ بِالَّذِي أُوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا^٨ والآية (٢٨/١٨) « وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ^٩ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا^{١٠} » والآية (١٠١/٤) « وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا^{١١} إِنْ الْكَافِرِينَ كَانُوا كَذِبًا^{١٢} » .

وتشير المجموعة الثالثة من الآيات إلى حتمية عقاب الله للإنسان على أعماله . ونورد على سبيل المثال : الآية (٥٣/٤) « أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا^{١٣} » . وتشمل هذه المجموعة أيضاً الآية (٤/١٢٣) « لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ^{١٤} مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا^{١٥} » والآية (٢٣/٦٤) « حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ^{١٦} . والآية (٤٥/٢١) « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ^{١٧} سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ^{١٨} » .

1- Аяты Корана в этой статье даны в переводе И.Ю . Крачковского (Коран, пер. И.Ю. Крачковского. – М.: Главная редакция восточной литературы издательства «Наука», 1963) .

مرتكب الكبيرة مخلد في النار. في حين وقف أكثر الفقهاء من أهل السنة والمحدثين موقفاً وسطاً، فأروا أن قول المرجئة بعفو الله عن المعاصي قد يطمع الفساق، فقررروا أن مرتكب الذنب يعذب بمقدار ما أذنب ولا يخلد في النار، وقد يعفو الله عنه. ويعرف هؤلاء بمرجئة السنة - المترجم).

أثيرت القضية في القرن الثاني الهجري بصورة حادة، وخاصة مع انتشار التعاليم المسيحية ونظريات الفلاسفة اليونانيين. ونشأ الجدل في الأساس بين الجبرية والقدرية (الجبرية عقيدة تقول إن أفعال الإنسان خيرها وشرها من الله، وأن نسبتها إلى العبد إنما هي على سبيل المجاز كقولنا جرى النهر، وإنما الذي أجراه حقيقة هو الله، فالإنسان في زعمهم كالريشة في مهب الريح. والقدرية هم أولئك الذين يعتقدون أن الإنسان صانع أفعاله وخالقها، خيرها وشرها، ولا دخل لقدرة الله فيها). ولهذا قيل إن الجبرية والقدرية متقابلتان (تقابل التضاد) - المترجم). وقد أكد الأولون أن الإنسان ليس حراً في أفعاله، استناداً إلى ما ورد في القرآن عن الجبر الإلهي وأنها كلها تتم بقدر الله. وقد عارضهم خصومهم فقالوا: لو أن أعمال الإنسان تفرض عليه بمشيئة الله، إذن فكيف يعاقب الله الإنسان على أعماله السيئة ويكافئه الله بالجنة على تقواه؟. وفي القرن الثامن نادت المعتزلة وهي إحدى الفرق الإسلامية بحرية الإرادة البشرية. وكان الجبريون في معظمهم من أتباع المذهب الحنبلي. ومن بين كل الجبريين اتخذ الجهميون (يقولون بالجبر ونفي الصفات الإلهية المترجم) الوضع المتطرف.

أكد «العلاج» الصوفي (المؤمن بوحدة الوجود) (٨٥٨-٩٢٢) وجود ظاهرتين هما: الأمر الأبدي بفعل الخير والإرادة التي خلقها الله، والتي تسمح للإنسان بفعل الشر. وبهذه الصورة يرسل الله الاختبار للإنسان. وقد سبق «العلاج» الأشعري المتوفى عام ٩٢٥ بهذا القول، والذي اتخذ موقفاً تصالحياً. ويرجع الفضل للأخير في إنشاء عقيدة فقهية جديدة للسنة وهي عقيدة الكسب. إفترض الأشعري كما لو أن الله يقدم للإنسان أن «يكسب» لنفسه عملاً من مجموعة الأعمال السيئة أو الحسنات وطبقاً لاختيار الإنسان يكافئه

الله أو يعاقبه، غير أن الأشعري لم يفهم أو يؤيد من قبل الفقهاء. طور أبو حامد الغزالي هذه الفكرة فيما بعد في مؤلفه ذي الأربعة أجزاء في العقيدة الإسلامية والمسمى (إحياء علوم الدين). ودخل مفهوم «الكسب» بعد ذلك في ترسانة الدفاع الديني للإسلام السني.

استرعى حل الغزالي لهذه المعضلة انتباه الباحثين المعاصرين وخاصة ج. بيننجس مؤلف مقالات «أوامر الله ومسئولية الإنسان». درس بيننجس مقتطفاً من فصل عن الرضا في الجزء الرابع من كتاب الغزالي، غير أن عقيدة الكسب لخصت بشكل كامل في «كتاب عن التوكل» من هذا الجزء. واستشهد «بيننجس» بباحث أوروبي آخر تناول هذه المشكلة وهو «الدكتور فل. باكر» في بحثه باللغة الهولندية «العلاقة بين القدرة الكلية لله، والمسئولية الأخلاقية للإنسان في الإسلام» الذي أحاط بشكل واضح بهذه القضية. لقد أوضح أن فقهاء الإسلام قد أحسوا بصعوبة هذه المشكلة، وسعوا للبحث عن دور للمسئولية الأخلاقية للإنسان. ولقد حاولوا أن يفعلوا ذلك عن طريق عقيدة الكسب، والتي وفقاً لها في نفس اللحظة التي يخلق الله فيها الفعل، يوافق الإنسان على فعل ذلك الفعل بنفسه أو يتجنبه. وهو بهذه الصورة يكون مسئولاً عن الفعل الذي أوجده الله في حقيقة الأمر. وقد ذكر الدكتور «باكر» أن الغزالي كان من بين هؤلاء الذين اتبعوا تلك النظرية. وربما يستند هذا إلى حقيقة أنه على الرغم من الإيمان الذي لا يتزعزع في قدر الله فإن الغزالي لا يرى تعارضاً بالبتة في محاولته إحياء دينه.³

3- A.Э. Шмидт отмечал трудность понимания рассуждений аль-Аш'ари, приводя арабскую поговорку, сравнивающую всякую темную, запутанную вещь с учением Аш'ари касб: «Ахфа мин касб аль-Аш'ари» – «Это более непонятно, чем Аш'ариев касб» (Шмидт, А.Э. Очерки ислама как религии/ А.Э. Шмидт// Мир ислама.–1912.– Т.1, 4. – С.579)

4- Pennings G. I.-God's decrees and man's responsibility /G. I . Pennings// The muslim World. – 1941. –№31. P. 23–24.

يقسم الغزالي في مؤلفه جميع أعمال الإنسان إلى ثلاث فئات من حيث طبيعتها: طبيعية، وإرادية، واختيارية⁵. الفئة الأولى تشمل الأفعال التي يكون باعثها القوانين الجسدية الحيوية، مثل الوقوع تحت تأثير قوة الجذب. والفئة الثانية هي الأفعال المنعكسة مثل (رمش الجفون). وفي كلتا الفئتين يؤكد الغزالي شيئاً مشتركاً، وهو ضرورة الفعل الذي لا يوجد منفصلاً عن رغبة الإنسان، والذي يأتي إليه من الأعلى. وهذه الضرورة يدركها الإنسان في الحالة الثانية فقط.

يؤكد الغزالي فيما بعد أن النوع الثالث من الفعل هو فعل اختياري بالإرادة الحرة، ويفعله الإنسان أيضاً بالجبر. وكمثال يسوق الغزالي عملية الكتابة. هذا الفعل مجرد حلقة في السلسلة السببية: المعرفة- الإرادة- القوة- الحركة. وعندما يتردد الإنسان ولا يعرف كيف يتصرف، فإنه ينتظر إشارة من العقل الذي يقرر ما هو الفعل الأكثر فائدة. ووجود مثل هذه السلسلة من الظواهر المتتابعة واحداً تلو الآخر، تميز الفئة الثالثة، حيث إن الفعل يحدث فقط بعد إشارة العقل ومن الثاني حين تعطي فائدة الفعل مسبقاً بدون تدخل من العقل.

هاجم الغزالي أولئك الذين يعتقدون أن مجيء العقل في مقدمة السلسلة: (العقل- المعرفة- الفعل) يكون السبب للفعل كمعبر عن الإرادة.

يسمي الغزالي حلقات هذه السلسلة «بالشروط»؛ لأن كل ظاهرة تنشأ فقط بعد أن تحدث السابقة عليها، ولكن يلاحظ أن العلاقة السببية بين الحلقات المتلاصقة لا توجد. كما لا يجوز القول إن الحياة تحصل من الجسم الذي هو شرط الحياة، وكذلك فيما يتعلق بعملية التسلسل⁶.

5- آل-غازالي. أبو حاميح، إِيْحْيا) <ولوم اء-ءنن/ آل-غازالي. كاير، 1939 – ٤.٤. – س. 196

6- قنن. سول. س. 193

يؤكد الغزالي على أن الله هو السبب الوحيد لأية ظاهرة . ولقد خلق الله مثل هذا النظام بحيث تحدث الظاهرة فقط في إثر الأخرى . ويشكل تسلسل الظواهر سلسلة الشروط .

ليس من الصعب أن نلاحظ أن كل انجاز الغزالي يتلخص في فكرتين:

أولاً : يوجد تتابع كوني لأي ظاهرة : النطفة- الحياة- العقل- المعرفة- الإرادة- القوة- الفعل- ولا يمكن لأية حلقة من هذه الحلقات أن تسبق ما قبلها . وطريق حدوث فعل الإنسان يبدأ من الحمل . وهذا الفعل طبقاً للأحاديث النبوية يحدث طبقاً للإرادة الإلهية :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف ملك الأرحام: « إنه يدخل في الرحم فيأخذ النطفة في يده ، ثم يصورها جسداً فيقول : يارب ! أذكر أم أنثى ، أسوي أم معوج ؟ فيقول الله ما شاء ويخلق الملاك...»^٧ . (نص الحديث كما ورد عن النبي (يَدْخُلُ الْمَلِكُ عَلَى النَّطْفَةِ بَعْدَمَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحْمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فيقول: أَي رَبِّ شَقِيٍّ أَمْ سَعِيدٍ؟ فيقول الله، وَيَكْتُبُ، ثُمَّ يَقُولُ: أَي رَبِّ أَذْكَرَ أَمْ أَنْثَى؟ فيقول الله، وَيَكْتُبُ، ثُمَّ يَكْتُبُ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَأَثَرَهُ، ثُمَّ تَطْوَى الصُّحُفُ فَلَا يَزَادُ فِيهَا وَلَا يُنْتَقَصُ» في الحديث ليس هناك ذكر؛ لأن الملك يخلق وإنما يكتب فقط - المترجم).

ثانياً : في توالي هذه الظواهر - الشروط- لا يكون أي منها سبباً لظهور الآخر، ولكن كل منها مرتبط ارتباطاً مباشراً بالله .

بهذه الصورة يرى الغزالي- في كل هذا- سبباً واحداً وهو الله . وفي نظريته«علاقة الشروط» هي فقط تتابع كل ظاهرة وراء الأخرى ، والتي تفسر على أنها فقط نظام ارتضاه الله . ويؤكد الغزالي أن كل شيء ينشأ بإرادة الله . وأما الظاهرة التي يعتبر « الجهلاء » أنها أوجدت الأخرى ، فإنها تكون شرطاً فقط «أوجبه» الله لكي يسير كل شيء حسب النظام « :

فإن قلت فهل تقول أن العلم ولد الإرادة ، والإرادة ولدت القدرة ، والقدرة ولدت الحركة ، وإن كل متأخر حدث من المتقدم فإن قلت ذلك ، فقد حكمت بحدوث شئ خارج قدرة الله . وإن أبيت ذلك فما معنى توالد البعض من ذلك من البعض؟ واعلم أن القول إن بعض ذلك نتج عن قدر من الجهل المحض سواء عبر عنه بالتولد، أو بغيره بل إحالة جميع ذلك على المعنى الذي يعبر عنه بالقدرة الأزلية»⁸.

يسوق الغزالي هذا المثل، ليثبت أن التابع الطبيعي للظواهر يجسد النظام الشرطي الذي أنشأه الله : « وذلك بأن نفترض أن إنساناً جنباً قد انغمس في الماء حتى رقبته ، فالجنابة لا تزال أعضائه ، وإن كان الماء هو الطهور ، وهو ملاق له ، فقدر القدرة الأزلية حاضرة ملاقية للمقدورات متعلقة بها ، ملاقة الماء للأعضاء ، ولكن لا يحصل بها المقدور ، كما لا يحصل رفع الحدث بالماء ، انتظاراً للشرط وهو غسل الوجه . فإذا وضع الواقف في الماء وجهه على الماء ، عمل الماء في سائر أعضائه وارتفع الحدث . فربما يظن جاهل أن الحدث ارتفع عن اليدين برفعه عن الوجه؛ لأنه حدث عقبه . اذ يقول كان الماء ملاقياً ، ولم يكن رافعاً . والماء لم يتغير عما كان فكيف حصل منة مالم يحصل من قبل ؟ بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه . إذن غسل الوجه هو الرفع للحدث عن اليدين . وهو جهل يضاهي ظن من يظن أن الحركة تحدث بالقدرة ، والقدرة بالإرادة ، والإرادة بالعلم . وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه يرتفع الحدث عن اليد بالماء الملاقي لها ، لا بغسل الوجه والماء لم يتغير واليد لم تتغير ولم يحدث فيهما شيء ، ولكن حدث وجود الشرط فظهر أثر العلة . فهكذا ينبغي أن نفهم صدور المقدورات عن القوة الأزلية بالرغم من أن القدرة قديمة والمقدورات حادثة»⁹.

8- Цит. Соч. С. 197

9- Цит. Соч. С. 197–198

فى المقتطف الذى أوردناه فإن كلمة صدور إقتبسها الغزالى من التعاليم الصوفية عن صدور كل الموجودات من الله. وأن تأثير الصوفية على الغزالى لم يقتصر على المصطلحات المقتبسة، ولكنه استخدم فكرة الصدور نفسها. فحدث كل ظاهرة يرجعها الغزالى إلى مصدر واحد وهو إرادة الله معجباً ببيت الشعر الذى قاله لييد:

« أَلْ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ »

يطور الغزالى فيما بعد هذه الفكرة فيقول:

من الممكن أن تقول : كيف أن حدثاً واحداً يمكن أن يقوم به فاعلان؟ « فأقول نعم ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد، وإن كان له معنيان ويكون الاسم مجملاً مردداً بينهما لم يتناقض كما يقال: قتل الأمير فلاناً، ويقال: قتله الجلال، ولكن الأمير قاتل بمعنى، والجلاد قاتل بمعنى آخر، فكذلك العبد فاعل بمعنى والله عز وجل فاعل بمعنى آخر، فمعنى كون الله فاعلاً أنه الخالق الموجد، ومعنى كون العبد فاعلاً أنه المحل الذى خلق فيه القدرة، بعد أن خلق فيه الإرادة، بعد أن خلق فيه العلم، فارتبطت فيه القدرة بالإرادة والحركة بالقدرة، ارتباط الشرط بالمشروط، وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلول بالعلة وارتباط المخلوق بالخالق¹.

هكذا فإن الفعل الذى يقوم به الله يمكن أن ينسب كذلك للناس. فى هذه الحالة فإن الإنسان ليس خالقاً ولكن « شرطاً » للفعل. وهذا الذى يفسره الغزالى يعد أحد أحوال القرآن الغير المفهومة وهو إسناد نفس الأفعال مرة إلى لله ومرة إلى الملائكة ومرة إلى العباد.

يستخدم الغزالى مفهوم الكسب فيما يتعلق بأفعال الشخص، ولتعلييل مفهومه عن القدر الإلهي يقول: « فإذن معنى كونه مجبوراً أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لا منه، ومعنى كونه مختاراً أنه محل لإرادة حدثت فيه

جبراً بعد حكم العقل ، يكون الفعل خيراً محضاً موافقاً ، وحدث الحكم أيضاً جبراً. فإذا هو مجبور على الاختيار. ففعل النار في الإحراق مثلاً جبر محض ، وفعل الله تعالى اختياراً محضاً. وفعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين فإنه جبر على الاختيار، فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة؛ لأنه لما كان فناً ثالثاً وانتموا فيه بكتاب الله تعالى، فسموه كسباً وليس مناقضاً للجبر ولا للاختيار. بل هو جامع بينهما عند من فهمه «¹¹».

ترتبط نظرية الرضا التي تجمع بين تأكيد القضاء والقدر، وإرجاع كل فعل لله مع الاعتراف بالمسئولية الأخلاقية للإنسان على أفعاله بعقيدة الكسب .

حاول الغزالي في باب الرضا أن يربط فكرة خيرية الله ، مع فكرة ضرورة وجود الأشياء السيئة لاختبار الناس. يقول الغزالي إن كل شيء يحدث « بقدر الله » بما في ذلك الذنوب. ولكن إذا كانت الذنوب تحدث بإرادة الخالق فكيف إذن يطلب من الناس إدانة الذنب وكراهية الآخر؟ ذلك أن إدانة الذنب ستكون إدانة لقدرة الله. وحينئذ كيف نطلب الرضا بقضاء الله الذي يعد واحداً من مراحل الطريق لمعرفة الله؟ وكيف نجتمع - كما يسأل الغزالي - المناقضين لبعضهما البعض الحب والكراهة؟ « فاعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم. وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكر مقاماً من مقامات الرضا، وسموه حسن الخلق. وهو جهل محض بل نقول الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد. فليس من التضاد في شيء واحد أن يكرهه من وجه ويرضى به من وجه. إذ قد يموت عدوك الذي هو أيضاً عدو بعض أعدائك، وساع في إهلاكه فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك، وترضاه من حيث إنه مات عدوك »¹².

11- Цит. Соч. С. 197

12- Цит. Соч. С. 275

يوضح الغزالي أنه إذا كان الله يختبر الإنسان دافعاً إياه نحو الذنب ، فكيف يعلم فقط هل سيفعل هذا الشخص الذنب أم لا ؟ وكيف سيكون رد فعل الناس تجاه هذا الذنب إذا قام به العبد ؟ والله يعلم هل يحبون ذلك أم لا ؟ يعترف الغزالي بهذه الصورة بطلاقة القضاء والقدر حين يحل قضية حرية الإرادة والقدر الإلهي ، ويؤكد أن كل فعل للإنسان يتم بإرادة الله .

يتحمل الإنسان في نفس الوقت المسؤولية على أفعاله ؛ لأن الله يختبره ويمنحه حرية اختيار فعل ذلك الفعل أو غيره . ويطلب الغزالي من الإنسان رفض فعل السيئات ، والأفعال التي لا ترضي الله وإدانة تلك الأفعال إذا فعلها أناس آخرون . وإدانة الفعل السيئ لا يعني أن تكون ضد الله الذي فعله بإرادته ؛ لأن الهدف من الأشياء السيئة على الأرض هو اختبار الإنسان . والقرآن والسنة هما من يحددان صحة هذا الفعل من عدمه . لإثبات هذه الأفكار يقتبس الغزالي من الأشعري ، ثم يطور فكرة كسب الإنسان لأفعاله التي أوجدها الله .

obeikan.com

المفهوم التقليدي «للخاصة» و «العامة»

في الثقافة العربية الإسلامية (*)

إن الدرجة العالية لاستمرارية ورسوخ الأفكار التقليدية، في الثقافة العربية والإسلامية على امتداد أربعة عشر قرناً، أدت إلى أن المفاهيم المختلفة التي تنتمي إلى عصور مختلفة بدءاً من العصور الوسطى المبكرة إلى وقتنا الحاضر كانت غالباً ترتكز على عناصر نظرية، ومكونات هيكلية عامة. ونذكر من بينها التقسيم التقليدي في الثقافة العربية والإسلامية للمجتمع إلى «العامة» و «الخاصة». وفي الشكل العام، فإن جوهر هذا التقسيم يقتصر على فكرة الصفة، والاعتراف بتفوق مجموعة محدودة من الناس مختارة من الله، أو موهوبة بالفطرة على عامة الناس. وهي فكرة متعارضة مع المفهوم الإسلامي المتمثل في المساواة التامة بين الناس. ووجود هذا المفهوم مرتبط بالمصطلحات المستخدمة من قبل الكتاب العرب المختلفين الخاصة (وجمعها خواص)، والعامة (وجمعها العوام). وهذان المصطلحان يوجدان في وحدة متلاحمة، وهما في كل مكان متضادان، وهذا ما تتصف به النظم الاصطلاحية للعصور الوسطى العربية.

وفي الوسط العربي والإسلامي الوليد، تتحدد مكانة الإنسان عن طريق المعايير الدينية وشجرة النسب. وكانت المعايير الدينية الأساسية هي الدين (المسلمون وأهل الكتاب، أي النصارى واليهود والمشركون إلى آخره)، وزمن اعتناق الإسلام (على سبيل المثال كان لصحابة محمد أي سكان مكة والمدينة، أول من اعتنقوا الإسلام مكانة خاصة).

(*) نشر المقال في مجلد: الإسلام في تاريخ شعوب الشرق، موسكو: دار نشر ناؤوكا (العلم)،

والمعايير الرئيسية للنسب هي الانتماء إلى مجموعة عرقية معينة (كالاختلاف بين المسلمين العرب والمسلمين من الشعوب الخاضعة) والانتماء إلى قبيلة عربية معينة أو جنس معين (كان الاختلاف في مكانتهم). ويمكن الإشارة على وجه الخصوص إلى ظهور طائفة الأسياد أو الأشراف أي ذرية النبي محمد .

وفي إطار المجتمع الطبقي العربي والإسلامي القائم ، برزت فئتان أساسيتان هما : الخاصة والعامة ، واللذان يختلف توصيفهما عند الكُتاب المختلفين. والتقسيم إلى خاصة وعامة يعد كما لو أنه المبدأ الرئيس لكل تقسيم. ويفترض « م. بيج » أنه في هذا التقسيم تعرض العرب لتأثير الساسانيين وربما اليونانيين، ولكن لأول مرة « بفضل عقليتهم الأرسطراطية قام العرب بالذات بهذا التقسيم الثنائي»¹³. ويعد عبد الله بن المقفع (٧٢١ - ٧٥٧) من أوائل الكُتاب العرب الذين تكلموا عن الخاصة والعامة ، حيث أن الخاصة في رأيه (في أحد معانيها) هم الشرفاء والوجهاء من الناس، أما العامة فهم بقية الناس . وبعبارة أخرى إن معايير التقسيم عند ابن المقفع إلى « خاصة » و« عامة » هو تقسيم اجتماعي محض . وحدث فيما بعد لهذا التقسيم الثنائي تطور جديد في العهدين المملوكي والعثماني. ويجوار هذا التقسيم إلى « خاصة » و« عامة » ظهر أيضاً شيء آخر في العصور الوسطى المبكرة ، واستمر قروناً عديدة. وفي هذا المعنى تعني الخاصة : إما طائفة الناس المقربة للكاتب الذي يكتب عن ذلك ، أي هؤلاء الناس المحيطين به بطريقة مباشرة ، وإما طائفة الناس المحيطين بالحكام وحاشيتهم . وفي كلتا الحالتين، فإن العامة هم بقية الناس . والخاصة في المعنى الأول نجدها أيضاً عند « ابن المقفع ». وفي المعنى الثاني تعني الخاصة أولئك الناس الأكثر قرباً من الخلفاء والسلاطين ، وفي هذا المعنى تستخدم الكلمة عند الغالبية

13- Beg, M. A. J. Al- kassa/ M.A.J. Beg. – Encyclopaedie de l'Islam, 1978. T. IV

العظمى من الكتاب¹⁴. في هذا الصدد تعد موسوعة «صبح الأعشى» لأحمد القلقشندي (١٣٥٥-١٤١٨) الأكثر وضوحاً. ويحصى كاتب هذه الموسوعة الشهيرة في وصفه لمصر الفاطمية على وجه الخصوص - فئات الناس الآتية: حاملو السيف، (أي الجيش: ١- الأمراء، ٢- الخواص (في هذه الحالة حاشية الخليفة)، ٣- حاشيات الخلفاء السابقين (يطلق عليهم كلمة أخرى)¹⁵. وإذا يصف «أصحاب الوظائف» يقوم القلقشندي بجعل المقابل لخواص الخليفة عامة الجند. ومن بين وظائف الحاشية التي شغلها كبار الوجهاء من خواص الخليفة، كانت تلك الوظائف الفخرية مثل: المحافظ على عمارة الخليفة، ورئيس العرش وحامل الرسائل، والقائم بأمر القصور، والقائم بأمر الخزينة، ورئيس الديوان، وحامل الدواة، والقائم بأمر الأقارب، والقائم على المطبخ¹⁶.

وانتشر بين الكتاب المسلمين أيضاً تقسيم الناس إلى خاصة وعمامة على أساس المعيار الديني، أي درجة التمكن من العقيدة. وفي هذا المعنى كان الاستخدام الأكثر وضوحاً لهذه المصطلحات من قبل «أبو حامد الغزالي» (١٠٥٩-١١١١) في مؤلفه الرئيس «إحياء علوم الدين»¹⁷، فهي توجد عنده بكثرة جداً. وهنا الخاصة هي النخبة الدينية، أي أولئك الذين يفهون الدين بعمق، والموهوبين بالفطرة، أما العمامة فهم بسطاء الناس الذين لا يرون في الدين الإقشرتة الخارجية فقط. وعند الفلاسفة العرب الذين اقتبسوا أفكار الأرسطية والأفلاطونية الحديثة، وليس لهم اتجاه فقهي، توجد أيضاً مفاهيم مشابهة، ومن ثم فقد خاضوا على امتداد العصور الوسطى جداً مع علماء الدين المسلمين أي المتكلمين. وفي معرض حديثه «عن أربعة

14- Упоминание некоторых из них см. в: Beg, M.A.J. Op. cit

15- аль-Калкашанди, Ахмад Субх аль-А>ша. Дж. 114- / Ахмад аль-Калканди. – Каир, 19191919- – Т. 3. –С. 481482-; перевод отрывка см. в: Семенова, Л.А. Из истории Фатимидского Египта/ Л.А. Семенова. – М., 1974 – С. 198199-

16- Аль-Калкашанди. Субх аль-А>ша. – С. 484-485

17- Абу Хāмид аль-Газали. Ихйа <улум ад-дин. Дж. 1-4 / Абу Хāмид аль-Газали. – Каир, 1957

أصناف للمناهج» في الدين ذكر «بن رشد» (١١٢٦ - ١١٩٨) «الصف الرابع حين تكون مقدماته مشهورة أو مظنونة من غير أن يعرض لها أن تكون يقينية، وتكون نتائجها أمثلة لما قصد إنتاجه. هذه فرض الخواص فيها تأويل وفرض الجمهور إقرارها وامرارها على ظاهرها^{١٨}. وإذا يوضع بن رشد الخاصة مضاد للعامة، فإنه يستخدم نفس هذين المصطلحين: الخاصة والعامة. وسعى أنصار مفهوم «الخاصة» بشكل أو بآخر، إلى ربطها بالعتيدة لنبوة النبي محمد.

ويمكن أن تتمثل في فكرة «الإرشاد» (مرشد عند المتصوفة وإمام عند الشيعة وشيخ وأتابك إلى آخره) وقد تواجدت فكرة ان لكل قرن في الإسلام «نبيه» ومجده في مجال الدين. واعتبر السبكي مؤرخ العصور الوسطى أن الغزالي يعد ذلك الرجل في القرن الخامس الهجري^{١٩}. وقال الصوفي الأندلسي الشهير محي الدين بن عربي (١١٦٥ - ١٢٤٠).

ولكل عصر واحد يسمو به

وأنا لباقي العصر ذاك الواحد

وقد تطورت بشكل تدريجي فكرة وجود شخص يكون أعلى من الآخرين، وبالتالي يكون قريباً من الله، وخاصة في تعاليم المدرستين الصوفية والشيعية. وخلافاً للعامة، فإن الخاصة أعطيت قدرات خاصة، وأحياناً فوق العادة. ولم تستغن المذاهب الباطنية عن التقسيم إلى خاصة وعامة. ومن ضمن المعايير في هذه الحالة كانت درجة «القرب من الله» والقدرة على فهم النص المقدس بطريقة أو بأخرى، ومعرفة أو عدم معرفة «الأسرار» الصوفية إلخ. وما يستطيع أن يفهمه الخاصة غير متاح للعامة. وفي رأي «أبي حامد الغزالي»،

18 - ابن رشد. كتاب فاسو فاسل الـمـاـكـل/ ابن رشد. - بيروت، 1961. - ص. 6465-.

19 - سوبكي. Табагат аш-шафии'я. Дж. 1-6/ Сوبكي. - Каир, 1905-1906. - Т. 4. - С.101.

فإن الأنبياء والأولياء لكي يكونوا مفهومين للعامّة ينبغي عليهم النزول إليهم والتحدث بلغتهم. وفي إطار هذا التضاد تأسس فعلياً مذهب «التقية» الشيعي الذي يسمح بالكذب الظاهري مع ثبات الاعتقاد الداخلي.

كان يوجد لدى المتصوفة المسلمين درجات مختلفة للاطلاع على «الأسرار الإلهية». وكان «وريث النبي محمد» هو الحائز لأعلى درجة من المعرفة عند متصوفة العصور الوسطى وما يطلق عليه «القطب» عند الطرق الصوفية اللاحقة.

وكان الأولياء أي «القريبين من الله» مثل طبقة «القدسين» هم أقرب ما يكونوا إلى الخاصة، وهي طائفة لم تكن معروفة سابقاً في العالم الإسلامي». وتوجد ثمة أدلة مباشرة على أن «الخواص» هم الأولياء في مؤلفات كثير من المتصوفة المسلمين.

وتوجد هذه الأفكار عند الصوفي الفارسي المتأخر «عبد الكريم الجيلاني» (٦٦ / ١٣٦٥ - ١٤٠٦ أو ١٤١٧) مؤلف الكتاب الشهير «الإنسان الكامل» متضمنة في عقيدة الإنسان الكامل. وكتب الباحث الشهير في التصوف الإسلامي «ر. نيكلسون»: ماذا يقصد المتصوفة عندما ينطقون عبارة «الإنسان الكامل» الذي استخدمها لأول مرة ابن عربي؟ ... من الممكن أن نصف «الإنسان الكامل» على أنه ذلك الشخص الذي يدرك تماماً اتحاده مع الكيان الإلهي على الهيئة التي خلق عليها.. وهذه التجربة المعلومة من البداية للأنبياء والأولياء، والمذكورة بطريقة مبهمّة في الرموز أمام الآخرين، تعد أساس الشيوصوفية (النظرية الصوفية)، لذلك فإن طبقة «الإنسان الكامل» لا تشمل فقط الأنبياء من لدن آدم إلى محمد، ولكن «خواص الخواص»، من بين المتصوفة، أي أولئك الذين يطلق عليهم الأولياء.. والولى أو القديس يعد النمط العام «للإنسان الكامل»^{٢٠}.

20 - Nicholson, R. A. Studies in Islamic Mysticism / R. A. Nicholson.- Cambridge, 1921 - P. 77 -78.

يرتبط المفهوم الأكثر أهمية في تعاليم المسلمين «الخاص والعام» ارتباطاً وثيقاً «بالباطن» و«الظاهر». وفي رأي «هودجسون» يمكن وصف الباطنيين، وهي إحدى الطوائف الإسلامية، بأربعة مفاهيم أساسية: الباطن، والتأويل، والخاص-العام، والتقنية²¹. ولا يمكن للعامة أن تفهم المعنى الخفي والعميق لكلام «الباطن» فهو متاح فقط للخاصة. لذلك وطبقاً لمذهب المسلمين فإن «التأويل» (أي استخلاص المعنى الخفي من المعنى الظاهر) لا يقل أهمية عن التنزيل (الوحي المنزل للنص المقدس على النبي محمد)، والتفسير (بيان تعاليم الدين)، ويؤدي وظيفة لا تقل أهمية عن الرسول نفسه، ففي عصر النبي محمد كان هذا الشخص كما اعتقد المسلمون هو علي الذي كان يخص الخاصة «بتأويله».

يؤكد الظاهريون المعارضون للباطنيين، وهم أنصار الفهم الحرفي للنصوص المقدسة، والرافضون لوجود معنى خفي للكلمات على سهولة الفهم للنصوص المقدسة من الكافة. يقول محمود الغريب - الباحث العربي الحديث لابن عربي - عن الشكل الخاص للظاهرية المميز للمتصوف الأندلسي، الذي لا يستبعد وجود أسرار صوفية غيبية في منظومته، ولكن ينفي وجود معنى باطني على أساس المدلول الثنائي للكلمات. ويؤكد أن الرسائل سهلة الفهم لابن عربي «يفهمها الخاصة والعامة»²².

من الواضح جداً أن كل توجه إلى «الخاصة» في التيارات الفكرية المختلفة، من جانب طبقة المثقفين المسلمين، كان حجة للهجوم من جانب أعداء النظريات المماثلة. وهكذا فطبقاً لملاحظة «هودجسون» فإن أهل السنة أطلقوا على كل من ذهب بعيداً عن التفسير الحرفي للنصوص الباطنية.

21 - Hodgson, M. G. S. Al-Batiniya / G.S. Hodgson. – Encyclopaedia de l'Islam, 1964. –T.I.

22 - .Махмуд аль Гарраб. Предисловие к кн.: мухи ад-Дин ибн аль-Араби. Рисалат аль-кудс фи мухасабат ан-нафс. – Дамаск, 1964. – С. 119.

وأطلق العالم الديني السني ابن تيمية (١٢٦٣ - ١٣٢٨) هذا الوصف ينطبق على المتصوفة والفلاسفة ، وبخاصة « بن رشد » . ولم يطرحوا فكرة عدم المساواة ، وإنما فكرة القيد الفكري الشامل الحسي والمرضى والإيمان

اللامحدود في العقيدة كبديل للباطنية والخاصة. وليس من قبيل المصادفة أن الباحث الحديث « فريد جبرا » قدم صيغة غير مقنعة عن أن الغزالي كتب «تهافت الفلاسفة» ليس ضد الفلاسفة وإنما ضد الباطنيين^{٢٣} .

نستطيع أن نجد فكرة المساواة ، وكذلك القيد - فقط - عند المعتزلة الذين اعتبروا على سبيل المثال كل المسلمين « مقربون من الله » وليس فقط «المختارين» الأولياء ، ولم يعترفوا لهم بقدرات فعل المعجزات^{٢٤} .

من بين معايير التقسيم إلى « خاصة » و « عامة » ، كانت هناك أيضاً المعايير العقلية .. وطبقاً لفكرة النخبة العقلية الموجودة لدى مفكرى العصور الوسطى العربية مختلفى التوجهات، فإن الغالبية العامة من الناس جهلاء ، وإن القادرين فقط على التفكير هم النخبويين (المختارين) . وكما كتب المستشرق الأمريكي «فرانز روزينثال» « على الرغم من أنه قد اعتبر أن العقل يعد السمة المميزة للإنسان ، وأنه نشط بقوة كامنة في كل شخص ، فإن الغالبية على الأرجح شاركوا بن حزم وجهة نظره في أن الناس فى الغالب أغبياء ، وأن عدد المفكرين من الناس قليل»^{٢٥} .

23 - Jabre, Farid. Al-Ghazali / Farid Jabre // MJDE. -.1954.- T . I – P. 73 – 102.

24 - Мец. Адам. Мусульманский ренессанс/ Адам Мец. – М., 1966. – С.239; Амин, Ахмад. Зухр аль-ислам. Дж. 14-/ Ахмад Амин. – Каир, 1959. – Т. 4. – С.20

25 - Роузентал, Франц. Торжество знания/ Франц Роузентал. – 1978. – С.300.

وقد كتب العالم العربي المعاصر « بدري فهد»^{٢٦} عن مطابقة العامة أو بسطاء الناس للغالبية الجاهلة والغبية في العصور الوسطى . وبهذه الصورة فمن حيث المعايير العقلية، فإن العلماء ينتمون إلى الخاصة ، ومن حيث المعايير الاجتماعية، فلها تنتمي الطبقة الحاكمة، والعلماء في هذه الحالة يصيروا وسطاء بين الطبقة الحاكمة والعامة . ويشير إلى الحالة الأخيرة «جورج مقدسي» المتخصص الأمريكي المعاصر الشهير في الدراسات الإسلامية. كتب جورج مقدسي : « سيطر العلماء تماماً على نظام التعليم. فقد كانوا ينتمون إلى أحد أنظمة أو مدارس القانون ، وبشكل عام إلى إحدى الحركات الاجتماعية الدينية (المعتزلة والأشعرية والحنابلة إلى آخره). وقد كان الخلفاء والسلاطين والوزراء وأصحاب الثروة والسلطة والنفوذ يحتاجون إلى دعمهم على الساحة السياسية . وهؤلاء الناس كانوا الذخائر التي أنشأت صناديق لإنشاء المؤسسات التعليمية بوصفهم أفراداً ، حيث إن كل مسلم يمكنه أن ينيء وقفاً . ولقد كانوا يلزمون المؤسسات التعليمية بتوجهات هذا العالم أو ذاك . وكان هو في مقابل ذلك، يضمن لهم دعم تابعيه من العامة»^{٢٧} .

لم يكن هناك فيلسوف مسلم في العصور الوسطى بعيداً عن الباطنية. ولم يفلح كلا المعسكرين (الفلاسفة العرب والمتكلمين) من الابتعاد عن المقياس الذي به كان يتم تقسيم الناس إلى مجموعات ، وتصنيفهم على حسب درجات الكمال ، إما الكمال في الإيمان أو الكمال في العقل. وهذا التصنيف كان يحمل طابعاً أكسيولوجياً (الأكسيولوجيا/ مبحث القيم والمراد به البحث في طبيعة القيم وأصنافها ومعاييرها). وكانت الأسطورة التي أوردها الطبيب العربي الشهير في العصور الوسطى في القرن الثالث عشر بن أبي أصيبعة مؤلف سير عظماء ذلك الزمان مميزة.

26 - Фахд, Бадри. Ал-амма би Багдад фи-л карн аль-хамис/ Бадри Фахд. – Багдад, 1967.

27- Makdisi, George. – Law and Traditionalism in the Institutions of Learning of Medieval Islam / George Makdisi // Theology and Law in Islam. – Wiesbaden, 1971 – P. 807.

يوضح بن أصيبعة السبب الذي حفز الخليفة المأمون للتوسع في ترجمة كتب الأقدمين إلى اللغة العربية فيذكر أن الخليفة رأى أرسطو في المنام ، وسأله : « ما الحسن ؟ » قال : « ما حسن في الشرع » ، وسأله : « ثم ماذا ؟ » قال : « ما حسن عند الجمهور » ، وسأله : « ثم ماذا ؟ » قال : « ثم لاثم » (أول ما قال أرسطو في الإجابة على هذا السؤال: « ما حسن في العقل ثم بقية الاستشهاد الذي أورده الكاتب - المترجم) .

ويوجد لدى المفكرين العرب والمسلمين من مختلف الاتجاهات التقسيم الثنائي : رأي العامة ورأي « النخبة » أو الفلاسفة. وبصفة خاصة فقد كتب « الفارابي » في الخريطة الاجتماعية التي احتل فيها التقسيم الثنائي للخاصة والعامة مكاناً كبيراً : « ... تطبق أساليب الاقتناع والتصورات الناشئة في الخيال فقط أثناء تعليم العامة وبسطاء الناس ... وتستخدم الأدلة اليقينية أثناء الوصول إلى أهم حقائق الأشياء ، عن طريق العقل في تعليم أولئك الذين يمكنهم الدخول في عداد الصفوة »²⁸ .

أكد بن الطفيل أهمية وجهة نظر « أبي حامد الغزالي » الذي كان يوقن أن الرأي يمكن أن يكون على ثلاثة أنواع : رأي يشبه رأي العامة ، ورأي يتفق مع ذلك الذي يسوقونه لكل سائل يبحث عن الطريق الحق ، وأخيراً رأي يعلمه فقط الإنسان وروحه ، والذي ينكشف فقط لمعتقداته الملتحمة معه²⁹ . والرأي الثاني ينسبه الغزالي في « المنقذ من الضلال » للمتكلمين ، وفي « القسطاس المستقيم » ينسبه « للجديين » . ويكشف « كتاب فصل المقال » لابن رشد عن بعض التشابه مع التقسيم المذكور آنفاً . فالفيلسوف يتكلم عن ثلاثة أصناف من الناس ، طبقاً لعلاقتهم بالشريعة الإسلامية .

28 - .Аль-Фараби. Социально-этические трактаты / Аль-Фараби. – Алма-Ата, 1975. – С. 334.

29 - Ибн Туфейль. Повесть о Хайе ибн Якзане/ Ибн Туфейль. – М., 1978. – С.40.

هؤلاء هم :

١. صنف ليس من أهل التأويل أصلاً ، وهم طبقة البلاغة والبيان ، وهؤلاء الناس يشكلون الغالبية وهم العامة.

٢. وصنف من أهل التأويل الجدلي ، وهؤلاء هم الجدليون بالفطرة فقط ، أو بالفطرة والعادة .

٣. وصنف من أهل التأويل اليقيني ، وهؤلاء هم البرهانيون بالطبع والصناعة^{٣٠} .

والتأويل وفقاً « لابن رشد » متاح للنخبة العقلية فقط ، والناس غير القادرين « خطابياً » على التأويل هم العامة .

تطورت هذه الأفكار في الثقافة العربية والإسلامية حتى العصر الحديث. بيد أنه، في الزمن المتأخر من العصور الوسطى استخدم مفهوم الخاصة والعامة في الأساس للإشارة إلى التقسيم الاجتماعي المرتبط بمعايير اجتماعية واقتصادية بحتة. وفي العهد المملوكي قسم المؤرخون العرب المجتمع إلى خاصة أي الوجهاء، وعامة أي الجماهير والرعا ع.

وأشار المستشرق الأمريكي « آيرا لا بيدوس » في معرض تحليله للمصادر الخاصة بسوريا قبل العهد العثماني إلى أن طبقة الصفة كانت تضم فقط النخبة العسكرية المملوكية، وكانت طبقة الأعيان المحلية تشغل المكان الأوسط بين الممالك والجماهير العامة^{٣١}. وهكذا فهنا كما في الحالة التي وصفها المقدسي تقع طبقة الوسطاء بين خط التقسيم الثنائي. ومثال تقسيم المجتمع إلى خاصة وعامة (مثل الحالة الاسمية للبنية الاجتماعية للمجتمع) نجده في المدونات التاريخية السورية في القرن الثامن عشر التي كتبها الحلاق الدمشقي أحمد البديري ، حيث الخاصة (وجهاء الناس) تقابل العامة (الجماهير). وكتبت « إي . م . سميليانسكايا » التالي : « عندما أراد كتاب القرن الثامن عشر (أمثال البديري والمرادى) التأكيد على أنهم يتكلمون

30 - Ибн Рушд. Цит. Соч. С. 6.

31 - Lapidus, I. M. Muslim Cities in the Later Middle Ages / I.M.

Lapidus – Ca – bridge (Mass), 1967. – P. 8.

عن المجتمع بالكلية فإنهم لجأوا إلى مقارنة فئاته المتضادة ، عليّة القوم ، والأشراف ، والدهماء وعامة الشعب³². وجدير بالذكر أن البديري أشار في بعض الأحوال بصفة خاصة إلى العلماء بالإضافة إلى الخاصة والعامة : « لقد كان منصفاً للأشراف والعوام ، وقام بعمل الخير للعلماء والفقراء»³³. وهذا يتوافق مع تقليد اعتبار العلماء وسطاء . ويستخدم البديري مفهوم « العامة» لوصف (جمهور) المدينة أي فقراء المدن الذين يقومون بمناوئة السلطة. وفي عهد الخلافة في الأحوال المماثلة تم استخدام مصطلحات العيارون والفتيان³⁴. وتشير « إى . م . سميليانسكيا » إلى أنه في سوريا العثمانية اختلف الوضع عن العصر المملوكي :

دخل الأعيان المحليون في عداد الخاصة ، واشتركوا في الحكم ، وبالتالي فإن استنتاج « لا بيدوس » للحقبة العثمانية لم يعد صالحاً³⁵. وطبقاً لرأى المؤلف، فإن هذ أوضح الدرجة الدقيقة جداً للحدود الاجتماعية . ومن المرجح أن هذه الحالة بالذات توضح أنه في العصر الوسيط المتأخر، كان التقسيم إلى خاصة وعامة تحدده في المقام الأول المعايير الاجتماعية . والتقسيم إلى خاصة وعامة على أساس المعايير الاجتماعية ظهر عند كُتاب القرن التاسع عشر ، وخاصة عند حسين المرصفي³⁶ ، غير أن فكرة النخبة العقلية بقيت وتطورت في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، واقرنت بفكرة معادة المذهب العقلي من قبل « العامة» المسلمة . وبرزت قضية نزاع الجماهير المؤمنة، وعلم الفلسفة الإسلامية في نهاية القرن التاسع عشر والقرن العشرين من

32 - Смилянская, И.М. Социально-экономическая структура стран Ближнего Востока на рубеже нового времени / И.М. Смилянская. – М., 1797. – . 147.

33 - Цит. по: Смилянская, И.М. Цит. соч. С. 148.

34 - См.: Cahen, Cl. Mouvements populaire et autonomisme urbain dans l'Asie Musulmane du moyen âge/ Cl. Cahen. – Arabica. – 1958. T.I, Fasc. 3. .P. 225- 250; 1959. – T.VI, Fasc. 3. P. 233 – 260.

35 - Смилянская, И.М. Цит. соч. С. 151.

36 - Хусайн аль-Марсафи, Рисалат ал-калимат ас-самани / Хусайн аль-Марсафи. – Каир, 1881.

قبل قيادات الحركة الإصلاحية في الإسلام. ومن المرجح أن هذه القضية عكست الاتجاهات التنويرية لهؤلاء الأشخاص، الذين عارضوا جهل «العامة». وفى عام ١٩٠٢م قام «فرح أنطون» في مجلة «الجامعة» بنشر ملخص الآراء الفلسفية «لابن رشد» طبقاً لـ «إي.رنان» مذكراً بقضية اضطهاده في الأندلس الإسلامية. وقد كتب محمد عبده معلقاً على هذا الملخص أن الإسلام يدعو إلى الحرية الكاملة للأراء، ولا يعارض الفلسفة، وعلى أية حال، فاضطهاد الفلسفة والفلاسفة ترسخ أكثر في العالم المسيحي أكثر من العالم الإسلامي. وهذا الاضطهاد حسب رأي محمد عبده، لم يكن عند الحكام ضرورة، ولكن القضية تكمن في الجماهير المؤمنة المسلمة والمسيحية على السواء التي تكن الكراهية للفلاسفة^{٣٧}. وبهذه الصورة، لم تكن مسؤولية ملاحقة الفلاسفة للانصاف تقع على عاتق الإسلام، ولكن على عاتق المسلمين، وليس على المسيحية ولكن على عاتق المسيحيين والرسم البياني (الخاصة- العامة) يلعب دوراً كبيراً في التفسير الشيق لتاريخ العالم الإسلامي للعالم المصري «أحمد أمين» في القرن العشرين (١٨٨٧-١٩٥٤).

يبرز أحمد أمين في معرض حديثه عن ملاحقات الفلاسفة والعلماء في الأندلس الإسلامية، قضية أن «العامة لا تحب الفلسفة والفلاسفة» ولم يكن الحكام راغبين في إلحاق الضرر بالفلاسفة، أو حتى معارضتهم، ومع ذلك قاموا بملاحقتهم لكي يحفظوا برضى العامة. يقدم «أحمد أمين» هذا التفسير للحكاية الشهيرة «لابن رشد» الذي عاقبه الأمير الأندلسي «أبويوسف» بالمحاكمة والنفي وقد كان يحمي الفيلسوف من قبل. وفي هذا الصدد يورد أمين الحكاية التالية لكتاب سير العرب في العصور الوسطى. فى ذلك الوقت انتشرت الإشاعات بين الرعاى فى المدينة عن رياح غامضة حاملة للموت وقاتلة للزرع والنسل مثل تلك الرياح الأسطورية التى دمرت قوم «عاد». وأكد «ابن رشد» أن هذا القول لم يكن له وجود فى الحقيقة. حينها ثار الرعاى مطلقين على بن رشد «منكر للقرآن»، وبدأوا فى تفسير فقرات كثيرة من مؤلفاته

على أنها إلحادية. حينئذ قام الأمير بتقديمه إلى المحاكمة^{٣٨}. وأسباب ذلك التصرف يرجعها أمين إلى الخوف من الرعاع الساخطين ورغبته في تملقهم.

وقال «أحمد أمين» في معرض حديثه عن الفيلسوف الأندلسي أبو مروان بن زُهر (المولود في عام ٤٧٥هـ) الذي حبسه مؤسس دولة المرابطين يوسف بن تاشفين أن هذا «ربما فعل ذلك لكي يسترضى الرعاع^{٣٩}. وأورد أمين متحدثاً عن فيلسوف مسلم آخر، وهو ابن باجة (نهاية القرن الحادي عشر- ١١٣٨) رأيين متضادين لمعاصريه عنه. ويشير أمين بخصوص الرأي السلبي للفتح بن خاقان (المقتول عام ١١٣٤) الذي اتهم ابن باجة في (قلائد العقيان) بالإلحاد والإباحية الفكرية والعبث، .. إلخ، لكن هذا كان يطابق رأى العامة الأندلسية عن الفلاسفة، ولكن رأى ابن خاقان- على ما يبدو- يرجع فى المقام الأول إلى العداوة الشخصية (أى أن الفيلسوف لم يستطع أن يملك رأياً كرأى «الرعاع». ويقوم أمين بتقديم مثل هذا التفسير في كل مكان حين يصف حياة الفلاسفة الأندلسيين ويضم «تاريخ الفلاسفة الأندلسيين سلسلة من الاتهامات النمطية بالكفر والزندقة والإلحاد لكل من يشتغل بالفلسفة ابتداءً «بابن باجة» وبن رشد ووصولاً إلى ابن الخطيب»^{٤٠}.

يؤكد أمين أنه نقلاً عن ابن رشد فإن الأمير أبو يوسف «كان على ما يبدو يستعد للغزو، ولذلك وجب عليه أن يتملق العامة. وكان هذا التملق هو اضطرار الفلاسفة والفلاسفة الذين ينفر منهما الرعاع. وعندما أحرز النصر وانتهت الحملة إختفت ضرورة مغازلة العامة، وعاد من جديد إلى علاقته السابقة مع الفلاسفة»^{٤١}.

كانت مواجهة «العامة» لـ «النخبة العقلية» محور إجابة أمين على السؤال التعليمي لعلم التاريخ العربي التقليدي هل كان فلاسفة العصور

38 - أمين. ت. 3 ص. 241.

39 - أمين. Cit. soc. C. 241.

40 - أمين. Cit. soc. C. 234. ابن الـخـاـتـيـب – الأندلسي العالـم (1313-1374)

41 - أمين. Cit. soc. C. 257.

الوسطى من المسلمين موحدين و مؤمنين ؟ كتب أحمد أمين : أعتقد أن ابن رشد ومن على شاكلته مثل الفارابي وابن سينا وابن الطفيل آمنوا بالله كما كان يؤمن بالله معلمهم أرسطو . وآمنوا بالنبوة ليس كما يؤمن العامة، معتقدين أن الدين يوجد لأولئك العامة من الناس . وكانت النخبة الفلسفية تركز بدرجة كبيرة على العقل أكثر من الإيمان»^{٤٢}.

وبطريقة أخرى وفقاً لأحمد أمين ، فإن العقل يكون لنخبة المفكرين كالدين « للعامة» . وفي نفس الوقت لم يرد أمين أن يفهم رسمه التخطيطي على أنه مواجهة الدين للعلم (الفلسفة) . وبالطبع فإن أمين لا يتطرق إلى الفكرة الأصلية عن الأشرار المشوهين للدين . وكان تأويله للحروب الفكرية التي انتشرت في العصور الوسطى بسبب الصفات الدائمة للعامة، وهى التعصب الديني والقيود الفكرية والجمود . أما الموقف المعتدل من الدين والتسامح الديني هي صفات النخبة العقلية (وعدم وجود هذه الصفات في الحالة الأخيرة ترجع إلى أن هذا المفكر أو ذاك يسير بوعي فى ركاب العامة راغباً في الحصول على رضاها) . وطبقاً لرأي أمين، فإن الحكام العقلاء الذين كانوا يضطهدون الفلاسفة من غير سبب، قد كانوا مضطرين لذلك بسبب ضغوط الرعايا .

في مثل هذه الحالة ، فإن الدين كوسيلة للسيطرة الاجتماعية يعمل ضد أولئك الذين أوجدوها ؛ لأن العامة وتفكيرها المتعجرب ترغم الحكام ، وجانب من النخبة العقلية ، على التصرف بالطريقة التي تروق لها . ويفسر أمين العدا بين المعرفة العلمية والتزمت الديني الذي يضع أي علم في إطارات جامدة كالعداء بين « الخاصة » و « العامة» .

في الختام يمكن القول إن المادة التي تم بحثها تسمح جزئياً فقط بتتبع بعض التطور التاريخي لمفهومى « الخاصة » و « العامة» في الثقافة العربية والإسلامية . والأفكار الراسخة عن « الخاصة » و « العامة» والمرتبطة بداية بالتقسيم على أساس المعايير الدينية والصوفية والعقلية ، أثرت على الفهم من قبل علماء العرب والمسلمين للمجتمع وتطوره . وهذه الأفكار أثرت كما يبدو على تشكيل الفكر السياسي في العالم العربي في القرن العشرين .

الماليك

حاجه رومانتيك	زمن الماليك
تحت الشباييك	أبطال حواديت
بهدوم كده شيك	رايحين جايين
لون عرف الديك	بوشوش حمرا
يضرىوا مزازيك	يعملوا حركات
لعب يسليك	يلعبوا بالسيف
ويغزوه فيك	يضحكوا وياك
بقى والمشاكيك	غير الخوازيق
اللى تدفيك	وأسياخ النار
تشكر أهاليك	حاجة تخليك
زمن الماليك	اللى ما ولدوك

تعد الأمثال والمأثورات النوع الأكثر تشويقاً للإبداع الشعبي الشفهي. والأمثال والمأثورات المصرية موزونة وأصيلة ورائعة. وفيها نلمس ميل المصريين للدعابة الممتزج باللحم والدم. وهذه بعض منها :

- يا داخل بين البصلة وقشرتها ما ينوبك إلا صنتها - وهذا شيء خليط بين أمثالنا : «الثالث زائد» و «قطعوا أنف فارفارا المتطفلة» - «طول ما أنت زمار وأنا طبال ياما تجمعنا الليالي الملاح» معنى هذا المثل «مادام يجمعنا عمل واحد ونحن قرييون من بعضنا فلن نتعارك ، بل الأفضل أن نتصالح لأننا سنتقابل كثيرا».

- «صلة المحب خروف» أي أن الشيء المر من الحبيب يبدو حلواً ولذيذاً .

- «جه يكحلها عماها» وهذا يتحدث عن الشخص الذي يقدم خدمة سيئة ، فهو يريد أن يفعل الخير ولكنه يتسبب بالضرر .

- «الجعان يحلم بسوق العيش» وهذا المثل تقريباً يطابق مثلنا الروسي «من عنده شيء يؤلمه فعنه يتحدث» .

- «غاب القط العب يا فار» ومعنى هذا المثل مفهوم بدون توضيح .

- «دافنين الحمار سوا» وهذا يعني «أننا مربوطين بحبل واحد» أو «أننا نحفظ بهذا السر، فهلاً كنا صادقين مع بعضنا البعض» أو حتى «نحن أكلنا معاً بود من الملح» (البود وحدة وزن روسية تزن ١٦,٢٨ كيلو جرام- المترجم) على الرغم من أن المثل الأخير يتطابق مع المثل المصري «أكلنا عيش وملح سوا» .

- «سكتنا لوه دخل بجماره» . وهذا يتطابق مع المثل الروسي : «أجلس الخنزير إلى المائدة فسيضع قدمه عليها» .

كان فضل « إدوارد لين» أنه نجح في أن يظهر المجال الاجتماعي للتقاليد والمعتقدات وأنواع الفن . وعلى الرغم من وحدة السمات العديدة للثقافة المصرية القومية ، إلا أنه يوجد فيها العديد من الثقافات . وكانت الأرسطراطية المصرية المتكبرة بعيدة عن الشعب ، وتتصف في غالبيتها بالمستوى الثقافي المنخفض .

تذكر نهاد سالم ، التي علمتني اللهجة المصرية في الجامعة الأمريكية في القاهرة حادثة طريفة من طفولتها . ولدت نهاد في عائلة مصرية أرسطراطية غنية ، وذات مرة كانت هناك فرقة أوبرالية تعرض في أوبرا القاهرة الشهيرة وكانت في افتتاحها « عايده» لفيردي و «فاوست» ، ولمشاهدة العرض صحب نهاد التي كانت حينئذ مراهقة عمها عباس باشا البدين للغاية ، والكسول

أيضاً. وبعد أن جلس الباشا باسترخاء في أحد أماكن اللوح شاهد جزءاً من المشهد الأول، والذي يشترك فيه فاوست وميفيستوفيل ثم ... نام. وكان يغط في نوم عميق ولم يستيقظ خلال العرض كله بما في ذلك الاستراحات. وعندما استيقظ فقط قبيل النهاية صاح في القاعة: «الله! الشيطان لسه هنا!». وهذه الحكاية المضحكة تظهر بجلاء المستوى الثقافي للأرستقراطية المصرية في تلك الفترة.

ويعد الملك فاروق- آخر ملك مصري- مثال عدم الثقافة والانحطاط الفكري والأخلاقي. فهذا الفاسق السمين والكسول وشبه الأمي والقاسي كان يظهر اهتماماً بالغاً بالكروت الإباحية التي كان يجمعها.

طبقة مثقفي مصر النخبوية المنبثقة عن العائلات المصرية القديمة، تعد حاملة لثقافة خاصة. وقد أتى لي أن أقابل مثل هؤلاء الناس الذين يتحدثون داخل إطار العائلة بالفرنسية، ويقرأون الصحف الأمريكية والإنجليزية ولا يظهرون اهتماماً كبيراً ببلادهم. وقد أظهرت إحدى السيدات المتدمات في السن والتي تعيش في القاهرة، وقابلتها في حفلة شاي للمدرسين في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، معرفة ممتازة بشوارع باريس، ولكنها اعترفت بأنها لم تر أهرامات الجيزة مطلقاً. وبعد تلك المقابلات كان من الطريف رؤية ممثلي طبقة النخبة المثقفة المصرية الجديدة والناشئة، وهم رعاة التقاليد الشعبية الممتازة.

بالمناسبة، كان النصف الثاني للمستينات عندما كنت أقيم في القاهرة بصفة عامة، فترة الصعود الثقافي والانتشار الواسع للتلويزر، والثقافة بين الجماهير.

كان طلاب جامعة القاهرة وطلاب الجامعة الأمريكية بالقاهرة يظهرون اهتماماً كبيراً بالأدب الروسي الكلاسيكي والسوفيتي (على الرغم من أن الأخير كان معروفاً لديهم بدرجة أقل). وكانت النخبة المثقفة

تحب أن تقرأ دوستوفسكي وتشيوخوف وليف تولستوي . وأتذكر الأشياء الطريفة التي تحدث لقراء الأدب الروسي الكلاسيكي من المصريين، والتي كان مبعثها أنه كانت لديهم صعوبة كغيرهم من قراء بلاد الشرق في فهم أسماء الأبطال. وقد اشتكى لي أحد المصريين أنه لم يفهم سريعاً أن «بيوتر نيقولايفتش» و«بيتيا» شخص واحد ، واضطر إلى أن يتصفح مائتي ورقة من جديد لكي يعرف ما حدث «لإيفان إيفانوفيتش». فقد وجد أنه تحول إلى «فانيا» والذي لدهشة هذا القارئ يختلف أيضاً عن «فاريا». ولكن هذا بالطبع لم يمثل عائقاً للطلاب المصريين أن يفهموا و يحبوا مؤلفينا .

من غير الممكن تصور المصريين خارج حدود مدن مصر الفريدة، التي احتفظت بالكثير من الآثار الرائعة للعصور التاريخية بدءاً من العصور القديمة (أقدم الآثار القديمة والأعمال الفنية ترجع إلى خمسة آلاف عام قبل الميلاد). وبالمناسبة، فحيث إننا سنتحدث قريباً عن دراسة مصر، فمن غير الممكن عدم الإشارة إلى أن المدرسة الروسية لعلم المصريات قد أسهمت بنصيب وافر في بحث الآثار المصرية. وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر زار مصر عالم المصريات الروسي «ب. س. جولينشيف»، الذي جمع مجموعة شكلت أساس المجموعة المصرية للمتحف الحكومي للفنون الجميلة المسمى «أ. س. بوشكين». وقد أسس «جولينشيف» قسم المصريات في جامعة القاهرة .

تعد الأهرامات المصرية الشهيرة من عجائب الدنيا . وقد بنيت للتأكيد على العظمة الخارقة للفرعون، واشتهرت كإبداع يدوي لبنائهم المجهولين. ودائماً ما تحدث الأهرامات أثراً مذهلاً لدى الرحالة الأوروبيين. وبالنسبة «لإدوارد لين»، فإن أهرامات الجيزة، والتي توجد بالقرب من المقابر، أصبحت هدفاً للوصف وكذلك مجالاً لدراسة العادات المصرية. وفي القرن التاسع عشر صارت الأهرامات الهدف المفضل لحج السياح . ووصف «إي . أو . بونين» رحلته إلى الجيزة على النحو التالي : «في الأيام تمتد سلسلة صخور يغطيها من الأعلى ذهب رمادي بمدخل مثقوبة فيها تؤدي إلى المقابر. ولقد نظرت في

أحدها، ورأيت على ضوء خافت وخانق، فضلات حيوان تشبه حبات البن، وكان أحد الحوائط قائماً بسبب الدخان، فبالتأكيد كان الرعاة يبيتون هنا. ومن الممكن أن تتواجد هنا الضباع. وقد أسرع بالخروج إلى الشمس. ولم نجد الضباع، بل انغمرت يداي وملابسي في برهة واحدة بشبكة من البراغيث الحية والحارقة... وعندما وصلت أخيراً، إلى الهرم الأكبر رأيت مشهداً بائساً. إذ كان البدو مع الأوروبيين يقومون بكوميديا الركوب على الجمل. ويقف الجمل بعد أن كان يجلس على ركبتيه مع هدير داخلي صامت وغرغرة. إذ كانت سيدة سمينة تجلس عليه بالجانب موسعة عيناها، وشوه الرعب وجهها الأحمر الذي كان ينضح بالعرق، وتصرخ في يأس، وتتشبث بأيدي البدو السوداء».

تذكرت هذا الوصف الذي قدمه «إي. أو. بونين» منذ أكثر من قرن مضى، عندما زرت الأهرامات لأول مرة. فقد أعاق الإلحاح غير المحمود لمجموعة كبيرة من الناس، الذين يتكسبون رزقهم من السياح إحساسي بالخفقان أثناء تأملي للإبداع البشري القديم والعملاق والمدهش. وكان الجمال الذين يعرضون الركوب على الحيوان هنا في الصحراء بالقرب من الأهرامات الأكثر إزعاجاً. ولقد رأيت مجموعة من السيدات المسنات الضاحكات الباقيات، وهن سائحات من الولايات المتحدة الأمريكية، واللاتي صعدن بصعوبة على الجمال؛ لكي يلتقط لهن المصور صورة، وربما للبحث عن أحاسيس مختلفة. وتذكرت بصفة خاصة إحداهن، وكان وجهها مغطى بطبقة عميقة من المكياج الذي لم يخف التجاعيد، والتي ذابت في الشمس الحارة. وعندما بدأ الجمل يثني أرجله الأمامية، لكي يجلس فقد صرخت بقوة وأمسكها الجمال الذي ليس لديه أسنان باستهانة، غامزاً بعينيها للسائحات الأخريات اللواتي كن يلتقطن الصور بالكاميرات. واقتنعت متأخراً بأن هؤلاء السائحات المسنات الغنيات اللواتي كن حينئذ أكثر الزائرات إلى بلد الآثار، غالباً ما ينسين في أي بلد يتواجدن (أتذكر أن إحدى النساء الأمريكيات طلبت أن ترى معبد بارثينون في أثينا).

لم تترك الأهرامات لدي ذلك الأثر القوي، الذي أحدثته آثار مصر العليا مثل: معابد الكرنك والأقصر وأبوسمبل إلخ. ربما بسبب كثرة السياح، وكذلك بسبب الانتظار الطويل جداً. فهناك تشعر بكل ما أوتيت من قوة بالجمال المتناغم، والطابع الفريد، وعظمة تلك المباني للمعماريين المصريين القدماء.

ذات مرة أتيح لي أثناء وجودي في منطقة الأهرامات رؤية أحد الفنون القديمة الرائعة للمصريين، الذي أصبح الآن نادر جداً، ويعرضونه فقط بمناسبة وصول الوفود البارزة. هذا الفن هو تسلق الهرم بسرعة والهبوط منه جرياً، وتجدر الإشارة في هذا الصدد أن جسم هرم الجيزة الكبير، أي هرم خوفو يبدو فقط من بعيد أنه أملس. إذ أن الجزء الأكبر من السطح هو أضلاع مكعبات ضخمة يتكون منها الهرم. وتعد مهنة الشخص الذي يستطيع القيام بالجري بسرعة مذهلة حتى القمة، والعودة بنفس السرعة كما يقولون، مهنة قديمة جداً. ويحمل هذا الشخص لقباً خاصاً، وهو حفناوي (هذا اسم وليس لقباً أو حرفاً). الرجل اسمه حفناوي عبد النبي اشتهر بأنه يستطيع تسلق الهرم يومياً في فترة لا تتجاوز ٦ دقائق. المترجم). ولكي تصبح حفناوياً، فليس أقل من أن يكون عندك إعدادا بدني رائع، ودراسة الهرم باتقان، وإيجاد أكثر من مسار منطقي للجري صعوداً وهبوطاً.

رأيت بنفسي هذا الحاذق لمهنته المصري الجاف الأسمر، الذي حرقتة الشمس والقصير بقفزاته الحفيفة. فقد كان أحياناً يلمس بالكاد الحجر التالي بيديه، كما لو أنه يطير فوق الهرم. وقد أتم الصعود إلى الهرم الذي يصل ارتفاعه إلى ١٤٦ متراً (كان الارتفاع الفعلي للهرم الأكبر، ١٤٦ ولكنه الآن يصل إلى ١٣٧ متر، بعد انهيار ٩ أمتار إثر زلزال قديم. المترجم) وهبط من الهرم في دقائق معدودة، وبعد الهبوط قام الطبيب الذي كان يوجد بالأسفل بقياس نبضه، فوجد أنه ٩٠ ضربة في الدقيقة! تعاقبت الثقافات في مصر على مر التاريخ الطويل للبلاد، وتركت كل واحدة منها أثرها في الفن والعمارة. والشكل المعماري للبلاد ليس أقل فسيفسائية من شكل المصريين أنفسهم، والذي

يمكن أن تقابل بينهم أنواع من الناس مختلفة عن بعضها البعض بدرجة كبيرة جداً. كانت القاهرة في القرن التاسع عشر لاتزال مدينة المآذن والقباب والبوابات والقناطر والأسوار. وأسمح لنفسني بالعودة ثانية إلى شهادة « إي. أ. بونين » الذي وصفها كالتالي: في هذا المكان ولدت القاهرة « المنتصرة » العظيمة. إن شوارعها الضيقة والطويلة والمعوجة، مليئة بالمحلات وصالونات الحلاقة والقهاوى والطاولات والمقاعد والناس والحمير والكلاب والجمال. ورواتها ومطربوها الذين يقصون بطولات عن « على » زوج بنت النبي معروفون للعالم أجمع. ولاعبو الشطرنج والمدخنون صامتون وحكماء. وتضاهي أسواقها من حيث الضوضاء، والغنى أسواق اسطنبول ودمشق .. الأهم هو أنه يوجد في القاهرة ٥٠٠ مسجد، ومئات الآلاف من المقابر في سكون الصحراء التي تحيط بها. وتعلو المساجد والمآذن فوق كل شيء. فالمساجد عريضة الكتفين ومخططة مثل العبايات، وكلها ذات قباب ضخمة ومتعددة الألوان. والمآذن مزخرفة وعالية ورشيقة مثل البستوني في ورق اللعب. انها الآثار الإسلامية. مقابرها قديمة وعارية. ويوجد هناك بين مقابر الخلفاء وبين مقابر المماليك وحول مسجد عمرو بن العاص نصف المهدم الذي يشبه الخيمة الضخمة، الصمت الأبدي للرمال، والدرنات الطينية ذات القرون. ولا يقطع هذا الصمت غير الغناء الحزين لطائر الصحراء المسمى القنبرة، أو صوت آلات سك العملة ذات الذراعين المبرقشين...». والمساجد المصرية ثروة لا تنضب من الطرز، والأشكال المعمارية. ودائماً ما نتمتع برؤيتها. ولكي نحيط بها جميعاً يجب أن نقضي وقتاً طويلاً. وستبقى في الذاكرة دائماً زيارات مساجد القاهرة العادية غير الفاخرة التي زرتها مع أصدقائي في رفقة المستشرق الإنجليزي المتخصص في الفن الإسلامي « مايكل رودجرس »، والذي درسنا معه سوياً اللهجة المصرية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة. لقد قص علينا كل ما كان يعرفه عن المسجد الذي دلفنا إليه، وقد تذكرنا بدورنا فقرات من تاريخ ذلك الزمان حين تم إنشاء المسجد. وكان « رودجرز » يشتغل بدراسة الفن الإسلامي لمصر، والذي كان للمدرسة الإنجليزية للمستشرقين تقاليد عريقة .

وكان الممثل البارز لهذه المدرسة البروفيسور «ك. أ. ل. كريستوفيل» الذي عاش في القاهرة حوالى خمسين عاماً. وذات مرة دعيت لزيارة «كريستوفيل»، ولقد رأيت شخصاً متقدماً في السن لديه أخلاق جنتلمان حقيقي ويرتدي بدلة بيضاء، وينتعل حذاءً نياً لأمعاً، مما يستدعي إلى الذاكرة شخصيات موظفى الاحتلال الإنجليزى الكبار في العهد الفيكتوري. ولكن بدون هؤلاء الأوروبيين (العلماء الحقيقيين)، الذين يبذلون جهداً كبيراً لدراسة مصر، لا يمكن أن نعرف مصر والثقافة المصرية.

وفي كل شيء تظهر مصر أنها بلد التقاليد القديمة. وأثار الثقافة التقليدية القديمة تظهر أحياناً في الأشياء العادية جداً. فقبل حضوري إلى مصر قرأت كتاب «إدوارد لين» وتذكرت بطريقة ما قوله عن الإناء الفخاري (القلّة) التي يحفظ الماء بداخله بارداً. وعندما أقيمت في المدينة الجامعية رأيت على حافة الشباك من الناحية الخارجية وعاء (يسمى برطمان) مصنوعاً من الفخار الفاتح الطيني ومغلقاً بغطاء فخاري له العديد من الفتحات الصغيرة. وبفضل التبخر من خلال مسام الإناء الذي يقف تحت أشعة الشمس الحارقة، تظل المياه فيه دائماً باردة.

ربما يكون لب النمط التقليدي لحياة وأخلاق وعادات الشعب المصري ناتج من الدمج بين الأشياء التقليدية والجديدة والقديمة والحديثة والمحزنة والمفرحة. ولذلك فإن كتاب «إدوارد لين» وحتى اليوم يعد كتاب الحياة المصرية، ويفتح لنا صفحةً للماضي غير البعيد الذي يتشابك مع وقتنا الحاضر.

عبد اللطيف البغدادي وكتابه عن مصر (*)

في بغداد عام ١١٦٢/٥٥٧ ولد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي موفق الدين البغدادي العالم العربي الموسوعي الشهير، والطبيب، والرحالة. وكان يوسف والد عبد اللطيف مشغولاً بعلم الحديث، وبارعاً في علوم القرآن، وقد أذاق ابنه في سن مبكرة طعم المعرفة بكافة أنواعها، وليس الدينية منها فقط. كتب عبد اللطيف «كان والدي وعمي مولعين بالشعر، كما درس عمي أعمال أرسطو»^{٤٣}. ويتذكر عبد اللطيف أنه تربى في حجر الشيخ أبي النجيب، ولم يعرف أي شيء عن لعب الأطفال أو ألعابهم، والتي حلت محلها قراءة الكتب. ويتذكر عبد اللطيف «أكثر زمني مصروف في سماع الحديث، وأخذت لي إجازات من شيوخ بغداد وخراسان والشام»^{٤٤} ومصر. واشتغل عبد اللطيف كثيراً بالخط، وحفظ القرآن، ومقامات الحريري، وديوان المتنبي، ودرس الفقه.

فلما ترعرع حمله والده إلى كمال الدين عبد الرحمن الأنباري (١١٩١/١١٨١)، وكان يومئذ شيخ بغداد، وله بوالده صحبة قديمة أيام التفقه بالمدرسة النظامية، التي أسسها الوزير السلجوقي نظام الملك. قال^{٤٥} عبد اللطيف إنه

(*) التمهيد، وفصول من كتاب: أسرار مصر في العصور الوسطى: كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، لعبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن البغدادي / مقدمة فيتالي نومكنين، الترجمة من اللغة العربية والتعليقات، والتنويهات لفيتالي نومكنين وأ. ج. نيدفيتسكين، موسكو، مركز الدراسات السياسية والتاريخية، عام ٢٠٠٤

43 - Большаков, О. Г. Средневековый арабский город / О. Г. Большакова // Очерки истории арабской культуры V-XV вв. - М.: Наука, 1982.

٤٤- غالباً ما تترجم الشام باسم «سورية»، ولكن في العصور الوسطى يتضمن هذا المفهوم الجغرافي أراضي عدة دول حديثة هي سوريا، فلسطين، لبنان وجزء من الأردن، لذلك حافظنا على هذه الكلمة العربية دون ترجمة.

45 - [Брэм]. Жизнь животных по А. Брему, в 5 томах / Под. Ред. В. К. Солдаьлава, пераб. Б. М. Житковым и др., под общей ред. А. Н. Северцева. - М.: Учебно-педагогическое издательство Наркомпроса, 1939.

خلال ثمانية أشهر، حفظ عن ظهر قلب الأطروحة النحوية لعثمان بن جني الموصلي «اللمع»، وكتاب «أدب الكاتب» للمؤلف الشهير ابن قتيبة الدينوري (٨٢٨-٨٨٩)، وكتب كثيرة أخرى. وقد أنفق وقتاً طويلاً في حفظ كتاب العالم اللغوي البصري أبو علي الفارسي المسمى «الإيضاح». وفي نفس الوقت، واطب على حضور دروس الحديث والفقه، ودرس الصوفية أيضاً، والذي كان الشيخ كمال الدين أحد أقطابها. وقد درس عبد اللطيف بعد أن افتتن بعلم اللغة أعمال رئيس المدرسة النحوية بالبصرة «سيبويه» وشارحه الصيرافي (٩٠٨-٩٧٨). وقد تلقى دروساً على يد العديد من المشايخ، ودرس الحساب والكيمياء والفلسفة، وعلم الكلام. وقد كتب عبد اللطيف أنه قد درس على وجه الخصوص كتب الفقيه الشهير أبو حامد الغزالي مثل: «مقاصد الفلاسفة»، و«ميزان العمل»، و«محك النظر»، وجميع كتب ابن سينا، وحفظ عن ظهر قلب كتابه (النجاة) وأعاد نسخ كتابه (الشفاء)^{٤٦}.

في سنة خمس وثمانين وخمس مائة (١١٨٩) بعد أن أخذ عبد اللطيف كل ما كان يؤمله من مشايخ بغداد، ذهب إلى الموصل، حيث التقى بالكمال بن يونس، الذي حسب رأيه «كان جيداً في الرياضيات والفقه، لكنه كان متطرفاً في باقي أجزاء الحكمة»^{٤٧}. وعرض على عبد اللطيف التدريس في بعض الأماكن، فاختر مدرساً ابن مهاجر. وسرعان ما توجه إلى سوريا، وقد تعرف في دمشق على علمائها المشهورين، ثم ذهب لزيارة القدس. وبعد أن جذب انتباه مؤسس الدولة الأيوبية صلاح الدين^{٤٨}، حصل على وظيفة مدرس في أحد مساجد دمشق. في سنة ١١٩٣/٥٨٩ انتقل عبد اللطيف إلى مصر، وواصل نشاطه التدريسي، مستغلاً رعاية خلفاء صلاح الدين له، ومارس الطب واشتغل بعلم النبات. وخلال تلك الرحلات، كتب كتبا علمية

46 - Грюнебаум, Г. Э. Классический ислам. Очерки истории. 600 – 1258 / Г. Э. Грюнебаум // Отв. Ред., автор предисловия и комментария В. В. Наумкин. – М., ГРВЛ, 1988.

47 - Грюнхальт, О. Искусственное птицеводство. Пер. с нем. / О. Грюнхальт. – СПб., 1886.

48 - Ibn Djubayr. Путешествие просвещенного писателя, добродетельного, проникательного Абу-л-Хусайна Мухаммада ибн Ахмада ибн Джубайра ал-Кинани ал-Андалуси ал-Баланси... / Ибн Джубайр. – АН СССР. Пер. с араб., вступ. статья и прим. Л. А. Семенов. Отв. Ред. С. Х. Кямилев. – М.: Наука, 1984.

متميزة، وتعرف على العديد من العلماء البارزين في ذلك الوقت، وشارك
بهمة في المناقشات العلمية، وحظي بشهرة كعلامة في العديد من مجالات
المعرفة. وتحدث معاصروه عنه بحماس، مشيرين بالإضافة إلى معارفه العميقة
المتنوعة إلى اجتهاده، وتواضعه، واحترامه للعلماء الآخرين.

ومع ذلك، فقد كان في المجتمع العلمي العربي والإسلامي في العصور
الوسطى، كما هو الحال دائماً في كل مكان، دسائس، وحسد، وحققد.
لذلك -تحديداً- يمكن أن تجد في الأدب الجغرافي العربي قدحاً في هذا
العالم. في تأريخ الحكماء تتضح العلاقة نحوه خصيصاً في وصف ابن
القفطي، الذي شغل منصب الوزير، لمظهر عبد اللطيف « لقد كان ذا هيئة
قبيحة، هزيلاً، قصيراً، ووجه ضامر⁴⁹. ويتضح العداء السافر للعالم في تقييم ابن
القفطي لشخصية البغدادي: « إن أسوأ صفاته، تتمثل في عدم الجد والاجتهاد،
وليغافينا الله من ذلك. وقد عاش السنوات الأخيرة من حياته في مدينة حلب،
حيث كان يكسب عيشه من اشتغاله بالطب دون أن يعلم عنه شيئاً » ثم
قال لاحقاً « وقد حدث في شهر عام ٦٢٨، أن توجه إلى بغداد، كي يقوم برحلة
الحج من هناك، وقد أصابه المرض هناك، وأخذ يعالج نفسه بنفسه، ومن ثم
توفي حين أراد الله ذلك⁵⁰».

وبعد أن ترك ابن القفطي للأجيال القادمة ذلك الوصف اللاذع بحق
البغدادي، إلا أنه ظل متفرداً في مثل تلك الآراء، ولم يأخذ المعاصرون هذا
الوصف على محمل الجد، واصفين إياه بالخلق السيء من جانب المؤرخ. وقد
كتب الباحث المعاصر والناشر لأعمال القفطي محمد أبو الفضل إبراهيم عن
البغدادي أنه « تمتع بالعديد من المزايا، وتميز بعقل راجح، وأخلاق عالية،
وكان متواضعاً، ومحباً للعلم والعلماء ». يذكر إبراهيم أنه: « من لقائه
بالبغدادي خلص إلى صدقه⁵¹».

49 - *Ибн Сина, Абу Али.* Канон врачебной науки. 6 т. – Ташкент, из-вл АН УзССР, 19541961-.

50 - *Ибн Хордадбех.* Книга путей и стран / *Ибн Хордадбех* // Пер. с араб., комм. И исследование Н. Велихановой. – Баку, 1986.

51 - *Клои-бэй, А.В.* Египет в прежним и нынешнем своем состоянии / *А.В. Клои-бэй* // Пер. с франц. А. А. Краевскогого – СПб, 1843. – Ч. 1-2.

أما عن تقييم بن القفطي للبغدادي، فقد قال : « لقد انقض ابن القفطي عليه (البغدادي-فيتالي نوؤومكين)، وأخذ على عاتقه تدمير المعاصرين، والانتقاص من كرامتهم، والتظاهر بأنه يعلم قيمة العالم، ويمكن أن يصنفهم- حسب رأيه- من حيث الأهمية، على الرغم من أنه فى الواقع ليس لديه القدرة مطلقاً على فعل ذلك⁵².

والمعلومات الأكثر تفصيلاً عن حياة البغدادي وإسهاماته العلمية نجدها في كتابات الطبيب العربي، والمؤرخ الطيبي ابن أبي أصيبعة فى «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء»، حيث تضمن مقتطفات من السيرة الذاتية للبغدادي التى لم تصل إلينا فى شكل منفصل. يعد عبد اللطيف مؤلفاً لعدد كبير من الكتب فى الطب، وعلم النبات، وعلوم القرآن والفقه والفلسفة والقانون وعلم الكلام والرياضيات وفقه اللغة، والتاريخ، والتي لم يصل إلينا منها سوى جزء صغير جداً. ومن أبرز هذه الكتب «تاريخ مصر». الذى لم يصل إلينا. وقد ضمن العالم فيه وصفاً عاماً لمصر طبقاً لمجموعة متنوعة من المصادر، وكذلك ملاحظاته الخاصة. وقد شهد عبد اللطيف على وجه الخصوص، فى أعوام 597-598 / 1200-1202 المجاعة المروعة، والأوبئة الناجمة عن النقص الكارثي فى المحاصيل، بسبب نقص المياه من نهر النيل فى قنوات الري. كما كتب البغدادي نسخة مختصرة من هذا الكتاب، والذي تضمن فقط وصفاً لتلك الظواهر والأحداث التي كان شاهداً عليها. هذا العمل، الذي اتفق على تسميته «المختصر» يطلق عليه «الإفادة و الاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر»، ولحسن الحظ، فإن مخطوطته قد بقيت حتى وقتنا هذا. وقد تحدث الكاتب عن تأليف كتابه فقال: « عندما انتهيت من كتابي عن مصر، الذي يتكون من ثلاثة عشر جزءاً، رأيت أنه إذا قمت بإبراز تلك الأحداث التي عاينتها بنفسى، فسوف يصبح الكتاب أكثر صدقاً وسوف يحدث أثراً عظيماً⁵³. تم تأليف الكتاب، لتقديمه إلى حاكم مصر

52 - Крачковский, И. Ю. Арабская география литература / И.Ю. Крачковский // Избранные сочинения. – М. –Л., Изд-во АН СССР, 1957. –Т.IV.

53 - Лев Африканский, Африка – третья часть света / Лев Африканский // Пер. с итал. и комм. В. В. Матвеева. – Л., 1983.

الملك العادل (٥٩٦/١٢٠٠-١٢١٨) ^{٤٤} شقيق صلاح الدين، بحيث لا يتعلق شيء بأقاليم بلاده، مهما كانت بعيدة، إلا وكان على علم بها، ولا يكون شيء يتعلق بمصالح مواطنيه، حيثما كانوا، إلا وقد شمله برعايته.

وعندما علم العالم، الذي كان متواجداً بالقاهرة، أن صلاح الدين قد هادن الصليبيين، وعاد إلى القدس، ذهب عبد اللطيف إلى هناك لمقابلته مجدداً. وقد أمر صلاح الدين بأن يدفع له راتباً شهرياً قدر ب ٣٠ ديناراً من ديوان المسجد الأقصى، حيث قام بالتدريس هناك، وقد ارتفع هذا المبلغ إلى ١٠٠ دينار شهرياً، من ورثة صلاح الدين الأيوبي. بعد أن عاد البغدادي مجدداً إلى دمشق، صار يخدم في الجامع، ويواصل القراءة بشغف. كانت وفاة سيده، صلاح الدين الذي، كما يقول العالم، أحبه المسلم والكافر، قد أحرزته للغاية. ومن دمشق حيث لم تطب له الأمور كما أراد، توجه عبد اللطيف إلى حلب، ثم إلى بيزنطة، وزار مدن آسيا الصغرى مثل أرزينجان، وأرزن الروم، ومدن أخرى. وفي عام ١٢٢٨/٦٢٦ عاد إلى بغداد، وعزم على القيام بالحج من هناك، لكنه مرض، وتوفي هناك في عام ١٢٣١ / ٦٢٩.

تتحدث اليوميات المصرية للبغدادي عن صاحبها، كطبيب - باحث لا يشق له غبار في ذلك العصر، وأن اسمه قد أدرج في تاريخ علم الطب العالمي بفضل اكتشافاته المشار إليها في «كتاب الإفادة» - جنباً إلى جنب مع أسماء كبار العلماء العرب المتميزين مثل ابن سينا وابن النفيس، وأبو القاسم الزهراوي وغيرهم. وليس من قبيل المصادفة أنه كثيراً ما يتم الجمع بين البغدادي وابن النفيس، مطلقين على العصر الذي أبدعوا فيه، «بالعصر الذهبي للطب العربي». إن المحنة التي أصابت مصرفي مستهل القرن الثالث عشر، وأودت بحيات الآلاف من الناس أتاحت لعبد اللطيف فرصة فريدة من نوعها، على الرغم من كآبتها وخطورتها؛ لدراسة بنية الجسم البشري دراسة عينية. وخلال هذه الفترة - تحديداً - قام البغدادي بالعديد من الاكتشافات المهمة، فيما يتعلق بتشريح القلب والدورة الدموية.

54 - Лившиц, И. Г. Дешифровка египетских иероглифов Шампальоном / И.Г. Лившиц// Ж.-Ф. Шампальон, О египетском иероглифическом алфавите. - М. -Л.: Изд-во АН СССР, 1950.

وقد خلص البغدادي قبل ابن النفيس (أكد ابن النفيس ذلك في وقت لاحق)، أن الدم يذهب من بطين القلب إلى الرئتين أولاً، ثم يعود إلى البطين الآخر، ولا ينفذ إليه من خلال الحاجز بين البطينين، كما كان يعتقد من قبل (وكان جالينوس قد اكتشف وجود ثقب بيبضاوي في الحاجز بين البطينين، عندما قام بتشريح جثث الأطفال المبتسرين). أكد البغدادي أيضاً أن القلب يتكون من بطينين فقط، وليس من ثلاثة، كما كان يعتقد ابن سينا.

وقد توصل البغدادي إلى اكتشاف آخر أكثر إدهاشاً؛ دحض به مزاعم جالينوس العظيم. عن هذا كتب المؤرخ الطبي الروسي «ب. د. بيتروف»، والذي أثنى ثناءً عظيماً على مساهمة الطبيب العربي في العلم العالمي: «أشير في الجدول الدائر حول مزايا الملاحظة الشخصية من قبل تلاميذ ابن سينا إلى كومة من الجثث التي لم تدفن بعد، والذين لقوا حتفهم من الجوع. وذهب شخص يدعى «عبد اللطيف ليرى هذا الحشد المكون من ٤٠٠٠٠ من الجثث والهيكل العظمية. وعندما رفع الفك من على الأرض، لم يصدق عينيه: فقد كتب جالينوس أن الفك يتكون من عظمتين، ولكن عبد اللطيف رأى عظمة واحدة فقط. وقد رأى ٢٥٠ فك، ثم عرضهم على الأطباء الآخرين الذين أقرؤا جميعاً - بأن الفك السفلي يتكون من عظمة واحدة. كان اكتشافه يعادل تقريباً تدنيس المقدسات. إذ أنه قد أثبت في كتابه أن جالينوس يمكن أن يخطيء^{٥٥}.

كان خطأ جالينوس يرجع - بدون شك - إلى أنه قام - فقط - بتشريح أطفال الإجهاض أو جثث الأطفال الذين ماتوا في سن مبكرة، والتي على أساسها قام ببناء أحكامه حول تشريح جسم الإنسان. بالفعل، فإن الفك السفلي لدى الجنين يتكون من عظمتين، غير أنه عندما يصبح عمر الطفل سنة واحدة فقط تنصهر العظمتان لتصبح واحدة فقط .

55 - Литературные имена арабских и персидских авторов. Справочник. Ч. I - М.: Изд-во МГУ, 1973. - Ч. II - М.: Изд-во МГУ, 1979.

ومن المحتمل أنه قد عزز من صحة استنتاج جالينوس حول طبيعة بنية الفك السفلي التي تتكون من عظمتين تلك البنية المماثلة لها عند الحيوانات، والتي كان يشرح أجسادها أيضاً من أجل الدراسة. ويذكر أنه عندما مشى البغدادي في شوارع القاهرة وفحص جثث الناس، هتف وقال: « هذا هو ما كان ينقص جالينوس! » كانت اكتشافات البغدادي هذه معروفة جيداً في أوروبا منذ القرن السابع عشر، حيث أشادوا به كطبيب متميز، وعالم أحياء، وجغرافي، ومتخصص في العلوم الطبيعية. وكان « لومونوسوف » على معرفة تامة بكتاب « الإفادة »، حيث كان مكتوباً في كراسة الكتب الأجنبية تحت رقم ٣٣ «تاريخ مصر مختصر عبد اللطيف والذي قام بنشره توماس هانت» باللاتينية والعربية^{٥٦}.

وفي المؤتمر الدولي الذي عقد في نوفمبر عام ١٩٨٧، في عمان عاصمة الأردن بمناسبة الذكرى ٧٠٠ لوفاة ابن النفيس، الذي شارك فيه فيتالي نوميكين، تم التأكيد على أنه في عصر العبادة الشاملة لجالينوس، تجرأ البغدادي، وابن النفيس على انتقاد هذا العالم الكبير، وشككا في بعض النتائج التي توصل إليها، ودعيا إلى القيام بدراسات خاصة، والتحقق من جميع المعلومات التي ساقها جالينوس .

لم يكن الاشتغال بالتشريح في ذلك العصر أمراً يسيراً على الطبيب العربي، فقد كان في وسع رجال الدين أن يتهموه بالكفر أو الشرك. وكان التعليم الديني للبغدادي بمثابة حماية له من مثل هذه الاتهامات، فقد كان البغدادي دارساً بشغف لعلوم القرآن والشريعة الإسلامية، وليس فقط لهذا الغرض، ولكن أيضاً لأنه أراد أن يصبح رجلاً متعلماً بشكل موسوعي، وكان يملك زاداً لا ينفد لكل العلوم. وخلال وجوده في القاهرة، كما أفاد كتاب سيرته، كان يقوم بالتدريس حتى منتصف النهار في جامعة الأزرة الإسلامية، ثم يشتغل بالطب مع تلاميذه حتى الساعة الرابعة عصراً، ثم يعاود الذهاب مرة أخرى إلى جامعة الأزهر، ويواصل تدريس العلوم القرآنية

56 - Лэйн, Э.У. Нравы и обычаи египтян в первой половине XIX в. / Э.У. Лэйн // Перю с англ.; отв. Ред. и автор предисловия В. В. Наумкин. -М.: ГРВЛ, 1982,

والشريعة. ومع ذلك، لم تنقذه تلك المعارف العميقة بتلك العلوم، والإنجازات التعليمية من هجمات الظالمين، الذين يعدون ممارسة الطب والبيطرة والطبيعية تتعارض مع الإسلام. في «كتاب الإفادة» يظهر البغدادي كعالم ذي دراية واسعة ليس فقط في مجال الطب فقط، ولكن في العلوم الدينية أيضاً. فأوصافه الدقيقة (وإن لم تكن دائماً كاملة) عن فن البناء عند المصريين، والتفريخ، وطرق طهي الطعام، وتقنية قياس منسوب النيل، وعالم الحيوان في مصر وغيرها، تخبرنا عن قوة ملاحظته الاستثنائية، وصدقته، والفهم العميق للظواهر التي يقوم بوصفها.

ومن المثير للاهتمام، وصف حضانات الدواجن المنزلي في القرون الوسطى. وربما قد تحصل المصريون على هذا الفن عن طريق الوراثة من قدماء المصريين، حيث إنه ظهر لأول مرة في مصر الفرعونية، وقد ورد ذكره عند أرسطو أيضاً⁵⁷. ولم تكن الحضارة القديمة في مصر هي الوحيدة التي اكتشفت التفريخ في الحضارة، فقد كان معروفاً في الصين أيضاً، حيث أنهم تمكنوا عن طريقها (ولكن بتقنية مختلفة بعض الشيء) من الحصول على فراخ البط، وكذلك في الهند⁵⁸.

ذكر جميع الرحالة تقريباً، الذين زاروا مصر في العصور الوسطى والعصر الحديث هذه الحرفة في قصصهم. وقد كتب الحاج الألماني «بيرنارد برايدنباخ» الذي زار مصر في عام 1483 عن معمل الفروج الذي عاينه بنفسه: «في وقت معين من السنة يضعون هناك من 3000 إلى 4000 بيضة دجاج، وبط، وأوز وحمام. ثم يغطونها بالسماد الطبيعي، ومن خلال استمرار دفء النار المتقدمة ينعشون البيض. وتدب الحياة في صفار البيض، وسرعان ما ترى الكتاكيت تفسدون أي مساعدة من الأمهات، ثم يرسلونهم إلى الحقل مع الراعي مثلهم مثل الأغنام، أو يبيعونهم في السوق⁵⁹».

57 - Мед, Адам. Мусульманский Ренессанс / Адам Мед // Пер. с нем., библиография и указатель А. Е. Бертельса; отв. ред. В. И. Беляев. – М.: ИВЛ, 1966.

58 - *Насир-и Хусрау*. Сафар-намэ / Насир-и Хусрау. // Пер. с перс. и вступительная статья Е. Э. Бертельса. – М.–Л.: Academia, 1933.

59 - Персидско-русский словарь. Т. 1–2. – М.: Русский язык, 1983.

وقد ذكر «ليون الأفريقي» الفقس الصناعي، غير أن وصفه يشهد على أنه في القرن الخامس عشر، قد اختلف تفريخ الطيور عن ذلك الذي لاحظته البغدادي قبل قرنين من ذلك الزمان. وقد حدثت تغييرات كبيرة أخرى في القرن التاسع عشر، حين وصفه المستعرب الإنجليزي الشهير إدوارد لين⁶⁰ بالمناسبة، فإن لين الذي ترك لنا وصفاً ممتازاً لأخلاق وعادات المصريين في ذلك الوقت، في رأينا، كان بلا شك قد اطلع على كتاب البغدادي وكان أحياناً «يسير على خطاه» بشكل واضح .

من المثير للدهشة، أن مصر قد سبقت أوروبا بمدى واسع في معرفة التفريخ الصناعي، حيث لم تنتشر هذه الحرفة هناك إلا في القرن الثامن عشر (كل التجارب قبل ذلك باءت بالفشل) وحتى بداية القرن العشرين كان مربو الدواجن الأوروبيون، عادة ما يدرسون تقنيّة الفقس التي كان يستخدمها المصريون.⁶¹ وقد تمت الإشارة إلى أن المصريين يعملون منذ فترة طويلة في مجال تربية الدواجن الاصطناع؛ لأن دجاجهم غير قادر على احتضان البيض⁶². وقد دحض هذا الادعاء «أ. و. جرونخالدت» المتخصص الألماني في تربية الدواجن وبين أن الاستخدام الواسع لمعامل الفروج يعود للربحية العالية لهذه الحرفة، وسعى المصريين إلى تحقيق الربح⁶³، ناهيك عن المكانة الهامة التي تشغلها لحوم الدواجن في نظامهم الغذائي⁶⁴.

60 - Резван, Е.А. Исследования по терминологии Корана: сура; «абд» («ибад», «абид») [Аллах]; умма / Е. А. Резван // Проблемы арабской культуры. – М.: Наука, 1987. – С. 219231-

61 - Хинц, В. Мусульманские меры и веса с переводом в метрическую систему / В. Хинц // Пер. с нем. Ю. Э. Брегеля. – М.: 1970.

62 - [Йакут] Ал-шайх ал-имам Шихаб ал-Дин Аби Абдаллах Йакут б. Абдаллах ал-Хамави ал-Руми ал-Багдади, كتاب مؤدجم ал-Булдан, 10 муджалладат, ал-Кахира, 1906 [Шейх имам Шихаб ал-Дин Аби Абдаллах Йакут б. Абдаллах ал-Хамави ал-Руми ал-Багдади, Словарь стран, в 10 томах, Каир, 1906].

63 - Ал-Калашканди, Абу ал-Аббас Ахмад, كتاب субх ал-ашиа في كتيبات ал-инشا. Т. 1-13. – Каир, 1913/1919-.

64 - Ал-Макризи, Таки ал-Дин Ахмад б. 'Али. كتاب ал-мавалз ва-л-тибар фи зикр ал-хитат ва-л-асар, дж. 1-3, ал-Кахира: Булак, 1853 [Ал-Макризи, Таки ал-Дин Ахмад б. 'Али. Книга наставлений и рассмотрения в упоминание земель и памятников, тт. 1-3. – Каир: Булак, 1853].

من المهم أيضاً أن عبد اللطيف لم يقدم فقط وصفاً مفصلاً للتربية الاصطناعية للدواجن، وأجهزة معامل الفروج، ولكنه تطرق أيضاً للجوانب الاجتماعية لهذه الحرفة، خاصة، توافر مهن وثيقة الصلة بهذه الحرفة. فبالإضافة إلى أولئك الذين يعملون مباشرة في الحاضنات، كان هناك جماعة من الناس ترتبطاً ارتباطاً وثيقاً بهذه الحرفة مثل موردي الوقود للحاضنات (السماد الطبيعي الجاف)، وموردي البيض وبائعي الأفراخ .

ويعد وصف البغدادى لحرفة البناء عند المصريين، من الأمور الشائقة جداً. حيث قدم رحالة العصور الوسطى والعالم الموسوعي تصنيفاً مفيداً (على الرغم من أنه بعيد الشمولية) للمباني مثل القصر (الدار)، وسوق مسقوف (قيصارية) والبيت الكبير (ربع)، والحمام، ومعمل الفروج. وقد ناقش بالتفصيل المواد التي استخدمها المصريون في البناء. ومن الأمور الطريفة التي ذكرها البغدادى الصرف الصحي داخل البيوت والتي طبقاً للبغدادى متين جداً وكذلك التهوية. وللحقيقة فإن العالم لا يتحدث عن تفاصيل جهاز التهوية (بازاخذش)⁶⁵.

وجدير بالذكر أيضاً، أن عبد اللطيف لدى وصفه لموضوع الفقس الصناعي، أورد قائمة بالتخصصات مثل: المهندس والبنا والغواص المتخصص في حفر الحفر الخاصة بأعمدة الأساس والآبار. ولكنها أيضاً غير مكتملة⁶⁶.

وليس بأقل طرافة، وصف عبد اللطيف للحرف اليدوية الأخرى ومجالات التجارة، على الرغم من أنه في « كتاب الإفادة » لم يوليها مكاناً كبيراً. غير أنه أفاض في وصف حياة المدن في مصر، في ذلك الوقت، فمن كتاب البغدادى يتسنى لنا أن نعرف كيفية استحمام المصريين في الحمامات، وأنواع الصابون، الذي كانوا يستخدمونه أثناء ذلك، وماذا كانوا يأكلون، وماهي الأطباق التي كانوا يقومون بإعدادها، وكذلك أسعار العديد من السلع في ذلك الوقت .

65 - De Sacy, Sylvestre. Relation de l'Egypte, par Abd Allatif, médecin arabe de Baghdad... le tout traduit et enrichi de notes historiques et critiques par Sylvestre de Sacy / Sylvestre De Sacy.- P., 1810.

66 - Dozy, R. Supplément aux dictionnaires arabes. T. 1-2./ R. Dozy - Leide, Brill, 1927.

بطبيعة الحال، لا ينبغي لنا أن نبالغ في تقدير كتاب البغدادي، كمصدر للمعلومات عن تاريخ مصرفي القرون الوسطى، ولكن بدونه، ستكون معارفنا عن تلك الحقبة في تاريخ هذا البلد غير مكتملة. فهذا الكتاب قد كتب بطريقة رائعة، وجدير بأن يقرأه كل من يهتم بالشرق. ولا يمكن للتفاصيل المروعة عن التدهور الأخلاقي للشعب في الأيام الرهيبة من الجوع والمرض اللذان دمرا المدن المصرية في بداية القرن الثالث عشر، سوى جذب انتباه القارئ الحديث .

أصبح كتاب «الإفادة» معلوماً لدى المستشرقين الأوروبيين في وقت مبكر. ففي بداية القرن الثامن عشر، جلب بوكوك الأكبر مؤسس الاستعراب الإنجليزي مخطوطة كتاب «الإفادة» إلى أوروبا. وقد ترجمت إلى الألمانية واللاتينية، ثم الإنجليزية والفرنسية⁶⁷. ولعل الترجمة العلمية الأكثر أهمية والكاملة لكتاب «الإفادة» كانت الترجمة الفرنسية التي اضطلع بها سيلفستر دي ساسي المستشرق الأوروبي الكبير، والذي ضمن النسخة التي صدرت في عام ١٨١٠ بعنوان «وصف مصر» تعليقات مفصلة. وفي العالم العربي نشرت دراسات خاصة عن كتاب البغدادي من جانب بعض الكتاب المشهورين مثل عبد الله عنان (١٩٢١)، وسلامة موسى (١٩٣٤). قام سلامة موسى - فقط - بنقل نسخة طبق الأصل للمخطوطة من الطبعة الإنجليزية، ولم يضمنها أي تعليقات، وقد اخترع لها عنواناً جديداً وهو «عبد اللطيف البغدادي في مصر». في عام ١٩٨٢ م قام الباحث السوري أحمد غسان سبانو بنشر «كتاب الإفادة» ومقتطفات خاصة بالبغدادي من أعمال بن أبي أصيبعة وابن القفطي كملحق لهذا الكتاب. وفي عام ١٩٩٢ نشر النص العربي «لكتاب الإفادة» مع تعليقات دي ساسي في ألمانيا في سلسلة «الجغرافيا العربية»⁶⁸.

67 - Lane, E.W. Arabic-English Lexicon. 8 volumes./ E.W. Lane. - London-Edinburgh, 1863-1893.

68 - Shorter Encyclopaedia of Islam / Eds: H.A.R. Gibb and J.H.Kramers. - Leiden, E.J.Brill, 1974.

وفي عام ١٩٦٤، نشرت ترجمة كاملة جديدة لكتاب البغدادي باللغة الإنجليزية قام بها «كمال حفوظ زاند» والزوجين فيديانوف جون وإيفا «وأسموها» المفتاح الشرقي^{٦٩}. وتمثل هذه المطبوعة أهمية خاصة للمتخصصين حيث إنه بجانب الترجمة تتضمن نسخة طبق الأصل من المخطوطة كاملة. وقد أظهرت المقارنة التفصيلية التي عقدتها بين الترجمتين الإنجليزية والفرنسية والنص العربي، أن دي ساسي في سعيه لجعل النص في متناول القاري، قام بإدراج عدد كبير من الإضافات الخاصة والتوضيحات، غير أنه لم يقيم بأي حال من الأحوال بتمييزها عن النص الأصلي (وهذا المؤشر لا يقدر في كفاءة الباحث الرائع والمحلل للنصوص دي ساسي، ولكنها كانت ثقافة سائدة آنذاك في نشر ترجمات المخطوطات الشرقية). وكذلك الحال بالنسبة للمترجمين الإنجليز، ذلك أنه بسبب بعض المطابقات، يتولد أحياناً انطباع أن ترجمتهم جزئياً ليست منقولة عن النص العربي، بل عن الترجمة الفرنسية. بالإضافة إلى ذلك، فإنه ترجمتهم تحتوي على عدد كبير من الأخطاء والمغالطات، التي خلت منها ترجمة دي ساسي.

وقد حاول واضعوا هذا المطبوعة جعلها مفيدة لكل المتخصصين، ومثيرة للقاعدة العريضة من القراء. وتتضمن ترجمتنا تعليقات أشرنا فيها إلى خصائص وبعض عيوب الترجمات الأخرى إلى اللغات الأوروبية. ولعقد المقارنات نورد معلومات من مصادر أخرى، لمساعدة القاري على فهم النص بشكل أفضل. تم إنجاز الترجمة الروسية من المخطوطة الأصلية، وطبقاً لصفحات النسخة طبق الأصل المنشورة بالتوازي معها. وتوجد المخطوطة في مكتبة بودليان في أكسفورد، كما توجد نسخة منها في المتحف البريطاني (عربي ٩٦٠). وتحتوي المخطوطة على ١٣٣ صفحة قياس ٢٠ في ٢٥ سم بواقع ١٣ سطر، في كل صفحة. كما توجد نسخة أخرى من المخطوطة في الرباط بالمغرب. وعلى حد علمنا لا توجد نسخ أخرى من مخطوطة «كتاب الإفادة».

69 - Volney M. C.-F. Voyage en Syrie et en Egypte, les années 1783, 1784 et 1785. T. 1-2./ M. C.-F. Volney. - P., 1807.

تم تزويد الترجمة الروسية المنشورة بقائمة تضم : مهن الحرفيين والحيوان والنبات ، بالإضافة إلى فهارس كتبت فيها الأسماء العربية ، والتعريفات الجغرافية والمصطلحات بشكل كامل ، مع وضع جميع علامات التشكيل . وتمت الاستعانة بترجمة « إى . يو . كراتشكوفسكي » للقرآن عند الاستشهاد بالآيات .

obeikan.com

القسم الأول - الفصل الثالث

عن الحيوانات المميزة بالنسبة له

في هذا «القسم» تم إدراج تفريخ الكتاكيت باستخدام السماد العضوي. قلما ترى في مصر، فراريج عن حضان الدجاجة، وربما لم يفرقوه أيضاً، وإنما ذلك عندهم صناعة ومعيشة يتجر فيها، ويكتسب منها. وتجد في كل بلد من بلادهم مواضع عدة تعمل ذلك، ويسمى الموضع معمل الفروج. وهذا المعمل عبارة عن ساحة كبيرة يتخذ فيها من البيوت التي يأتي ذكرها ما بين عشرة بيوت إلى عشرين بيتاً، في كل بيت ألفي بيضة، ويسمى بيت الترقيد. وصفته أن يتخذ بيت مربع طوله ثمانية أشبار في عرض ستة في ارتفاع أربعة. ويجعل له باب في عرض سعته شبران وعقد في مثلثه وتجعل فوق الباب طاقة مستديرة قطرها شبر ثم تسقف بأربع خشبات وفوقها سدة قصب يعني نسيجاً منه، وفوقه ساسي وهو مشاققة الكتان وحطبه.

ومن فوق ذلك، الطين ثم يرصص بالطوب ويطين سائر البيت ظاهره وباطنه وأعله وأسفله حتى لا يخرج منه بخار. وينبغي أن يتخذ في وسط السقف شباكاً سعته شبر في شبر، فهذا السقف يحكي صدر الدجاجة. ثم تتخذ حوضين من الطين المخمر بساس طول الحوض ستة أشبار، وعرضه شبر ونصف، وسمكه عقدة أصبع وحيطانه نحو أربعة أصابع.

ويكون هذا الحوض لوحاً واحداً تبسطه على أرض معتدلة. وهذا الحوض يسمى الطاجن. فإذا جف الطاجن ان ركبتهما على طرف السقف: أحدهما على وجه الباب، والآخر قبالة على الطرف الآخر تركيباً محكماً وأخذت وصولهما بالطين أخذاً متفقاً وينبغي أن يكون قعود الطاجنين على خشب السقف بحيث يماسانه. وهذان الطاجنان تحاكي بهما جناح الدجاجة، ثم

يفرش البيت بقفّة تبين ويمهد ويفرش فوقه ضب أو ديس، أي حصيراً بردياً على مقداره سواء، ثم يرصف فوقه البيض رصفاً حسناً، بحيث يتماس ولا يتراكب، لتتواصل الحرارة فيه ومقدار ما يسع هذا البيت، المفروض ألفي بيضة. وهذا الفعل يسمى الترقيد ضقة الحضانة تبتدىء وتسد الباب بأن ترسل عليه لبدأ مهندماً، ثم تسد الطاقة بساسي والشباك أيضاً بساسي وفوقه زبل حتى لا يبقى في البيت منفس للبخر.

وتلقى في الطاجنين من زبل البقر اليابس قفتين، وذلك ثلاث وبيات. وتوقد فيه نار سراج من جميع جهاته وتهمله ريثما يتحول إلى رماد. وأنت تتفقد البيض ساعة بعد أخرى بأن تضعه على عينك، وتختبر حرارته. وهذا الفعل يسمى الزواق، فإن وجدته يلذع العين قلبته ثلاث تقليبات على ثلاث دفعات تجعل أسفله أعلاه، وأعلاه أسفله.

وهذا يحاكي تقليب الدجاجة للبيضة بمنقارها، وتقدها إياها بعينها. وهذا يسمى السماع الأول، فإذا صار الزبل رماداً أزلته وتركته بلا نار إلى نصف النهار، إن كان ترقيده بكرة. وإن كان ترقيده من أول الليل حرسته إلى أن تحمى وتسمع النار كالسياقة المتقدمة ثم تخلي الطاجنين من النار إلى بكرة، ثم تجعل في الطاجن الذي على باب البيت من الزبل ثلاثة أقدام، وفي الطاجن الذي على صدر البيت قدحين ونصف، ومد الزبل بمروء غليظ واطرح في كل منهما النار في موضعين منه، وكلما خرجت من البيت بعد تفقده فارخ الستر، وإياك أن تغفل عنه لئلا يخرج البخار ويدخل الهواء، فيفسد العمل، وإذا كان وقت العشاء وصار الزبل رماداً، ونزل الدفء إلى البيض أسفل البيت، فغير الرماد من الطاجن بزبل جديد مثل الأول، وأنت كل وقت تلمس البيض وتزوقه بعينك، فإن وجدت حرارته زائدة عن الاعتدال تلذع العين، فاجعل مكان الثلاثة الأكيال الطاجن الباب كيلين وربعاً، وفي طاجن الصدر كيلين فقط. وعليك أن تواصل تغيير الرماد وتجديد الزبل والإيقاد، حتى لا ينقطع الدفء مدة عشرة أيام بمقدار ما تكمل الشخصوس بمشيئة الله وقدرته، وذلك نصف عمر الحيوان، ثم تدخل البيت بالسراج.

وترفع البيض واحدة واحدة، وتقيمها بين وبين السراج، فالتى تراها سوداء ففيها الفرخ، والتي تراها شبه شراب أصفر في زجاج لا عكر فيه، فهي لاح بلا بذر وتسمى الأرملة، فأخرجها فلا منعة فيها، ثم عدل البيض في البيت بعد تنقيته، وأخرج اللاح عنه وهذا الفعل يسمى التلويح .

ثم تصبح بعد التلويح تنقص الزيل من العيار الأول ملء كفك من كل حوض بكرة ومثله عشية، حتى ينصرم اليوم الرابع عشر ولم يبق من الزيل شيء. فحينئذ يكمل الحيوان ويشعرن ويتفتح، فاقطع إذا النار عنه، فإن وجدت زائد الحرارة يحرق العين، فافتح الطاقة التي على وجه الباب وابقها كذلك يومين، ثم ذقه على عينك فإن وجدت غالب الحرارة، فافتح نصف الشباك وأنت مع ذلك تقلبه وتخرج البيض الذي في الصدر إلى جهة الباب. والبيض الذي في جهة الباب ترده إلى الصدر حتى يحمى البارد الذي كان في جهة الباب، ويستريح الحار الذي في الصدر يشم الهواء، فيصير في طريقة الاعتدال ساعة يحمى وساعة يبرد، فيعتدل مزاجه، وهذا الفعل يسمى الحضانة كما يفعل الطير سواء، وتستمر على هذا التدبير دفعتين في النهار ودفعة في الليل إلى تمام تسعة عشر أيضاً، فإن الحيوان ينطق في البيض بقدرة الله تعالى، وفي اليوم العشرين يطرح بعضه ويكسر القشر ويخرج، وهذا يسمى « التطريح » وعند تمام اثنين وعشرين يوماً يخرج جميعه، وأحمد الأوقات لعمله أمشير وبرمها وبرمودة، وذلك في شباك وأذار ونيسان، لأن البيض في هذه المدة يكون غزير الماء كثير البذرة صحيح المزاج والزمان معتدل صالح للنشأة والتكوين. وينبغي أن يكون البيض طري وفي هذه الأشهر يكثر البيض أيضاً .

ومن ذلك الحمر، والحمير بمصر فارهة جداً، وتركب بالسروج وتجري مع الخيل والبغال النفيسة ولعلها تسبقها، وهي مع ذلك كثيرة العدد. ومنها ما هو غال بحيث إذ ركب بسرغ اختلط مع البغلات، يركبه رؤساء اليهود والنصارى، ويبلغ ثمن الواحد منها عشرين ديناراً إلى أربعين. وأما بقرهم

فعظيمة الخلق حسنة الصور، ومنها صنف هو أحسنها وأغلاها قيمة يسمى البقر الخيسية، وهي ذوات قرون كأنها القسي غزيرات اللبن .

وأما خيلها فعتاق سابقة، ومنها ما يبلغ ثمنه ألف دينار إلى أربعة آلاف، وهم ينزون الخيل على الحمير والحمير على الخيل، فتأتي البغلة وأما أتان، ولكن هذه البغال لا تكون عظيمة الخلق كالتى أمهاتها مهورة؛ لأن الأم هي التي تعطي المادة .

ومن ذلك التماسيح، والتماسيح كثيرة في النيل وخاصة في الصعيد الأعلى وفي الجنادل، فإنها تكون في الماء وبين صخور الجنادل كالودود كثيرة، وتكون كباراً أو صغاراً، وتنتهي في الكبر إلى نيف وعشرين ذراعاً طولاً، وتوجد في سطح جسده مما يلي بطنه سلعة كالبيضة تحتوي على رطوبة دموية، وهي كنافجة المسك في الصورة والطيب، وخبرني الثقة أنه يندر فيها ما يكون في غلو المسك لا ينقص عنه شيئاً. والتمساح يبيضُ بيضاً شبيهاً ببيض الدجاج، ورأيت في كتاب منسوب إلى أرسطو ما هذه صورته، قال: التمساح كبده تهيج الجماع وكليتاه وشحمه في ذلك أبلغ، ولا يعمل في جلده الحديد ومن فقار رقبتة إلى ذنبه عظم واحد، ولهذا، إذا انقلب على ظهره لم يقدر أن يرجع، قال: ويبيضُ بيضاً طويلاً كالإوز، ويدفنه في الرمل، فإذا أخرج كان كالحرادين في جسمها وخلقتها، ثم يعظم حتى يكون عشرة أذرع، ويبيض ستين بيضة، لأن خلقتها تجري على ستين سنًا وستين عرقاً، وإذا سفد منى ستين مرة، وقد يعيش ستين سنة .. ومن ذلك الدلفين، ويوجد في النيل وخاصة قرب تيس ودمياط .

ومن ذلك الاسقنقور، ويكون بالصعيد وبأسوان كثيراً ويكون من نتاج التمساح في البر، وهو صنف من الورل بل هو وزل، إلا أنه قصير الذنب، والورل والتمساح والحرذون والاسقنقور وسميكة صيدا، لها كلها شكل واحد، وإنما تختلف بالصغر والكبر والتمساح أعظمها، وسميكة صيدا أصغرها

تكون بقدر الإصبع وتصلح لما يصلح له الاسقنقور من تسخين الأعضاء والأنعاط، وكأن التمساح ورل بحري، والورل تمساح بري، والجميع يبيض بيضاً، السقنقور يكون بشطوط النيل ومعيشته في البحر السمك الصغار، وفي البر القطا ونحوه، ويستترط غذاء استراطاً، ويوجد لذكورته خصيان كخصي الديكة وفي مقدارهما ومواضعهما، وإناثه تبيض فوق العشرين بيضة، وتدفعها في الرمل فيكمل كونها بحرارة الشمس، فعلى هذا، إنما هو نوع برأسه، وقال ديوسقوريدس: إنه يكون بنواحي القلزم وبمواقع من بلاد الهند وبلاد الحبشة، ويفارق الورل بمأواه، فإن الورل جبلي والسقنقور بري مائي، لأنه يدخل في ماء النيل، ثم أن ظهر الورل خشن صلب، وظهر السقنقور لين ناعم، ولون الورل أصفر أغمبر، ولون السقنقور مدبج بصفرة وسواد، والمختار من الاسقنقور إنما هو الذكر دون الأنثى ويصاد في الربيع؛ لأنه وقت هيجانه للسفاد، فإذا أخذ ذبح في مكانه، وقطعت أطرافه ولا يستقصى قطع ذنبه، ويشق جوفه ويخرج حشوه إلا كشيته وكلاه. ثم يحشى ملحاً ويخاط ويعلق في الظل حتى يجف، ويرفع ويسقى من كلاه ومتمنه وشحمه وسرته من مثقال إلى ثلاثة مثاقيل بماء العسل، أو بمطبوخ أو بصفرة بيض نيمرشت وحده أو مع بزر جرجير وخصي ديوك مجفف مدقوق، وقد يفعل ملح ذلك إذا خلط بالأدوية البائية، وقد يركب مع غيره من الأدوية، إلا أن استعماله مفرداً أقوى له.

ومن ذلك فريس البحر، وهذه توجد بأسافل الأرض وخاصة ببحر دمياط، وهو حيوان عظيم الصورة، هائل المنظر شديد البأس، يتبع المراكب فيغرقها ويهلك من ظفره منها، وهو بالجاموس أشبه منه بالفرس، لكنه ليس له قرن وفي صوته سهولة تشبه سهيل الفرس بل البغل، وهو عظيم الهيئة، هريت الأشداق، حديد الأنياب، عريض الكلكل، منتفخ الجوف، قصير الأرجل، شديد الوثب، قوي الدفع، مهيب مخوف الغائلة، وخبرني من اصطادها مرات وشقها وكشف عن أعضائها الباطنة والظاهرة، إنه خنزير كبير وأن

أعضاءها الباطنة والظاهرة، لا تغادر من صورة الخنزير شيئاً، إلا في عظم الخلقة، ورأيت في كتاب ينطواليس في الحيوان ما يعضد ذلك وهذه صورته، قال: خنزيرة الماء تكون في بحر مصر، وهي تكون في عظم الفيل ورأسها يشبه رأس البغل ولها شبه خفّ الجمل، قال: وشحم متنها إذا أذيب ولت بسويق وشريته امرأة أسمنّها حتى تحوز المقدار، وكانت واحدة ببحر دمياط، قد ضربت على المراكب تغرقها. وصار المسافر في تلك الجهة مغرراً، وضربت أخرى بجهة أخرى، على الجواميس والبقر وبني آدم، تقتلهم وتفسد الحرث والنسل. وأعمل الناس في قتلها كل حيلة من نصب الحبال الوثيقة، وحشد الرجال بأصناف السلاح وغير ذلك، فلم يجد شيئاً، فاستدعى بنفر من المريس - صنف من السودان - زعموا أنهم يحسنون صيدها وأنها كثيرة عندهم ومعهم مزاريق فتوجهوا نحوها فقتلوها في لمح البصر وبأهون سعي، وأتوا بها إلى القاهرة، فشاهدتها فوجدت جلدها أسود أجرد ثخيناً، وطولها من رأسها إلى ذنبها عشر خطوات معتدلات، وهي في غلظ الجاموس نحو ثلاث مرات، وكذلك رقبته ورأسها وفي مقدم فمها اثنا عشر ناباً: ستة من فوق، وستة من أسفل. المتطرفة منها نصف ذراع زائد، والمتوسط أنقص بقليل، وبعد الأنياب أربعة صفوف من الأسنان على خطوط مستقيمة في طول الفم، في كل صف عشرة، كأمثال بيض الدجاج المصطف: صفان في الأعلى وصفان في الأسفل، على مقابلتهما، وإذا فغر «فوها» وسع شاه كبيرة، وذنبها في طول نصف ذراع زائد، أصله غليظ وطرفه كالإصبع، أجرد كأنه عظم شبيه بذنب الورل، وأرجلها قصار طولها نحو ذراع وثلث ولها شبه بخف البعير، إلا أنه مشقوق الأطراف بأربعة أقسام وأرجلها في غاية الغلظ، وجملة جثتها كأنها مركب مكبوب لعظم منظرها، وبالجملة، هي أطول وأغلظ من الفيل، إلا أن أرجلها أقصر من أرجل الفيل بكثير، ولكن في غلظها أو أغلظ منها. ومن ذلك السمكة المعروفة بالرعاد، لأنه من أمسكها وهي حية ارتعد رعدة لا يمكنه معها أن يتماسك، وهي رعدة بقوة وخدر شديد وتمثل في الأعضاء، وثقل بحيث لا يقدر أن يملك نفسه، ولا أن يمسك بيده شيئاً أصلاً، ويتراقى الخدر إلى عضده وكتفه وإلى

جنبه بأسره حينما يلمسها أيسر لمس في أسرع وقت، وخبرني صيادها أنها إذا وقعت في الشبكة، اعترى الصياد ذلك إذا بقي بينها وبينه مقدار شبر أو أكثر من غير أن يضع يده عليها. وهي إذا ماتت بطلت هذه الخاصة منها، وهي من السمك الذي لا تفليس له ولحمه قليل الشوك كثير الدسم، ولها جلد ثخين في ثخن الإصبع، ينسلخ منها بسهولة ولا يمكن أكله، ويوجد فيها الصغير والكبير ما بين رطل إلى عشرين رطلاً. وذكر من يكثر السباحة بنواحيها أنها إذا مست بدن السابح خدر الموضع أين كان ساعة بحيث يكاد يسقط، وتكثر بأسافل الأرض وبالإسكندرية.

وأما أصناف السمك عندهم فكثيرة، لأنه يجتمع إليهم سمك النيل وسمك البحر الملح. ولا يفي القول بنعتها لكثرة أصنافها واختلاف أشكالها وألوانها، ومنها الصنف المسمى عندهم ثعبان الماء، وهي سمكة الحية سواء، طولها ما بين ذراع إلى ثلاثة أذرع. ومنها السرب، وهي سمكة تصاد من بحر الإسكندرية يحدث لأكلها أحلام رديئة مفزعة، ولا سيما الغريب ومن لم يعتدها، والأحداث المضحكة فيها مشهورة، ومن ذلك الترسة. وتسمى لجاة. وهي سلحفاة عظيمة وزنها نحو أربعة قناطير، إلا أن جفنتها. أعني عظم ظهرها. كالترس له أفاريز خارجة عن جسمها نحو شبر، ورأيته بالإسكندرية يقطع لحمها ويبيع كلحم البقر.

وفي لحمها ألوان مختلفة ما بين أخضر وأحمر وأصفر وأسود وغير ذلك من الألوان، وتخرج من جوفها نحو أربع مائة بيضة كبيض الدجاج سواء، إلا أنه لين القشر، واتخذت من بيضها عجة فلما جمد، صار ألواناً ما بين أخضر وأحمر وأصفر شبيهاً بلوان اللحم، ومن ذلك السرلينس، وهو صدف مستدير إلى الطول أكبر من الظفر ينشق عن رطوبة مخاطبية بيضاء ذات نكتة سوداء يعافها الناظر، وفيه ملوحة عذبة زعموا ويبيع بالكيل.

obeikan.com

الجزء الثاني - الفصل الثاني

حوادث سنة خمسة وتسعين وخمسمائة

ودخلت سنة سبع مفرسة أسباب الحياة، وقد يئس الناس من زيادة النيل، وارتفعت الأسعار، وأقحطت البلاد وأشعر أهلها البلاء، وهرجوا من خوف الجوع، وانضوى أهل السواد والريف إلى أمهات البلاد، وانجلى كثير منهم إلى الشام والمغرب والحجاز واليمن، وتفرقوا في البلاد ومزقوا كل ممزق، ودخل إلى القاهرة ومصر منهم خلق عظيم، واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت، وعند نزول الشمس الحمل وبى الهواء ووقع المرض والموتان، واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتة والجيف والكلاب والبعر والأرواث، ثم تعدوا ذلك إلى أن أكلوا صغار بني آدم. فكثيراً ما يُعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون، فيأمر صاحب الشرطة بإحراق الفاعل لذلك والأكل.

ورأيت صغيراً مشوياً في قفة، وقد أحضر إلى دار الوالي ومعه رجل وامرأة يزعم الناس أنهما أبواه، فأمر بإحراقهما، ووجد في رمضان وبمصر رجل وقد جردت عظامه عن اللحم، فأكل وبقي قفصاً كما يفعل الطباخون بالغنم، ومثل هذا أعوز جالينوس مشاهدته، ولذلك تطلبه بكل حيلة، وكذلك كل من أثر الاطلاع على علم التشريح. وحينما نشم الفقراء في أكل بني آدم، كأن الناس يتناقلون أخباره، ويفيضون في ذلك استفضاعاً لأمره، وتعجباً من ندوره، ثم اشتد قربهم إليه واعتيادهم عليه، بحيث اتخذوه معيشة ومطية ومدخراً وتفننوا فيه، وفشا عنهم ووجد بكل مكان من ديار مصر، فسقط حينئذ التعجب والاستبشاع واستهجن الكلام فيه والسماع له. ولقد رأيت امرأة يسحبها الزعاع في السوق وقد ظفر معها بصغير مشوي تأكل منه، وأهل السوق منصرفين عنها ومقبلين على شئونهم، وليس فيهم من يعجب لذلك أو ينكره، فعاد تعجبهم أشد، وما ذلك إلا لكثرة تكرره

على إحساسهم، حتى صار في حكم المألوف الذي لا يستحق أن يتعجب منه .
ورأيت قبل ذلك بيومين صبياً نحو الرهاق مشوباً وقد أخذ به شابان أقرا بقتله
وشيه وأكل بعضه .

وفى بعض الليالي بعد صلاة المغرب كان مع جارية فطيم تلاعبه، لبعض
المياسير فيبينما هو إلى جانبها، اهتبت غفلتها عنه صعلوكة فبقرت بطنه
وجعلت تأكل منه نياً... وحكى لي عدة نساء أنه يتوثب عليهن لاقتناص
أولادهن ويحامين عنهم بجهدن . ورأيت مع امرأة فطيماً لحيماً فاستحسنته
وأوصيتها بحفظه، فحككت لي أنها بينما تمشي على الخليج انقضت عليها
رجل جاف ينازعها ولدها، فترامت على الولد نحو الأرض حتى أدركها فارس
وطرده عنها، وزعمت أنه كان يهمل بكل عضو يظهر منه أن يأكله، وأن
الولد بقي مدة مريضاً لشدة تجاذبه بين المرأة والمفترس، وتجد أطفال الفقراء
وصبيانهم ممن لم يبق له كفيل ولا حارس، منبئين في جميع أقطار البلاد
وأزقة الدروب كالجراد المنتشر، ورجال الفقراء ونساءهم يتصيدون هؤلاء
الصغار، ويتغذون بهم. وإنما يعثر عليهم في الندر، إذا لم يحسنوا التحفظ .

وأكثر ما كان يطلع من ذلك مع النساء، وما أظن العلة فيه إلا أن النساء
أقل حيلة من الرجال، وأضف عن التباعد والاستتار، ولقد أحرقت بمصر خاصة
في أيام يسيرة ثلاثون امرأة، كل منهن تقرأ أنها أكلت جماعة، فرأيت امرأة
قد أحضرت إلى الوالي وفي عنقها طفل شوي، فضربت أكثر من مائتي سوط،
على أن تقر فلا تحير جواباً، بل تجدها قد انخلت عن الطباع البشرية ثم
سحبت فماتت. وإذا أحرقت أكل، أصبح وقد صار مأكولاً؛ لأنه يعود شواء
ويستغني عن طبخه، ثم فشا فيهم أكل بعضهم بعضاً حتى فني أكثرهم،
ودخل في ذلك جماعة من المياسير والمسائير، منهم من يفعله حاجة، ومنهم من
يفعله استطابة، وحكى لنا رجل أنه كان له صديق أدقع في هذه النازل،
فدعاه صديقه هذا إلى منزله ليأكل عنده على ما جرت به عادتهما قبل، فلما
دخل منزله وجد عنده جماعة عليهم رثاثة الفقر وبين أيديهم طبخ كبير

اللحم وليس معه خبز، فراهبه ذلك وطلب المرحاض فصادف عنده خزانة مشحونة برمم الأدمي، وباللحم الطري فارتاع وخرج فازاً .

وظهر من هؤلاء الخبيثاء من يصيد الناس بأصناف الحبائل، ويجتلبونهم إلى مكانهم بأنواع المخاتل. وقد جرى ذلك لثلاثة من الأطباء : أما أحدهم فإن أباه خرج فلم يرجع، أما الآخر فإن امرأة أعطته درهمين على أن يصحبها إلى مريضها فلما توغلت به مضايق الطرق، استراب وامتنع عنها وشنع عليها فتركت درهميها. وأما الثالث، فإن رجلاً استصعبه إلى مريضه في الشارع بزعمه، وجعل في أثناء الطريق يصدف بالكسر، ويقول اليوم يغتنم الثواب ويتضاعف الأجر ولمثل هذا فليعمل العاملون، ثم كثر حتى ارتاب منه الطبيب، ومع ذلك فحسن الظن بقلبه، وقوة الطمع تجذبه حتى أدخله داراً خريبة فزاد استشعاره، وتوقف في الدرج، وسبق الرجل فاستفتح، فخرج إليه رفيقه يقول له : هل مع إبطائك حصل صيد ينفع، فخرج الطبيب لما سمع ذلك وألقى نفسه إلى اصطبل من طاقة صادفها السعادة فقام إليه صاحب الإصطبل يسأله عن قضيته فأخفاها عنه خوفاً منه أيضاً ... فقال له : قد علمت حالك فإن أهل هذا المنزل يذبجون الناس بالحيل .

ووجد بأطفيح عند عطار، عدة خوابي مملوءة بلحم الأدمي وعليه الماء والملح، فسألوه عن علته اتخاذه والاستكثار منه، فقال : خفت إذا دام الجذب أن يهزل الناس . وكان جماعات من الفقراء قد أووا إلى الجيزة وتستروا بيوت طين، يتصيدون فيها الناس، ووطن لهم وطلب قتلهم فهربوا، ووجد في بيوتهم من عظام بني آدم شيء كثير، وخبرني الثقة الذي وجد في بيوتهم أربعمائة جمجمة .

ومما شاع وسمع من لفظ الوالي أن امرأة أتته سافرة مذعورة تذكر أنها قابلة، وأن قوماً استدعوها وقدموا لها صحناً فيه سكباج محكم الصنعة مكمل التوابل فألفته كثير اللحم، مبايناً اللحم المعهود، فتقرزت منه ثم

وجدت خلوة بينت صغيرة فسألته عن اللحم، فقالت أنها فلانة السمينة دخلت لتزورنا فذبجها أبي وها هي معلقة إرباً، فقامت القابلة إلى الخزانة فوجدتها أنابير لحم، فلما قصت على الوالي القصة أرسل معها من هجم الدار وأخذ من فيها وهرب صاحب المنزل ثم صانع عن نفسه في خفية بثلثمائة دينار ليحقن بذلك دمه. ومن غريب ما حدث من ذلك، أن امرأة ذات مال ويسار كانت حاملاً وزوجها غائب في الخدمة وكان يجاورها صعاليك، فشمت عندهم رائحة طبخ فطلبت منه كما هي عادة الحبالى فالفته لذيذ فاستزادتهم، فزعموا أنه نفذ فسألتهم عن كيفية عمله فأسروا إليها أنه لحم بني آدم فواطأتهم على أن يتصيّدوا لها الصغار وتجزّل لهم العطاء فلما تكرّر ذلك منها فضريت وغلبت عليها الطباع السبعية، وشى بها جواربها خوفاً منها، فهجم عليها فوجد عندها من اللحم والعظام ما يشهد بصحة ذلك فخبست مقيدة وأرجى قتلها احتراماً لزوجها وإبقاءً على الولد في جوفها .

ولو أخذنا نقص كل ما نرى ونسمع لوقعنا في التهمة أوفي الهذر، وجميع ما حكيناه مما شاهدناه لم نتقصده ولا تتبعنا مظانه وإنما هو شيء صادفناه اتفاقاً بل كثيراً ما كنت أفر من رؤيته لبساعة منظره .

وأما من يتحين ذلك بدار الوالي فإنه يجد منه أصنافاً تحضر مع أناء الليل والنهار، وقد يوجد في قدر واحدة اثنان وثلاثة وأكثر، ووجد بعض الأيام قدر فيه عشر أيدي كما تطبخ أكارع الغنم، ووجد مرة أخرى قدر كبيرة وفيها رأس كبير وبعض الأطراف مطبوخاً بقمح وأصناف من هذا الجنس تفوت الإحصاء . كان عند جامع ابن طولون قوم يتخطفون الناس، ووقع في حبالتهم شيخ كتبي بدين ممن يتبعنا الكتب فأفلت بجريمة الذقن، وكذلك بعض قوام جامع مصر وقع في حبالته قوم آخرين بالقرافة فتداركه الناس فخلص من الوهق وله حصاص وأما من خرج من أهله فلم يرجع إليهم فخلق كثير وحكى لي من أثق به أنه اجتاز على امرأة تجرية وبين يديها ميت قد أنتفخ وتنفجر وهي تأكل من أفخاده فأنكر عليها فزعمت أنه زوجها، وكثير ما يدعي

الآكل أن المأكول ولده أو زوجه أو نحو ذلك، وزئي مع عجوز صغير تأكله فاعتذرت بأن قالت إنما هو ولد ابنتي وليس بأجنبي مني وإن أكله خير من أن يأكله غيري .

وأشبهه هذا كثير جداً حتى أنك لا تجد أحداً في ديار مصر إلا وقد رأى شيئاً من ذلك، حتى أرباب الزوايا والنساء في خدورهن. ومما شاع أيضاً نبش القبور وأكل الموتى وبيع لحمهم، وهذه البلية التي شرحناها وجدت في جميع بلاد مصر ليس فيها بلد إلا وقد أكل فيه الناس أكلاً ذريعاً من أسوان وقوص واليوم والمحلة والإسكندرية ودمياط وسائر النواحي، وخبرني بعض أصحابي وهو تاجر مأمون حين ورد من الإسكندرية بكثرة ما عاين بها من ذلك، وأعجب ما حكى لي أنه عاين رؤوس خمسة صغار مطبوخة في قدر واحدة بالتوابل الجيدة، وهذا المقدار من هذا الاقتصاص كافٍ فإني وإن كنت قد أسهبت أعتقد أنني قد قصرت .

وأما القتل والفتك في النواحي فكثير فاش في كل فج، ولاسيما طريق الفيوم والإسكندرية، وقد كان بطريق الفيوم ناس في مراكب يرخصون الأجرة علي الركاب، فإذا توسطوا بهم الطريق ذبحوهم واقتسموا أسلابهم، وظفر الوالي منهم بجماعة، فمثل بهم، وأقر بعضهم عندما أوجع ضرباً أن الذي خصه دون رفقائه ستة آلاف دينار.

وأما موت الفقراء هزلاً وجوعاً، فأمر لا يطيق علمه إلا الله سبحانه وتعالى، وإنما نذكر منه كالنموذج يستدل به اللبيب على فظاعة الأمر. فالذي شاهدناه بمصر والقاهرة وما تاخم ذلك، أن الماشي أينما كان لا يزال يقع قدمه أو بصره على ميت ومن هو في السياق، أو على جمع كثير بهذه الحال، وكان يرفع عن القاهرة خاصة إلى الميضاة كل يوم ما بين مائة إلى خمس مائة. وأما مصر فليس لموتها عدد، ويرمون ولا يوارون. ثم بأخيه عجز عن رميهم، فبقوا في الأسواق بين البيوت والدكاكين وحولها. والميت منهم

قد تقطع، وإلى جانبه الشواء والخباز ونحوه.. وأما الضواحي والقرى، فإنه هلك أهلها قاطبة إلا ما شاء الله، وبعضهم انجلى عنها، اللهم إلا الأمهات والقرى الكبار كقوص والأشمونين والمحلة ونحو ذلك، ومع هذا أيضاً، فلم يبق فيها إلا تحلة القسم (١٥) وإن المسافر ليمر بالبلدة فلا يجد فيها نافخ ضرمته. ويجد البيوت مفتحة، وأهلها موتى متقابلين، بعضهم قد رم وبعضهم طري وربما وجد في البيت أثاثه، وليس له من يأخذ. حدثني بذلك غير واحد، كل منهم حكى ما يعضد به قول الآخر. قال أحدهم: دخلنا مدينة فلم نجد فيها حيواناً في الأرض ولا في السماء، فتخللنا البيوت، فألفينا أهلها كما قال الله عز وجل «جعلناهم حصيداً خامدين» فتجد ساكن كل دار موتى فيها الرجل وزوجته وأولاده. قال: ثم انتقلنا إلى بلد آخر ذكرنا أنه كان فيه أربع مئة دكان للحياكة، فوجدناها كالتى قبلها في الخراب، وإن الحائك في بير حياكته ميت وأهله موتى حوله، فحضرني قوله تعالى «إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون»، قال: ثم انتقلنا إلى بلد آخر فوجدناه كالذي قبله. ليس به أنيس وهو مشحون بموتى أهله. قال: «واحتجنا إلى الإقامة به لأجل الزراعة، فاستأجرنا من ينقل الموتى مما حولنا إلى النيل كل عشرة بدرهم، ولكن قد بدلت البلاد بالذئاب والضباع ترتع في لحوم أهلها. ومن عجيب ما شاهدت، أني كنت يوماً مشرفاً على النيل مع جماعة، فاجتاز علينا في نحو ساعة نحو عشرة موتى، كأنهم القرب المنفوخة. هذا من غير أن نتصدى لرؤيتهم، ولا أحطنا بعرض البحر. وفي غد ذلك اليوم ركبنا سفينة فرأينا أشلاء الموتى في الخليج، وسائر الشطوط كما شبهها ابن حجر بأنايبش العنصل وخبرت عن صياد بفرضة تنيس أنه مر في بعض نهار أربع مائة غريق، يقذف بهم النيل إلى البحر المالح. وأما طريق الشام فقد تواترت الأخبار أنها صارت مزرعة لبني آدم، بل محصدة، وأنه عادت مأدبة بلحومهم للطير والسباع وإن كلابهم التي صحبتهم من مجلاهم، هي التي تأكل فيهم. وأول من هلك في هذه الطريق أهل الحرف، عندما انتجعوا إلى الشام، وانتشروا في هذه المسافة مع طولها كالجراد المحسوس، ولم تزل تتواصل هلكاهم إلى الآن، وانتهى انتجاعهم إلى الموصل

وبغداد وخراسان وإلى بلاد الروم والمغرب واليمن، ومزقوا في البلاد كل ممزق. وكثيراً ما كانت المرأة تتملص من صبيتها في الزحام فيتضورون حتى يموتوا.

وأما بيع الأحرار، فشاع وذاع عند من لا يراقب الله، حتى تباع الجارية الحسنة بدراهم معدودة، وعرض عليّ جارتان مراهقتان بدينار واحد، ورأيت مرة أخرى جارتين إحداهما بكرينادى عليهما بأحد عشر درهماً. وسألتني امرأة أن اشتري ابنتها وكانت جميلة دون البلوغ بخمسة دراهم، فعرفتني أن ذلك حرام فقالت: خذها هدية. وكثيراً ما يتراعى النساء والولدان الذين فيهم صباحة على الناس بأن يشترهم أو يبيعوهم. وقد استحل ذلك خلق عظيم ووصل سبيهم إلى العراق وأعماق خراسان وغير ذلك».

وأعجب من جميع ما اقتصناه أن الناس مع ترادف هذه الآيات، عاكفون على أصنام شهواتهم لا يراعون، ومنغمسون في بحر ضلالاتهم، كأنهم هم المستثنون، فمن ذلك اتخاذهم بيع الأحرار متجراً ومكتسباً، ومنه عهاتهم بهؤلاء النسوة حتى أن منهم من يزعم أنه افتض خمسين بكراً، ومنهم من يقول سبعين كل ذلك بالكسر. وأما خراب البلاد والقري وخلق المساكن والدكاكين، فهو مما يلزم هذه الجملة التي اقتصناها، ناهيك أن القرية التي كانت تشتمل على زهاء عشرة آلاف نسمة، تمر عليها فتراها «دمنة» وربما وجد فيها وربما لم يوجد، وأما مصر فخلا معظمها، وأما بيوت الخليج وزقاق البركة وحلب والمقس وما تاخم ذلك، فلم يبق فيها بيت مسكوناً أصلاً بعد ما كان كل قطر منها قدر مدينة زحمة من الناس، حتى أن الرباع والمساكن والدكاكين التي في سرّة القاهرة وخيارها أكثرها استحال خراباً. وإن ربعا في أعمار موضع بالقاهرة فيه نيف وخمسون بيتاً كلها خالية سوى أربعة بيوت أسكنت من يحرس الموضع.

ولم يبق لأهل المدينة وقود في تنانيرهم وأفرانهم وبيوتهم، إلا خشب السقوف والأبواب والزروب. ومما يقضي منه العجب أن جماعة من الذين ما زالوا موجودين، سعدوا في دنياهم هذه السنة، فمنهم من أثرى بسبب متجره في القمح، ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل إليه بالإرث، ومنهم من حسنت حاله لا

بسبب معروف، فتبارك من بيده القبض والبسط ولكل مخلوق من عنايته قسط .

وأما خبر النيل في هذه السنة، فإنه احترق في برمودة احتراقاً كثيراً، وصار المقياس في أرض جزروا نحسر الماء عنه نحو الجيزة، وظهر في وسطه جزر عظيمة طويلة ومقطعات أبنية، وتغير الماء في ريحه وطعمه، ثم تزايد التغير ثم انكشف أمره عن خضرة طحلبية، كلما تطاولت الأيام ظهرت وثلث كالتي ظهرت في أبيب السنة الخالية، ولم تزل الخضرة تتزايد إلى آخر شعبان، ثم تناقصت إلى أن ذهبت وبقي في الماء أخيراً، نباتية منبثة فقط، وطاب طعمه وريحه، ثم أخذت في رمضان تنمى وتقوى جريته إلى اليوم السادس عشر منه، فقام فيه ابن أبي الرداد قاع البركة، فكان ذراعين. وأخذ في زيادة ضعيفة بأضعف من السنة الخالية، ولم يزل في زيادة ضعيفة إلى ثامن ذي القعدة وهو السابع عشر من مسرى فزاد إصبعا ثم وقف ثلاثة أيام، فأيقن الناس بالبلاء واستسلموا للهلكة ثم أخذ في زيادات قوية أكثرها ذراع إلى ثالث ذي الحجة وهو السادس من توت فبلغ خمس عشرة ذراعا وست عشرة إصبعا ثم انحط من يومه وأنهزم على فوره ومس بعض البلاد محلة القسم فكانما زارها طيف خياله في الحلم .

وإنما انتفع به ما كان من البلاد مطمئنا فأروى المنخفضات كالغربية ونحوها، غير أن القري خالية من فلاح أو حرث أصلاً فهم كما قال الله تعالى: فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، وإنما أرباب الحرث يجمعون شذاهم ويلتقطون أفرادهم، وقد عز الحرث والبقر جدا حتى يباع الثور الواحد بسبعين دينارا، والهزيل بدون ذلك، وكثير من البلاد ينحسر عنه الماء بغير حقه ولغير وقته، إذ ليس لها من يمسك الماء ويحبسه فيها، فتبور لذلك مع ربه، أو كثير مما روي يبور؛ لعجز أهله عن تقاويه والقيام عليه، وكثير مما زرع أكلته الدودة، وكثير مما سلم منها ضوي وعطب. ونهاية سعر القمح في هذه السنة خمسة دنانير، وأما بقوص والإسكندرية فبلغ ستة دنانير. ومن الله سبحانه يرجى الفرج وهو المتيح للخير بمنه وجوده .

الجزء الثاني - الفصل الثالث

حوادث سنة ثمان وتسعين وخمسائة

ودخلت هذه السنة والأحوال التي شرحناها في السنة الخالية على ذلك النظام أو في تزايد، إلى زهاء نصفها فتناقص موت الفقراء، لقلتهم لا لارتفاع السبب الموجب، وتناقص أكل بني آدم ثم انقطع خبره أصلاً. وقل خطف الأطعمة من الأسواق؛ وذلك لفناء الصعاليك وقتلهم من المدينة، وانحطت الأسعار حتى عاد الأردب بثلاثة دنانير؛ لقلّة الأكلين لا لكثرة المأكول، وصفت المدينة بأهلها، واختصرت، واختصر جميع ما فيها على تلك النسبة. وألف الناس البلاء واستمروا على البلاء حتى عاد ذلك كأنه مزاج طبيعي. وحكي لي أنه كان بمصر تسعمائة منسج للخضر، فلم يبق إلا خمسة عشر منسجاً، وقس على هذا سائر ما جرت العادة أن يكون بالمدينة من باعة وخبازين وعطارين وأساكفة وخياطين وغير ذلك من الأصناف، فإنه لم يبق من كل صنف من هؤلاء إلا نحو ما بقي من الحصريين أو أقل من ذلك. وأما الدجاج فعدم رأساً لولا أنه جلب منه شيء من الشام، وحكي لي أن رجلاً مصرياً شارف الفقر، فألهم أن اشترى من الشام دجاجة بستين ديناراً، وباعها بالقاهرة على القماطين بنحو ثمانمائة دينار، ولما وجد البيض بيع بيضة بدرهم ثم بيضتين ثم ثلاثاً ثم أربعاً واستمر على ذلك، وأما الفراريج، فبيع الفروج بمائة درهم، ولبث برهمة يباع الفروج بدينار فصاعداً.

وأما الأفران فإنها توقد بأخشاب الدور، فيشتري الفران الدار بالثمن البخس ويقدر زروبه وأخشابه أياماً، ثم يشتري آخر، وربما كان فيهم من تنشطه نذالته فيخرج ليلاً يجوس خلال الديار فيحتطبها ولا يجد ذاعراً. وكثيراً ما تقفر الدار بمالكها ولا يجد لها مشترياً فيفصل أخشابها وأبوابها وسائر

الاتها، فيبيعها ثم يطرحها مهدومةً وكذلك أيضاً يفعلون بدور الكسرا. وأما الهلالية ومعظم الشارع ودور الخليج وحارة الساسة والمقس وما تاخم ذلك، فلم يبق فيها أنيس، وإنما ترى مساكنهم خاوية على عروشها وكثيراً من أهلها موتى فيها، ومع ذلك، فالقاهرة بالقياس إلى مصر في غاية العمارة وأهلها في غاية الكثرة. وأما الضواحي وسائر البلاد، فإن المسافر يسير في كل جهة أياماً لا يصادف حيواناً إلا الزم، ما خلا البلاد الكبار، كقوص وأخميم والمحلة ودمياط والإسكندرية، فإن فيها بقايا، وأما ما عدا هذه وأمثالها فإن البلد الذي كان يحتوي على ألوف خال أو كالخالي.

وأما الأملاك ذوات الأجر المعتبرة، فإن معظمها خلا أو لم يبق دأب أهلها إلا حراستها بسد أبوابها أو تحصين مسالكها أو إسكانها من يحرسها بأجرة، اللهم إلا ما كان من الملك في قسبة المدينة، فإن بعضه مسكون بأخف أجرة، وأعرف ربعاً في أمر موضع بالمدينة كانت أجرته في الشهر مائة وخمسين ديناراً، فعادت في هذه السنة إلى نحو عشرين ديناراً، وآخر في مثل موضعه، كانت أجرته في الشهر ستة عشر ديناراً، فعادت إلى فويق الدينار، وجميع ما لم نذكره على هذا القياس أفهمه. والذي دخل تحت الإحصاء من الموتى، ممن كفَّ وجرى له اسم في الديوان وضُمَّته الميضات في مدة اثنين وعشرين شهراً، أولها شوال من سنة ست وتسعين، وآخرها رجب من سنة ثمان وتسعين، مائة ألف واحد عشر ألفاً إلا أحاداً وهذا مع كثرته نزر في جنب الذين هلكوا في دارهم، وفي أطراف المدينة وأصول الحيطان، وجميع ذلك نزر في جنب من هلك بمصر وما تاخمها، وجميع ذلك نزر في جنب من أكل في البلدين، وجميع ذلك نزر جداً في جنب من هلك وأكل في سائر البلاد والنواحي والطرقات وخاصة طريق الشام، فإنه لم يرد أحد من ناحية فسألته عن الطرق، إلا ذكر أنها مزروعة بالأشلاء والرَّمم وهكذا ما سلكته منها.

ثم أنه وقع بالفيوم والغربية ودمياط والإسكندرية موت عظيم ووباء شديد، لا سيما عند وقت الزراعة، فلعلّه يموت على المحراث الواحد عدة

فلاحين، وحكي لنا أن الذين بذروا غير الذين حرثوا وكذلك الذين حصدوا وباشرنا زراعة لبعض الرؤساء، فأرسل من يقوم بأمر الزراعة، فجاء الخبر بموتهم أجمعين، فأرسل عوضهم فمات أكثرهم، هكذا مرات في عدة جهات وسمعنا من الثقات عن الإسكندرية أن الإمام صلى يوم الجمعة على سبعمائة جنازة، وأن تركت واحدة انتقلت في مدة شهر إلى أربعة عشر وارثا، وأن طائفة كبيرة من أهلها تزيد على عشرين ألفا، انتقلوا إلى برقة وأعمالها فعمروها وقطنوها، وهذه برقة كانت مملكة عظيمة وخربت في زمن اليازوري وعلى يديه، وكان وزيرا ظالما، فجلا عنها أهلها وسكن كثير منهم بالإسكندرية، وكان هذا الحادث تقاص في الطبيعة. ومن عجيب ما اتفق لشيخ من أطباء يهود مصر ممن ينتابني سوى من سبق ذكرهم، أن استدعاه رجل زبونه ذو شارة وشهرة بستر ودين وجدة، فلما حصل في المنزل أغلق الباب ووثب عليه فجعل في عنقه وهقا ومرت المريض خصيته غير أنه لم تكن له معرفة بالقتل، فطالت المناوشة وعلا ضجيجه فتسامع الناس ودخلوا، فخلصوا الشيخ وبه رمق يسير. وقد كسرت ثنيتاه وخمل إلى منزله مغشيا عليه، وأحضروا الفاعل إلى الوالي فسأله ما حملك على ما فعلت، فقال: الجوع فضربه ونفاه.

واتفق سحرة يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان وهو الخامس والعشرون من بشنس، أن حدثت زلزلة عظيمة اضطرب لها الناس، فهبوا من مضاجعهم مدهوشين، وضجوا إلى الله سبحانه، ولبثت مدة طويلة كانت حركتها كالغريلة أو كخفق جناح الطائر، وانقضت على ثلاث رجفات قوية ما دت بها الأبنية واصطفقت الأبواب وصرصرت السقوف والأخشاب، وتداعى من الأبنية ما كان واهيا، أو مشرفا عاليا، ثم عاودت في نصف نهار يوم الاثنين، إلا أنها لم يحس بها أكثر الناس، لخفائها وقصر زمانها. وكان في هذه الليلة برد شديد يحوج إلى دثار خلاف العادة، وفي نهار ذلك اليوم تبدل بحر شديد وسموم مفرط، يضييق الأنفاس ويأخذ بالكظم وقلما تحدث زلزلة

بمصر بهذه القوة . ثم أخذت الأخبار تتواتر، بحدوث الزلزلة في النواحي النائية، والبلاد النازحة في تلك الساعة بعينها، ولذا صحَّ عندي أنها حركت في ساعة واحدة طابقت من قوص إلى دمياط والإسكندرية ثم بلاد الساحل بأسرها، والشام طولاً وعرضاً وتعفت بلاد كثيرة بحيث لم يبق لها أثر، وهلك من الناس خلق عظيم وأمم لا تحصى، ولا أعرف في الشام بلداً أحسن سلامة من القدس، فإنها لم تنك فيه إلا ما لا بال، كانت نكاية الزلزلة ببلاد الإفرنج أكثر منها في بلاد الإسلام كثيراً . وسمعنا أن الزلزلة وصلت إلى أخلاط وتخومها وإلى جزيرة قبرص، وأن البحار ارتطم وتموج وتشوهت مناظره، فانفرد في مواضع وصارت فرقه كالأطواد، وعادت المراكب على الأرض وقذف سمكاً كثيراً على ساحله. ووردت كتب من الشام ودمشق وحماء تتضمن خبر الزلزلة، ومما اتصل لي من ذلك كتابان أوردتهما بلفظهما .

نسخة الكتاب الوارد من حماه .

ولما كان سحرة يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان حدثت الزلزلة، وكادت الأرض تسير سيراً والجبال تمور موراً، وما ظنُّ أحد من الخلق إلا أنها زلزلة الساعة، وأتت دفتان في ذلك الوقت، أما الدفعة الأولى فاستمرت مقدار ساعة أو تزيد عليها، وأما الثانية فكانت دونها ولكن أشدَّ منها، وتأثر منها بعض القلاع فأولها فقلعة حماه مع إبقانها وعمارته وبارين مع اكتنازها ولطافتها، وبعلبك مع قوتها ووثاقتها، ولم يرد عن البلاد الشاسعة والقلاع النازحة إلى الآن ما أذكره . ثم حدث في يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه عند صلاة الظهر زلزلة، استوى في علمها اليقظان والنائم، وتزعزع لها القاعد والقائم، ثم حدثت في هذا اليوم أيضاً وقت صلاة العصر وصل الخبر من دمشق بأن الزلزلة أفسدت فيها منارة الجامع الشرقية، وأكثر الطووسة والبيمارستان جميعه، وعدة مساكن تساقطت على أهلها وهلكوا .

نسخة الكتاب الوارد من دمشق .

المملوك ينهي حدوث زلزلة ليلة الإثنين سادس وعشرين شعبان، وقت انفجار الفجر وأقامت مدة، قال بعض الأصحاب : إنها مقدار ما قريء من سورة الكهف، وذكر بعض المشايخ بدمشق أنه لم يشاهد مثلها فيما تقدم، ومما أثرت في البلد سقوط ست عشرة شرفة من الجامع واحدى المآذن وتشقق أخرى. وفيه الصاحي يعني النسروا نخساف الكلاسة ومات فيها رجلا ن ورجل آخر على باب جيرون، وتشقق بالجامع مواضع كثيرة وسقط بالبلد عدة دور. وذكر عن بلاد المسلمين أن بانياس سقط بعضها وصفد كذلك، ولم يبق بها إلا من هلك سوى ولد صاحبها، وكذلك تبنين ونابلس لم يبق لها جدار قائم سوى حارة السمرة ويذكر أن القدر سالم والحمد لله .

وأما بيت جن فلم يبق منه إلا الأساس والجدران ، وقد أتى عليها الخسف وكذلك أكثر بلاد حوران غارت لا يعرف لبلد منها موضع يقال فيه هذه القرية الفلانية، ويقال إن عكله سقط أكثرها وصدر ثلثها وغرفة خسف بها، وكذلك صافينا، وأما جبل لبنان فهو موضع يدخل الناس إليه بين جبلين يجمع منه الريباس الأخضر، فيقال إن الجبلين انطبقا على من بينهما، وكانت عدتهم تناهز مائتي رجل. وقد أكثر الناس في حديثه وأقامت بعد ذلك أربعة أيام في النهار والليل، ونسأل الله لطفه وتديره وهو حسبنا ونعم الوكيل .ومن عجيب ما شاهدنا أن جماعة ممن ينتابني في الطب ، وصلوا إلى كتاب التشريح، فكان يعسر أفهامهم، وفهمهم لقصور القول عن العيان، فأخذنا أن بالمقس تلاقية رمم كثيرة، فخرجنا إليه فرأينا تلاً من رمم له مسافة طويلة، يكاد يكون ترابه أقل من الموتى به، نحس ما يظهر منهم للعيان بعشرين ألف فصاعداً، وهم على طبقات في قرب العهد ويَعده. فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها، وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها، ما أفادنا علماً لا نستفيد من الكتب، إنما أنها سكنت عنها، أو لا يفي لفظها بالدلالة عليه أن يكون ما شاهدناه مخالفاً لما قيل فيها. والحس أقوى دليلاً

من السمع، فإن جالينوس، وإن كان في الدرجة العليا من التحري والتحفُّظ فيما يباشره ويحكيه، فإنَّ الحسَّ أصدق منه. ثم بعد ذلك يتخيل لقوله مخرج إن أمكن، فمن ذلك عظم الفك الأسفل، فإن الكل قد أطبقوا على أنه عظامان بمفصل وثيق عن الحنك، وقولنا الكل إنما نعي به ما هنا جالينوس وحده، فإنه هو الذي باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه ونصب عينيه، وصنَّف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا، والباقي لم يخرج إلى لسان العرب. والذي شاهدناه من حال هذا العضو، أنه عظم واحد وليس فيه مفصل ولا درز أصلاً، واعتبرناه - ما شاء الله - من المرات في أشخاص كثيرة تزيد على ألفي جمجمة بأصناف من الاعتبارات، فلم نجد إلا عظاماً واحداً من كل وجه، ثم أننا استعنا بجماعة مفترقة اعتبروه بحضرتنا وفي غيبتنا، فلم يزيدوا على ما شاهدوه منه وحكيانه، وكذلك في أشياء أخرى غير هذه. وليت مكنتنا المقادير بالمساعدة، ووضعنا مقالةً في ذلك تحكي فيما شاهدناه وما علمنا من كتب جالينوس، ثم أني اعتبرت هذا العظم أيضاً بمدافن بوصير القديمة المقدم ذكرها، فوجدته على ما حكيت ليس فيه مفصل ولا درز، ومن شأن الدروز الخفية والمفاصل الوثيقة، إذا تقادم عليها الزمان أن تظهر وتتفرق. وهذا الفك الأسفل لا يوجد في جميع أحواله إلا قطعة واحدة .

وأما العجزمع العجب ذكر جالينوس، أنه مؤلف من ستة أعظم ووجدته أنا عظاماً واحداً، واعتبرته بكل وجه من الاعتبار فوجدته عظاماً واحداً. ثم إنني اعتبرته في جثة أخرى، فوجدته ستة أعظم كما قال جالينوس . وكذلك وجدته في سائر الجثث على ما قال إلا في جثتين فقط، فأني وجدته فيهما عظاماً واحداً وهو في الجميع موثق المفاصل ولست واثقاً بذلك كما أنا واثق باتحاد الفك الأسفل. ثم إننا دخلنا مصر، فرأينا منها دروباً وأسواقاً عظيمة كانت مكتظة بالزحام، والجميع خالٍ ليس فيه حيوانٌ إلا عابر سبيل في بعض الأحيان، وأن الماز فيها ليستوحش ومع ذلك، فقلما ينفك قطر منها عن جثة وعظام متفرقة، حتى خرجنا إلى موضع يسمى إسكرجة فرعون، فرأينا

الأقطار كلها مكتظة بالجث والرّم، وغلبت على الآكام بحيث جلتها. وكادت تغلب على ترابها ورأينا في هذه الإسكرجة وهي وهدة عظيمة، حينما أشرفنا عليها الجماجم بيضاً وسوداً، ووجدنا بعضها على بعض طبقات، وقد أخفى كثرتها وتراكمها سائر العظام حتى كأنها رؤوس لم يكن معها أبدان، يشبّها من ينظرها ببطيخ قد قُطع وجمع حتى صار كالبيدر، ثم رأيتها بعد أيام وقد عرقتها الشمس، وابتضت فشبّتها ببيض النعام المتراكم. ووجدت في ذي الحجة بمصر، امرأة ذبحت صبياً لتأكله، فأخذت وغرقت وقد ارتفعت هذه الحال، وانقطع خبرها ومشاهدتها لم يوجد سوى هذه المرأة، ومن عجيب الكائنات في هذه المدّة، أن مولوداً في سبع وتسعين وُلد برأسين، وولد مولود آخر أبيض الشعر، ورأيته وليس هو كبيض الشيب، بل يحيل إلى سهوية ما، ولدت في هذه السنة بغلة، ولدت ميتاً وبقي في دار الوالي أياماً كثيرة، وفي سنة ثمان وتسعين وجدت سخلة ذات لبن كان يخرج من حلمتها كأنه خيط دقيق، وأحضرت بدار الوالي مرات، وآخر ما أحضرت وعمرها أربعة أشهر.

وأما خبر النيل في هذه السنة، فنحن نسوقه باختصار أما أولاً: فإنه احترق في طوبه، ثم تزايد احتراقه حتى صار مخاضاً للناس والدواب، وظهرت الحفرة فيه في جمادى الآخرة الكائن في برمها، وتزايدت جداً في رجب حتى ظهرت في طعمه ولونه وريحه. ثم تناقصت حتى ذهب أصلاً وانتهى احتراقه في رمضان، وانحسر عن المقياس نحو ثمانمائة ذراع، وأطالع أبي الرداد باستقرار الماء يوم الثلاثاء لخمسة بقين من بؤونة وأربع بقين من رمضان من سنة ثمان وتسعين، فكان القاع ذراعاً ونصف، وكان في السنة الخالية ذراعين، وابتدأ في الزيادة في السنة الخالية من هذا اليوم، فأما في هذه السنة، فإن زيادته تأخرت إلى الخامس والعشرين من أبيب، لم يزد في هذه المدة سوى أصابع، حتى ساءت ظنون الناس وشملهم اليأس، وظنوا أن حادثاً وقع بفوهته وعند مبدأ جريته، ثم أخذ في الزيادة حتى انسلخ أبيب وهو على ثلاثة أذرع ووقف يومين،

فاشْتَدَّ هَلَعُ النَّاسِ لَخُرُوجِهِ فِي التَّوَقُّفِ عَنِ الْمَعْتَادِ، ثُمَّ أَنَّهُ انْدَفَعَ بِقُوَّةٍ وَزِيَادَاتٍ مَتَدَارِكَةً وَجِبَالٍ مِنَ الْمِيَاهِ مَتَدَافِعَةً، فَزَادَ ثَمَانِي أَذْرَعٍ فِي مَدَّةِ عَشْرَةِ أَيَّامٍ مِنْهَا ثَلَاثَةٌ أَذْرَعٍ مَتَوَالِيَةً، وَانْتَهَى فِي رَابِعِ تَوْتٍ، وَهُوَ الثَّانِي عَشْرَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ إِلَى سِتَّةِ عَشْرَ ذُرَاعًا تَنْقُضُ إِصْبَعًا وَقَامَ يَوْمَيْنِ، ثُمَّ أَخَذَ يَنْحَطُّ مَتَبَاطِنًا وَيَنْصَرِفُ رَوِيدًا، فَهَذَا مَا قَصَدْتَ اقْتِصَاصَهُ مِنْ أَحْوَالِهِ هَذِهِ الْكَائِنَةِ، فَلْيَكُنْ آخِرَ الْمَقَالَةِ وَمُنْتَهَى الْكِتَابِ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدِ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ .

كُتِبَ مِنْ قِبَلِ مُؤَلِّفِهِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى «عَبْدِ اللَّطِيفِ بْنِ يُوْسُفَ بْنِ مُحَمَّدِ الْبَغْدَادِيِّ» فِي رَمَضَانَ سَنَةِ سِتْمِائَةِ بِالْقَاهِرَةِ .

مصر والمصريون: الأمس واليوم (*)

ليس هناك دولة عربية أخرى كتب عنها كما كتب عن مصر ، فهذا البلد لا يعرفه المتخصصون فحسب ، بل يعرفه القاريء العادي أيضاً. علاوة على ذلك ، فقد عاش فيها الكثير من المواطنين السوفييت ، وعملوا بها ، وقاموا بمساعدة شعب مصر الصديق في إنشاء اقتصاد مستقل ، وتطوير الثقافة الجديدة. وأعتقد أن كل واحد منهم قرأ كتاب إدوارد وليام لين «أخلاق وعادات المصريين في النصف الأول من القرن التاسع عشر» سيشعر بإحساس مزدوج ؛ لأنه سيكتشف ببالغ الدهشة أن الكثير مما كتب عنه هذا المستعرب الإنجليزي الكبير منذ قرن ونصف مألوف لديه كما لو كان رأى كل هذا بنفسه أو أنه كان شاهداً لما حدث في ذلك الزمن البعيد. وهذا لا يدعو للعجب فعادات وتقاليد بلدان الشرق عريقة ودائمة. غير أنه في الوقت ذاته سيفهم القاريء اليقظ لهذا الكتاب أنه مازلنا لا نعرف إلا قليلاً عن هذه البلد ، وأنها نحكم على نمط حياة شعبه بطريقة سطحية ، وأنها نجهل الكثير من العادات والتقاليد الشعبية وبصفة عامة من الصعب أن نرى ونعلم ونفهم حياة الآخرين .

يبد أن كتاب «لين» ليس مخصصاً فقط للذين يعرفون مصر ، أو الذين قرأوا عنها. إنه كتاب يستقطب اهتمام الجميع ليس لأنه كتاب جيد عن الماضي فحسب ، بل لأنه في نفس الوقت عن زمن قريب وبلد حضاري وفريد ، والأهم من ذلك كله أنه كتاب عبقرى. ومن الصعب أن نجد كاتباً آخر في القرن التاسع عشر ، استطاع أن يتغلغل بهذا العمق في جوهر حياة أخرى ، ويصف ما رآه بهذه الدقة والمصداقية .

(*) مقالة افتتاحية لكتاب : إدوارد وليام لين .. أخلاق وعادات المصريين في النصف الأول من القرن التاسع عشر. - موسكو. - دار نشر ناؤوكا ، هيئة تحرير الأدب الشرقي ، عام ١٩٨١.

يعد القرن التاسع عشر قرن تعرف أوروبا على العالم ، وقرن اهتمام العلماء والرحالة بحياة شعوب الشرق. واليوم يبدو الكثير مما كتب عن بلدان الشرق ساذجاً بل ومضحكاً. ولقد حالف الحظ مصر إذ تواجد فيها الإنجليزي «لين» ، والفرنسي «كلوت بك» ، والرحالة الروس ، والشيخ الطنطاوي الذي قضى شطراً من حياته في روسيا ... ولكن لن نستبق الأحداث ونثقل على القارئ بأسماء لا يعرفها . وسنبداً من تلك الفترة التي تطرق إليها كتاب العالم الإنجليزي .

بدأت أوروبا تبدي اهتماماً كبيراً بمصر حتى في القرن الثامن عشر حيث كانت مصر في ذلك الوقت تعد إحدى مقاطعات الإمبراطورية العثمانية، التي أخضعت في القرن السادس عشر كل العالم العربي تقريباً. وفي أواخر القرن الثامن عشر أصبحت مصر هدفاً للتنافس الحاد بين إنجلترا وفرنسا ، وكانت لفرنسا اليد العليا لفترة زمنية قصيرة ، والتي كانت تنوي منذ عهد لويس السابع عشر (مدة حكمه ١٧٩٢ - ١٧٩٨) أن تجعل مصر مستعمرة لها. في عام ١٧٩٨ م نزل جيش نابليون بونابرت شواطئ الإسكندرية واحتل القاهرة، وعمل على إخضاع القطر بأكمله ، غير أن الفرنسيين لم يلبثوا في مصر سوى عدة أعوام . أثار غزو المحتلين مقاومة هائلة من جانب الشعب المصري ، ولم ينجح القمع العنيف في إخماد ثورة القاهريين. إذ عمت أنحاء البلاد حركة مناهضة للفرنسيين والتي جنباً إلى جنب مع المعارك التي خاضتها القوات الإنجليزية والتركية، أجبرت الفرنسيين في مطلع القرن التاسع عشر على مغادرة البلاد. واستقرت هنا منذ العام ١٨٠٢ قوات ثلاثة جيوش : الإنجليزية والتركية والمملوكية. وفي بادئ الأمر نجح الإنجليز في إبعاد منافسيهم ، ولكن طبقاً لبنود معاهدة «إميان» للسلام ، والتي عقدت في العام ١٨٠٢ بين إنجلترا وفرنسا اضطروا إلى مغادرة البلاد . غادرت القوات الإنجليزية مصر في مارس من عام ١٨٠٣. وفي أثناء الحرب المستعرة في العام ١٨٠٢ بين الأتراك والمماليك انحازت فرقة الأرنؤوط (مرتزقة ألبان) بقيادة محمد علي إلى المماليك. واندلعت في القاهرة عام ١٨٠٤م ثورة عارمة من جانب

المواطنين ضد الإقطاعيين المماليك تزعمها شيوخ الأزهر. ولقد أيد محمد على بعيد النظر الثائرين، وعين قائم مقام أي نائب الباشا المصرى ونائب السلطان التركى سليم الثالث. واستطاع أن يتصدى بنجاح لمحاولة الأسطول الإنجليزي احتلال مصر، ولكن في عام ١٨٠٥ أثناء الثورة الجديدة طرد الشعب المصرى الباشا التركى مع الإنكشاريين التابعين له، واضطر الباب العالى إلى الاعتراف بمحمد على باشا والياً على مصر. وأصبح محمد على المؤسس للأسرة الأبنانية الحاكمة لمصر، والتي انتهت وجودها غير مأسوف عليها في الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢، حينما تم إزاحة الملك فاروق عقب ثورة الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢.

كان من نتائج زيارة «لين» لمصر، وتحديداً في عهد محمد على، تأليف كتابه الرائع. كما يحدث غالباً في مثل هذه الأحوال فقد واكب تنامي طموحات الدول الغربية الاستعمارية تفعيل الاهتمام العلمي بهذا البلد. وتحقيقاً لرغبة نابليون في احتلال مصر ليس عن طريق القوة فقط، بل بجهود العلم أيضاً فقد شجع على دراسة مصر، واصطحب مع جيشه ١٧٥ عالماً لعبوا دوراً كبيراً في كشف مصر للعلم العالمى، وخاصة في دراسة آثار مصر القديمة. هذا وقد وضع العلماء الفرنسيون وصفاً مفصلاً لمصر، وساعد واحد منهم يدعى فوربيه الشاب الفرنسى جان فرانسوا شامبليون (١٧٩٠ - ١٨٣٢) على التعرف على الكنوز المصرية التى جلبوها معهم. وقد سيطرت على شامبليون فكرة فك رموز الكتابة الهيروغليفية المصرية القديمة فبذل جهوداً كبيرة فيما بعد لكى يقرأ النقش على حجر رشيد، والذي يقال إن أحد جنود نابليون قد عثر عليه في مصر مصادفة. وهكذا فقد أدى الغزو إلى فك رموز الكتابة المصرية القديمة.

أصبحت الحملة الفرنسية في مصر بقدر ما حافظاً لتطوير الثقافة القومية المصرية، وساهمت في تطوير الاتصالات الثقافية للمصريين مع الغرب. سعى محمد على إلى تحويل مصر إلى دولة قوية ومستقلة، وإخضاع كل البلاد العربية لسلطته، وانتزاعها من الباب العالى. وللقيام بذلك فإنه اعتمد في

بإدء الأمر على التجار ، وأصحاب الحرف ، ورجال الدين من أجل القضاء على نفوذ الإقطاعيين السابقين من الممالك ، ثم أنشأ طبقة جديدة من الملاك من حاشيته ، والتي تعبر عن مصالحهم بنفس قدر مصالح البرجوازية التجارية المصرية الوليدة .

جعل الحاكم ، الذي تملكه المجد والجشع ، الثراء الشخصي هدفاً رئيساً للحياة. غير أن كونه ذكياً وسياسياً بعيد النظر فقد اختار لهذا طريق الإصلاحات الواسعة الرامية إلى استقلال مصر. وقد عمل محمد علي على تطوير الزراعة وأجرى إصلاحات في نظام الوقف الخاص بتملك الأراضي ، فانتزع ، وضم الأراضي إلى أملاك الدولة ، وتوسع في نظام الري ، وبنى ترعاً جديدة ، وأقر احتكار الدولة للصناعات والتجارة الخارجية. وحيث إن محمد علي خاض حروباً من أجل الغزو ، فقد بنى مصانع حربية ، وشرع التجنيد الإجباري ، والذي كان عبئاً ثقيلاً على الفلاحين. وأنشأ أسطولاً جديداً وقوياً. على الرغم من أن حكم محمد علي صاحبه زيادة حادة في نهب الشعب المصري وظواهر سلبية أخرى ، إلا أنه دعم البلد بصورة كبيرة وواجه الأتراك والدول الغربية التي كانت تسعى إلى احتلال مصر.

ولنتذكر التقييم للحاكم محمد علي من جانب « ف . ب . لوتسكي » المستعرب السوفيتي والمتخصص في التاريخ الحديث للدول العربية. لقد كتب في هذا الصدد : « إن إصلاحات محمد علي حملت طابعاً تقديمياً مثلها مثل التحولات في سانت بطرسبورج غير أنها أثقلت كاهل العمال المصريين ، والتي استغلتهم بلا رحمة الدولة الاستعبادية الإقطاعية ». ومثل بطرس الأول فإن محمد علي لم يحطم المنهج الإقطاعي للإنتاج ، ولكنه أزال الرواسب الأكثر رجعية للعصور الوسطى ، ودعم في نفس الوقت الدولة بالاقطاعيين والتجار ، وأنشأ جيشاً قوياً وأسطولاً وجهاز قوي للدولة ، وقام بالعديد من الإصلاحات ، والتي حولت مصر إلى دولة راسخة وقادرة على البقاء .»

على الرغم من أنه لا يوجد في التاريخ كلمة «لو» فيمكن القول إنه لولا محمد علي فإن مصر كانت ستحتل من قبل الدول الاستعمارية قبل الربع الأخير من القرن التاسع عشر، فبعد وفاة محمد علي في عام ١٨٤٩ تغلغل رأس المال الإنجليزي- الفرنسي بسرعة في مصر. وفيما يتعلق بـ «لين» المعاصر لمحمد علي، فإن كتابه يشير إلى علاقة سلبية تجاه سياسة محمد علي باشا المصلح المحب للسلطة، على الرغم من الاعتراف بقدراته الفائقة.

جذب محمد علي الأجانب بسهولة للخدمة في الجيش، وكان غالبيتهم من الفرنسيين والإيطاليين. وقد حصل الفرنسي سيلف «سليمان باشا»، الذي اعتنق الإسلام وخدم في الجيش المصري برتبة جنرال، على شهرة واسعة. وقد كان في صباه مجرد عسكري عادي في خدمة المارشال «ني» أثناء حملة نابليون على روسيا، أما في مصر فقد أصبح قائداً شهيراً ومؤسساً للجيش المصري. وأطلق اسمه على شارع رئيسي بالقاهرة. ووفقاً لـ «أ.س. نوروف» الروسي، الذي زار سليمان باشا في القاهرة القديمة، فقد وجدوا في منزل الباشا ملجأً للسانسيميونيون المبعدين من أوروبا. وقد حظى بالشهرة أيضاً الطبيب الفرنسي المعروف بـ «كلوت بك»، والذي عاش سنوات طويلة في مصر. ولقد أدلى بدلوه في دراسة مصر، وكتب كتاباً قيماً جداً، وقد تم ترجمته منذ فترة طويلة إلى اللغة الروسية.

أسهمت الاتصالات الواسعة لأوروبا مع مصر في عهد محمد علي في تطوير الاستعراب الأوروبي، وزيادة المعارف عن مصر. وتصدر الإشارة إلى أن علمنا الوطني أسهم بالكثير جداً في دراسة مصر في القرن التاسع عشر. فلقد زار مصر بالفعل في النصف الأول من القرن التاسع عشر مجموعة من الرحالة الروس، تعد كتبهم اليوم ذات قيمة كبرى، كمصدر لتاريخ مصر. وفي هذا الصدد تعد مذكرات المستشرق الروسي الكبير والكاتب «أوسيب إيفانوفيتش سينكوفسكي»، الذي زار مصر في أوائل العشرينات من القرن التاسع عشر، واستغرقت رحلته للشرق الأوسط سنتين، مهمتين وشيقتين.

وقد قام «سينكوفسكي» بوصف مصرفي عهد محمد علي وصفاً شيقاً، وحظي ببقاء الحاكم شخصياً. ومن هذا الوصف يمكن أن نستقي كثيراً من المعلومات الجغرافية، والإثنوغرافية، والأثرية، والاقتصادية عن مصر. وقد زار مصر أيضاً الكونت «شيريميتفا كير برونيكوف» في الفترة من عام ١٨٢٠ حتى عام ١٨٢١. وقد شملت قائمة الرحالة اسم «مورافيف» الدبلوماسي والكاتب، الذي وصف الرحلة من الإسكندرية للقاهرة في أعوام (١٨٢٠-١٨٣٠). واعتبر مورافيف، الذي استقبله محمد علي مرتين «أن حاكم مصر كان يمكن أن يقف عالياً بين حكام الشرق لو أن الشعب المثقل بالأعمال والضرائب لم يزرح تحت نير الاحتكار الوحشي الذي يثري فقط خزينة الباشا غير الكافية لأطماعه الضخمة». وقد كتب «أ. س. بوشكين» مقدمة لكتاب مورافيف، وأشاد بها «ن. ج. تشيرنيشيفسكي». للعلم فقد كان شقيق الكاتب «ن. ن. مورافيف»، الذي اشترك في الاستيلاء على قارص (محافظة قارص هي إحدى محافظات تركيا تقع في منطقة شرق الأناضول - المترجم) مدرجاً لدى محمد علي ضمن البعثة العسكرية الدبلوماسية.

كما أتيح لـ «أ. أو. ديوجاميل»، الذي كان يعمل قنصلاً عاماً للإمبراطورية الروسية في مصرفي السنوات من (١٨٣٤ - ١٨٣٧) أن يتعرف على مصر بعمق. وتواجد في مصر أيضاً «ب. أ. تشيخاتشيف» عندما كان شاباً صغيراً، والذي أصبح فيما بعد عالماً كبيراً وباحثاً مشهوراً في آسيا الصغرى.

وقد فتح «أفرام سيرجيفيتش نوروف»، الذي شارك في الحرب الأهلية عام ١٨١٢، ورجل الدولة الذي شغل منذ عام ١٨٥٤ منصب وزير التعليم الوطني، العديد من الصفحات الجديدة غير المعروفة من قبل في حياة مصر. ويتضمن كتابه معلومات مفصلة عن إقتصاد مصر والنوبة على وجه الخصوص. وفيه أيضاً وصف لحياة وأخلاق المصريين. وفيه يظهر نوروف كباحث يقظ وتقييماته دائماً ما تتصف بالموضوعية، على الرغم من أنها لم تكن بمنأى

عن تأثير المعتقدات الأيديولوجية للمؤلف كمؤيد للملكية وكواعظ أرثوذكسي. وعلى سبيل المثال فالكاتب يقيم محمد علي على النحو التالي: « كان هذا الظلم اللامبالي للرعايا ، الذين لا يسمع لصراخهم، والانتهاك لجميع حقوق الإنسان لهدف وحيد ، هو حب السلطة والثروة ! وهذا هو اللوم الأزلي الموجه إلى محمد علي . وفي الختام نقول إن محمد علي من خلال الابتكارات المفيدة ضيقة المدى قام بالخطوة الأولى من غير قصد بصدمة للإسلام ، وهو ما سيؤدي إلى عواقب أخلاقية خطيرة. وربما هذه هي الخطوة الأولى التي تهيء مصر لدخول المسيحية . محمد علي نفسه لا يشعر بهذا، فهدفه أولاً: تجارى وثانياً: حب المجد ، ولكن العناية الإلهية كانت توجه هذا لمصلحة البشرية». من الطريف أن نشير أن « نوروف » تقابل مع كلوت بك في مصر وذكره في كتابه .

وقد ترك لنا الرسام الروسي « د . إى . يفيموف » لوحات بديعة عن آثار مصر وتراثها القديم وحياتها المعاصرة . « أ . أومانيتس » كعضو في لجنة الحجر الصحي زار مصر أيضاً بغرض إجراء تجارب لتنقية الأشياء الموبوءة بالطاعون عن طريق الحرارة المرتفعة . واستطاع في مذكراته أن يضيف بشكل ملموس المعلومات المعروفة في عصره عن هذه البلد . وكتب «أومانيتس» بتعاطف كبير عن الفلاحين المصريين ، الذين سيقوا للعمل في تبطين وإصلاح ترعة يوسف فى الصعيد . وفى هذا الصدد برزت الصفات الممتازة التي ميزت الرحالة الروس الديمقراطيين، وأصبحت صفات تقليدية للاستشراق الوطني مثل الإنسانية والتعاطف مع الإنسان البسيط والنفور من العنف .

فى عام ١٨٤٢م قام كذلك اثنان من المستشرقين الروس وهما : «ف.فاديتيل» و «إى. ن . بيريزن » واللدان كانا يتقنان اللغات الشرقية في إطار معرفتهما الواسعة المستقاة من رحلاتهما لبلاد المشرق ومن بينها مصر . وفى عام ١٨٤٦ زار « ن . ف أدليربيرج» الشرق الأوسط ، وهو ضابط روسى سيصبح فيما بعد الجنرال المحافظ لفنلندا . وقد أدرج في كتابه عن رحلته مذكرات عن مصر

وإذا كانت أول رحلة لأدلبيرج إلى مصر في السنوات الأخيرة لمحمد علي، فإنه قام بالرحلة الثانية بعد مرور ١٥ سنة بعد وفاة الحاكم مما سمح بإجراء مقارنة شقيقة .

هذا، وقد أتاح كتاب الرحالة والطبيب الروسي «أرتيمي ألكسندرافيتش رافالوفيتش»، الذي طاف في الأربعينات من القرن التاسع عشر ببلاد الشرق الأدنى، والأوسط على رأس بعثة طبية، النظر إلى الوضع في مصر برؤى جديدة تماماً . وظهر بجلاء خاص في كتاب «رافالوفيتش» اهتمام الكاتب بالمشكلات الاجتماعية . وقدم تقييماً نقدياً حاداً لاستبداد محمد علي الذي جلب للشعب المصري الألام المبرحة . وكان «رافالوفيتش» الأول من بين الباحثين الروس الذي أعطى وصفاً إنثروغرافياً مفصلاً عن مصر .

وفي عام ١٨٤٦م كان مهندس التعدين ب. ب. كوفاليفسكي هو المشرف على اثنين من المهندسين المصريين الذين كانوا يدرسون التعدين في الأورال، وبناء على دعوة من محمد علي توجه بعد عام إلى مصر لاستخراج الذهب في السودان . وقد صحب كوفاليفسكي «ل. س. تسينكوفسكي» الحاصل على الماجستير في جامعة بطرسبورج في هذه السفارة .

في منتصف القرن التاسع عشر، لوحظ انتعاش العلم الجيوغرافي الروسي أكثر مما سبق . وظهرت في روسيا جميع الكتب الجديدة التي كتبها: علماء ورحالة ودبلوماسيون وعسكريون ورجال أعمال زاروا مصر . وبدون أن نتطرق إلى التفاصيل نذكر فقط هؤلاء الكتاب مثل «ن. ف. بيرج»، و«ف. ف. جيرجاس»، و«م. ن. دوختوروف»، و«أ. ف. يليسيف»، و«ج. أ. دي فولان»، و«إي. ن. كلينجن»، و«أ. ن. كراسنوف» وآخرون .

هذا وتجدر الإشارة إلى أن تعرف روسيا وسائر دول أوروبا بمصر ساهم فيه الكتاب والشعراء الروس . وظهر الاهتمام بالشرق الأوسط في إبداع «أ. س. بوشكين»، و«ل. ن. تولستوي»، و«إي. أ. بونين» .

أما عندما نتحدث عن دراسة مصرفي روسيا فلا بد وأن نتذكر إسهامات المصريين الذين عاشوا في روسيا . ومن بين « العرب الروس » الذين أدلوا بدلوهم في تطوير الاستشراق الوطني، أولئك النازحين في الغالب من سوريا وفلسطين، حيث كانت هناك كنيسة أرثوذكسية قوية تربطها علاقات تقليدية بالكنيسة الروسية . كان عدد المصريين في روسيا قليلاً ، لكن كان من بينهم الشيخ الطنطاوي (١٨١٠ - ١٨٦١) ذلك الرجل البارز . وقد كتب الأكاديمي « إى . يو . كراتشكوفسكي » الذي خصص مؤلفاً خاصاً عن الطنطاوي ما يلي : « في تاريخ الاستعراب الروسي وفي الأدب العربي الحديث يوصف الطنطاوي بأنه رجل فريد من نوعه ، وظاهرة لم تتكرر حتى الآن » .

عمل الطنطاوي أستاذاً في جامعة سانت بطرسبورج ، وعاش في روسيا ما بقى من حياته وقدم الكثير للاستعراب الروسي ، ولتطوير الروابط الروحية بين روسيا ومصر . وقد قام بكتابة العديد من المقالات والترجمات وتأليف كتاب « وصف روسيا » ، الذي للأسف لم يزل النور بعد في البلاد العربية (ظهر الكتاب أخيراً عن دار نشر مجلة أنباء روسيا بمبادرة من رجل الثقافة البارز د . حسين الشافعي - المترجم) . تضمنت المخطوطات التي كتبها الطنطاوي بخط يده مادة شيقة جداً عن الأعياد الوطنية في مصرفي النصف الأول من القرن التاسع عشر ، والتي من الممكن أن تكون إضافة مفيدة لمواد كتاب « لين » . وقد ترجم « د . ف . سيمينوف » المستشرق الروسي هذا الكتاب للروسية ، ولكن لم تنشر ترجمته حتى الآن ، ويوجد في أرشيف المستشرقين في مدينة سانت بطرسبورج .

في القرن العشرين أيضاً ظهر « المصريون الروس » . ففي عام ١٩٢٤م جاء الشاب الشيوعي المصري حمدي سلام (١٩٠٤ - ١٩٦٦) إلى موسكو للدراسة . وسلام هو ابن فلاح مصري فقير . وقد تعرف في طفولته المبكرة على المدرسة القاسية للحياة العملية . إذ عمل في البداية (صبي) في محل ، وبعد ذلك موزعاً للتلفراف ومصححاً في صحيفة . شارك وهو صغير جداً في

الثورة المناهضة للإحتلال عام ١٩١٩ ، وحكمت عليه المحكمة العسكرية الانجليزية بالسجن . ومنذ ذلك الحين سار «سلام» في طريق الكفاح الثوري السري، وأصبح واحداً من الأعضاء الرواد للحزب الشيوعي في مصر . وفي الاتحاد السوفيتي حصل «سلام» على تعليم عال في الطب والعلوم الإنسانية. وقد استطاع لكونه شخصاً متعدد الاهتمامات بشكل مدهش وذا قدرات كبيرة أن يصبح طبيباً جراحاً . وعمل في أكبر عيادات العاصمة . وتبحر في علوم الاستشراق وعمل مترجماً وكاتباً . وكتب «سلام» أشعاراً وروايات عن حياة الشعب المصري ، وقام بالقاء المحاضرات في الجامعات الروسية .

كان دكتور «سلام» الذي عرف في موسكو بهذا الاسم أستاذي غير الرسمي . فلقد تعرف في عام ١٩٣٠ على والدي، الذي كان حينئذ السوليست لباليه مسرح البولشوي . وكان أبى كثيراً ما يزور الباليرينا المشهورة «ي جيلتسير» ، والتي كانت جارة دكتور «سلام» في الشقة العامة الكبيرة بحارة « بريوسوف » . ومن غير المحتمل أن نجد مستعرباً من موسكو لم يطلب معونته، ولم يحصل عليها . والتراث العلمي لسلام ليس كبيراً، ولكن تأثيره على تطوير الاستعراب السوفيتي من الصعب تقييمه . « سلام» كان خبيراً بأخلاق وعادات المصريين وخاصة الريفية. فقد كان علمه بذلك ما يعلمه فقط ابن فلاح مصرى لا يزال متذكراً أحداث بداية القرن .

قمت - في سنوات الدراسة - بترجمة الأفلام المصرية إلى الروسية ؛ من أجل الكسب والمتعة أيضاً . (ودون شك لا توجد طريقة أفضل لدراسة الحياة المصرية مثل الأفلام) . ومثلت أمامي العديد من الأسئلة (التي لم يكن يستطيع الإجابة عليها إلا الدكتور « سلام ») . ففي الفيلم المأخوذ عن رواية « الحرام » لبوسف إدريس ، تظهر الكاميرا في الغسق يد فلاحه مصرية ، تكسر على الأرض البيضة بالحجر . وقد أوضح الدكتور «سلام» هذا المشهد كالتالي : الفلاحه ولدت سرأ في الحقل ، ولم تكن معها أية قابله ، لذلك تلجأ الفلاحات المحرومات من عون القابلات للقيام بهذا الفعل من أجل مساعدة أنفسهن .

جمع الدكتور «سلام» خلال حياته كلها مادة علم العبارات الإصطلاحية عن اللهجة المصرية العامية. وكتب أمثالا، وأقوالاً، وعبارات إصطلاحية خاصة، وعبارات مجازية، وتراكيب لفظية نادرة على آلاف الكروت في أرشيفه. وللأسف لم يكتمل هذا العمل. ولم أنجح للأسف في تحقيق أمنيته بإعدادها للنشر.

هذا، وقد قطع الاستعراب في بلدنا وفي الخارج، والذي كان يفصلنا لبعض الوقت عن كتاب إدوارد وليام لين- شوطاً كبيراً. فقد كتبت أعمال مهمة عن تاريخ، واقتصاد، واثنوغرافيا، وجغرافيا، وثقافة، وأدب مصر، وألفت قواميس وكتبت قواعد للغة العربية. ولكن كل هذا لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يمحو كتاب العالم الإنجليزي، وبحشه عن الأخلاق والعادات المصرية، ذلك أن هذا العمل ليس فقط مادة جمعت في زمن محدد تصور الحياة في ذلك الوقت، ولكنها موسوعة فريدة للعادات المصرية بصفة عامة، وموسوعة كتبها عالم وباحث موهوب ومراقب فذ، رصد كما لم يرصد شخص آخر الجوانب الخاصة للحياة المصرية، والتي من السهل التحقق منها اليوم.

إن سيرة حياة «إدوارد وليام لين» (١٨٠١-١٨٧٦) المستشرق والمستعرب الإنجليزي الكبير في القرن التاسع عشر، ليست لها علاقة مباشرة بكتابه، وكل ما وضعه فيه فحسب، ولكن يمكن القول: إنها تعليمية للمتخصصين وللقاريء العادي، الذي يبدي اليوم اهتماماً عميقاً ومخلصاً نحو الشرق.

ولد إدوارد ويليام لين في ١٧ سبتمبر من عام ١٨٠١ م. وكان الولد الثالث لكاهن هيريفورد «ثيوفيلوس لين»، و«صوفيا جاردينر» ابنة أخ الرسام الشهير «توماس جينسبورو» (١٧٢٧ - ١٧٨٨). تولى الأب بنفسه تعليم ابنه في أعوامه الأولى من حياته. ولكن الموت المفاجيء للأب «ت. لين» في عام ١٨١٤ أرغم الأم أن تلحقه بالمدرسة الثانوية في «بات» ثم في «هيريفورد». وهناك برع «إدوارد» خاصة في المواد الكلاسيكية، وفي الرياضيات، وعزم أن يلتحق

بجامعة كامبريدج ، ثم بعد الحصول على الدرجة العلمية يكرس نفسه للنشاط الديني . كتب « ستانلي لين بول » إن رغبة الصبي « إدوارد ولياملين » في أن يكرس نفسه للكنيسة جاءت على الأرجح بتأثير من أمه « التي كانت تملك قوة وجمال الشخصية ، الذين كانا ليس فقط مشار إعجاب الجميع ممن حظي بمعرفتها ، بل أخضعت الجميع للوقوع تحت تأثيرها ، » غير أن مشروعات الفتى لم يقدر لها التحقق . وبعد أن قضى « لين » عدة أيام في الجامعة أدرك أن المحاضرات ستكبل قدراته الإبداعية . و لم يفكر « ادواردلين » في أوكسفورد ، بسبب ميله القوي جداً إلى الرياضيات منذ صباه . وانضم الشاب إلى أخيه الأكبر « ريتشارد » ، الذي اشتهر فيما بعد بالطباعة الحجرية (الليتوغرافي) ، ودرس في لندن خلال عدة سنوات فن الرسم الجرافي .

وقد أفادت موهبة الرسام فيما بعد لين المستشرق ، واليوم لا تقل صورته المصرية المحفورة أهمية عن وصفه اللفظي الدقيق . وقد أشاد المتخصصون بالموهبة الفنية لأدوارد لين ، ولكن على الأرجح لم تكن هي رسالته الحقيقية . وحيث إنه كان شخصاً متحمساً بالفطرة لا يعرف الراحة ، فلم يرحم نفسه . وعندما مرض بالتيفود استطاع بالكاد أن يتعافى بعد المرض . أصبحت مهنة الرسام بالنسبة له فوق احتمال ، ومنذ ذلك الوقت وحتى وفاته عانى « لين » من التهاب رئوي مزمن ، ونوبات حمى . كان الانكباب على لوح معدني قد أصبح غير ممكن ، فكان من الواجب أن يبحث عن طريقة حياة أخرى . وجد الحل في دراسات الاستشراق التي أثارت اهتمامه منذ عام ١٨٢٢ . على أية حال ، هذا التاريخ مكتوب في كراسته التي كتب فيها مدونات عن اللغة العربية العامية ، ومنها بدأت حياة « لين » المستشرق الذي كرس ٥٠ عاماً من حياته للاستعراب .

حفز « إدوارد وليام لين » للقيام برحلة إلى مصر الاهتمام المتزايد نحو الشرق العربي ، ومرضه الذي كان كل شتاء إنجليزي قارس يمثل خطراً على صحته ، بالإضافة إلى الأمل ـ طبقاً لتأكيد « لين بول » ـ في الحصول على وظيفة جيدة في الحكومة .

من المستبعد أن «لين» قد توقع الدور الذي سوف يلعبه في حياته هذا البلد، الذي توجه إليه أثناء حكم «محمد علي» في ١٨٢٥. لم يكن يعلم أنه سيبقى هناك حتى عام ١٨٢٨، وأن رحلته الثانية سوف تستمر خلال الفترة من عام ١٨٣٣ إلى عام ١٨٣٥، والثالثة من عام ١٨٤٥ عام إلى ١٨٤٩.

على مدار شهرين من الإبحار على متن سفينة «فندلي»، التي تبلغ حمولتها ٢١٢ طن، لم يكن الجو صحواً، بل كان ملبداً بالغيوم، وقد واجه الرحالة الشاب الكثير من الأخطار في الطريق. وسجل في دفتر يومياته أنه في واحدة من اللحظات الصعبة استطاع أن يحل محل الربان، ويظهر معرفته بالملاحة. فعلى ما يبدو ساعدته محاضرات الرياضيات. وفي سبتمبر رست السفينة في ميناء الإسكندرية.

تذكر «لين» لاحقاً ما يلي: نزل لين بفارغ الصبر إلى شاطئ بلد غير معروف مثل «عريس شرقي كان يتعجل رفع النقاب عن وجه عروسه، التي لم يراها مطلقاً». يجب علينا أن نفترض أن إدوارد آنذاك كانت لديه نوايا جادة تجاه «عروسه»، فعلى ما يبدو كانت هذه شخصية العالم الشاب، وكان ولعه ورغبته في إدراك الهدف الصفة التي عادة ما تميز العالم المحلل الحقيقي عن بقية الناس. وقد ظهرت جلية عند لين فيما بعد في الدقة العلمية المذهلة والتدقيق المتفاني، والتي أتاحت له إنشاء «القاموس العربي- الإنجليزي» الذي من الصعب تجاوزه، وكتاب عن أخلاق وعادات المصريين. كان لين يمتلك عادة التعامل مع كل شيء فقط بجدية. ولقد كتب ما يلي: «لم أحضر إلى مصر من أجل الترفيه أو رؤية أهراماتها ومعابدها ومغاراتها، فبعد أن أشبعت فضولي تركتها، واستبدلتها بمناظر أخرى ومتع أخرى، وعزمت أن أنغمس بالكامل في محيط أناس غرباء سمعت عنهم معلومات متناقضة. لقد عزمت أن أنطق بلسانهم، وأتخلق بأخلاقهم، وأتعود على لباسهم. ولإحراز أكبر نجاح في دراسة أديهم، فقد قررت أن أربط نفسي كلية بالمسلمين في هذا البلد».

بقي « لين » بعض الوقت في الإسكندرية التي خيبت أمله « لأنها لم تكن بلداً شرقياً إلى حد بعيد ». وكان يتطلع للذهاب إلى القاهرة بشغف كبير . وعند تلقيه دعوة « م . لاينيت » رسام الخرائط الجغرافية الشهير الذي لا يعرف الكلل للقيام بهذه الرحلة مع مجموعته فإن « لين » أبحر في ٢٨ سبتمبر إلى العاصمة عن طريق ترعة المحمودية . وفي الطريق دون « لين » بدقة في مفكرته كل ما رآه وسمعه من هدير الساقية، إلى نقيق الضفادع . كانت الرحلة في تلك الأونة طويلة . إذ أنه في الثاني من أكتوبر فقط ، لاحظ في الأفق أطراف أهرامات الجيزة ورست المركب في بولاق بالقاهرة .

انهر « لين » بالقاهرة، وبحاراتها الضيقة، وبمآذنها التي لا تعد، وبآثارها الرائعة . وبعد زيارة القنصلية العامة، قرر « لين » على الفور، أن يشارك في نمط الحياة المحلية . فارتدى الجلباب التركي ، وتوجه للبحث عن مسكن، ونجح في استئجار بيت في منطقة باب الحديد .

قام « لين » بالعديد من الرحلات إلى المدينة . ولقد جذبت الأهرامات اهتمامه الدائم ، ولكنها لم تجذب اهتمامه أبداً كسائح . كان « لين » يصنع رسومات مفصلة، وقياسات دقيقة في كل مكان . وبعد شهرين من دراسة المصريين واللغة العربية، قام « لين » من جديد بزيارة الأهرام مزوداً تماماً بكل ما يلزم للقيام بعمله . ووجد مأوى مؤقتاً في إحدى المقابر، والتي يبلغ عرضها ٨ أقدام ، وطولها ١٦ قدماً . وفي المقبرة، وجد ركاباً عادياً من الخرق والعظام ، كما عثر أيضاً على بعض المومياءات الكاملة ، ففي هذه الأونة، لم يكن هذا شيئاً نادراً . وعندما نقل إلى هنا متاعه وأشعل غليونه ، أحس « لين » بأنه مرتاح ، فهنا يمكنه أن يشتغل بوضع الخرائط ، وكذلك بصنع الرسومات، ووضع مراتبه على الأرض الرطبة ، وأشعل الشموع . كان يخدمه اثنان من الخدم الذين أحضرهما من القاهرة أحدهما مصري والأخر نوبي . يتذكر « لين » فيقول « لقد قضيت في هذه المقبرة أسبوعين، وكانت من أمتع الأيام في حياتي، على الرغم من أنني كنت محروماً من وسائل الترف، التي كان من

الممكن أن أحصل عليها بدون مجهود يذكر . وقد وافقت هيئتي نمط حياتي، واضعاً في الحسبان أنني كنت أتعرض لتغيرات في درجة الحرارة عندما كنت أدخل إلى الهرم الأكبر وأخرج منه. فقد كنت أرتدي الزي البدوي من الصوف ، الذي كان من أكثر الملابس ملائمة في مثل هذه الأحوال. إذ كان من الممكن أن توسعها أو تضيقها حسب الحرارة . كنت كذلك أعود نفسي كثيراً على خلع الحذاء؛ لكي أتسلق الدرجات الحجرية بسهولة، وأخترق الممرات الضيقة في الهرم . ونفس الشيء، أود أن أنصح به الآخرين، ولمرتين جرحت قدمي بسهولة، ولكن بعد يومين أو ثلاثة أيام استطعت أن أخطو بدون ألم على أكثر الأحجار حدة. وفي القرى المجاورة، كنت أحصل على أي طعام أحتاجه مثل: البيض، واللبن، والسمن، والطيور، ولحم الجمل . وكان يمكن شراء العيش فقط من الجيزة . و للحقيقة فقد استطعت أن أستأجر شخصاً لكي يخبزه . كان يشغل المغارة الوسطى عائلة مكونة من عجوز يدعى علي وزوجته (كانت أصغر من عمره مرتين) وابنتهما الصغيرة .

كانوا يحرسون بعض الآثار القديمة. وفيما عدا هؤلاء كان الجيران الأقرب لي هم سكان قرية صغيرة ، كانت تقع على مسافة ميل .» في الحقيقة لقد انتهكت وحدة « لين » بعد يومين فقط ، إذ طلب منه شاب بدوي كان هارباً من جيش الباشا أن يحل ضيفاً عليه . ولقد بقى الشاب مع الإنجليزي حتى رحيل « لين » إلى القاهرة ، مروحاً عنه في الأمسيات بحكاياته العديدة من قصة أبو زيد ، ومثيراً سخط الخادم المصري باحتقاره البدوي للفلاحين . وقبل مغادرته سأله « لين » على الحماية التي يعول عليها الآن؟ فأجاب البدوي الشاب مظهراً ما يميز المسلم من ثقته في العناية الإلهية «ومن أتى بك إلى هنا ؟» .

اشتغل « لين » حين عاد إلى القاهرة بدراسة المدينة وسكانها . وفي تلك الفترة كان بالفعل متمكناً بدرجة كافية من اللغة العربية ، وسعى إلى أن يكون مشابهاً للمصريين في لباسهم ، وسلوكهم ، ونمط حياتهم ، وساعده

فى القرب من الناس ، طبيعته الهادئة ورياضة جأشه وصره. كان هناك الكثير فى هيئته الذى يذكر بالعرى الحجازى أكثر من المصرى، ولكن على أية حال، لم يرفيه القاهريون غريباً عنهم ، إذ نجح فى أن يلتقط أصعب وأقوى العبارات اللغوية للحديث العامى ، وأن يتذكر التفاصيل غير الملحوظة إلا للقليل فى تعاملهم اليومى، وفهم نمط تفكيرهم . وقد كتب «لين بول» بشكل رائع « إن روح الشرق تُعد كتاباً مغلقاً لتسعة وتسعين من كل مائة من المستشرقين ، ولكنه كان مفتوحاً لادوارد لين » .

ولكن لا ينبغى أن نرى «لين» كعالم منغمس بتعصب فى مادة بحثه، ناسياً كل شىء فيما عداه. فلقد اختلط بصورة مكثفة بالأوروبيين المقيمين بالقاهرة، ولكن اختلاطه كان موجهاً، طالما سيساعده فى مجال الاستشراق. لقد حظى « لين » بالكثير من جراء معرفته بعلماء المصرىات المشهورين أمثال ويلكنسون وبيرتون (وفىما بعد هيلي بيرتون)، والذى ذكرهم بالفعل «لانتت» و «بونومى»، والرحالته «هيمفر»، «وخايم»، و«فوكس سترينجفايز». هذا وقد كان اللورد « برودو» صديق « لين » والمقدر لموهبته .

قرر « لين » أخيراً، أنه قد حان الوقت للقيام برحلة فى النيل . فأبحر فى ١٥ مارس عام ١٨٢٦ إلى الجنوب فى مركب، مع طاقم يتكون من ٨ أشخاص. عمل لين أثناء الرحلة بلا توقف . ولم يضع أى دقيقة هدراً ، وفحص كل شىء يمكن رؤيته، ووصفه ورسمه، وخطه. وكان مستعداً للتجوال بالمدن الساحلية والقرى أياماً عديدة. وكان مشاء لا يكل، فلم يكن يخاف الرمال الملتهبة فى الأيام الحارة حين كانت درجة الحرارة تبلغ ٤٥ فى الظل .

وقد جاب كل الشواطىء، وأبحر قدماً ، جالساً فى مقدمة المركب ، ممسكاً غليونه ، وملاحظاً كل شىء من على مسافة . كان « لين » مهتماً على قدم وساق بالحياة المعاصرة للمصريين، وبآثار العهد القديم لمصر. زار أضرحة الشيخ الهريدى والشيخ عبد القادر الجيلانى، وأظهر معرفة بالزيارة

حتى أن رفاقه يجدون سلوكه بدون خطأ. وقد أتيح له زيارة القرى ، وكذلك خيام البدو . وكانت رحلته إلى جنوب مصر مثمرة جداً. وقضى سبعة وثلاثين يوماً في « طيبة » عاصمة الدولة القديمة، وانتقل بعد عودته إلى القاهرة إلى دراسة ووصف أخلاق وعادات سكان المدينة ، ووصف المدينة نفسها. ثم قام بعد عدة شهور برحلة في النيل من جديد إلى الشلال الثاني . وقد أتم في عام ١٨١٨ وصف مصر والنوبة والبلد وأثارها وسكانها. وعاد في خريف تلك السنة إلى إنجلترا بعد أن قضى بعض الوقت في القاهرة ، وقام بزيارة ختامية لأهرامات الجيزة وسقارة .

هكذا تمت أول بعثة « لأدوارد لين » إلى مصر، والتي زودته بمادة أساسية لكتابه عن مصر والمصريين. وأنفق « لين » الثلاثة أعوام التي قضها في مصر طبقاً لاعترافه في « رسم البلد ». في المحصلة قام « لين » بجمع مادة فريدة ، وذكر ووصف ورسم كل هرم ومقبرة ، وكل أثر ، وكل مسجد ، وقرية وكل نبات رائع ، وملبس وأدوات بعين مراقب غير متحيز ، ولسان دقيق ، وجاف ، خال من الحماس العاطفي لرحالة عطوف ، أو سخرية عدائية موجهة إلى بلد من زائر أوروبي . كان لين لا يتميز بالكتابة الجميلة ، بل كانت مهمته الوحيدة الصدق في الوصف لأقصى حد . وقد تخلى عن هذا المبدأ فقط في حواشي ترجمته لـ « ألف ليلة وليلة ». وأما ما كان يعد في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إنجازاً كبيراً للعالم « لين » ، أصبح اليوم منسياً ولكن وصفه يثير اهتماماً أكبر كلما تباعد عنا عصره .

ظهر كتاب « وصف مصر » الضخم كمحصلة لزيارة « لين » الأولى . هذا العمل كان من الممكن أن نصفه بأنه لا يبارى إذا لم توجد « لكن » ، فهو لم يزل النور . في حقيقة الأمر ، كان الجزء غير المنفصل عنه يتكون من ١٠١ صورة بحبر السيبيا ، والتي صنعت بمساعدة صديقه العالم « ويليستون » المخترع لجهاز عرض الصور الشفافة (البروجكتور) المسمى « كاميرا لوسيد » . وكان نسخ هذه الصور بالطباعة مكلفاً جداً ، ولن يستعيد نفقته ، لكن

المخطوطات والرسومات لم تذهب هباءً ؛ فلقد كانت مادة قيمة للكثيرين من الباحثين الأوروبيين .

كان يمكن أن نطلق على «لين» رحالة أثناء الرحلة الأولى لمصر. في هذا الشأن أشار «لين بول» أن لين أبحر مرة واحدة فقط إلى الجنوب عبر النيل إلى طيبة، وعاش في المقبرة، ولكن كان هذا هروياً اضطرارياً من الطاعون. لم نعد نرى منذ ذلك الحين باحثاً يائساً صاعداً الأهرامات، أو ماشياً تحت أشعة الشمس الحارة، وبين خيام البدو، بل يظهر أمامنا عالم بارز، واستبدل وديان مصر بالكرسي والريشة والورقة ومفكرة وقلم رصاص الرحالة .

قضى «لين» عدة سنوات في إنجلترا في تنقيح يومياته، التي تولد منها كتاب «وصف مصر». ولم تفض محادثاته مع الناشرين إلى شيء، حينئذ اختار «لين» من مخطوطته فقط ذلك الجزء الذي جرى الحديث فيه عن المصريين المعاصرين له وأطلع اللورد برواخم عليه، وقد أشاد برواخم بهذا الجزء، وأوصى به إلى جمعية نشر «المعرفة المفيدة»، الذي كان عضواً بها. بعث هذا الأمر الأمل في «لين»، وحفزه للقيام برحلة جديدة إلى مصر لكي يستكمل هذا الجزء، ويعمل على أساسه كتاباً جديداً. عبر البحر المتوسط في عام ١٨٣٣، وظهر في الإسكندرية من جديد وقد احتاج لعامين (١٨٣٣-١٨٣٥) لكي يحول بحثه عن الطباع والعادات إلى وصف أساسي ومكتمل عن حياة المصريين. ولم يقل هذا الوصف من حيث مستواه العلمي عن البحث السابق .

في بداية الرحلة الأولى لـ «لين»، لم تكن مصر أرضاً مجهولة terraincognit بالنسبة للأوروبيين، غير أن إمكانات دراسة مصر لم تكن قد استنفدت إلى حد بعيد، فلم تكن البلد قد وصفت في كل أحوالها، وقد تطلب تحديداً من أجل تنفيذ هذه المهمة موهبة عالم مثل لين .

كان أفضل شيء قيل عن هذه الموهبة ما ذكره اللورد بروجهام: «من المثير للاهتمام: هل يعرف هذا الشخص موطن قوته؟ إنه الوصف «إن الشيء

المهم الذي أتاح لأدوارد لين أن يتم مهمته في وصف مصر قدرته على الوصف العلمي الدقيق وقدرته المذهلة على العمل .

كان « لين » يملك موهبة العالم الواصف، ووجد التطبيق الأفضل لها ، فقد كان التطبيق شاملاً وكاملاً، ودرس مصر والمصريين بإخلاص غير عادي، وكذلك طباعهم وسلوكهم، ولغتهم وأديبهم ومدنهم ومساكنهم وهيئتهم وملبسهم . وجاء كل وصف من أوصافه على مستوى عالٍ من المهنية الاحترافية. أثناء ذلك لم يصنع « لين » أعمال نظرية في أى من مجالات الاستعراب ولم تكن أعماله الكبيرة تهدف إلى ذلك . فى الحقيقة إن التحليل الدقيق لظاهرة أو أخرى تصحبها أحياناً تداعيات ، وحينئذٍ تظهر على سبيل المثال مقارنات مع الإنجيل (الذى يعرفه لين جيداً) مع عادات الشعوب القديمة، ويظهر لين هنا معرفة واسعة غير أن هذه العيوب لا يمكن أن تحجب الأهم الذى قام به العالم .

وصل « لين » إلى الإسكندرية على متن السفينة التجارية « رايبيد »، التي تبلغ حمولتها ١٦٢ طن . ومن هناك توجه عن طريق ترعة المحمودية إلى القاهرة على ظهر مركب . ومنذ إبحاره من إنجلترا، أمسك « لين » بدفتر يومياته ، والتي سجل فيها كما فى الرحلة الأولى كل ما رآه بدقة. وكثير من صفحات هذه « اليوميات » تمثل قيمة علمية مستقلة على الرغم من أنها لم تدرج في أي كتاب للمؤلف .

وهذه بعض مقتطفات من يومياته:

١٥ ديسمبر (في الطريق إلى القاهرة)

... لقد فاصلنا على ٨٠ قرشاً للإبحار إلى القاهرة. وصلنا إلى مدينة فوة، ولكن لم ننجح فى الإبحار جراء الريح المعاكسة القوية. كان الهواء لزجاً فقد كان من الصعب تخيل أننى فى مصر. وكانت المياه لا تزال عكرة. وكانت كثير من المراكب تقل الحجاج الأتراك الذين كانوا يتهيئون للانضمام إلى

القافلة المصرية الذاهبة إلى مكة. كانت مدينة فوة - كما بد لنا - تقع على الأطلال ويسكنها أناس تعساء مساكين لم أر مثلهم أبداً. لقد قالوا لى إننى سأرى هذا فى كل القرى التى سنمر عليها فى إبحارنا. والسبب واحد؛ فقد أخذوا الناس الأصحاء من حيث الشكل إلى الجيش أو إلى الأسطول وتبعتهن زوجاتهم وصديقاتهم، ولكنهم افترقوا عند وصولهم إلى العاصمة وتحولوا إلى بغايا. واليوم تعج بهم القاهرة...

٢٦ ديسمبر

... منظر القاهرة من جانب الميناء (بولاق - فيتالي ناؤمكن) أصبح أفضل بكثير منذ آخر زيارة لى، لأنه قد تم إزالة جبال الزباله التى كانت تتبع فى هذا المكان، وزرعت مكانها حدائق.

لم يسمح للرحالة الأوروبيين سابقاً، ولبعض الوقت إذا كانوا يرتدون الزي التركى أو الأوروبي بالدخول من بوابات مدينة القاهرة بدون جواز سفر وكان يسمى التذكرة)، والذين كان ينبغي عليهم أن يظهره للحراس. والآن لم يعد هذا النظام موجوداً. أقر هذا النظام؛ لكى يعرف بالضبط عدد السكان، ويضمن أن لا يبقى أحد من السكان المحليين غير معروف، وألا يفلت من دفع الفردة (ضريبة على الفرد). وفى العاصمة نفسها، اكتشفت بيوت مهذمة أكثر من زيارتي السابقة، وكانت علامات الفقر فى هيئة الطبقات الدنيا أوضح. ولم تحدث أى تغييرات فى شكل الملابس للسكان المحليين، ولكن أصبح الضباط والأتراك الذين يخدمون الباشا يرتدون الملابس النظامية، والتى كانت بدأت فى الانتشار بينهم حينما غادرت القاهرة. وقد فقد غطاء الرأس (الآن طربوش فقط) بدون أى عمامة من قماش صينى أو كشمير ملفوفة حوله أناقته السابقة. وأصبحت كل الملابس أقل أناقة وجمالاً بالمقارنة مع بدل الممالك التى حلت محلها، على الرغم من أنها أصبحت أكثر راحة فى المشى، وأى عمل يتطلب حركة.

١١ يناير أول يوم في رمضان

... جاء رمضان في هذا العام في فصل الشتاء والصوم إلى حد ما سهل، فالأيام قصيرة والجو بارد؛ لذلك فلا يُحس بالعطش القاسي جداً والفترة من بداية الامتناع عن الطعام (الامساك) حتى النهاية... تبلغ ١٢ ساعة و٤٧ دقيقة... وقبل حلول المساء وبعض الوقت بعد غروب الشمس يصبح الفقراء لحوحين وزاعقين أكثر من المعتاد. وأنا عادة أسمع صيحات «فطوري عليك يارب» أو «أنا ضيف الله والنبي»، وكذلك المثل الآتي «من فطر صايم أجر دايم»، وفيها امتزاج بشكل واضح لقواعد اللغة الفصحى والعامية الشعبية، ومثل هذا النوع من العبارات كثير. وأكثر من يذهب إلى المقاهي أناس من الطبقات الفقيرة، ويفضل الكثيرون منهم أن يكسروا صيامهم بفنجان من القهوة وتدخين البيبة. في هذه المقاهي تتجمع جماعات قبل غروب الشمس بقليل، وينتظرون هناك النداء المسائي للصلاة، والذي يعني انتهاء الصوم النهاري. ويأتي في ليل رمضان منشدو الحكايات أو الأشعار إلى بعض القهاوي. ويوجد أيضاً بين علماء الدين المسلمين في القاهرة تقليد دعوة الفقهاء لأداء الذكر كل ليلة في هذا الشهر...

٩ فبراير آخر يوم في رمضان يوم الثلاثاء

... الجسم المتعب والإرهاق الواضح ظهر نتيجة الصوم في رمضان. وإذا كان الناس في هذا الوقت مشغولين أكثر من الأوقات العادية في قراءة أجزاء من القرآن الكريم، فإنني أعتقد أنهم يفعلون ذلك فقط؛ لكي يقطعوا بعض الوقت. ويقولون إنه يوجد الآن أناس كثيرون لا يصومون بالمقارنة بذلك الوقت. حين كنت هنا في المرة السابقة، حتى أن القاضي قال لأحد معارفي منذ أيام قليلة إنه من اللطيف أن تصوم فقط أول يومين، وآخر يومين في هذا الشهر. ويلتزم الفقراء - كالعادة - بالصيام بكل جدية، وهو بالنسبة إليهم محسوس أكثر، لأنهم نادراً ما يستطيعون أن يحصلوا على تخفيف من العمل اليومي. والآن، يعيش في المدينة عجوز صام كل أيام العام من شروق الشمس حتى الغروب، فيما عدا العيدين، أو عندما يحرم الصيام على المسلم طبقاً لأحكام الدين...

... بعد شروق الشمس مباشرة تعج جميع المساجد بالمصلين الذين يؤدون صلاة العيد ، وبعد ذلك ينزل الناس إلى الشوارع مع كل دقيقة، يهتفون بعضهم البعض، ويتعانقون ويقبل بعضهم البعض. ويلبس كثير من الناس (الذين تسمح ظروفهم بهذا) ملابس جديدة تماماً ، ويلبس الآخرون أشياء أخرى جديدة مثل: طربوش أو عمامة جديدة ، أو على الأقل زوج جديد من الأحذية الحمراء أو الصفراء . وتغلق كثير من المحلات أبوابها، فيما عدا تلك التي يباع فيها الطعام. ويكون الناس مشغولين بتبادل التهاني، أو الذهاب إلى مقابر ذويهم (وهذا يخص السيدات في المقام الأول) ، وتحمل الحمير سعف النخيل. ويملأ زوار المقابر الشوارع في أماكن كثيرة. وتطلق مدافع القلعة النار في منتصف النهار وفي العصر في كل أيام العيد ...

١٨ فبراير

بالأمس قطعت رأس أحد الأشخاص ، واليوم قطعت رأس شخص آخر. تسلل الأول إلى بيت بغرض السرقة، وحاول قتل صاحب المنزل ، حبسه في إحدى الغرف، وواصل النهب، وعند خروجه رأى أن صاحب البيت يطلب النجدة من الشباك ، حينها أطلق النار عليه من المسدس. وجريمة الآخر التركي القفاص باشا كانت سرقة وقتل حاج تركي ... وأصبح السلب في الفترة الأخيرة متكرراً جداً؛ فالجرائم كما ينبغي أن نتوقع تصبح كثيرة جداً، حينما يتعرض الناس للظلم ويعيشون في فقر .

٢٧ فبراير

ذهبت إلى الحسين؛ لكي أشاهد الكسوة والبرقع وما شابه، قبل أن يلفوها ويرسلوها مع القافلة إلى مكة. وكانت الكسوة لم تنسج بشك كامل، فقد كان لا يزال بعض النساء والرجال يعلقونها على الحائط الكبير

للرواق . وقد طلبت وأخذت هدية صغيرة ، وهي جزء من الكسوة طولها شبر واحد ، والعرض مثل الطول تقريباً . وبعد أن ينسجوا عدة أشرطة بالعرض ، يضطر النساجون إلى أن يقطعوا بعض الأشرطة الصغيرة ، ويبيعونها ، أو يوزعونها كتمائم للناس الذين يريدون أن يقتنوا هذه الآثار . وبعد أن قرأت الفاتحة حسب العادة عند مقام الحسين ، دلفت إلى حجرة صغيرة في المسجد ، حيث يوجد البرقع الذي سيغطي مقام سيدنا إبراهيم وكسوة المحمل (والذي رأيت به بشكل جزئي فقط) وحجاب (المصحف) المحمل ، وكذلك الكيس المنسوج من الحرير الأخضر المخصص لحفظ مفتاح الكعبة ...

٣١ مارس (٢٢ شوال)

تابعت موكب المحمل . كان يختلف عن ذلك الذي رأيت به في المرة السابقة منذ سبع سنوات (في عام ١٨٢٧) فقد كان يتحرك بفخامة أقل بكثير . في البداية بعد ساعتين ونصف تقريباً من شروق الشمس ، أخذوا يجرون مدفعاً مديناً صغيراً (لكي يعطوا إشارة التحرك عقب التوقف ، عن طريق اطلاق النار) . وبعد ذلك ظهرت فرقة البلطجية (وهي فرقة موسيقية عسكرية ذات مستوى عال - المترجم) (وهم الذين يمشون في الأمام أو مرافقين) وكذلك حراس الباشا ، الذين يرتدون عصابات الرأس ، وفي أعقابهم سارت الجمال أرتالاً ، عليها سروج كبيرة مبطنه ، وعلى كل سرج علمان صغيران مائلان للأمام مع ريشه من ريش النعام مثبتة في عصا صغيرة . أمام السرج . وفوق الجمال المطلية بحناء ذات لون أصهب أغطية مبطنه بالصدف (كاوري) . وتزينت الأخرى بسعف النخيل المثبت في السروج ، وفي الأجناب علقت أجراس أو طبول كبيرة ، والتي يقرعها أحد الأشخاص .

ثم تلا ذلك « تختروان » أمير الحج (الذي يرأس قافلة الحج) يحمله جملان . ثم ظهرت مجموعة الدراويش رافعين رايات طرفهم (أعلام وصواري إلى آخره) ، ويكرر البعض اسم الله ، ويحركون رؤوسهم ، ويقرّع الآخرون بمقارع جلدية

طبول صغيرة حاملين إياها في أيديهم اليسرى . ويتبارز اثنان من الدراويش بالسيوف مبارزة وهمية . وسار المتبارزان وكان النصف الأعلى لكل منهما عارياً ومدهوناً بالزيت . وامتطى كل منهما ظهر حصان شخصية خيالية بلحية مستعارة (موصوفة في حكايتي عن موكب الكسوة المتضمنة في الكتاب) ، وتتكون ملابس هذا الشخص من فروة خروف ، وقلنسوة عالية من فروة الخروف . وخلف الدراويش حمل المحمل الذي كانت هيئته في هذا العام بأئسة؛ فقد كان الغطاء قديماً والنسيج كان معتماً . وأحاطت الجماهير بالمحمل ، وحاول الناس أن يلمسوه بأيديهم أو بطرف الشال أو المنديل ، حتى أن البعض لفوا عماثهم من أجل ذلك ، ونزعت النساء في النوافذ أغطية رؤوسهن . وسمح لي بمشاهدة المحمل كما أشاء ، وأن أسه عندما كانوا يحتفظون به في مسجد الحسين . وتبع الشيخ شبه العاري الذي كتبت عنه في حكايتي عن مواكب الكسوة والمحمل كما هي العادة ، الراية المقدسة المنصوبة على الجمل ، والتي تعمل على تهويه رأسه . وسار بعض الجنود وأمير الحج والضباط الذين صاحبوا القافلة في آخر صفوف الموكب . وفيما لا يقل عن ساعة كان الموكب قد جاوز المكان الذي كنت أنا أقف فيه ...»

تقدم هذه المقطعات من دفتر اليوميات تصوراً عن ذلك العمل الشاق ، الذي لم يتوقف عن القيام به في مصر ذلك العالم . وفي أثناء الرحلة الثانية «لادواردلين» إلى مصر ، انتشروا الطاعون ، وقد استطاع بالكاد أن يتفادى هذا المرض . ويختتم دفتر اليوميات بقصتين عن الطاعون من أول أغسطس عام ١٨٢٥ . وسرعان ما عاد «لين» إلى إنجلترا ، وأخذ معه مخطوطة الوصف التفصيلي لأخلاق وعادات المصريين .

مضى بعض الوقت في تحرير وصياغة المخطوطة . وقام «لين» بنفسه بقطع الألواح الخشبية على مقياس لوحات من أجل الصور المحفورة . وقد صدرت أول وأعلى طبعة لكتاب «أخلاق وعادات المصريين المعاصرين» في ديسمبر عام ١٨٢٦ ، وتعاقت بعده بسرعة الطبعات الأخرى . وسرعان ما ترجم الكتاب إلى اللغة الألمانية ونشر في ألمانيا وأمريكا .

حظي كتاب «لين» بشهرة واسعة وجلب الشهرة للكاتب. وقد أشاد المتخصصون بكتاب العالم. ولم يجد الناقد «كوايتيرلي ريفو» المقيم في لندن عند «لين» أى أخطاء، باستثناء إدخال أسماء عربية في الكتابة اللاتينية. وقد أرسل المستعرب الشهير «فرينيل» المقيم في القاهرة إلى «لين» خطاب مديح. وقرر المستشرق الألمانى الدكتور «شبر نجر» الذي زار القاهرة أن يراجع «لين»، وأن يبحث أخطاء في كتابه (تصيب المستعربون دائماً الغيرة تجاه بعضهم البعض) ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل .

أشاد المستشرقون المحدثون كذلك بكتاب «لين»، وكذلك تمت الاشادة بكتابة فى مصر. فى كتاب القاهرة «مدينة الألف عام» الذى أصدرت وزارة الثقافة المصرية فى عام ١٩٦٩ جاءت الإشادة التالية بهذا الكتاب: «أعطى إدوارد وليم لين فى كتابه الشهير وصفاً صادقاً جداً وتفصيلاً للشكل الخارجى للقاهرة وطريقة حياتها وعادات السكان فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. وهذا الكتاب أعتبر كما لو كان التتمة المنطقية للمونوجرافيا «وصف مصر» والتي وضعها علماء عصر الاحتلال الفرنسى».

حين حظى بالشهرة «إدوارد لين» أصبح يشارك بهمة فى الحياة الاجتماعية العلمية لإنجلترا. وشغلت مجالس الجمعيات العلمية والندوات العلمية وتحرير الأعمال العلمية الجانب الأكبر من وقته ، وأصبح خبيراً معترفاً به بكل قضايا الأدب العربى ، ولكنه كان يبحث عن عمل كبير وجديد ، وجذب انتباهه الأثر الرائع للأدب العربى فى العصور الوسطى «ألف ليلة وليلة». شرع «لين» فى ترجمة هذه الحكايات معتبراً هذا الأثر نوع خاص من الموسوعة لأخلاق وعادات العرب فى العصور الوسطى ، وكان يخص كل فصل بملاحظات شاملة ، والتي تعد قيمة علمية كبيرة. صدر الكتاب شهرياً من عام ١٨٣٨ إلى عام ١٨٤٠ فى إصدارات مستقلة مع صور كثيرة رسمها «ف. هارفى» ، وبعد ذلك نشرت الترجمة أكثر من مرة وفى إصدارات مستقلة. بقى النص الأصيل وطريقة الكاتب للتعبير بالرموز

الصوتية عن الأسماء العربية بدون مساس فى إصدار عام ١٨٥٩ الذى أصدره ابن أخت «لين» إدوارد ستانلى بول (أب ستانلى لين بول). قام «ستانلى لين بول» بعمل إصدار مستقل فى عام ١٨٨٣ لملاحظات «لين» المصاحب لترجمته حكايات « ألف ليلة وليلة» بعنوان «المجتمع العربى فى العصور الوسطى».

تمت الإشادة بكتاب «لين» على الفور إلا أن القارئ الإنجليزى قابل الكتابة الجديدة لأسماء السندباد وجعفر (وليس سندباد وجافار) بعدم ثقة، رغم أنها الأصح. ولم يجدوا مطلقاً فى ترجمة «لين» الاسم المعروف جيداً لديهم (الأدين) حتى فى أصح كتابة له وهو علاء الدين لذلك عند إعداد إصدار جديد اتخذ قرار باعادة الأسماء القديمة وتضمين النص حكايا غير صحيحة، ولكنها مشهورة عند القراء. أثار هذا «لين» الذى طلب سحب جميع النسخ المعروضة للبيع. وقد أستعيد النص الأصلي بالكامل فى إصدار عام ١٨٥٩.

قام «لين»، الذى لم يستطع أن يعيش بدون عمل فى ذلك الوقت، بترجمة مختارات من القرآن مع مقدمة وملاحظات وتعليقات ضمنها فى النص. صدر هذا الكتاب فى عام ١٨٤٣ غير أن طبيعة «لين» التى لا تكل بحثت عن عمل جاد جديد، يمكن أن يكسر له سنوات عمره الطويلة؛ لكى يستخدم موهبته كمحلل يجيد الوصف.

كتب «لين بول»: إن إدوارد لين «قد استنفد مصر تقريباً. فقد وصف البلد ورسم لوحة للحياة المعاصرة لشعبها وترجم حكاياته المحببة». والآن، كان أمام «لين» مهمة ضخمة، وهى إنشاء عمل جديد يرتبط بجذوره مع مصر، ولكن هذه المرة لم يكن مخصصاً للقارئ العادي، وإنما للدائرة الضيقة من المتخصصين. فكر العالم أن يضع قاموس عربى- إنجليزى ضخم. وإذا كان يوجد فى النحو العربى أعمال رائعة لـ «ديساسي»، و«لومسدين»، فإن قواميس «جوليوس» و«فريتاج»، كانت أقل منهما شأنًا بدرجة كبيرة.

قرر «لين» ملء الفراغ في الاستعراب الأوروبي عن طريق المعالجة المحكمة لمخطوطة القاموس العربي المفسر «تاج العروس» في القرن الثامن عشر، والذي ضمن فيه الكاتب المصري «الزبيدي» كل ما اعتبر مهماً ومفيداً عند سابقيه من النحويين العرب (الفيروزى بصفة خاصة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر).

استطاع «لين» أن يتم هذا العمل فقط، عندما قام برحلة دورية إلى مصر، غير أنها كانت طويلة في تلك المرة. وقام اللورد «برودهو» (بعد ذلك دوق نورث امبرلاند) بمساعدة «لين» في التغلب على جميع الصعوبات المالية المتعلقة بالرحلة. قرر «لين» في هذه المرة ألا يذهب وحده إلى مصر، فأخذ معه زوجته اليونانية التي تزوجها في عام ١٨٤٠، وأخته الأرملة السيدة بولو بصحبة ولديها، والذي حل «لين» محل أبوهم. ومنذ ذلك الوقت أصبحت أخت «لين» المرافقة الدائمة له.

أبحرت عائلة «لين» إلى مصر في يونيو عام ١٨٤٢ على متن السفينة «تاجوس». في هذه المرة قضى «لين» في القاهرة سبع سنوات حتى عام ١٨٤٩. لن نرهب القاريء بتفاصيل حياة «لين» القاهرية، الذي هو الآن مستشرق حكيم، يسخر كل إمكانياته لعمل واحد ضخم، وهو رأس العائلة المعترف به كعالم للغة العربية، وكانت مخالطته تعد شرفاً لكل المستعربين الذين تواجدوا في مصر في تلك السنوات. في النهاية تم تحليل المخطوط العربي وبدأ «لين» في وضع القاموس.

رجعت عائلة «لين» إلى إنجلترا في عام ١٨٤٩. ومن ذلك الوقت اعترف بالعالم كأحد «شيوخ» المستعربين الأوروبيين، وانهمرت عليه ألقاب فخريّة، وجوائز، ومكافآت، لكن «لين» واصل بإصرار إعداد القاموس. وينشر «لين» بعد عشرين عاماً من العمل المدقق والمتعب في عام ١٨٦٣ أول جزء من القاموس، ثم نشر الجزء الثاني في عام ١٨٦٥. وفي عام ١٨٦٧ خرج للنور

الجزء الثالث . في عام ١٨٧٠ ظهر الجزء الرابع (على الرغم من الحريق الذي أحرق كل النسخ ما عدا نسخة واحدة ، مما اضطره إلى إعادة إصداره في عام ١٨٧٠).

صدر الجزء الخامس في عام ١٨٧٤ . واستكمل الجزء السادس حتى النصف في بداية عام ١٨٧٦ ، حين وافته المنية . أصبح بنى أخت ادوارد « لين » ، وأولادهم مستشرقين ، وشرع « ستانلى لين بول » ابن الابن الأكبر لأخت « لين » في استكمال الجزء السادس ، والذي بفضل جهوده صدر في عام ١٨٧٧ . وصدر الجزء السابع والثامن متأخرين كثيراً في عام ١٨٩٣ .

دخل قاموس « لين » العربي - الإنجليزي الصندوق الذهبي للاستعراب العالمي ، فإنه إلى الآن يبقى عملاً لا يقارن ولا يبارى في قيمته . ولا يمكن لأي عالم لغوي أو باحث أدبي يشتغل باللغة العربية ، أو بالأدب العربي أن يستغني عنه حتى هذا اليوم .

كانت السنوات الأخيرة للعالم ، سنوات زهد . فلم يسمح لين لنفسه أن يترك عمله ولولد دقيقة واحدة مدركاً أنه بغير ذلك لا يمكن أن يتم عمله في إعداد القاموس . ولم يشتغل تقريباً بأعمال أخرى . وبعد الموت المبكر في عام ١٨٦٧ لابن الأخت الأكبر الذي رياه ، ضم أطفاله الثلاثة إلى عائلته . أحدهم « ستانلى » ، والذي زاد اسم لين في عائلته .

اقتربت حياة العالم من الأفول ، وعانى في السنوات الأخيرة من الإلتهاب الرئوي المزمن والحاد وعاودته نوبات الحمى . وفي أغسطس عام ١٨٧٦ اختتمت حياة الباحث الذى ، لا يكل ، والرحالة ، والعالم .

بعد رحيل العظماء تبقى أعمالهم . ومعها لا يموت مؤلفوها . لذلك يظل كتابه المترجم إلى اللغة الروسية عن أخلاق وطبائع المصريين في النصف الأول من القرن التاسع عشر مطلوباً وطريفاً . وقادراً على إثراء معرفتنا بمصر والمصريين بشكل كبير . ويتيح لنا هذا الكتاب أن نفهم حياة الشعب

المصري اليوم بطريقة أفضل ، لأن الماضي والحاضر متضافران بإحكام في حياة مصر الحديثة ، وهي الفكرة التي نحاول أن نقنع بها القراء .

يولى « لين » بطريقة متعمدة اهتماماً خاصاً بالإسلام كنمط تفكير ، والذي تبنى عليه ثقافة ونمط حياة غالبية المصريين . وتمثل الأهمية العلمية والمعرفية في الكتاب في وصف المناسك الدينية المختلفة للطائفة المسلمة في مصر ، وفي المقام الأول النسك المرتبطة « بالأركان الخمسة للإسلام » أي الفروض الخمسة للدين الإسلامي : الإقرار بالدين (التشهد) وهو التلفظ بصيغة « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » والصلاة والصيام والحج والزكاة .

يورد « لين » معلومات طريفة عن الحج في مكة ، والذي يجب على كل مسلم أن يقوم به كما يأمر القرآن حتى ولو مرة واحدة في العمر . كانت رحلة الحج في زمن « لين » صعبة ومرهقة ، حيث كانوا يمشون على الأقدام ، ويركبون الجمال (الآن تنقل الحجاج الطائرات والسفن الحديثة) . وسنعرف من الجبرتي المؤرخ المصري بالتفصيل طريق سير الحجاج . أفاد بأنه في يوم الثالث من أغسطس في عام ١٧٩٨ (العشرين من صفر بالتقويم الإسلامي) « تم تلقي رسائل من الحجاج تخبر بوصولهم إلى العقبة » . سارت قافلة الحجاج من القاهرة إلى خليج السويس ودارت حول خليج السويس ، وتحركت عبر شبه جزيرة سيناء ، وبعد ذلك بمحاذاة ساحل خليج العقبة واجتازت ميناء العقبة ، وبمحاذاة شاطئ البحر الأحمر حتى مكة . ومن إفادة الجبرتي نستخلص أن القافلة عادت عبر العقبة . في ذلك الوقت كان نابليون بونابرت موجوداً في القاهرة ، وبعد أن استلم أعضاء الديوان الخطاب توجهوا إلى بونابرت ، وحصلوا على موافقته لوصول أمير الحج إلى القاهرة .

سمح بونابرت ولكن « بشرط أن يأتي فيقلته من الحجاج ولا يدخل معهم مماليك كثيرة ولا عسكر » . وتوجد في مدونة الجبرتي تفصيلاً طريفة :

كان صالح بك أمير الحج أحد مماليك الحاكم المصري محمد بك، والذي شغل قبل ذلك وظيفة ممثل الميناء. ولم يذهب الحجاج إلى القاهرة كما أفاد الجبرتي، ولكن تناثروا من بلبيس عبر كل البلد. في الحادي عشر من أغسطس «ملك الفرنساوية مدينة بلبيس من غير قتال وبها من بقي من الحجاج فلم يشوشوا عليهم وأرسلوها إلى مصر. وصحبتهم طائفة من عساكرهم ومعهم طبل»، وبالتالي فإن الفرنسيين قدموا الاحترام للحجاج، فمصاحبة الطبول أو الأوركسترا للموكب اعتبر حسب المفهوم التركي تكريم خاص.

كانت مصر تلعب دوراً خاصاً في تنظيم الحج، على الرغم من وجود المدن المقدسة للمسلمين مثل: مكة والمدينة في الحجاز (على أرض السعودية العربية الحديثة). فمن هنا كانت تتوجه إلى الحجاز قافلة عظيمة للحجاج، لم يكن المصريون وحدهم يشكلون قوامها، بل كانت تضم مسلمين من جميع البلاد. وكان الإعداد السنوي للمحمل وإرساله إلى مكة إحدى العادات الفريدة المرتبطة بالحج، والتي استمرت حتى العصر الحديث. وقد ظهرت هذه العادة كما يعتقد المؤرخون العرب أثناء حكم شجرة الدر، وهي المرأة الوحيدة التي جلست على عرش مصر.

وكانت شجرة الدر جارية تركية لآخر سلطان أيوبي لمصر نجم الدين الأيوبي. وقد جاهدت بنجاح ضد الصليبيين بقيادة القديس لويس. اعتلت العرش في عام ١٢٥٠ بعد موت أيوب فاتحة حقبة جديدة في تاريخ مصر، وهي حقبة المماليك أي العبيد السابقين من الأتراك والشركس السابقين، والذين حكموا مصر أكثر من ٢٥٠ عام. وينسب لهذه المرأة بالذات شرف إدخال عادة المحمل، وللحقيقة توجد روايات أخرى. وطبقاً لرواية المؤرخ المصري المقرئ في القرنين الرابع عشر والخامس عشر) أرسل السلطان المملوكي الظاهر بيبرس في أعوام (١٢٧١ - ١٢٧٢ م) المحمل لأول مرة إلى مكة.

ولكن ما هو المحمل ؟

لا يقدم «لين» وصفاً دقيقاً له ، ولكن هذا الوصف يوجد عند كتاب آخرين . وكما كتب المؤرخ المصري أحمد أمين فإن المحمل إطار مربع من الخشب هرمي القمة له ستر من الديباج الأحمر ، وعليه زخارف وكتابة مطرزة تطريزاً فاخراً بالذهب على أرضية من الحرير الأخضر أو الأحمر . وله قماقم أربعة من الفضة المطلية بالذهب ، وينتهي هذا الكساء بشراريب تعلوها كرات فضية يتفرع منها سلوك فضية دقيقة ، ومعلق في قمة المحمل من الداخل مصحفين صغيرين بأغلفة من الفضة المذهبة ومع مرور الزمن تكون عند المصريين طقس كامل مرتبط بالمحمل . وفيما يبدو أنه حل محل منسك الحج نفسه للطبقة الفقيرة من سكان البلاد . والمحمل أصبح للمصريين مقدساً وفريداً من نوعه ؛ فهو يرمز للكعبة . وقبل إرسال القافلة لمكة كانوا يحملونه على جمل كبير ويطوفون به في شوارع القاهرة . في أثناء هذا الموكب يندفع الناس إلى المحمل لكي يقبلوا الشراريب التي تتلألأ من الغطاء ، معتقدين أنهم بهذه الطريقة يمكنهم الحصول على البركة .

وكما كتب أحمد أمين إذا أفلحوا في تقبيل المحمل «فإنهم يكونوا فخوريين كما لو أنهم قبلوا يد النبي» ، وينتهي الموكب عند ميدان القلعة القاهرية . وحسب قول المؤرخ المصري : أثناء ذلك كان يحضر نواب عن السلطان والحكومة والشخصيات الدينية الكبيرة من العلماء وأمير الحج ، ويجب على الأمير أن يقبل زمام الجمل الذي حملوا عليه المحمل . وفي أثناء الاحتفال كانت تطلق المدافع وتغنى الأغاني المخصصة لهذا الاحتفال ، ويقام احتفال مماثل عند عودة الحجاج من الحج .

عندما بسط الوهابيون نفوذهم على الحجاز ، احتدم الصراع بينهم وبين الحكام المصريين ؛ لأن الوهابيين لم يكونوا يعترفون بالمحمل ، أو بالأضرحة ، أو بمقامات الأولياء . ويقول الجبرتي عن وصول قافلة الحجاج مع المحمل

إلى مكة في عام ١٨٠١ (عندما كانوا لا يعلمون بعد في مصر عن استيلاء الوهابين على المدينة المقدسة) : وعندما «تقابل أمير الحج مع الوهابي - يقصد سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود - المترجم- قال له الوهابي : ماهذه العوידات التي تآتون بها وتعظمونها بينكم» يشير بذلك القول إلى المحمل ، وأجاب مصطفى جاويش : «جرت العادة من قديم الزمان بها يجعلونها علامة وإشارة لاجتماع الحجاج» ، فقال : «لا تفعلوا ذلك ولا تآتوا به بعد هذه المرة ، إن آتيتم به مرة أخرى فإني أكسره». وكان الوهابيون يحاربون عادة المحمل ويعتبرونها بدعة (إدخال شيء جديد غير مقبول وشركي إلى الإسلام) . وفي نهاية الأمر سمح الوهابيون للمصريين بالاحتفاظ بهذا الطقس، ولكن بشرط ألا يحملوا المحمل إلى الحجاز . وكان إعداد المحمل عملاً مريحاً من الناحية الاقتصادية للحكومات المصرية. وفي القاهرة كان تقوم بذلك ورشة خاصة، والتي كان يديرها موظف حكومي .

من الطريف أن نقارن هذه الحكايات بإفادات الرحالة الآخرين ، ففي عام ١٧٣٩ وصف «ريتشارد بوكوك» عالم اللاهوت الإيرلندي قافلة الحجاج القاهرية . وقد أفاد على وجه الخصوص بأن الأقمشة التي يغطون بها الكعبة وقبر النبي في المدينة تُنسج في القاهرة على مدار عام كامل ، وفي اليوم الثالث لعيد الفطريآتون بها إلى مسجد الحسين . وفي هذا اليوم الاحتفالي يتجمع «كل الشيوخ من المساجد وطوائف التجار المختلفة ... حاملين أعلامهم أمامهم»، ثم أعقبه بوصف بهيج للشعور الذي تحس به الجماهير عند رؤية الكسوة المقدسة : «يصبح البعض مجانين أو فيما يبدو أنهم كانوا في حالة نشوة روحية قائمين بالآف الحركات بالأيدي والرأس ، ولم يكن على البعض منهم أي شيء ما عدا الملابس الداخلية العادية، ويقع الآخرون فاقدى الوعي ومنقطعى النفس تماما» . وكتب بوكوك عن الجمال التى تحمل المحمل «أنهم يربونها خصيصاً من أجل الاحتفال ولا يستخدمونها فى أى شيء آخر إذ يعدونها مقدسة . وقد أكدوا لى أيضاً أن الأتراك فى ذروة تعصبهم

الدينى يلتقطون اللعاب الذى يقع من أفواهاها ، والجمل مغطى بالكامل بالديباج وأقمشة مطرزة بفخامة. ويمشى فى عقبه ثلاثة جمال أخرى ، وأطقمها لا تقل جمالا عن أطقم الجمل الأول ، ومن ورائهم تسير ستة جمال أخرى يجلس فتیان على سروجها».

يحكى بوكوك أن القافلة تمكث مدة ثلاثة أيام على مسافة ثلاثة أو أربعة أميال من القاهرة. وبعد ذلك يخيمون بجوار البحيرة. «لا يوجد شيء أجمل من هذا المخيم ، ويترك جميع الوجءاء خيامهم ويقضون الوقت فى الولايم، ويأتى إلى هنا كل سكان المدينة للمشاركة فى الاحتفال ، وينقضى المساء بالزينات الضوئية، والألعاب النارية» .

وصف جوزيف بيتس الإنجليزى فى نهاية القرن الثامن عشر تجمع القافلة من مكة. فالقافلة إذن «مقسمة إلى قطارات ، ولكل قطار اسمه ، وهو يتكون من بضع مئات من الجمال ، ويسير كل قطار وراء قطار آخر ، وكأنهم فى حملة عسكرية، وعلى رأس كل قطار قائد مسئول يجلس فى تختروان يحمله جملان ، أحدهما أمام الآخر، والتختروان مغطى بقماش شمعي ومن الأعلى جوخ أخضر موضوع بأناقة.... وعلى رأس كل قطار جمل يحمل خزينة المال ، ويضعون لهذا الجمل جرسين، جرس على كل جانب من جانبيه ، بحيث إن صوته يسمع من مسافة بعيدة. وثمة جمال أخرى يضعون حول رقبتها أجراساً ، وأجراساً أخرى صغيرة مدورة حول أرجلها ، ويكون لرنينه المختلط بغناء الجمالين (هم يسرون مترجلين خلف الجمال) جلبة ممتعة....».

أفاد «بيتس» عن القافلة المتجهة من الجزائر إلى مكة أنها اكتملت فقط فى القاهرة ، إذن فالقاهرة كانت بطبعها منطقة تجمع لكل الحجاج من شمال أفريقيا .

كان جميع الحجاج المسلمين في تلك الأوقات بصفة عامة يتوجهون إلى الحجاز من طريقين . كانت الرحلة إلى الحجاز عبر اليابسة تستغرق أربعين يوماً ، أما الحجاج الذين كانت هذه الرحلة بالنسبة إليهم مرهقة وفوق طاقتهم ، فقد كانوا يبحرون إلى جدة عبر البحر الأحمر ، ومنها يصلون إلى مكة .

جذبت الطقوس المرتبطة برحيل القافلة انتباه « كلوت بك » أيضاً . فقال : « والمحمل مع ما يتبعه من عفش أمير الحج ، والصندوق المحتوي على صرة المال المرسل من قبل السلطان إلى الحرم النبوي وكذلك الكسوة الشريفة لستر الكعبة ، قد شغل في القاهرة من الحرير الأسود المطرز بالفضة ، ويطاف بها في حفلة حافلة وموكب جليل بالسهل المعروف بالحصوة بشمال القاهرة ، ثم تتجة منه إلى بركة الحاج التي هي آخر مرحلة لاجتماع الحجاج برسم السفر إلى الحجاز » .

تعد الصلاة والصيام بالإضافة إلى الحج من الفروض الواجبة على المسلم (حتى أنهما يعدان أهم من الحج ، وفي مقدور الجميع) . يفرض القرآن الكريم أداء الصلاة خمس مرات في اليوم . وتتطلب الصلاة نفسها استعداداً خاصاً ، إذ لا يمكن الدخول فيها بدون وضوء . وفي حالة عدم وجود ماء يجوز أن يحل الرمل محله (التيمم - المترجم) . وتؤدي الصلاة حتماً على سجادة الصلاة ، أو أى مفرش يحل محلها . ولا بد أن يتوجه المسلم أثناء الصلاة بوجهه إلى مكة المكرمة المدينة المقدسة للمسلمين .

أولى الصلوات هي صلاة الفجر ، وتؤدي ما بين الساعة الرابعة والخامسة صباحاً . الصلاة الأخيرة هي صلاة العشاء . ولعل الصلاة الأكثر أهمية هي صلاة الظهر « صلاة منتصف النهار » . وإذا لم يكن جميع المسلمين في العالم العربي الحديث يلتزمون كلياً بكل أركان الإسلام ، فإن الكثيرين يؤدون صلاة منتصف النهار (الظهر) . وفي هذه الساعة في مصر ، وكذلك في البلاد العربية الأخرى ، تغلق المحلات والحوانيت . وتتوقف السيارات في

الشوارع ١٤، ويمكن أن ترى سائقا يخرج من سيارته ، ويبسط السجادة على الرصيف، ويخلع الحذاء، ويتجه صوب مكة متجمداً ، ويهمس بالصلاة، وبعد ذلك يتم الركوع والسجود والتي تسمى ركعات . كنت عادة ما أرى هذه الصورة في القاهرة في الستينيات . وفي عاصمة مصر الآن ، التي انقطعت أنفاسها من غازات العوادم ، والتي تعاني من الاختناق المروري ، وضيق المكان، والزيادة السكانية غير المعقولة . لا أحد يصلي في منتصف النهار الحار . وأصبح سكان المدينة يشغلون بالأمور الدنيوية أكثر . مصر دائماً بلد ذات مستوى عالٍ من التدين مقارنة بالبلاد العربية الأخرى . وإزاء هذا الإيقاع الحديث للحياة فإنه من الصعب النهوض لصلاة الفجر، غير أنه عندما كنت أدرس في جامعة القاهرة ، وكنت أسكن في المدينة الجامعية كثيراً ما أيقظتني فى الصباحات الصلوات الترنيمية لمجموعة الطلبة المصريين (للحقيقة لم يكونوا كثيرين) ، والذين كانوا - وعلى رأسهم أحد منهم يقوم بدور الإمام - مصطفين في الممر ويؤدون الفرض .

استيقظت في رمضان شهر الصيام الإسلامي قبل الفجر ، وذهبت للتجوال في شوارع القاهرة . وفي أحد أحياء القاهرة ، قابلني شخص ما يرتدي جلباب العيد ، وكان يمسك بدف في يده اليسرى ، ويضرب عليه بإيقاع بعض خشبية ، وكان يغني أثناء ذلك بصوت عالٍ . كان هذا هو المسحراتي الذي من الممكن أن تقابله في مصر في رمضان فقط . وهذه الشخصية موجودة في الحياة المصرية الشعبية منذ عدة قرون . يرجع لقبه إلى كلمة السحور .

والسحور هو ذلك الوقت قبل الفجر عندما يستطيع المسلمون لأخر مرة تناول الطعام . وكما هو معروف فإن المؤمنين لا ينبغي لهم تناول الطعام من شروق الشمس إلى غروبها (من صلاة الفجر حتى صلاة المغرب - المترجم) . ويطلب الإسلام من المؤمن الصادق ألا يأكل أو يشرب طوال النهار كله . وفي رأي سدنة المتحمسين للعقيدة الإسلامية ، أنه حتى بلع الريق يعد ذنباً منافياً للإيمان . والتحديد بالدقة موعد شروق الشمس وغروبها دائماً ما يكون

صعباً ، لذلك كان يتابع ذلك أناس مختارون لذلك الغرض منذ زمن العصور الوسطى في المدن الكبرى للعالم الإسلامي . وكان إطلاق المدفع يعلم جميع الناس بذلك . ولا يزال المدفع منصوباً على جبل المقطم في القاهرة . و بقيت هذه العادة حتى يومنا هذا ، على الرغم من وجود المذياع ، والذي يعطون من خلاله الإشارات المناسبة وكذلك نتائج التقويم التي تبين بوضوح موعد شروق الشمس وغروبها .

يحل وقت الإمساك وهو الامتناع عن الطعام والشراب بمجرد ظهور أول شعاع للشمس (الإمساك يكون قبل آذان الفجر وليس بعد شروق الشمس المترجم) . ولذلك فإن المسحراتية لا يوقظون الناس للسحور قبل وقت طويل من الشروق (المسحراتية يوقظون الناس بوقت كاف قبل صلاة الفجر - المترجم) . ينطلق المدفع في بداية السحور ، ويضرب المسحراتية الدف بشكل إيقاعي مستخدمين عصا خشبية ، أو شريط من الجلد . ويجد المسلمون سحراً خاصاً في أغانيهم التي يشدون بها حين ذلك . يعمل المسحراتي كل أيام رمضان ، ويأتي أثناء عيد الفطر إلى بيوت سكان حيه الذين أيقظهم أثناء ليالى رمضان ليأخذ أجراً مقابل عمله .

في رمضان تخفض ساعات العمل في المؤسسات والمصانع حتى وإن لم يكن العمل صعباً . وحل مشكلة ما أثناء نهار رمضان حالة ميثوس منها . وعند العودة من العمل يرجع الناس شبه أحياء ، وكل ما يصبون إليه هو الوصول إلى السرير ، لذلك يحل وقت المرح في المساء . وينتظر الجميع بفارغ الصبر انطلاق المدفع - إشارة الإفطار - عندما يتم السماح بتناول الطعام . فى الشوارع تبدأ القهاوي والمطاعم في العمل ، وتفوح الروائح الطيبة من العربات العديدة المتنقلة ، وينتظر الزبائن الأطباق الجاهزة . وقبل كل شىء الفول المدمس ، وهو طبق من الفاصوليا البنية المصرية .

في رمضان يأكل الناس أحسن من الأيام العادية . وبالنسبة للفقير فإن شهر الصيام هو شهر الأفراح الصغيرة . ومن المعتاد إعداد بعض الأطباق التي تدخل في لوازم رمضان أي « قائمة طعام حتمية في رمضان » ، ومن بينها الحلويات وخاصة الكنافة .. بالنسبة لمصر (وكذلك لسوريا) تعد الكنافة الطبق الشعبي المحبب مثل الفول (المدمس) . ويعدون الكنافة بالطريقة الآتية: في البداية يعدون عجينة رقيقة وليست ثخينة . وبعد ذلك توضع المقلاة على النار ، وتسكب العجينة فيها كشرائط رقيقة من إزاء ذي ثقب ، ويعدون الشعيرية الفريدة من نوعها بطريقة سريعة جداً . وإذا أرادوا أن يجعلوها وردية اللون يضعون الزيت أولاً في المقلاة . بعد ذلك يخلطون الشعيرية بعين الجمل المجروش والبندق ، ويضيفون السكر ويسقونه بماء الورد . وبعد أن توضع هذه الخلطة على المقلاة ، يضيفون إليها الدهن ويضعونها على نار هادئة ، وتكون النتيجة طعام يشبه طعام مقلي من البطاطس أو ماشابه .

توجد في القاهرة المقاهي المعروفة لجميع سكان المدينة ، والتي تشتهر بإعداد الأطعمة الشعبية المختلفة . وإذا تصفحتم مؤلفات الكتاب المصريين في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين فمن المحتمل أن تقرأ أن أفضل كنافة في القاهرة يمكن أن تأكلها عند سيد علي الكنفاني بالقرب من بوابة المتولي . وهذا المقهى كان موجوداً هناك أثناء دراستي في القاهرة .

يدخل أيضاً في لوازم رمضان ، بالإضافة إلى الفول المدمس والكنافة والأطاييف (أو القطايف باللغة الفصحى) ، (فطائر صغيرة حلوة المذاق) أمر الدين (قمر الدين في اللغة الفصحى) ، وهو مشمش مجفف أو قرص من المشمش . لم يتسن لي أن أرى في مصر من يجاهر بالإفطار ، على الرغم من أن الكثيرين - بالطبع - يفطرون نهاراً في بيوتهم . ويتذمر كبار السن من سلوك الشباب ، الذين لا ينتحون جانباً ، ويأكلون جهاراً في نهار رمضان . ولا يلتزم أفراد عائلات الطبقة المصرية العليا بأداء فرض الصوم . وسأحكي لكم ماذا كان يحدث عند مدخل المطعم الطلابي للمدينة الجامعية قبل انطلاق

المدفع الذي يعلن بدء الإفطار ! كان يروق لى جداً أن أذهب في بداية الإفطار إلى ذلك المطعم متطفلاً بين الطلاب .

وبمجرد أن تحين اللحظة السعيدة ، وتفتح أبواب المطعم يقوم الطلاب بالتدافع ، ويقصدون منصة تقديم الوجبات، ويطرقون الصواني المعدنية. ومن الناحية الأخرى للبوقيه يقوم الموزعون البدناء أصحاب الشوارب بتولي ذلك الأمر، فيأخذ أحدهم الحساء بمغرفة ذات ذراع طويلة، ويسكبها في طبق معدني واسع . ويضع الطبق بمهارة على المنصة في أيدي الطالب الذي يكون عليه الدور ، ويقدم له الثاني بنفس الطريقة طبقاً كبيراً مليئاً بالأرز، وقطعة من اللحم البقرى التي ينبعث منها الدخان . وإذا كان الموزع تنقصه الرشاقة ، وعرف أننى أجنبي ، فإنه يخفض الإيقاع ، ويتحسس طويلاً بأصابعه اللحم في القدر ويتخير القطعة الأفضل . ويتكون الحلو من بلحتين وبرتقال أو موز .

رمضان هو شهر التواصل والتزاور بين الناس . وهو يخلق إحساساً بالمساواة بين الجميع ، ويستدعي للحياة المثل العليا الديمقراطية للإسلام . ويشعر الفقير بأنه مساو للغني ؛ ذلك أن الجميع يصومون ويأكلون لوازم رمضان . وتعزز بعض الطقوس هذا الشعور مثل إقامة ما يسمى بالحفلات الشعبية فى السينما في وقت متأخر من الليل . وفي هذه الحفلات يكون السعر موحداً ورخيصاً جداً . ويمكن أن تنجح في الجلوس في البلكون حيث تكون أسعار التذاكر فيه عالية جداً . وفي خلال ثلاث ساعات يمكن أن تشعر بأنك «ببيه» . وخلال شهر رمضان تلتهب الحياة في النوادي الليلية والملاهي إذ تستمر البرامج طويلاً إلى ما بعد منتصف الليل . ويقوم أهل القاهرة من ذوي السعة واليسر بتمتيع أنفسهم حتى الصباح .

في نهاية رمضان ، أي بعد انتهاء الصوم يحل عيد الفطر المبارك، أو « العيد الصغير» فتقام الولائم ، ويدعى الضيوف إلى البيت . وفي العيد يضع المصريون على المائدة - عادة ودائماً - السمك المجفف البكلاة (وهو يشبه سمك القد)،

وكذلك الكعك حلو المذاق (الكحك). ويقدمون للضيوف خبزاً باللحم المفروم، وشربة اللحم الضاني، وحتماً يقدمون الشيكولاته والساكاكر (الكراميل). وقبل تناول طعام العيد يقوم الفقيه - حسب العادة - بقراءة القرآن .

أفرد «لين» في كتابه مساحة كبيرة للأعياد المصرية المتعلقة بالاحتفال بالأولياء . إنهم وحتى الآن يلعبون دوراً كبيراً في حياة المصريين . في البداية لم يعرف الإسلام الاحتفال بالأولياء ، علاوة على ذلك فإن الإنسان وفقاً لتعاليم الدين غير قادر على أن يمتلك بعض الصفات الخاصة التي تمكن أن ترفع من شأنه ، وتميزه من بين العامة ، لأن الله وحده بالفعل هو القادر على كل شيء حتى الأنبياء والذين عن طريقهم يرسل الله للناس الكتب السماوية ، والذين هم قادرون على فعل المعجزات ، هم في الحقيقة ليسوا بصانعيها ، ولكن الصانع الحقيقي هو الله . تم البدء في الاحتفال بالأولياء تحت تأثير العبادات التي كانت قائمة قبل الإسلام من الشعائر المسيحية وغيرها وكذلك عقب ظهور الإسلام نفسه بالفعل في القرن الثامن (القرن الثاني للإسلام) . يرتبط الاحتفال بمفهوم الولي الذي عبر عنه في القرآن بأنه الشخص « القريب من الله » (في السورة العاشرة - الآية ٦٢) . على هذا الأساس نشأ مفهوم خاص .

إذ يوجد أناس أصبحوا (أولياء ، وهي جمع كلمة ولي) بفضل تلك الجهود التي بذلوها لمعرفة الله ومعرفة تعاليمه وعبادته . وهذا المفهوم كان وثيق الصلة بظهور الحركة الصوفية في الإسلام . والاحتفال بالأولياء فرض على التصورات المتطورة في مجرى الإسلام إمكانية « القرب » من الله ، وأصبح من جانب جزءاً لا يتجزأ من الصوفية . ومن جانب آخر تحول إلى نوع من « الدين الشعبي » الذي كان موجوداً في إطار الإسلام الحنيف . وقد كان هناك إقرار بأن الأولياء لهم القدرة على فعل الكرامات ، ولكن هذه الكرامات طبقتها أقل من معجزات الأنبياء . والأولياء هم الرؤساء الدينيون وشيوخ الطرق والمذاهب الصوفية . وقد أنشأ نوع من التسلسل الهرمي للولاية لا يعرفه الإسلام وعلى

قمته كان الأقطاب أو الغوث . وفي هذا الصدد جمع « لين » مادة طريفة جداً عن التسلسل الهرمي لطوائف المتصوفة ، والتي تبين ما أصبح عليه هذا النظام في النصف الأول من القرن التاسع عشر .

فيما يتعلق بالدين الشعبي ، فإنه في مصر كما في جميع البلاد العربية تقريباً ، ترسخ تجيل الأولياء المحليين ، والذين عادة ما يطلق عليهم في مصر الأسياد (أو سيدي ، سى أو سيدة للمرأة ، أو ست) . كان الناس يعتقدون أن الولي قد أعطي إمكانية منح المؤمنين بركته ، والتي تكون قادرة على مساعدة الإنسان وشفائه من مرضه وتحقيق أمنيته إلى آخره . وقد كتب الهجويري الصوفي المسلم في القرن الثامن أن الأولياء يمكنهم إدارة الكون ، وبركتهم يسقط المطر ، وبتقواهم تنمو المحاصيل ، وبقوتهم الروحية يأتي النصر في المعارك . لاقى تجيل الأولياء في مصر انتشاراً واسعاً وبشكل استثنائي ، ويزدهر هناك حتى الآن ، ويرتبط في المقام الأول بالأماكن التي دفن فيها هؤلاء الأولياء ، حيث يقومون بالزيارة لطلب البركة . ويعتقد المصريون أن بركة الأولياء تحل أكثر في أيام موالدهم ، حين يفد إلى أضرحتهم حشود الناس . وهذه الأيام أصبحت منذ وقت بعيد أعياداً شعبية يحتفل بها في مصر سنوياً . ويحظى بالشعبية الكبرى الولي أحمد البدوي ، الذي يوجد ضريحه في مدينة طنطا ، والولي سيدي إبراهيم الدسوقي المدفون في مدينة دسوق (مصر السفلى) .

وفي « خميترة » (الصعيد) يوجد ضريح الولي سيدي الشاذلي . وفي القاهرة يحظى مقام السيدة مرزوقة الأحمدى بالتجيل الكامل . وليست السيدة نفيسة بأقل منها شهرة . حتى أنه توجد موالد لأولياء مجهولين . ولكن ربما الموالد الأكثر شهرة عند القاهريين مولد سيدنا الحسين ومولد السيدة زينب ، والتي يحتفل بهما في الأحياء القاهرية المسماة بأسمائهما : في حي سيدنا الحسين حيث يقع مسجد الحسين ، وحي السيدة زينب ، حيث يوجد مسجد يحمل اسمها . وبالمناسبة ، فإن تجيل السيدات أصحاب الكرامات في حد

ذاته غير معتاد بالنسبة للعالم الاسلامي. وفي هذا الصدد تبدي مصراهما تماماً خاصاً (ولم يتفوق عليها الا اليمن الجنوبي في شذوذ عن القاعدة، حيث رأيت في أحد المناطق البعيدة ضريح الوالي الطور). لذلك سأسمح لنفسي أن أتذكر زيارتي لمولد السيدة زينب، والتي قمت بها لأول مرة في عام ١٩٦٦ حين كنت أعيش وأدرس في القاهرة .

في الخامس والعشرين من شهر رجب عام ١٣٨٦ من هجرة الرسول محمد (١٠ نوفمبر عام ١٩٦٦ حسب تقويمنا) قررت الذهاب الى مولد السيدة زينب بصحبة «صبحى» أحد معارفي من الشباب النازح من قرية مصرية نائية، والذي يدرس في الصف الأول في كلية الطب البيطرى بجامعة القاهرة والمهتم كما هو حال كثير من أقرانه فى المقام الأول بموضوع الزواج . كنا نحس بتفرد هذا اليوم الاحتفالي بالفعل في الجيزة (الحي الذي كنت أعيش فيه وتقع فيه جامعة القاهرة) ، وكلما اقتربنا من حي السيدة زينب تزايد الاحتفال .

وهذا الحي تحديداً يعد أحد الأحياء الجنوبية، ويقع في الجزء العربي القديم للقاهرة في حشد من الحارات الضيقة والحوانيت والمقاهي والورش والبيوت القديمة . ورأينا كم الوفود التي تأتي الى حي السيدة زينب، وكان الناس يتدفقون ، أسرباً أكملها قادمة من القرى القريبة أو النائية ، قاطعين طريقاً غير قصير حتى العاصمة . كان الرجال يرتدون جلابيب احتفالية ، وترتدي السيدات فساتين ملونة ، ويلبس الكبار أحذية احتفالية ، أما الأطفال فعادة ما يكونوا حفاة (لم يكن السبب الخوف من الحسد - وهل ينبغي على الأطفال ارتداء الأحذية - اعتاد الفلاحون المصريون الفقراء النظر الى الأحذية غالباً كزينة أكثر من كونها من الأشياء الضرورية لدخول الحمام) . وهنا يأمل الرجال المسنون والمرضى وأصحاب العاهات في الشفاء ربما للمرة الثانية ببركة الولي . ويطلب كثير من المكفوفين الصدقة ، ويحدث أن ينجحوا في الوصول الى درجة الشبع ، وفجأة يعود اليهم البصر؟ وتتلاً لأعين الأطفال بالمكر المشاكس . فهذا في المقام الأول احتفال مرح وسلوان عن حياة عامة الشعب البائسة والجائعة والفقيرة .

دلفنا إلى شوارع الحي ، ودخلنا إلى الجحيم بجانب حشود هائلة من البشر. كانت المواكب الغاصة بالناس تتحرك عبر حارات الحي ويغني الناس ملوحين بالأعلام. وفي هذا الحشد دفعتني أيد أحد الأشخاص المبللة بالعرق إلي أحد أركان المنازل القريبة ، وأخذ رجل بدين يرتدي جلباباً مخططاً ، وطاقيّة على رأسه يلقي عليّ قشر اللب بدون توقف، وينظر إلى الموكب ويضغطني نحو منضدة خشبية تستخدم للتجارة في الشارع. وخلف هذه المنضدة المغطاة من الأعلى بمظلة من قماش الشارع كان يقف تاجر أعور، ويساعده صبي لطيف. وهي ليست محلات كمحلات الفاخرة في الشارع الرئيس سليمان باشا أو محلات الذهب في خان الخليلي ، حيث يتجول السياح. عبثاً حاول صبحي الذي كان في الجهة المقابلة من الشارع، الوصول إليّ ملوحاً بيديه بعنف إذ أن الحشود فيما يبدو كانت على وشك أن تسحقه في حائط مبلل لأحد المنازل. كان الأعور يبتسم لي بسرور وتفوح رائحة نتنة من فمته ذي الأسنان المفلجة، ويلهب قفا الصبي بصفعته ، ويصيح فيه : « اعط البيه حلوى» .

ودس لي الصبي بسرعة قطعة كنافة (يحب المصريون الحلوى جداً) . واعتمدت بصدري إلى المنضدة البالية ووضعت قرشين في كف الأعور. وأخيراً انتهى الموكب ، وبصق الرجل السمين ناحيتنا آخر قشور اللب ، ثم تحرك للأمام، وأفسح الطريق . أقبل صبحي المكرمش مسرعاً ، وسرنا للأمام عبر الشارع الذي توجد على جانبيه مناضد لا حصر لها . وتشكل النداءات الجشة للتجار (صيحات التجار وبائعي الحوائج القديمة والسمكرية ، والسقاة تعد لغة خاصة سنعود إليها لاحقاً) ، والهتافات المرحة للأطفال ، والتغريد النسائي المعروف بالزغاريد (الزغاريد هي ترانيم رنانة تصدرها السيدات على نوبات عالية، كعلامة على الفرحة قائمة بحركة اهتزازية باللسان، وكذلك باليد التي تقربها إلى الفم) خلفية صوتية غير متكررة لرحلتك . ويستنشق الأنف نكهات البخور والتوابل واللحم المشوي، والكراميل، والأزهار، والفواكه .

وهنا في الشارع يقومون بشواء الذرة ذلك الطعام الطفولي اللذيذ والمحبوب. أنظر بلهفة، ذلك أن الكثير أراه لأول مرة، ففي الأكشاك وعلى المناضد زينة نسائية متواضعة، وحلي، وبالونات، ولعب أطفال رخيصة، وتزين كل شيء حواليك بألوان عديدة، وبأنوار متألثة. والخشب الرقائقي، الذي صنعت منه الأكشاك والمناضد، ملون بجميع أنواع الألوان الممكنة. ويرتدي كثير من الناس الطرابيش الاحتفالية المدببة، أي قبعة من الورق. وتباع سبج من البازلء ومن البلاستيك ومن الخشب، وحتى الفسفورية التي تضيء في الظلام. ونقترب من التاجر الذي يبيع آلات النفخ الموسيقية الشعبية الرخيصة، المصنوعة من عيدان القصب والخيزران. واشتريت منه «الأرجول» وهو مزمار مزدوج ذو مياسم للقم والمزمار المعروف بأوفاتو. وبالمناسبة فإنها على حالها تماما لم تتغير منذ وصفها «ادوارد لين» في زمانه.

توترت جميع حواس الشعور حتى بلغت الحد الأقصى، فهي ترى غير المألوف، وتسمع الغريب، وتستنشق بصعوبة، لكنك تتعود بسرعة، وترغب في أن تندمج مع هذه الحشود المرححة، والتي يحس فيها الجميع أنهم متساوون، ويحسون بالارتياح. وأخرج من هذه الحارة الأولى لهذا الحي شخصا آخر معداً لاستقبال الاحتفال.

المولد هو احتفال لعامة الشعب، فلم يشاهد هناك أحد من الأثرياء (البشوات والبكوات). وقد ألغيت هذه الألقاب منذ ثورة ١٩٥٢ م، ولكن مازال الناس يستخدمونها حتى الآن، وأحيانا تستخدم مع الفكاهة وأحيانا بجدية من أجل تملق الشخص الثري، وصاحب المقام الرفيع. وبصفة عامة، يوجد في مصر تسلسل هرمي خاص للنداء يجب أن يعلمه كل أجنبي يتحدث العربية.

فلقد خلقت الأزمنة الطويلة من الظلم الداخلي والأجنبي الغاشم متمثلا في الظلم المصري القديم واليوناني والعربي والمملوكي والتركي والأوروبي هنا نظام للتسلسل الهرمي الاجتماعي، والذي ضرب بجذوره في

وعي الناس والافتناع بعدم المساواة الاجتماعية الأبدية. وكما قال لي أحد المصريين: «لاتحاول أن تكون مع المصري على قدم المساواة ، فإنه دائماً سيعتبرك إما أقل منه وحينئذ سيتعامل معك بوقاحة ، أو أعلى منه وحينها سيتعامل معك باحترام كبير . والذي يجب أن تتقبله كأمر مسلم به . » .

وإننى لا أعتقد بصحة هذه المقولة مطلقاً ، فالحديث يدور فقط عن بعض طبقات المجتمع ، التي مازالت تقبع فيها بعمق تلك الرواسب . بيد أنني أتذكر مارأيته بنفسى أثناء بناء السد العالى لأحد المصريين ، الذي يعمل عامل ونش . وقد علموا هذا الفلاح الأمي النازح من قرية قريبة في خلال عدة شهور ، أساسيات التخصص . وبدأ العمل ، ووجه له ذات مرة أحد الأسطوات ملاحظة أنه يترك الكابينة قدرة . في اليوم التالي أحضر معه أحد الأشخاص الفقراء من قريته الى موقع البناء ، والذي قام بدور الفراش مقابل قرشاً في اليوم ، أى أنه سوف ينظف الكابينة في نهاية يوم العمل . وقد اعتبر عامل الونش نفسه أسطى بالفعل ولا يليق به حسب فهمه أن يقوم بعمل قدر . وبالنسبة لي كان من الغرائب أن أرى في المدينة الجامعية بجامعة القاهرة قيام الطلبة باستئجار فراش (كان يقوم بكنس الغرف والممرات) ، ويرتب الأسرة .

ولم لا فإن عادات مثل هذا المجتمع الطبقي بجدارة كالمجتمع المصري مستديمة ، وكذلك العصر الذي وصفه « لين » كشف جذور هذه العادات . بالمناسبة يوجد فى القاهرة عدد كبير جدا من الزبالين (الكناسين وجامعى الزبالة وهم أيضا فئات مختلفة) ، والبوابين وأصناف مختلفة من الخدم . وفى المطاعم يوجد عدد كبير جداً من الخدم ذوي الرتب المختلفة .

لكن دعونا نعود إلى تجوالنا في مولد السيدة زينب . كلما توغلنا في الحي ، قابلنا علامات المرح الشعبي أكثر وصيحات أكثر ، وروائح أكثر ، وزهور أكثر . وقد جذب انتباهي حاملو الماء ، وعلى وجه الدقة بانعو المشروبات ، الذين يرتدون ملابس تقليدية مصنوعة ، من قماش أبيض وأطلس

مخطط (فيما يبدو لم يتغير شيء منذ عصر لين) ، ويحملون الأباريق المعدنية المعروفة باسم البلاصات والكؤوس ، ويتحركون برشاقة بين الناس ، ويدقون الصاجات المثبتة في الكفوف التي تشبه الصنجات (وهم يسمونها شخاشخ أوصاجات) بشكل إيقاعي . ينادى البائعون بصوت عال (عرقسوس - عرقسوس) . هذا المشروب الحلو والحامض المصنوع من عرق السوس ، هو الأكثر حضوراً في معظم الأباريق . وبعض حاملي الماء يعرضون مشروبات أخرى أو مجرد ماء بارد . لكن من يبيع الماء غالباً هم صبيّة يطلق عليهم السقاء (نرى حتى الآن السقاء يحملون القرب الجلدية كما وصفهم لين) وهم يهرعون حاملين القلل الفخارية ، التي ملأوها بماء من الصنبور ، من مكان ما وأكواب زجاجية ، ويقدمون الماء لمن يضطر أن يوفرحتي ثمن الشراب أثناء الاحتفال . بالمقارنة بهؤلاء فبائعو العرقسوس محترفون ومهمون . وبصفة عامة ، فإن الصناعة الشعبية للمشروبات الباردة لها أهمية قصوى عند المصريين . من بين المشروبات التقليدية بالإضافة إلى العرقسوس المذكور الزنجبيل (أو الزنجبيل) الذي يحسن الصوت ، والينسون وهو يشفي من احتقان الزور ، والكرابوية والقرفة والحلبة والتي تنتشر انتشاراً واسعاً في المحافظات ، حيث توزع المشروبات حتى الآن في القرب الجلدية . ويمنح مشروب الموغات الدفء في الشتاء البارد ، ويقضي الشيح على الألم في المعدة . هذه هي مشروبات عامة الشعب ، أما الناس من ذوي السعة واليسار ، فيفضلون عصائر البرتقال والموز باللبن والليمون والقصب ، والتي يصنعونها بواسطة العصارات والخلاطات .

وقد جلبت الحضارة المشروبات المعبأة في الزجاجات ، والتي تعبأ في المصانع . ويمكن أحياناً أن تقابل في قرية نائية أحد الباعة الجائلين يحمل صندوقاً حديدياً تتبع به زجاجات الكوكا كولا بين قطع الثلج . وللصفوة القاهرية خصصت الكافيهات الأنيقة وقد كان من بينها في وقت دراستي في مصر «جروبي» ، الذي كان يحظى بالشعبية الكبرى .

يحب المصريون وخاصة النساء، الزهور بدرجة كبيرة جداً . ويحدث الأطفال هنا في الاحتفال جلبة هائلة، وهم يحملون حزم من أكاليل الزهور. وهم ينادون بصوت عال : « فل، ياسمين- فل، ياسمين». وأي شخص زار القاهرة قد شاهد هؤلاء الصبية . وعادة فانهم يهرولون عبر نهر الطريق خلال اليوم وحتى وقت متأخر من الليل ، ويعرضون شراء أكاليل من زهور الياسمين البيضاء أو الفل (الياسمين بالعربي) المربوطة في خيط تفوح منها رائحة حادة ورائحة توابل . وعندما تتوقف السيارات عند الإشارات فانهم يدخلون الاكليل عبر النافذة المفتوحة للسيارة، أملين أنه في هذه الحالة لن يصمد أمامهم صاحب السيارة. وإذا كانت السيارة تسير ببطء ، فإن الولد يمكن أن يجري طويلاً بجانب السيارة ، ماسكاً الزهور أمام وجه صاحب السيارة . والقرش الذي يمكن أن يأخذه الصبي مقابل الأكليل ، لا يكفيء هذا المجهود الذي أنفقه في إعداد الإكليل ، ولكن العمل الطفولي دائماً رخيص .

الناس يفرحون من صميم القلب . دلفنا إلى ميدان صغير ، ورأينا منصات خشبية لا حصر لها وعدم سقوطها يبدو معجزة ، إذ أنها تتحمل هجوم الناس المحيطة بها ، ورأينا كذلك السرادقات المصنوعة من الألواح الخشبية والخشب الرقائقي والأقمشة . يصيح المنادي « أراجوز ، أراجوز » ، ويدعو إلى مشاهدة عرض العرائس . من المدهش أن هذه العروض بقيت منذ العصور الوسطى بدون تغيير ، ومازالت تحظى بنفس الشعبية ، غير أن مسرح الظل الذي كان منتشرأ في العصور الوسطى في أنحاء البلاد قد تخلص عن مكانته لأنواع الفن الحديثة . وبعد أن صعدنا على الدرجات الخشبية المهترزة في السرادق ، حاولنا ونحن نصيح السمع أن نفهم نكات « بتروشكا العربي » ولكن دون جدوى إذ أن الضحك وبهجة الناس المكتظين في السرادق كانت تحجب عنا كلماته . بجانب السرادق كانت إحدى الراقصات ترقص على منصة حافية القدمين . كانت متقدمة في السن ، ومن الواضح أنهم يعرفونها هنا جيداً . فقد كانت الصيحات السعيدة «يا سلام» تحجب حتى صوت الأوركسترا الذي كان يضم عازف الكمان والزمارين والطبالين . كان هناك أيضاً أحد

النادلين النشطاء جداً ، حتى أنه كان يجذبنا من أكامنا ليدخلنا سرادقا آخر . وقد أقيم السيرك هنا أيضا . في البداية قدم البهلوان عرضاً أمامنا ، ثم وقف لالعاب الأكروبات على يديه ، ووضع أصبعه في زجاجة وبعد ذلك قام رجل رهيب المنظر بقطع رأس مساعده بمنشار في وشاح حريري ، ثم أعادها الى مكانها .

همس الفلاحون الواقفون بجانبني وهم يحملقون « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ، وهم عجوز وهو يصيح «سلام» بالهرب لكنهم أمسكوه . ثم يختتم العرض بسباق الموتسكلات على الحائط العمودي للسرادق . وكان الثقل ينذر بانفصال الفجوات بين الألواح الخشبية ، لكن في هذه المرة انتهى كل شيء على ما يرام ، وقد بقينا أحياء ...

كان التنزه أحد جوانب الاحتفال ، أما الجانب الآخر وهو ديني خالص يتمثل في حلقات ذكر الدراويش . هنا في الميدان بجانب السرادق . يقف الدراويش في حلقة غير مستوية ، ثم يثبون ويرتجفون ، ويدورون ، ويصلون إلى نشوة قوية ، ويتمتمون بالأذكار ، ويصيحون على فترات « الله حي » . كنت كالمسحور فلم أكن قادرا أن أبتعد عن رقص الدراويش ، والذي ترك في نفس كل من أتىح له أن يشاهده انطباعاً لا يمحي .

في كتاب «لين» وصفت حلقات ذكر الدراويش بشكل رائع والذي تعامل معهم من موقع الموضوعية العلمية . وعادة ما تؤثر مثل هذه المشاهد على بعض الرحالة ، وخاصة أولئك الذين لا يستطيعون أن يفرقوا بين حلقات الذكر الدينية الحقيقية والشعوذة الحمقاء أثاراً كريهاً . كتب «أ. نوروف» على سبيل المثال : «جلس راو أعمى محاط بمستمعين لا حصر لهم ، وصاحب روايته إعادات لآخر مقطع ، عند سماع صوت الثيوربو (آلة موسيقية شبيهة بالعود) . بجانبه درويش قد ولد بدون أيدي ، ولكن بالزوائد الناتجة عند الكتف كان يتصنع ويتنبأ لكل السائلين . بالإضافة إلى اثنين من

المتبارزين المهرة المسلحين بالعصي، وبمخدات جلدية بدلاً من الدروع قد أوسعا بعضهما البعض ضربات قاسية، ولدهشة المشاهدين كان هناك متسول عار يدور حتى الإغماء. كانت تلك المشاهد تحدث باستمرار في ميدان الرميطة حيث جموع الغاملين» .

جذبتني صبحي للمضي قدماً ، فقد كان هدفنا هو المسجد القائم في الميدان، وعندما تقترب من المسجد أكثر تبدأ في الشك أن المولد احتفال ديني في المقام الأول . لا ينتمي مسجد السيدة زينب إلى قائمة مساجد القاهرة الأكثر جمالاً أو قدماً ، فقد بني المسجد في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، بيد أنه يدخل في قائمة أهم مساجد المدينة الأكثر تيجيلاً. وبالقرب من المسجد هرج ومرج حقيقي. ويبدو من بعيد أن كتلة هائلة من الناس تصعد على سقيفة الباب، لكي تطأ شيئاً ما ملقى عليها . واذ يحنى الجميع رؤوسهم يقومون بحركات غير مفهومة بأرجلهم ، دافعين في نفس الوقت بأيديهم الواقفين حتى لا يسحقون، غير أنه يتم دفعهم من الخلف ، ويختفي الناس تدريجياً من الفتحة الخشبية، كأنهم يختفون في فم حيوان مفترس . سرعان ما فهمت أن تفسير هذا في منتهى البساطة إذ أن الناس تقوم بخلع أحذيتها عند السقيفة .

يصيبك بعض التردد قبل أن تنضم لهذا الحشد. إذ تتذكر كيف خوفك المستعربون من المعارف، مؤكدين أن وجود الأوروبي في المسجد في أيام الاحتفال «مثل الموت». وأسعد عندما أتذكر كلمات أحد معارفي المصريين الذي قال : «يمكن لأي انسان أن يدخل المسجد سواء كان مسلماً أو مسيحياً فلا تخف».

وبالفعل فخلال إقامتي في القاهرة اقتنعت أن المصريين شعب متسامح الى أقصى درجة. فهم يختلفون إلى حد بعيد مثلاً عن المؤمنين في إيران والعراق والسعودية وبعض الدول الأخرى . فالدخول إلى مسجد الكاظمية في بغداد كان بالنسبة لي بالفعل أمراً مخيفاً ، أما هنا فقد كنت هادئاً ، ولكن في كل مرة كنت أردد في نفسي الدعوات الإسلامية اللازمة .

قمت أنا وصبحي بالصعود إلى عتبة الباب ، ممسكين بأيدي بعضنا البعض ، وتركنا أحذيتنا في كومة الأحذية والصنادل والشباشب المتربة ، ودخلنا إلى المسجد ضمن الحشد المتماوج . ويتكون المسجد من صالتين إحداهما للصلاة ، والأخرى تضم ضريح السيدة . عند مدخل قاعة الصلاة كان يقف بعض الشيوخ في ملابس وطواقى بيضاء وذوي لحي مشذبة بعناية وزبائب فوق الجباه ، والتي تعني فيما يبدو درجة عالية من التقوى (هذه الندبة كما نعتقد من الممكن صنعها إذا نقرت الأرض بجبهتك أثناء الصلاة) .

طلبوا من كل الداخلين ترديد قول : «صلوا على النبي» ويدفعونهم إلى القاعة الأولى . حاولت أن أخطو بسرعة إلى الصالة الثانية ، لكن أحد الشيوخ دفعني بقوة في ظهري ، ووجدنا أنفسنا أنا وصبحي في قاعة الصلاة . قمت بإتمام ركعة واحدة وأنا أهمس بالصلاة منضماً للطنين الجماعي ، وبعد ذلك انزلنا بنجاح إلى القاعة الثانية التي في الحقيقة كان الجميع يسعى إليها . هناك عند الحوائط المرمرية لضريح السيدة زينب العالي ، الذي يقارب طول الانسان احتشدت جموع الناس . وساد جو من الإثارة بين الناس القادمين في يوم الاحتفال لنيل البركة ، ولسؤالها تحقيق الأمانى المنشودة . وزاد في الإثارة ذلك الضوء المنهمر من الأعلى على السقف المغطى بالحريز ، والضريح المزين بمشربية خشبية منقوشة . وتزين السياج البرونزي المحيط بالضريح بباقات الورد . وصار الجميع يمدون شفاهم إلى المشربية محاولين في نفس الوقت أن يلمسوا الضريح بأيديهم ومتمتمين أثناء ذلك بالدعوات والطلبات .

وبعد أن لمسنا الضريح استطعت أنا وصبحي أن نخرج من القاعة إلى الخارج . وبعد أن وجدنا أحذيتنا بصعوبة توجهنا إلى محل الكباب الكائن في الحي لتتناول وجبة من الكباب ، ومازال برد بركة السيدة القاهرية يجعل شفاهنا باردة . أتيج لى أيضاً أن أتواجد في مولد سيدنا الحسين . وهناك اقتنعت بالوجود الحقيقي لتلك الشخصيات الغريبة التي يرتبط بها « الدين الشعبي » المصرى . تذكرت رغماً عني الوصف الساذج الى حد ما ، والمؤثر أيضاً :
لكلوتبك» الذي جاء كالتالي :

ومن لم يصابوا من المشايخ بالبله أو الجنون يطلق عليه اسم الأولياء، ولكل من هؤلاء طريقة يتصنعها في اظهار ولايته. بعضهم يحركون رؤوسهم على الدوام في إتجاهات مختلفة، ويكرر البعض الآخر بلا انقطاع كلمات معينة حفظوها عن ظهر قلب. وغير هؤلاء يلزمون الصمت العميق فلا يتفوهون بكلمة، وإنما يبدون في مقابل ذلك من فاضح الإشارات ما يندى له الجبين. وهناك فريق لا شغل له الا الرقص والغناء، وفريق لا عمل له الا إذاعة نفسه صنوف الشدائد والحرمات، كما يقع من أمثالهم في الصين والهند، وجماعة آخرون يأكلون كل ما يقع في أيديهم، أو يكلون أنفسهم بالأغلال والسلاسل، ويقضون السنوات العديدة في هذه الحالة. وشوهدت طائفة أخرى يظل رجالها واقفين ليل نهار لا ينامون إلا مستندين الى أحد الجدران.

وليست ثياب هذه الطوائف أقل غرابة من أفعالها سالفة الذكر، فان منها من لا يلبس شيئاً على رأسه، بل يتركون شعورهم تنمو حتى تبلغ من الطول مبلغاً عظيماً ويرسلونها ورائهم وعلى أكتافهم إما شعثاً وإما ممشطاً. وكثير منهم يجوبون الطرقات والبيادين لا يستر أبدانهم شيء من الثياب، إلا جلد ماعز أو ضأن أو غزال، يحملونه على أكتافهم. ومنهم من يتظاهرون بالحياء ويتكلفون السم والوقار، فيسترون أجسامهم بقميص أبيض طويل أو مرقعية مكونة من قطع صغيرة مختلفة الألوان».

على الرغم من أن هذا يبدو غريباً، لكن مثل تلك المشاهد التي وصفها كلوت بك يمكن رؤيتها كذلك في مصر الحديثة. ففي طرقات المدن المصرية يمكن أن تقابل «الأولياء» البلهاء، الذين يرتدون الأسمال البالية ويمسكون بعصي في أيديهم، صارخين بشيء ما بجنون، رافعين أيديهم الى السماء، وكذلك الدراويش مع سلاسلهم. وفي إحدى القرى في محافظة أسيوط أخذوني إلى شجرة كان يعيش عليها «الولي». لقد صنع لنفسه ما يشبه الأرجوحة الشبكية، وعاش فيها كما يقولون حوالى عام، لم ينزل

إلى الأرض . لم يتحدث معي ولم يجب على سؤالي لماذا يفعل هذا؟! . ومع ذلك فإن توجيه مثل هذا السؤال ربما كان في منتهى الغباء . وكان أبناء « الولي » يأتون له في الأرجوحة بطعام بسيط على ما يبدو عيش وفول . وتسخر الألسن القروية الشريرة التي تقول إن « الولي » بمجرد أن تغرب الشمس يذهب إلى البيت ، ولكن للأمانة أنا لا أثق في هذه المعلومات . وحقيقة أنه اختار شجرة بجانب الطريق للانزواء تنبئ أنه لم يكن بعيداً عن أحداث الحياة .

يرتبط « بالدين الشعبي » قدر كبير من الخرافات ، والتي تنتشر بشكل واسع جداً في البلاد . وحسب إحصائيات الصحف المصرية فإن ستة وتسعين من سكان القرى واثنتين وستين من سكان المدن يتأثرون بالخرافات . من بين الخرافات المنتشرة عند المصريين الاعتقاد بالتمائم والتعاويذ . ويمكن فعلياً لأي مادة أن تصبح تميمة . وأفاد أحمد أمين أنه في الجامع الأزهر - المركز الديني لمصر - كانت توجد تميمة تمنع العصفير ، والتي عادة ما تسكن المساجد من الدخول إلى المسجد . ويعتقد المصريون أنه توجد في الأسكندرية تميمة ضد الحَدَات والذي كان من نتيجتها عدم دخول هذه الطيور إلى المدينة .

ويصف أحمد أمين كيف تصنع تميمة لحماية البيت والمال والأملك :
وثن يمسك سيفاً في يده ، مصنوع من حجر الخفاف . ولكي تبدأ التميمة في « العمل » يجب أن تغمرها بدم ديك أسود ذبح في ساعة معينة من الليل حين يرى المريخ في السماء . وبالمناسبة فالديك الأسود هو الرفيق الدائم للساحرات الموجودات في المدن والقرى المصرية حتى الآن واللاتي يطلق عليهن الكوديا . وتلك الساحرات يقمن بعمل الزار ، وهو عمل يشبه إلى حد بعيد توسلات ومناشدات الشامانيين (هم سحرة دينيون المترجم) لدى شعوب كثيرة في آسيا وأفريقيا . وفي أثناء الزار الذي يكون الهدف منه طرد الشيطان ، تقوم الكوديا بعمل حركات جسدية صعبة ، وحرق البخور ، ودهن جسد المريض بمراهم سحرية .

وقد يستخدم كتميمة على شكل حجاب يعلق في العنق، به ورقة مكتوب بها آيات من القرآن الكريم. ويعلقون أحيانا على صدورهم مغالب الحيوانات وريش الطيور وماشابه، وتربط برباط مثل رباط الأحذية.

يذكر «لين» عن حق أنه يروج عند المصريين فكرة الإيمان بالأرواح الشريرة أي الجن، والعفاريت وماشابه بشكل واسع. ومثل هذه الخرافات وحتى الآن لها سطوتها في القرية المصرية. من بين مجموعة الكائنات الشريرة التي يرهبها المصريون أكثر من أي شيء «الردة» وهي أشنع أنواع العفاريت. يعتقدون أن المارد يمكن أن يتخذ شكل العملاق وكذلك الكائن الصغير جداً. ويرتدي بالليل ملابس بيضاء ويرقد في الطريق منتظراً المارة. ويمكن إجباره على الاختفاء فقط بتلاوة آيات من القرآن الكريم. وقال أحمد أمين إنه أثناء حكم محمد عليّ جاء إلى مصر الأرناؤط. وكانوا أحيانا يبشون الرعب في نفوس المصريين ليلاً، بارتدائهم ملابس بيضاء و متمنطقين برباط أبيض في منطقة الخصر. ويسكن نفوس المؤمنين بالخرافات فزع ليس أقل من السابق لمجرد ذكر العفاريت المرتدين أيضاً ملابس بيضاء مثل أبو رجل مسلوخة، وأم الشعور. وإذا ذكرت أحد منهما فسيقول لك المصري المؤمن بالخرافات: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». يحب المصريون بصفة عامة جميع التعاويذ والتمايم التي كما يعتقدون تقي من الحسد ومن الضرر الذي قد يحدثه ذكر شيء ما شرير. على أية حال هذا لا يتسم به المصريين وحدهم، ولكن كثير من شعوب الشرق الأدنى والأوسط.

تتسم الأسطورة الشعبية التي تقول بأنه يولد مع كل شخص قرين له بالطرافة. وإذا انزلت قدما شخص فإنهم يقولون له بالقرية المصرية: «اسم الله عليك وعلى أختك». ذلك أنه في هذه الحالة ربما يعتقد المصري أنه انزلق ليس من قبيل المصادفة. إذ أن هذا كان نتيجة الحسد، أو حيل الجن. يتذكر كلوت بك فيقول: ذات مرة ذهبت إلى إبراهيم باشا مع كثير من الوجهاء، وامتدحت حصان شخص منهم. وقد أخذوا كلامي على محمل الشك. وبعد

عدة دقائق انزلق حصانه وسقط على الأرض . وقد أسرعت لمساعدة الراكب، وسألته: ماسبب ذلك؟ قال : أنا أعلم السبب، وابتسم بشكل شبه غامض يشي بتكدره الداخلي . هنا فهمت أخيراً أنني أعطيت المسلم تجربة جديدة لتدعيم اعتقاده بالحسد .»

ويقول أحمد أمين : تعتقد المصريات من عامة الشعب أن القرينة يمكن أن تستبدل طفلهم بطفلها وفي هذه الحالة تبدأ المرأة في معاملة الطفل بعداء، وفي حالات نادرة يمكن أن تتركه في المقابر مدة ليلة واحدة . وإذا بقى الطفل حياً حتى الصباح ، فهذا يعني أن كل شيء على مايرام ، وحينئذ يكون الطفل محظوظاً ، وإذا مات أو اختفى ، فهذا يعني أن القرينة أماتته ونقلته . حتى الرجال يخافون أن يختطفهم الجن، ولكي يخدعوه، فإنهم أحياناً يتنقلون للمبيت من بيت إلى بيت .

يوجد كثير من الأساطير الأخرى يرتبط البعض منها بالتابوهات والمحرمات القديمة. وهناك نهى عن التثاؤب فكما قال «لين» يعتقد المصريون أن الشيطان يمكن أن يدخل الفم أثناء التثاؤب (وأتذكر أنه عندنا في روسيا ، عندما يتثأبون ، فانهم يرسمون علامة الصليب على الفم لكي لا يدخل فيه الشيطان) .

يحتل الرمز العددي مكاناً متميزاً في الأساطير المصرية. وفي العقيدة الإسلامية تلعب الأرقام « ٣ » و « ٧ » دوراً مميزاً . وترتبط بهما كثير من الخرافات عند الشعوب السامية القديمة وهذه الأرقام تمثل أهمية كبرى عند المصريين المعاصرين . وأقوى قسم هو الحلف بالله ثلاث مرات (ثلاثة بالله العظيم) . وأحياناً يحلف فقط « بالثلاثة » . وعادة مايقول صاحب المتجر لكي يظهر أنه أعطاك أرخص سعر، وأن الفصال لا فائدة منه: « ثلاثة بالله العظيم أنا خسران » .

في هذه الحالة كن على ثقة أنه يخدعك. وتوجد كذلك عادة إحراق البخور أيام الجمع، وبعد ذلك يلقونه على الأرض ويخطون عليه سبع مرات. حينئذ سيكون الأسبوع موفقاً. وتوجد الثلاثة والسبعة أيضاً في ألعاب الأطفال على سبيل المثال لعبة التعلب فات (وفي ديله سبع لفات إضافة المترجم)، والتي تشبه لعبتنا «الثالث زائد» .

يؤمن عرب مصر وبلاد الشرق العربي الأخرى بالخواص السحرية للمربع العددي والذي يكون حاصل الأعداد فيه متساوياً في جميع الاتجاهات أفقياً ورأسياً وقطرياً. يتصف جميع المصريين المسلمين منهم والمسيحيين على السواء بالاعتقاد في كثير من الأساطير الشعبية. ولكن توجد عادات خاصة فقط بهذه أو تلك الطائفة الدينية. فبالإضافة إلى الطائفة المسلمة التي ينتمى إليها الغالبية العظمى من الشعب والتي تقدر بخمسة وتسعين في المائة توجد في مصر الطائفة المسيحية القبطية المؤثرة ذات العادات القديمة. وجدير بالذكر أن «لين» لم يول العادات القبطية الصرفة والأعياد المميزة لنمط تفكير الأقباط اهتماماً كافياً. ولكن الرحالة الروسى «أ.أ.رفالوفيتش» المعاصر لإدوارد «لين» كتب عن بعض أعيادهم وخاصة عن الزواج. وسنورد مقتطفاً من وصفة «فانتازيا» الفرح (يطلق المصريون هذه الكلمة على أي بهجة) للأقباط: «يرافق العريس سائق صغير السن يرتدي نفس رداء العريس، ودائماً ما يقف بجانبه من الناحية اليسرى. وعلى الفور يحيط الأقارب والضيوف الذين كانوا ينتظرون معي بالعريس، ويتوجهون سريعاً إلى بيت أبيه. ويكون الموكب احتفالياً للغاية يتقدمه حوالي عشرون شخصاً من حاملي المشاعل، وفرقة من العساكر حاملين بناقهم من المؤخرة، ويسير بعدهم ثمانية أشخاص حاملين في أيديهم ثمانى شمعات ضخمة متلاحمة، كأنها الثريا، ومزدانة بديكة صغار مذهبين وزهور وماشابه.

ويتبعهم ولدان يحملان مباحر فضية كبيرة، يلقون فيها بصفة دورية بعض البخور، ويحمل اثنان آخران أباريق فضية ذات أعناق طويلة وضيقة،

بها ماء الورد الذين كانوا يرشون به وجه ورداء العريس بلا انقطاع ، وفعل معنا أيضا نفس الشيء. وجاءت خلفهم الفرقة الموسيقية المكونة من اثنين من المغنيين وعدد من الطبل من مقاسات مختلفة، والمزامير والكلارنيتات وآلة القانون وهي آلة خشبية مخططة ذات ٢٤ وترأ معدنياً ثلاثياً والتي يعزفون عليها بسبابتي كلتا اليدين .

ويسير اثنان من الشباب المسلحين بعصي بيضاء طويلة بشكل عكسي للخلف مباشرة أمام العريس ، يصححون الوضع مثل رؤساء التشريقات، ويحفظون نظام الموكب الذي كان في نهايته حاملو مشاعل آخرون وفرقة أخرى من العساكر. وكانت موسيقى الأوكسترا بالفعل صاخبة تصم الأذان. فقد كانوا يقرعون الطبل بلا رحمة من كلا الجانبين، وينفخ عازفو الكلارينيت وجميعهم تقريبا من العميان ، كما في كل مكان في مصر الأبواق بكل ما أتوا من قوة. وكان يطلق الذين يتبعونهم من الجمهور كل دقيقة طلقات ناريتة ، ويقذفون صواريخ تقع بعد ذلك على شرفات المنازل ، أو تقع على الحشد الكثيف من الناس ...».

تشعري في مصر المعاصرة بتأثير المعتقدات الجاهلية قبل الاسلام وغير الاسلامية بشكل قوى جداً. وهناك أعياد غير إسلامية المنشأ غير أن الجميع يحتفلون بها. ومن بينها يحتل المركز الأول عيد الربيع الوطني للمصريين «شم النسيم» والذي ترجع نشأته على الأرجح إلى مصر القديمة .

على أية حال، يشير الى ذلك الاستخدام الطقسي أثناء العيد للبصل- النبات المقدس- في مصر القديمة (حزم البصل يجودونها حتى في المقابر فقد تركوها للموتى) . وفي ليلة العيد من المعتاد أن يضعوا البصل للأطفال تحت المخدة ، وفي يوم العيد يستخدمونه بكميات كبيرة .

شم النسيم عيد عائلي . في هذا اليوم يولون الأطفال أهمية خاصة . وبفارغ الصبر انتظرت أول عيد شم النسيم لي في مصر، ومع حلول العيد

خرجت للتجول في القاهرة في الصباح الباكر. يسود جو المرح في كل مكان، والذي يمكن فقط مقارنته بالمولد. وكانت عائلات بأكملها تتجول في شوارع القاهرة. وكانت السعادة بادية في عيون الأطفال المرتدين ملابس العيد، ففي هذا اليوم يشترون لهم بالونات منفوخة متعددة الألوان، ويشترون لهم الحلوى، ويذهبون بهم إلى حديقة الحيوان. والفائدة في هذا اليوم أن الدخول مجاني.

يقيمون في أحد الميادين منصات خشبية، ويشدو فوق أحدها، حبالاً يرقص عليه البهلوان. وعلى منصة أخرى يظهر الحاوي مهارته. ولديه فقرتان أساسيتان وهما: نفخ النار من فمه، وابتلاع السيوف وهو فن قديم قدم العالم. ويكون الأطفال المجتمعين حول المنصات في منتهى السرور. وبالقرب منهم يمتطي الأولاد الحمير. وغير بعيد فنان متجول مع قرده، والذي ما إن يرى مشاهداً وأعداء، فإنه فإنه يصيح على الحيوان ويضربه بقوة على ظهره، فيقوم القرد بعمل شقلبة على مفض. وقد حاولت أن أمضي ولكنني لم أفجح. وقام قرد البابون الكئيب بإمساكي بقوة من الجاكت ونظر إلي مباشرة في الوجه. وعندما أعطيت صاحبه خمسة قروش تركني القرد.

يستطيع المصريون أن يبتهجوا ويشعروا أنهم غير مباليين، على الرغم من كل مصاعب الحياة، ولكن متعتهم المتحررة من القيود يحل محلها أحيانا، اليأس والتشاؤم حيث لديهم ميل ظاهر إليهما.

يلاحظ عند المصريين علاقة متناقضة تجاه الموت. فمن ناحية يلفتون الأنظار إلى أنفسهم كما في البلاد الإسلامية الأخرى باللامبالاة والبساطة التي يتعاملون بها أحيانا مع الموت، وكذلك بالأحاديث عنه. ويبدو أحيانا أن عائلة الفلاح لا تعاني بطريقة درامية موت الطفل كما هو المتوقع. في حقيقة الأمر فإن موت الطفل ليس نادراً في تلك الظروف التي يعيش فيها الفلاحون، وعلاوة على ذلك؛ لأن الطفل يدخل الجنة بعد الموت «أخذه الله

عنده». ومن ناحية أخرى، إذا مات أحد من الأسرة فأن المصريين من المثقفين لا يحبون الحديث عن الميت وعن الموت بصفة عامة، خلافا للأوروبيين. وقالت لى السيدة منيرة المسيحية التى كانت تدرس لى فى الجامعة الأمريكية فى القاهرة العادات المصرية: «نحن متشائمون، وعادة ما نشعر بأننا لسنا على مايرام».

إذا ذهبت لتعزية شخص توفى أحد أفراد أسرته لا تسأله عن شيء، ولا تسأل عن المرض الذى أصيب به المتوفى وكيف توفى؟ وبصفة عامة من الأفضل أن تصمت». بعد ذلك عندما كان علي أن أزور منيرة بعد موت أخيها، فقد صمت مثل الآخرين الحاضرين للعزاء.

تلبس المصريات ثياب الحداد فترة طويلة ويحزنن جداً على الميت. ويورد «كلوت بك» معلومات طريفة عن الحداد: «لا يرتدي المسلمون الحداد كما نرتديه نحن، إلا إن بعضهم يصبغون أيديهم بالنيل والسواد ولا يغسلونهما حتى يزولا من تلقاء نفسهما. وتصبغ الأرمال أيديهن وسواعدهن إلى المرافق، ويفعلن مثل ذلك بثيابهن وأغطية رؤوسهن، ويتركن شعورهن شعثة، ولا يتزينن بأي حلي. وفي حالة وفاة رب المنزل يقلبون الحصر والسجاجيد والمفارش والمخدات ظهراً لبطن».

ويوجد فى مصر عيد طريف هو «ندب الميتين» فى أول يوم من شهر رجب. وفى هذا اليوم فى شوارع القاهرة يمكن رؤية كثير من العربات تجرها الحمير وهذا العربة لها اسم خاص وهو العربة الكارو) أو خيول (وهذه العربة يطلق عليها العريبة الحنطور). وتجلس عليهما النساء والأطفال المتجهين إلى المقابر. وترتدي السيدات ملايات سوداء طويلة وعلى رؤوسهن أغطية رأس سوداء، وهذا هو الشكل النمطي للستات البلدي. ومغزى هذا العيد هو الذهاب إلى مقابر الموتى من الأقارب والأصدقاء لندبهم، وتذكركهم بكلمة طيبة. غير أنه مثل كل حفلات التأبين، يختتم هذا العيد بوليمة. ومنطق الحياة هو أن

طلقس إحياء الذكرى يطوق نفسه بشعيرة مناسبة تحجب جوهره. تحمل الستات البلدي الفاكهة والفظائر الحلوة والتورتات اللاتي صنعنها بأنفسهن إلى المقابر. وهناك في المقابر يتجمع أناس كثيرون. وتتجاذب السيدات أطراف الحديث بحماس شديد، وتضحك الكثيرات، ويجري الأطفال حولهن، ويقفز الناس اللب، ويأكلون الفاكهة والحلوى. وعيد «ندب الميتين» كما يبدو لي بالإضافة إلى هدفه الرئيس يتيح للناس إمكانية الحديث مع بعضهم البعض، ويتكلمون بحرية، ويعرفون أخباراً. وأهميته الاجتماعية مثل أي عيد أخر عظيمة جداً.

يعتقد المسلمون أن روح المتوفى تبقى في البيت ثلاثة أيام، وتغادر فقط في اليوم الرابع. ويأتي شيخ في هذا اليوم ويقرأ القرآن لكي يودع الروح المغادرة. ويطلقون على اليوم الرابع «ميتم» وبالأدق توديع الميت. وبعد ذلك يقيمون المأتم ثلاثة أخمسة (أي ثلاثة أيام خميس متتابعة- المترجم) ويقيمون أخيراً مأتماً في اليوم الأربعين من الوفاة. ويقيم الأقباط المأتم مجدداً في اليوم السابع واليوم الخامس عشر واليوم الأربعين من الوفاة، وإذا قام المسلم بالانتحار فينبغي قراءة القرآن عليه لمدة أربعين يوماً كاملة لتهدأ الروح المعذبة.

عادة ما تكون جناز المسلمين متواضعة. وعلى الأرجح لم يتغير شيء هنا منذ العصر الذي وصفه «لين». واليوم يمكن أن نشاهد حتى في المدن المصرية الكبيرة موكباً جنازياً مترجلاً. إذ يحمل الرجال على أكتافهم المتوفي الملفوف في كفن. والمسجى في شبكة مشدودة على نعش خشبي يرافقه الندابات الباكيات، ويردد الناس بشكل موزون «لا إله إلا الله». وتكون طقوس الدفن محافظة جداً على ماهي عليه من القدم. وقبور البسطاء من الناس متواضعة إلى أقصى حد، فهي كالعادة عبارة عن بلاطة حجرية مع شاهد. وعادة ما يدفنون الأولياء والأغنياء وكذلك رجال الدين في مقابر كبيرة تعلوها قبة. وفي صعيد مصر حيث بقيت عادة الثأر الدموي يقيمون المأتم فقط حين يأخذون بالثأر للميت.

يصف « لين » بطرافة عادة ختان أولاد المسلمين والتي لها تقاليد عريقة في مصر حيث كان منتشرة حتى قبل ظهور الإسلام . وقد كتب هيرودوت المؤرخ الإغريقي القديم (القرن الخامس قبل الميلاد) عن وجود هذه العادة في مصر بصفة خاصة .

اختلفت عملية الختان في العشر سنوات الأخيرة من حيث الشكل . فالآن في المدن الكبرى ، يجري الطبيب هذه العملية في ظروف صحية ملائمة . ولكن في القرية مازال حلاق الصحة كما في السابق يقوم بإجراء الختان عندما يبلغ الصبي سبعة أعوام . وفي العام السابع من العمر عندما يصبح الطفل مسلماً ، عادة ما تقوم العائلات القاهرية من عامة الشعب باصطحابه إلى جميع الموالد (يصبح الطفل مسلماً منذ ولادته إذا كان أبواه مسلمين أو كان أحدهما مسلماً وهو الأب ، وليس بعد بلوغه سبع سنوات - المترجم) .

وبعد الختان يبدأ في الصلاة والصوم ، وتأدية كل فروض الإسلام (الطفل يمكن أن يصلي ويصوم حتى وإن لم يكن مختتناً ، وليس الختان شرطاً لكي يبدأ في الصلاة ويكون ملزماً بأداء الفروض بعد البلوغ - المترجم) . وفي القرية يقيمون في هذا اليوم احتفالاً خاصاً ، ويغنون الأغاني التقليدية المرتبطة بهذا الطقس والتي كتب عنها العالم الإنجليزي .

وصف « كلوت بك » هذه الطقوس بالتفصيل (فكونه كان طبيباً كانت له اهتمامات خاصة ، علاوة على ذلك فقد أتاحت له الفرصة لمراقبة المشاهد الخاصة جداً والتي لم تتح « لإدوارد لين ») ، وقد كتب مايلي : « والمألوف عند ذوي اليسار والبسطة في المال أن يبالغوا في تنميق الاحتفال بمناسبة ختان أبنائهم ، فإنهم يؤلفون لهذا الغرض موكباً يجتمع فيه الأصدقاء والمحبون . ويتقدمه رجال الموسيقى ، ثم يطوفون بالشوارع والأحياء القريبة من مساكنهم . أما الغلام المراد اختنانه فيمتطي جواداً مطهماً بعد أن يرتدى ثوباً فاخراً ، ويعمم بعمامة من الكشمير الأحمر . وقد يتزيا بزى فتاة صغيرة

يرتدي اليك والسلطة والكور والصوفة ، ويضع على فمه بيده اليمنى منديلاً مزركشاً بالقصب، وعندما يتحرك الموكب به، يتقدمه صبي الحلاق الذي نيظت به عملية الختان ممسكاً بيده الجلم- وهو صندوق يحتوي عدة معلمه وأدواته، يراد بجعله في المقدمة الرمزم الغرض من الاحتفال، ثم يتلوه رجال الموسيقى بزهورهم وطبولهم، ثم الغلام يتبعه أهله وأصدقاء أسرته ... وإذا كان أهله من أصحاب الثروة الواسعة والجاه العريض، فإنهم يذهبون إلى أبعد مما تقدم في جلال الموكب ومظاهر أبهته وجماله، ولا سيما إذا قصد بالغلام إلى المسجد، فإنهم في هذه الحالة يحضرون زملاءه في المدرسة أو أئداده في السن من أبناء الجيران والأصدقاء والمعارف وبأيديهم المباخر يحرقون فيها الجاوي والصندل. وبعد أن يقضي الموكب في المسجد حصّة من الوقت بين الظهر والعصر، يدعون إلى الله متوسلين إليه أن يحفظ «المطاهر». ثم يقيمون مأدبة كبرى عند العودة إلى المنزل، يتناول الطعام عليها جميع من رافقه من الأطفال وغيرهم .

بقيت خارج اهتمام «إدوارد لين» عادة أخرى للمصريين على الرغم من أنها قديمة، وترجع أيضاً على الأرجح إلى عصر ما قبل الإسلام تلك هي عادة «ختان البنات» التي وصفها «كلوت بك» تفصيلاً : «تعمل للفتيات المصريات عملية الختان أو الخفض متى ما ناهزن السابعة أو الثامنة، إذ يؤخذن إلى الحمام، وفيه تؤدى تلك العملية الموكلات بها بواسطة مقراض رديء. ولست أعلم أصل هذه العادة ولا سببها، ولكن يظهر أن الغرض منها التلطيف من حدة شهوة المرأة المصرية، لا ما يعززون إليها من الأسباب الصحية، فإن بظر المرأة المصرية ليس أعظم حجماً، ولا أكثر انتشاراً منه في المرأة الأوروبية. والديانة الإسلامية لم تحتم حذف هذا العضو. والمرجح أن هذه العادة كانت شائعة على عهد قدماء المصريين .»

ما زالت هذه العادة باقية في القرى المصرية حتى الآن. وقد قامت أوساط الرأي المصرية التقدمية قبل الحرب العالمية الثانية، بالدعوة إلى تحريم ختان

الإناث معتبره إياه فعلاً همجياً وغير مبرر من الناحية الدينية أو الصحية. وبالفعل فإن تلك العادة انتشرت في منطقة شمال إفريقيا في مصر، وفي البلاد المجاورة لها فقط، مثل الصومال والسودان وأثيوبيا. وقد كتب الصحفي والكاتب المصري المشهور في ذلك الوقت «سلامة موسى» مقالاً كرسه لتلك القضية مفاده، أن المناصرين لعادة ختان الإناث يعتقدون كما لو أن العملية تجعل المرأة المصرية أقل حساسية، ومن ثم أكثر عفة، ولكن القضية على العكس من ذلك، فالمرأة يتم تجريدتها من السعادة الزوجية الكاملة، لذلك عادة ما تلجأ إلى المخدرات. وقد أرجع سلامة موسى إلى هذا - بالتحديد - الانتشار الواسع جداً لتعاطي المخدرات بين المصريات.

تتزوج المصريات مبكراً كما في السابق. وهن في هذا السن استثناءً، فالزواج المبكر عادة كل سكان الشرق الأوسط ولم يتغير الوضع حتى الآن في كثير من البلدان. وقد عبر «كلوت بك» عن ذلك بصورة مجازية: «تبلغ نساء مصر الحلم في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرهن، ويصرن لهذا السبب أمهات في الثانية عشرة، وجدات في الرابعة والعشرين، وجدات لوالدات في السادسة والثلاثين، وجدات لجدات في الثامنة والأربعين. وليس من النادر في مصر أن يرى الإنسان نساء معاصرات للجيل الخامس من سلالتهن».

أخبر الطبيب الفرنسي أيضاً عن عادة همجية أخرى كان من ضحاياها الفتيات المتزوجات حديثاً: «وعلى مشهد من الأمهات وبعض النساء المتقدمات في السن من أقارب العروسين، يقوم العريس بعملية همجية لإثبات بكاره العروس. يقوم بإزالة بكاره عروسه بالسبابة من أصابع يده اليمنى، بعد تغليفها بمنديل من الحرير... أما المنديل فيعرض على الأهل والأقارب مخضباً بدم الضحية الصغيرة، فيقومون بتهنئة العروس ويستترسلون في مظاهر الفرح والسرور...». وإذا لم تثبت بكاره العروس فمن الممكن أن يلقوها في النيل.

يعد الحفاظ على البكارة حتى اليوم ، الشرط الأساسي لإتمام زواج البنت في أغلب العائلات المصرية (باستثناء الطبقة البرجوازية والمثقفة) . وقد قرأت في أثناء إقامتي في مصر في باب الحوادث بإحدى الصحف المصرية عن حادثة وقعت في إحدى القرى ، ومفادها أن شقيق عروس قام بذبحها بالسكين ؛ لأنها قد رفضت من عريسها بعد الزفاف؛ بسبب انتهاك غشاء بكارتها. وحوادث القتل تلك من أجل الشرف متكررة في كثير من البلاد العربية.

تعد العلاقة المتحررة بين الشاب والفتاة كما هي في السابق نادرة جداً ، وبالنسبة للطبقات التقليدية للمجتمع المصري فإنها تقريباً مستحيلة . على أية حال ، فإنها تحدث ضرراً لا يمكن إصلاحه لسمعة الفتاة . ويحلم الشباب المصريون الذين يبلغون مبكراً بالزواج ، الذي يتكلف كثيراً من المال وليس الكل قادراً على دفع مهر للفتاة . وما زالت الدعارة موجودة في مصر على الرغم من الحظر الرسمي . وأشار « إدوارد لين » إلى أن المستوى العالي لتدين السكان لم يمنع « التحلل الأخلاقي » في ذلك العصر . ويتفق « كلوت بك » مع هذا فيقول : « والأخلاق في مصر أكثر فساداً مما هي عليه في سائر أقطار المملكة العثمانية . فإن الرقص مع أنه غير مباح في الديانة الإسلامية ، فإنه مباح دائماً للغوازي (الراقصات العموميات) اللاتي لا يقتصرن في عرض حركاتهن الشهوانية على المنازل الخاصة ، بل يتجاوزنّها إلى الطرقات والميادين العامة على ملأ من الجمهور . ومنذ سنوات قليلة صدرت أوامر الشرطة في مصر بمنع تلك الراقصات من التجوال في طرقات القاهرة والإسكندرية » .

وقد قدم « أ . س . نوروف » رأياً مستهجناً للغاية عن الغوازي فيقول : « من غير الممكن أن ترى تلك الطبقة من الضحايا التعساء للدعارة الشهيرات باسم الغوازي ، أو الراقصات واللاتي هن في الغالب من الأحباش دون أن تشفق عليهن . ولا يجب أن نخلط بينهن وبين المغنيات اللواتي يسمين العوالم . كما يفعلون ذلك دائماً ، واللواتي بعد أن يحصلن على التعليم يبذلن ببراعة زهور الشعر الشرقي في ألحانهم السوداوية ، ويملأن ساعات الملل للمسلمين

بالمتعة، وخاصة في الحريم». والراقصات الغوازي اللواتي تحدث عنهن كثيراً على أنهن عوالم يأتين من المدينة الشهيرة للمشردين في سوريا، وهن مليئات بالخيال الناري، وعلمن منذ الصبا على إثارة الحواس. ويتم دعوتهن إلى جميع الاحتفالات الرعدة، ويقمن على إيقاع الألحان والموسيقى برقصات إغوائية من أجل الرجال المضطجعين، والتي عادة ما تؤدي إلى حدوث نشوة لدى المتفرجين ومن ثم يحصلن على هداياهم الثمينة.

لا يفرق «كلوت بك» كثيراً بين الغوازي والعوالم. وقد كتب عن العوالم ما يلي: «وطبيعة رقصهن من مخالفة الآداب والأخلاق بما يمنعني عن التصدي لإيراد تفاصيله ووصف أجزاءه، لذا أكتفي بوصفه سطحياً... وملابس العوالم ضيقة جداً، وتضغط على أجسامهن فتصف كل معالمها. فضلاً عن أنهن يكشفن عن نحورهن وسواعدهن». وهذا ربما ما يمكننا من التفريق بين «النساء الخليعات والعيقات الطاهرات».

إنني أتذكر فيما يتعلق بالموضوع محل النقاش إحدى الحوادث، فقد كنت أسير في المدينة في أول شهر من إقامتي بالقاهرة في وقت متأخر من الليل مع أصدقائي في المدينة مقتربا من الكوبري فوق النيل الذي يؤدي إلى الجيزة، أي في قلب القاهرة غير بعيد عن السفارة السوفيتية الجديدة. كانت هناك في الأسفل عدة فلوكات في النيل بجانب الرصيف. وهي عبارة عن مراكب خشبية عالية ذات مقدمة حادة وشرع أبيض قدر. وعلى الكورنيش الضيق تراءى لنا بعض الشخصيات مرتدية جلابيب طويلة ناصعة البياض تغمى العين، وعلى رؤوسهم عمام بيضاء، ووجوههم سوداء وعلى ما يبدو أنهم نوبيون أو سودانيون. قام أحدهم بالتلويح لنا بيده وأخذ يصيح: «فسحة ع النيل! فسحة ع النيل!». نزلنا إلى أسفل الكوبري بدون أن نتفوه بكلمة. كم كان ساحراً أن نبحر عبر نهر أفريقيا العظيم ليلاً في مركب شرعى! عند السؤال عن سعر النزهة أشار لنا القبطان سليمان (كانوا يطلقون على ملاك الفلوكات قباطين) بشموخ إلى زورق تجديف صغير، والذي كان

يقف بجانبه صبي في العاشرة من عمره على أهبة الاستعداد : « اذهبوا، وهناك اتفقوا».

جلسنا وجدف الصبي إلى وسط النهر قاصداً الفلوكة التي لم يكن بها أحد . صعدنا إلى متنها العالي وفي مواجهتنا نهض قبطان آخر يرتدي جلباباً أبيض . كانت المقاعد الخشبية على جانبي الفلوكة مغطاة بوسائد ملوثة بالدهن وتتسع لخمسة عشرة شخصاً . أجلسنا القبطان على أحد الجوانب، وأخذ يمتدح النزهة المرتقبة قائلاً : إنها ستكلف كل شخص منا ثلاثة جنيهات . وقد اندهشنا جداً من هذا السعر الغالي لمثل هذه الرحلة القصيرة ، ولكن القبطان رفع يده محتجاً وتوجه إلي : « انظر أولاً يا أفندي ثم تكلم» . اقترب بسرعة إلى الجانب المقابل وشفق بيديه وكأنه يقوم بالسحر ، فظهرت في الفلوكة على الفور بضعة فتيات . كن يرتدين ملابس متواضعة جداً عبارة عن سراويل وملابس من الديباج القذر وكانت رؤوسهن مغطاة بالطرح . كانت البنات (أكبرهن كان عمرها حوالي خمسة وعشرين سنة) يرتعدن من البرد . بالتأكيد ! إذ أنهن كن ملتويات لكي لا يراهن أحد وجالسات في زورق التجديف الذي كان راسياً بجانب الفلوكة . وابتسم القبطان قائلاً : «هذه هي بضاعتي ألن تدفع إذن ثلاثة جنيهات يا أفندي؟» .

كان القبطان يعمل بمهنة محرمة ؛ فقد كانت الفلوكة عبارة عن بيت دعارة عائم يملكه هذا القاهري الفقير . وقد تفهم القبطان رفضي القاطع لمثل تلك النزهة على طريقته . وبعد أن تظاهر بأنه غضب أعطى الفتيات إشارة بالعودة إلى البيت واقترب إلى جانبنا ، وركل شيئاً ما خلفه برجله صائحاً بغضب . وغمز القبطان لي بعينه : « هذا مخصوص من أجلك يا أفندي بضاعة جيدة» . وصعدت فتاتان إلى متن المركب كانتا بالفعل طفلتين عمر كل منهما حوالي ثمان أو عشر سنوات لا أكثر . كانت إحدهن ذات وجهه بالك ، والأخرى تبسم ناظرة إلي مباشرة . أردت أن ألطم القبطان على وجهه ، ولكني اكتفيت فقط « بالاحتجاج» . وبعد أن يئس

منا أخذ مني جنيهين عنا جميعاً ، وأمر الصبي أن يبحر بنا على زورق التجديف الذي وصلنا على متنه . قال الصبي عواد أنه ولد في عائلة قروية كبيرة العدد وفقيرة تقيم في ضواحي الجيزة ، وأن القبطان قد اشتراه بالمال من والديه ، ولا يعطيه أي مال مقابل العمل بل يطعمه فقط . كان الحديث التربوي القصير قد أثر على الصبي نوعاً ما ، وقال إنه يفهم أن هذا مكان سيء ، ووعد أنه سيذهب إلى أحد مواطني قريته الذي يدعوه للعمل في مغسلة لغسل الملابس ، غير أنه ما إن ساد الصمت ، حدق الصبي في طويلاً كما لو أنه قرر سؤاله عن شيء ما . وأخيراً قال : « هل ممكن أن أصطحبكم إلى القبطان محمود هناك في الناحية الأخرى ؟ » وسألته : « وماذا لدى محمود ؟ » ، فقال ببطء : « هناك ... فتیان مثلي » .

ولم لا ، فالصبي قد اعتاد أن يرى غالباً الوجه الأكثر قبحاً للحياة القاهرية ، أما نحن فلم نندهش . اندهش فقط عواد ؛ لأنه لم يستطع مطلقاً أن يفهم ماذا يريد هؤلاء الأجانب الغامضون فهل حقاً يريدون فقط أن يتأرجحوا في القارب عبر النهر ؟ . وعندما قمنا بوداعه على الشاطيء سألتني بحزن ويأس : « على الأقل اشترى مني مخدرات ، فهذه القطعة بثلاثة جنيهات » . وجذب من تحت الجلابية قطعة حشيش ملفوفة في قماش . بالمناسبة صدر قانون في مصر قبل ذلك بقليل يعاقب بالإعدام على من يتاجر بالحشيش . ولقد تركت أول نزهة لي في النيل انطباعاً غير سار . من السمات البارزة لكتاب « إدوارد لين » إيلاء الكاتب سكان مصر السفلى ، وبخاصة سكان القاهرة اهتماماً خاصاً . في نفس الوقت ، فإن سكان الصعيد ، أي مصر العليا يملكون مجموعة كاملة من العادات والتقاليد الخاصة توارثوها من الماضي السحيق . ويمكن أن ترى الكثير من الأشياء الأصيلية في نمط حياة ، وتقاليد النوبيين . وهم سكان المنطقة الواقعة في جنوب البلاد .

أتيح لي في عام ١٩٦٧ أن أتجول في قرى النوبة مع المخرج المصري صاحب الشهرة العالمية يوسف شاهين . فقد كان يعد لفيلم روسي - مصري مشترك

«الناس على النيل» (وكان مؤلفا السيناريو الكاتب المصري عبد الرحمن الشرقاوي ، وكاتب الدراما السينمائية « ن . ن . فيجوروفسكي ») وقد كشف لي عالماً جديداً تماماً . ولكن هذا الموضوع أتركه ربما لحديث خاص بالمناسبة لم تدرس الثقافة النوبية بما فيه الكفاية حتى هذا اليوم).

في كتاب « إدوارد لين » تم تحديد السمات العامة والخصائص المكونة لعناصر الشخصية القومية للمصريين بصورة عادلة. والتي فهمها « لين » جيداً وأحسها. وفي وصف حيادي إلى حد كبير، يظهر تلك الشخصية بكل تعقيداتها وغموضها غير مبالغ في أهمية خصال بني قومه وإبرازها كما فعل ويواصل نهجه - حتى الآن - الكتاب الغربيون .

يوجد لدى المصريين بصورة واضحة صفات: الحماسة، والصبر الطويل، والانتقام، والعفو، والنشاط، والخمول، وفوران العواطف، وضبط النفس، والخبث، وسلامة النية، وغيرها من الصفات .

أحسست بالمزاج العاصف للمصريين بشكل خاص أثناء مباريات كرة القدم . فقد كان يحدث شيء ما يفوق التصور في تلك الأيام التي يلتقي فيها الناديان الشهيران: الزمالك والأهلي (كان أحد معارفي يقول مازحاً : إن المصريين ينقسمون إلى فريقين : زمكاوى أي مشجع نادي الزمالك، وأهلاوي أي مشجع النادي الأهلي) . وتمثل الحافلات الذهابية إلى الاستاد مشهداً لا يصدق . فهي بالفعل مقدسة بالناس . كان الناس معلقون على السلالم ، ويقفون على المصد الخلفى الواقى من الصدمات ، ويجلسون على السقف ، كما يجلسون في فتحات النوافذ متدلّية أرجلهم إلى الخارج . وتسير جموع الناس في الشوارع تهتف بشعارات مؤيدة للنادي المحبوب ، ويحمل بعضهم اللافتات .

كما أن جدال السائقين الحاد في شوارع المدن المصرية الكبرى، ليس بأقل تأثيراً من ذلك . ففي زحام شوارع القاهرة يتبع القليل من السائقين قواعد

المروءة، والجرىء هو من يمر أولاً. وفي ميدان التحرير حيث تتلاقى بعض الشوارع فإن السائقين يستخدمون آلة التنبيه، ويلوحون بأيديهم من نافذة السيارة. والإيماءة الأكثر انتشاراً هي هز الذراع مع أصابع معقودة، والتي تعنى «انتظر لا تسرع!». وعندما ينشأ موقف جدلي تتوقف السيارات وتسمع مشادة كلامية عالية وواسعة، وأحياناً تلقى أثنائها كلمات قوية طنانة.

لا يلبث الشجار العاصف في الشارع، والذي يقوم أثنائه المتجادلون بمهاجمة بعضهم البعض كالديوك، ويدفعون الخصم في الصدر، وينهالون بتهديدات رهيبه لا ترقى تقريباً أبداً إلى العراك، سرعان ما يهدأ سريعاً كما بدأ، ويتولد انطباع أن المصري يصعب عليه ضرب شخص آخر. لكن هذا ليس احتراماً فطرياً لكرامة الإنسان فالقصاص العرفي ينتظر الشخص المتورط في جريمة، أو حتى المتهم بالسرقة.

دفعت قسوة الجماهير المنقادة للغريزة الحيوانية، والمستعدة لتمزيق الشخص المتهم بالسرقة الكاتب المصري الشهير يوسف إدريس إلى أن يصنع شخصية تستدعي النفور من القسوة الإنسانية عموماً. ففي قصة «الأورطى» قامت الجماهير التي ارتابت في شخص ما يسمى «عبده» بسرقة أموال بتعليقه على خطاف الجزار. ولم يصدقوا تفسيرات الرجل البائس بأنه عائد من المستشفى، حيث أجريت له عملية استئصال الأورطى، وأخذوا يفتشون «عبده» فنزعوا عنه الجلباب، ومزقوا الضمادات معتقدين أنه قد أخفى المال تحتها. ووقف عبده عارياً أمام الجماهير نازفاً جرحه من صدره، وقطعة الأورطى نائمة من القلب.

تذكرت تلك القصة ليوسف إدريس، عندما أتيت لى ذات مرة أن أرى في السوق المصري كيف كانوا يضرِبون بلا رحمة لصاً صغيراً سرق من عند الخباز شيئاً الله أعلم ماذا يكون!.

ولقد ترك عندي ما يحدث في الجيش المصري من مشاهد الضرب انطباعاً سيئاً ، فالكثير من الضباط أو ضباط الصف يستطيعون بلا عقاب أن يلطموا العسكري على وجهه، على الرغم من المطالبات المتكررة ، فيما يشبه النضال لعدم الاعتداء والضرب .

لكن ليست هذه الحوادث هي التي تحدد طبيعة علاقات المصريين بعضهم ببعض . فهم في المجمل دائماً ودودون ورحماء، ومحترمون. من منا من الذين زاروا مصر لم تدهشه طول التحيات. فإذا تقابل اثنان من المصريين فإنهما لا يكتفیان بتحيةة واحدة، ولكنهما يتوسعان في الصيغ حتى يصلان إلى نهايتها. «صباح الخير» «صباح الفل» «صباح الإشطة» أى أنه يوم أبيض مثل القشدة ، «صباح الورد» إلى آخره . بعد ذلك يبدآن في الاهتمام بالصحة وأحوال بعضهما والأقارب. والتعبير الأكثر استخداماً «إزيك؟» . ويمكن أن يتكرر مرات عديدة على شفاه المتقابلين، قاطعين موضوع الحديث. والنساء القرويات يحين بعضهن البعض بطريقة خاصة. إذ تقول إحدهن عندما تقابل أخرى في الشارع «العوافي يا ست أم رتيبة!». وترد أم رتيبة: «يعافيك ويعافي بدنك!» .

كل فعل عند المصريين يصحبه طقس كلامي محدد. وتبادل التحيات الهرمي يمكن أن يصيب الأجنبي بالانزعاج ويعدده نفاقاً. ووفرة الصيغ المعدة سلفاً في اللغة العامية المصرية لكل مناحي الحياة تستدعي الشفقة لكل من يأمل في اتقانها . ولكن كل تبادل للصيغ يتبعه صورة نفسية محددة، والكل له معنى، فالكلمات تعد إشارات للعلاقات والمزاح وأحياناً لا تعبر تماماً عن المعنى الكامن فيها، مشيرة إلى ما يكون عند المصريين من الكلام غير اللائق أو غير المريح . والمثال الأكثر بساطة هو تعبير «إن شاء الله!». وكم من مرات كثيرة يشكو الأوروبي الزائر لبلد عربي من عدم التزام المواطن في تلك الدولة بتنفيذ ذلك الوعد. ولكن إذا أجاب صاحب محل على سبيل المثال ب «إن شاء الله!» على سؤال هل سيحضر البضاعة غداً؟

فإن هذا بالفعل مجرد صيغة مهذبة للرفض . فمن غير اللائق قول « لا » ، فإنه من الممكن أن يغضب ، وربما لن تطيب نفسه لهذا إلى آخره . ولكن إذا لم يرد الله أن أنفذ طلبك فإن الغضب كما يعرف هو لن يكون على أحد . وإذا قال لك أحد معارفك : « إن شاء الله هاشوفك » فهذا يعني أنه ليس عنده ثقة في أنه سيراك فحسب ، ولكن هو لا يرغب في ذلك كثيراً . ونفس الشيء عندما يقول لك صاحب المحل مودعاً : « زرنا بأه » كن على ثقة أنه لا يدعوك . غير أن الدعوة غير المحددة والتي تعد في حقيقة الأمر رفضاً للضيافة ، ليست من طباع المصري . فالكرم عنده في الدم . ويرتبط بالكرم الكثير جداً من الطقوس . فالمجيء للزيارة تبدأ بتحيات لا حصر لها قد تم ذكرها بالفعل . وبعد ذلك تماماً سيعرض عليك كأقل شيء شرب الشاي والقهوة . والدعوة لشرب كوب من الشراب ليس في المنزل فقط ، ولكن في مكتب المؤسسة أيضاً ، وحتى في المكتب حيث يجلس كثير من الموظفين . وعلى ما يبدو ليس هناك مكان لا يشرب فيه الشاي .

لا ترفض ! فمن الممكن أن تغضب صاحب المكان ، وهل يمكن أن يتم أي حديث عمل بدون كوب شاي أو قهوة ! ويوجد في كل المؤسسات المصرية « فراش » يصنع الشاي أو القهوة ويوزع الأكواب على المكاتب .

غير أنه لا يجب الموافقة مباشرة . والرد على السؤال التقليدي : « تشرب قهوة ولا شاي ؟ » تكون عبارة : « متشكر ما فيش لزوم » بداية موفقة . ويعيدون السؤال عليك بإصرار كبير حينها تقول : « أي حاجة » لكي لا تثقل على صاحب المكان وترغمه على شرب ما لا يحبه معك ، حتى أزمة البن غير قادرة على إرغام المصريين على أن يتخلوا عن هذا السؤال الرائع .

إذا ذهبت إلى بيت المصري وجلست لشرب القهوة ، لا تنس قبل شكر الوداع أن هناك كلاماً كثيراً يقال . على سبيل المثال « دائماً ! » ، وإنك بالتالي تتمنى لأصحاب المنزل ألا ينقطع الكرم أبداً في بيتهم . وصاحب المنزل لن يبقى مديناً لك ، فيرد في الحال « دامت حياتك ! » أو « حياتك الدائمة ! » . وهنا

كما لو أنه ينتظر خصيصاً؛ لكي لا تفوته الفرصة حين تنتهي من الشراب، يقول لكم مبتسماً: «هنياً». ولكنك أيضاً لا تتائب وتقول «شكراً» إذ أن لكل تمني رد خاص به. في هذه الحالة يجب القول «اللّٰه يهنئك!». من الممكن أيضاً أن يقولوا لك «أنست!» أو «أنستنا!» وهنا أظهر التواضع وقل «اللّٰه يأنسكوا!». ومن الممكن أيضاً أن يقولوا «نورتنا!». وهنا لا يجب أن تتوه، وقل «اللّٰه ينور عليكوا»!

لكن صاحب المنزل على الأرجح لا يكتفي بذلك، وسيواصل المناقشة في الشكر. «شرفتنا!» ولا يبتعد عنك. لا تتباطأ وأجب «اللّٰه يشرف مقدارك!». وبإصرار يقول صاحب المنزل «زارنا النبي». وهنا لا تستسلم، وقل: «عشت» أو «اللّٰه يحفظك». ولا يختلف المسيحيون الأقباط بخصوص صيغ التحيات والتمنيات كثيراً عن المسلمين، ولكن لديهم خصوصيتهم. فصاحب المنزل القبطي لن يقول لك «زارنا النبي» ولكن «زارتنا العذراء»، ولكن الجوهر يبقى كالعبارة السابقة، فزيارتك تعتبر حدثاً سعيداً استثنائياً تساوي زيارة النبي محمد أو العذراء مريم.

وإذا تمت دعوتك على الغداء في المنزل، فإن أصحاب المنزل يبذلون كل ما في وسعهم من أجلك. اذهب بعد الميعاد بنصف ساعة وليس قبل ذلك. وهنا ستحظى بكل علامات الاهتمام السابقة، ولكن أيضاً بقدر أكبر. وأثناء الطعام يمكنك أن تتمنى لأصحاب المنزل قائلاً «دائماً عامر». ولا تنس الإشادة بالطعام الذي أعد من أجلك. وعامةً عندما يفعلون شيئاً ما حسناً من أجلك مثلاً، ولتكن إما بدلة تفصيل، أو طعام أعد من أجلك بواسطة أصحاب المنزل، فيجب قول «اللّٰه ينور عليكوا!». وللتعبير عن الشكر توجد عبارة جميلة «تسلم إيديك!». وهذا التمني لا يبقى بدون إجابة، فهنا يقولون لك: «اللّٰه يسلمك!» أو «عشت!». وفيما يبدو فإن المصريين ليسوا وحدهم من يحبون أن يمتدحوا ولكن عدم المدح هنا غير لائق. وإذا شعرت أنك قد بالغت في المديح، فلا بد أن تضيف أن كل ما تقوله «موش مجاملة»، ولكنه

الحقيقة بعينها. وسيقوم أصحاب المنزل بتقديم واجب الضيافة لك باصرار، فأظهر شعورك بالخجل! وهذا يدفع أصحاب المنزل بأن يظهروا كرمهم بطريقة أفضل، ويمطرونك بوابل من المجاملات الرائعة: «ما تختشيش!» و«البيت بيتك» و«كل الحتة دي عشان خاطري» إلى آخره. وكل شيء ينتهي نهاية طيبة، وتقترب زيارتك من النهاية، وعند أول محاولة من جانبك للمغادرة، فكما هي العادة، يعترض صاحب البيت. وبعد عشر دقائق من الممكن أن تستأنف المحاولة، وإذا أصر صاحب المنزل بشدة أن تبقى، فمن الممكن أن تبقى لدقائق أخرى حتى تعيد الكرة.

يرافق صاحب المنزل الضيف حتماً إلى الباب. ويعد من غير اللائق أن تغلق الباب بشدة مادام الضيف لا يزال في مجال الرؤية. وفي الوداع يقوم صاحب المنزل والضيوف حتماً بتبادل أطيب التمنيات بالصحة والشكر وتبليغ التحيات للأقارب والدعوة للزيارة.

كرم الضيافة هو السمعة الرائعة للشعب المصري. ففي العائلة القروية الفقيرة وخاصة عند البدو، يقدمون للضيف آخر ما لديهم ويمكنهم أن يذبحوا من أجله آخر نعجة لديهم. ويفخر المصريون بالكرم ويقدررون هذه الصفة عند الآخرين. وبالطبع فالتقاليد العربية وحتى الشرقية قد تركت آثارها هنا. فالكرم يتغنى به في الفلكلور العربي، وهو صفة مميزة لمواطني كل الدول العربية. وبالنسبة للمصريين، فإنهم يمايزون بين محافظات البلاد بدرجة الكرم، ويمتدحون الكرم والكرماء، ويتندرون على البخلاء. وسكان الدلتا حصدوا أعلى درجات الكرم. أما البخلاء فهم سكان ما يسمى بالمحافظات الساحلية، وهي السويس ودمياط ومحافظات أخرى. وعندما يذكرون محافظات الكرم فإن القاهريين يذكرون لك محافظة الشرقية، ثم بنى سويف، وقنا، وسوهاج، والمنيا. بالطبع ربما هذا مجرد إجحاف من جانب القاهريين، وبقايا من تنافس سكان المناطق المصرية المختلفة، ومثل هذا القول يمكنك أن تسمعه خارج حدود القاهرة أيضاً. ويحظى

أهل أسيوط بسمعة سيئة كأكثر الناس بخلاً وبعداً عن الكرم. ويقال إن الفرد من هذه المحافظة يقول صيغ الضيافة بطريقة غريبة عندما يتوجه إلى الضيف القادم إليه ، فيسأله في البداية: « تيجي عندي ولا في اللوكانده أريح؟»، أو « تتعشى ولا تفضل تنام خفيف». وفي هذه الحالة لا يبقى للضيف إلا أن ينسحب. وربما أفضل ما يتصف به المصريون هوروح الدعابة. فالمصريون يمزحون دائماً وفي كل مكان ونكاتهم القصيرة التي تصيب الهدف ليس لها نظير .

عادة ما كانت تدهشني قدرة المصريين على المزاح في المواقف الحزينة والصعبة ، وأحياناً في مواقف غير مناسبة بالمرّة . فبجانب مرحاض عام في ميدان باب اللوق، كان هناك رجل يرتدي جلباباً ينادي المارة : « تعالوا ! بتعريفة بس !» ، والتعريفة هي عملة صغيرة تساوي نصف القرش .

في كتابه لم يول « إدوارد لين» اهتماماً كبيراً للعادات والتقاليد فحسب، بل ولفن الشعبى أيضاً. وكانت نصوص الأغاني والأدعية إلى آخره التي حددها « إدوارد لين» في كتابه، تمثل قيمة خاصة. غير أن القارئ- خاصة المتخصص- لا بد أن يتغاضى عن الترجمة المزدوجة. ففى كثير من الأحوال لا يورد المؤلف النص العربي الأصلي، ولكن يعطي فقط ترجمة حرفية. لذلك من الممكن أن تحدث أخطاء محددة في الترجمة الروسية على الرغم من التصحيح الدقيق .

يحب المصريون الغناء. ويغني المطربون المشهورون باللغة العامية، ويحفظ الناس أغانيهم ويغنونها في كل مكان، وكانت المغنية المحبوبة ذات الشهرة العريضة « أم كلثوم» تغنى منفردة فى حفلات ليلية تستمر أحياناً من أربع إلى خمس ساعات. وعندما حضرت لأول مرة مثل هذه الحفلة بدا لي أن غناها الذي كان يثير في الصالّة ضجة طاغية ممل نوعاً ما ، إذ أن استيعاب فن الغناء المصري (والعربي عامة) ، والذي تختلف قواعده الغنائية جداً عن القواعد الأوروبية يتطلب خبرة معينة .

وياله من تناقض كبير بين تلك الشهرة الشعبية الواسعة للمغنيين المحليين في مصر الحديثة، الذين يبادلهم مواطنوهم بالحب والإعجاب، وذلك الوضع البائس والوضع الذي كان فيه المطربون المحليون والموسيقيون في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر كما وصفه «إدوارد لين» ! وعن هؤلاء المغنيين الذين يسمون «الآلاتية» كتب «كلوت بك» الآتي: «والمغنون العموميون ... تتألف منهم طبقة محتقرة فاسدة الأخلاق . إذا جيء بهم إلى أحد منازل الخاصة، تقاضوا أجراً لا يتجاوز ما يعادل ثلاثة فرنكات إلى أربعة عن الليلة الواحدة. والمدعون لسماعهم يغدقون عليهم عادة من محض كرمهم، شيئاً من المال يضاف إلى تلك الأجرة الزهيدة. وتقدم إليهم أثناء الغناء المشروبات المسكرة كالفودكا والعرق وغيرها ، وهم يفرطون في شربها إلى الحد الذي يفقدون فيه رشدهم» .

هذا والشعر باللغة العامية ، والذي يختلف في أصله عن الشعر الكلاسيكي والحديث باللغة الفصحى، يعد نوعاً خاصاً من الفن الشعبي. ويكتب بعض الشعراء المصريين البارزين قصائد باللهجة العامية (على الرغم من أنهم لا يكتبون بها منذ مدة طويلة) .

وقد أتيج لى أن ألتقى بواحد منهم ، وهو صلاح جاهين ، لأكثر من مرة. كان هذا الشخص البدين الصغير يحب أن يتناول وجبة الإفطار في كافيته فندق «سميراميس»، الذي يقع على كورنيش النيل . ومن الصعب أن نذكر نوعاً من الفن لم يمارسه جاهين . فقد كان كرسام رائع للكاريكاتير، ينشر رسوماته على مدى عشر سنوات بشكل يومي فى جريدة الأهرام. وفي عام ١٩٥٧ كان عضواً بالوفد المصري في مهرجان الشباب والطلاب في موسكو. وقد ترأس تحرير مجلة « صباح الخير» لسنوات طويلة. ولن أنسى جاهين كممثل كوميدى لعب كثيراً من الأدوار في الأفلام المصرية، وكعالم بالموسيقى الشعبية وفن الغناء الشعبي . ولكن من رأيي يجب أن نقدر جاهين قبل كل شيء كشاعر مصري أصيل . وكتب جاهين غالباً باللغة العامية،

وأحياناً باللغة الفصحى، وفي هذه الحالة فإن شعره لا يفقد الصبغة الخاصة المتأصلة في أشعار الشاعر. وقد واصل جاهين تقاليد ما يسمى بالشعراء الشعبيين المصريين السابقين مثل: بيرم التونسي وأحمد رامى وآخرين، وأسهم بشكل كبير في إنشاء نوع أدبي جديد للإبداع الشعري لا يستقى وزنه وأسلوبه ولغته من الشعر العربي الكلاسيكي التقليدي، ولكن من الفلكلور المصري والمواويل الشعبية التي كتب عنها «إدوارد لين» بطريقة جيدة.

أشاد جاهين ببيرم التونسي المؤسس وبطيريك الشعر المصري العامي المعترف به من الجميع (توفي في عام ١٩٦١م)، والذي كان يحظى بشعبية استثنائية في مصر. فمازالت مواويله تتحول إلى ألحان ويغنيها أفضل المطربين المصريين. لقد كتب بيرم التونسي بلغة الشعب وللشعب ومن أجله شعراً مفهوماً وبسيطاً يتميز بالمضمون الوطني والاجتماعي العميق. وهذا نموذج صغير لموال التونسي :

وأنا منبت مراكبكم؟	ليه أمشى حافى
وأنا منجد مراتبكم؟	ليه فرشى عريان
وأنا نجارد واليبكم؟	ليه بيتى خريان
...الله يحاسبكم	هى كده قسمتى؟

.... في مكتبة صلاح جاهين المنزلية يوجد كثير من الكتب التي لها علاقة بالفلكلور المصري، وعلى رف مستقل توجد مؤلفات للشعراء المصريين الذين يكتبون بطريقة قريبة من كتابة جاهين. وفي رأيه تختلف مصر جذرياً عن جميع البلاد العربية الأخرى في أنها احتفظت في الإبداع الشعبي الشفهي بتراث المصريين منذ عهد الفراعنة، والمواويل والأزجال التي عادة ما تغنى أثناء العمل (يجب كل الناس المشتغلين بالعمل البدني أن تصاحب

الأغاني عملهم) ، وكذلك الأغاني الطقسية ، وهي تختلف اختلافاً جذرياً عن التقليد العربي وليس لها مقابل في البلاد العربية الأخرى. في الحقيقة، فإن جاهين قد أبدى ملاحظة مفادها أن المثال الوحيد الذي يمكن مقارنته بالمثال المصري هو الفلكلور اللبناني، وعلى سبيل المثال أشعار « جبريل نخلي».

قرأ الشاعر علي بعض قصائده ، وبالفعل فالوزن وإيقاع البيت ونظام تكوين القصيدة غير عادي . وإحدى هذه القصائد تسمى « المماليك » . وقدم جاهين بحرفية في شكل شاعري فكاهي التصورات السائدة بين المصريين عن عصر المماليك الرائع في العصور الوسطى المتغنى به في الأساطير الملحمية، عن بطولات الأبطال المملوكيين ! والإيقاع المتقن للبيت الشعري ، وغياب النظام المألوف للشعر العربي الكلاسيكي في تناوب حروف العلة القصيرة والطويلة، واللعب بالأصوات والسلاسة ، تجعل كل جملة تناسب من شفاهه، كأنها كلمة واحدة . تبدأ بترنيم احتفالي للمماليك وفجأة تتحول إلى جانب آخر من العصور الوسطى الأسطورية إذ يتسلى المملوك بالسيف فيقطع رقبة المشاهد ، فلقد كانت القسوة والدموية الصبغتين الدائميتين لهذا العصر. وهذا ما جاء في القصيدة باللغة العربية .

obeikan.com

سنة أشهر عاصفة : الشرق الأوسط أثناء الحرب الباردة (*)

(ديسمبر ١٩٥٦م - مايو ١٩٥٧م)

في منتصف عام ١٩٥٠م، أنعش الاتحاد السوفيتي سياسته في الشرق العربي، والتي وجدت طريقاً ممهداً إلى حد بعيد، بسبب التغييرات السياسية الخطيرة في تلك المنطقة، وكذلك بسبب الانجذاب المتزايد لعدد من الدول العربية الفتية نحو موسكو. في سبتمبر ١٩٥٥م، وقع الزعيم المصري جمال عبد الناصر على أول اتفاقية له بشأن استيراد شحنات أسلحة من بلدان المعسكر الاشتراكي (في البداية، تم شحن الأسلحة السوفيتية عبر تشيكوسلوفاكيا). كان من جراء ذلك حرمان مصر في ٢١ يوليو عام ١٩٥٦م، من قرض لبناء السد العالي بأسوان كانت قد وعدت به في وقت سابق من قبل الولايات المتحدة وبريطانيا والبنك الدولي. وفي ٢٦ يوليو أصدر عبد الناصر قراراً بتأميم قناة السويس، والتي كانت القوات البريطانية قد أتمت انسحابها من نطاقها في يونيو عام ١٩٥٦. وبعد تفاقم الأوضاع بشكل حاد قامت إسرائيل وبريطانيا وفرنسا الساخطين على الإجراءات المصرية بشن عدوان ضد مصر. وقد أيد الاتحاد السوفيتي مصر بعزم وتصميم، وطالب بقوة وقف هذا الغزو العسكري. وفي ديسمبر عام ١٩٥٦، انسحبت القوات الأنجلو-فرنسية من مصر.

(*) تم تقديم هذا البحث في المؤتمر الدولي الخاص بتاريخ الحرب الباردة، كورتونا إيطاليا، أكتوبر من ٥-٦، ٢٠٠١.

بدأت عملية التقارب بين القاهرة وموسكو، وقد طارد كل من الطرفين خلالها أهدافه الخاصة، والتي لم تتطابق في أغلب الأوقات. وزاد من نطاق الحرب الباردة في المنطقة، محاولات الولايات المتحدة عرقلة الانحراف إلى اليسار من قبل الطيف السياسي في دول المنطقة، ومنع الاتحاد السوفيتي من لعب أدوار معينة فيها. وإن ما يسمى بـ «مبدأ أيزنهاور» الذي تم الإعلان عنه في مطلع عام ١٩٥٧ م، كان مقدراً له أن يحدث هذا التأثير بشكل جزئي. وبعد أحداث عام ١٩٥٦ م، أصبحت العلاقات مع مصر ذات أهمية متزايدة للقيادة السوفيتية. في نهاية عام ١٩٥٦ م قرر ناصر زيارة الاتحاد السوفيتي في الصيف المقبل. وقد طلب ناصر وهو بصدد صياغة خطط السياسة الخارجية والداخلية لمصر، رأي الحكومة السوفيتية حول عدد من القضايا، وأبلغهم عن الخطوات التي أزمع اتخاذها. وفي الحادي والثلاثين من ديسمبر قال إنه، على سبيل المثال، أبلغ السفير السوفيتي «إي دي كيسيليوف» عن نيته تسليم «همرشولد» مذكرة، يعلن فيها أن اتفاقية عام ١٩٥٤ بين إنجلترا ومصر تعد لاغية وباطلة^{٧٠}، وأيضاً عن محاولة اغتياله من قبل البريطانيين. وكان ناصر يشعر بالقلق أيضاً إزاء نية أيزنهاور التقدم إلى الكونجرس بطلب تفويضه في استخدام القوات المسلحة الأمريكية في الشرق الأوسط. وفي هذا الصدد طلب من الحكومة السوفيتية تزويده بالمعلومات اللازمة والمشورة اللازمة. وفي نفس المحادثة أبلغ ناصر موسكو عن «نشاط الولايات المتحدة الأرعن الرامي إلى إنشاء اتحاد شمال إفريقيا، ليشمل: تونس والمغرب وليبيا ثم الجزائر»^{٧١}. واشتكى ناصر من حماقة الملحق العسكري المصري في ليبيا، الذي بعد أن نظم عدداً من الأعمال الرئيسية التخريبية ضد القواعد البريطانية في ليبيا عام ١٩٥٦، «تسبب في سخط عارم من جانب «بن حليم»، والذي حوكم في وقت لاحق بسبب ذلك.

70 - Kiselyov's cable of 1 January 1957, Foreign Policy Archive of the Russian Federation (AVP RF). Fund 059. Inventory 38. File 39. Document 164. Sheet 1.

71 - Op.cit. Sheet 4.

فيما يتعلق بالتقرير حول نشاط الولايات المتحدة الحثيث في شمال أفريقيا، اقترح كيسليوف على موسكو الإسراع- قدر الإمكان- بتأسيس سفارات سوفيتية في تونس والمغرب. ومن جانبه أبلغ السفير السوفيتي ناصر عن ضغط الولايات المتحدة على الدول العربية عن طريق إيران، لإنشاء حلف إسلامي، مسمى كل هذا «أجزاء السلسلة الإمبريالية»، والتي يمكن أن تضيف إليها فكرة «حزام الأمن الأفريقي». وذكر السفير أن هذه الخطط تهدف إلى «تدمير الوحدة العربية والعزلة السياسية لمصر»⁷².

أبلغ ناصر السفير أيضا، أن الولايات المتحدة رفضت تقديم المساعدات الغذائية إلى مصر عن طريق موردي الحبوب. وطلب رأي الحكومة السوفيتية حول قضيتين ناقشهما مع السفير الأمريكي وهما: قضية قناة السويس، والقضية الفلسطينية. وقد تم التأكيد من جديد على موقف مصر بشأن القناة وهو «لارقابة دولية بأي شكل من الأشكال، ولكن فقط تعاون دولي مع كل الدول»⁷³.

وقد أسهم في مسألة تقارب موسكو مع القاهرة أيضا، إصدار وزير الخارجية السوفيتي «د. ت. شيبيلوف» تعليماته للسفير السوفيتي لدى مصر في يوم الحادي والثلاثين من ديسمبر عام 1956م بزيارة ناصر أو صبري وإطلاعهم على قرار بشأن إرسال شحنة من المعدات العسكرية السوفيتية لمصر، وفقا للاتفاقات المبرمة في وقت سابق.

بعد بيان أيزنهاور حول الشرق الأوسط في 5 يناير، والذي سرعان ما أطلق عليه، مبدأ أيزنهاور، التقى علي صبري مدير مكتب الرئيس المصري للشئون السياسية في 8 يناير السفير السوفيتي؛ بناء على تعليمات عبد الناصر. وأبلغ السفير أن الرئيس أصدر أمراً بمنح الصحافة المصرية «الحرية كاملة في انتقاد خطط الولايات المتحدة في الشرق الأوسط من جميع الجوانب». وقد

72 - Op.cit. Sheet 5.

73 - Op.cit. Sheet 7.

أطلق على بدء الحكومة المصرية انتهاج خطة نحو تعزيز علاقات التحالف مع سوريا والأردن، أحد الإجراءات لمعارضة خطط الولايات المتحدة. ويعتقد الزعيم المصري أن لبنان «يمكن أن يجذب إلى وعود أيزنهاور». وأعرب صبري عن رأي، اعتبره محاوَره، أنه رأي ناصر، حول «رغبة عامرة في صدور بيان عن الحكومة السوفيتية، تعلن فيه عن استعداد الاتحاد السوفيتي لتقديم المساعدة الاقتصادية للبلدان العربية بدون أية شروط سياسية، ومعلنًا في الوقت نفسه أن الاتحاد السوفيتي لا يمكن أن يبقى غير مبال بشأن التدخل العسكري الأمريكي في شؤون الشرق الأوسط»^{٧٤}. قام «كيسليوف» بتنفيذ تعليمات موسكو، ووجه إلى خطة أيزنهاور، انتقادات حادة، مضيفاً أنه سيكون من الأفضل لو أن الدول العربية ذاتها قامت بها الإجراء، وبشكل شخصي أضاف «كيسليوف أنه سيكون من المفيد، القيام بذلك لرفع قضية تهديد الولايات المتحدة بالتدخل في شؤون الشرق الأوسط بطريقة عاجلة، إلى الدورة الحالية للجمعية العامة. وكان الهدف من ذلك تشكيل تيار سلبي في الأمم المتحدة بشأن خطط الولايات المتحدة، وهذا بدوره، يمكن، حسب رأي السفير أن يحث الأغلبية الديمقراطية في الكونجرس على معارضة هذه الخطط، بدوافع التنافس الحزبي فيما بينهم»^{٧٥}.

لم يشارك صبري السفير تفاؤله، بخصوص الجمعية العامة. وقال إن الدول الأعضاء في الأمم المتحدة من كتلة أمريكا اللاتينية كبيرة العدد، وهذا من شأنه أن يضمن التأييد للولايات المتحدة. إلى جانب ذلك، أعرب عن القلق بصدد موقف الهند، مشيراً إلى أن بيان «نهر» حول مبدأ أيزنهاور كان ضعيفاً. فقد جاء فيه، أن بيان أيزنهاور في جوهره يعني «الانضمام إلى حلف بغداد دون إعلان رسمي، وبتشجيع من القوات الموالية للغرب في العالم العربي»^{٧٦}.

74 - Record of a conversation of 8 January // AVP RF. 0879/41/20/. Sheet 2.

75 - Op.cit. Sheet 3.

76 - Ibid.

كما واصلت القيادة المصرية إبلاغ السفير السوفيتي بالمعلومات حول اتحاد الشمال الأفريقي المخطط له، معربة عن القلق الشديد في هذا الصدد، وتأمل أن تعارض موسكو هذه الخطة. وكانت قضية تواجد القوات الإسرائيلية على الأراضي المصرية هدفاً للمشاورات الدائمة. وأبلغ علي صبري السفير السوفيتي في ٢٤ من يناير عن موقف مصر من هذه القضية، وطلب النصيحة. كانت القضية من الأهمية بمكان لدرجة أنه في بيان النائب الأول لوزير الشؤون الخارجية السوفيتي « أندريه جروميكو » في ٣٠ يناير تمحور الخط التوجيهي للجنة المركزية للحزب الشيوعي حول هذا الشأن، وفقاً للإجراءات المعتادة . وقد جاء فيه :

١- تتفهم الحكومة السوفيتية وتشاطر الحكومة المصرية القلق، بخصوص التأخير في انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي المصرية. وترى أن هذه الإجراءات الإسرائيلية أصبحت ممكنة، بسبب تشجيعها من جانب حكومة الولايات المتحدة التي تبني سياستها تجاه الشرق الأوسط على أساس مبادئ منبثقة عن «مبدأ إيزنهاور». ونبغ الحكومة المصرية أنه إذا كانت تسعى إلى فرض عقوبات إقتصادية على إسرائيل، وفقاً لميثاق الأمم المتحدة من أجل إجبارها على سحب قواتها من الأراضي المصرية، فإن الوفد السوفيتي في الأمم المتحدة سوف يدعم الوفد المصري في هذه القضية .

٢- في رأينا، إن استخدام قضية تطهير قناة السويس، كوسيلة للضغط على إسرائيل، بغرض تسريع انسحاب قواتها من الأراضي المصرية حجة قوية. ومع ذلك يجب أن تستخدم هذه الوسيلة، كملاذ أخير مع مزيد من الحرص بعد الحصول في وقت سابق على دعم العرب المضمون، ودول أخرى من آسيا وأفريقيا. وتعد مشكلة قناة السويس ذات أهمية دولية كبيرة، وتؤثر على مصالح العديد من الدول. وفي هذا الصدد، فإن التأخير المتعمد في تطهير قناة السويس من قبل الحكومة المصرية دون إعداد توافق، قد يؤدي إلى تفاقم وضع مصر الدولي واستغلال ذلك الأمر من قبل القوى الغربية، كذريعة جديدة لأعمال استفزازية ضد مصر.

٣- في رأى الحكومة السوفيتية، أنه سيكون من الأفضل بخصوص مسألة خليج العقبة، أن تقوم حكومات الأردن والمملكة العربية السعودية والتي تهتم بشكل مباشر جنباً إلى جنب مع مصر، بدعم مصر بشكل قوي في الوقت الراهن؛ للتسريع من انسحاب القوات الإسرائيلية من سواحل هذا الخليج ومن جزيرتي «تيران وصنافير». ويستحسن على وجه الخصوص- أن تحت الحكومة المصرية، حكومتى الأردن والمملكة العربية السعودية على إرسال نداء مكتوب للأمين العام للأمم المتحدة، وضرورة اتخاذ تدابير أكثر فعالية وحزماً من أجل تحرير ساحل خليج العقبة، والجزر المذكورة أعلاه .

وفيما يتعلق بتباطؤ القوات الإسرائيلية في الانسحاب من الأراضي المصرية، فقد تم في هذه الفترة إرجاء عودة السفير السوفيتي «أ. أبراموف» إلى إسرائيل، والذي كان مقرراً لها، في ٢٦ من ديسمبر ١٩٥٦ م. وقد كتب «أبراموف» مذكرة إلى نائب وزير الخارجية السوفيتي «ف.أ. زورين» في ٢٦ يناير عام ١٩٥٧ يقول فيها : « من تصريحات الحكومة الإسرائيلية، يمكن للمرء أن يرى أنها تعتبر قطاع غزة منطقة متنازع عليها، وتنوي ضمها، وتريد أن تحتفظ بساحل خليج العقبة حتى تتلقى ضمانات لحرية الملاحة الإسرائيلية في الخليج. ويمكن للمرء أن يفترض أن هذه الادعاءات الإسرائيلية مستوحاة من إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة، والذين لا يخفون عزمهم على استغلال الاحتلال الإسرائيلي للمناطق المذكورة أعلاه ، للضغط على مصر. ويؤكد هذا، على وجه الخصوص، حقيقة أن إسرائيل في ردها على قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة في جلسته المنعقدة في ١٩ يناير، والذي أزمها بسحب قواتها من الأراضي المصرية في خمسة أيام، أعلنت في ٢٣ يناير- بطريقة حادة- رفضها الالتزام بهذا القرار.

في نفس الوقت، ليس لدى مصر- الآن- أي وسيلة فعالة لإجبار إسرائيل على الانسحاب من المناطق المحتلة. وإن وسائلنا للضغط على إسرائيل المتمثلة في استدعاء سفيرنا وإنهاء التجارة السوفيتية- الإسرائيلية ليست

فعالة بما فيه الكفاية، وتفقد قيمتها تدريجياً»^{٧٧}. ويعتقد «أبراموف» أنه من غير المتوقع حل قضية قطاع غزة، والملاحاة الإسرائيلية في خليج العقبة في الأشهر المقبلة، وأن عودته إلى إسرائيل غير مطروحة، حيث سيعتبر ذلك في الدول العربية أنه «موافقة غير مباشرة على العدوان». واقترح إعفاءه من مهام منصبه كسفير مع عدم تعيين شخص آخر^{٧٨}.

على أية حال، واصلت السفارة السوفيتية عملها في إسرائيل. وبصدد تنفيذ خطة عمل قسم بلدان الشرق الأدنى والشرق الأوسط التابع لوزارة الخارجية السوفيتية للربيع الأول من عام ١٩٥٧، أبلغ القائم بالأعمال السوفيتي في إسرائيل ن. كليموف رئيس القسم «ج. ت. زايستيف» رأي السفارة. وكانت الخطة، كما كتب «كليموف»، تتمثل في أن الاتحاد السوفيتي لن يطرح أي استجواب حول الوضع القائم الخاص بإسرائيل، في ضوء التغييرات الناجمة عن العدوان ضد مصر، كما أنه لن يأخذ في الاعتبار «التغييرات في المسألة اليهودية ذات الصلة بالأحداث التي وقعت في بولندا والمجر». وقد جاء في الرسالة: «لقد أظهر عدوان إسرائيل ضد مصر تغيراً جوهرياً، في دور إسرائيل في شؤون الشرق الأوسط. وأثبتت إسرائيل أن بإمكانها مهاجمة الأقطار العربية المجاورة في أية لحظة، عندما ترى أن ذلك يحقق لها فائدة. ومن الضروري أن نضع في الاعتبار أن إسرائيل تمتلك الكوادر العلمية المميزة، والمعدات المناسبة لإعداد وتنفيذ هجوم بكتريولوجي. وخلال الأربعة أشهر الماضية بلغ عدد المهاجرين من بولندا إلى إسرائيل ٨٠٠٠ يهودي. ومن بين هؤلاء موظفون سابقون في وزارة الداخلية البولندية، والاستخبارات العسكرية، وجهاز الأمن، وعلماء بارزون، بما في ذلك علماء الفيزياء الذرية، وعلماء البكتريا المشهورون. وفي المستقبل القريب، يمكن للمرء أن يتوقع وصول عدد كبير من اليهود إلى إسرائيل قادمين من المجر، ومن بينهم علماء معروفون وفيزيائيون متميزون. وتلقى إسرائيل تعزيزات مهمة؛ لتحقيق عمل تخريبي ضد الاتحاد السوفيتي والبلدان الاشتراكية، وأيضاً ضد الدول المجاورة لها»^{٧٩}.

77 - AVP RF. 0892/23/10/. Sheet 3.

78 - Op.cit. Sheet 4.

79 - AVP RF. 0841/23/10/. Sheet 2.

وعلى الرغم من أن ناصر واصل تأكيده للقيادة السوفيتية عن موقفه السلبي بشكل حاد تجاه مبدأ أيزنهاور، ومطالبة موسكو بعمل مضاد للحيلولة دون تنفيذه على أرض الواقع، فإنه لم ير أن يعادى الولايات المتحدة، وفضل عدم الإعلان عن ذلك. وقد كتبت وزارة الخارجية السوفيتية إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في ٨ من فبراير عام ١٩٥٧ م في هذا الصدد: «أفاد الرفيق كوزنيتسوف من نيويورك أنه أثناء مناقشة تقرير همرشولد في الجمعية العامة للأمم المتحدة، وكذلك مسألة نشر قوات عسكرية تابعة للأمم المتحدة في الأراضي المصرية، اتخذ الوفد المصري موقفاً غير ثابت، وفي الحقيقة قدم تنازلات خطيرة إلى الولايات المتحدة. وتجدر الإشارة أيضاً إلى حقيقة أن هذا الموقف المصري غير المستقر قد تم دعمه بنشاط من قبل ممثلو الهند. وقد سببت مواقف الوفود المصرية والهندية، فضلاً عن القرارات التي اتخذتها الجمعية العامة في ٢ فبراير، القلق خاصة في سوريا والأردن. كان سلوك الوفد المصري يشير إلى أن الحكومة المصرية في ظل ضغط الولايات المتحدة، كانت تتراجع إلى حد ما عن مواقفها السابقة.

ومع الأخذ بعين الاعتبار الظروف المذكورة أعلاه، ترى وزارة الخارجية السوفيتية أنه من المناسب تقويض سفرائنا في مصر وسوريا والهند أن يتبادلوا الآراء بطريقة سرية وغير رسمية مع ناصر، والقوتلي، ونهرو بشأن الوضع الراهن في الشرقين الأدنى والأوسط. ورأت وزارة الخارجية السوفيتية أيضاً أنه من المناسب إبلاغ الاصدقاء الصينيين عن هذا الأمر.

في مسودة التعليمات للسفير السوفيتي لدى مصر، والتي صاغتها وزارة الخارجية نيابة عن وزير الخارجية «د. ت. شيلوف» فإن واحداً من التوجهات الخطيرة في تطور الوضع في الشرق الأدنى والشرق الأوسط يشير إلى ما يلي: «إن الولايات المتحدة الأمريكية قد استغلت هزيمة إنجلترا وفرنسا العسكرية والأخلاقية والسياسية في الحرب العدوانية ضد مصر، واتخذت تدابير عاجلة لاعتماد وتنفيذ ما يسمى «مبدأ أيزنهاور»، وهدفها، كما

أشرت أنت عن حق ، سيدي الرئيس ، هو تعزيز الولايات المتحدة لمواقفها السياسية والاقتصادية والعسكرية في الشرق الأدنى والأوسط ، وشغل مكان إنجلترا وفرنسا في هذه المنطقة»^{٨٠}.

وتحدثت المسودة عن أن الدعم لإسرائيل من قبل الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا يعزز التأخير في انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي المصرية. ولهذا، كما تعتقد وزارة الخارجية، فإن هذه الدول سعت «لخلق شروط مسبقاً لتعزير جوهري وغير مبرر- بأي حال من الأحوال- لمهام القوات المسلحة للأمم المتحدة في مصر، ومن المتوقع بشكل واضح أن تستخدم هذه القوات المسلحة لأغراضهم الإمبريالية، وتمارس ضغطاً على مصر والدول العربية الأخرى في عملية تسوية قضية السويس ومشاكل شرق أوسطية أخرى»^{٨١}.

تعتقد وزارة الخارجية السوفيتية أن قرار مجلس الأمن الدولي في الثاني من فبراير عام ١٩٥٧ بشأن نشر القوات المسلحة للأمم المتحدة، ينطوي على «خطر ضد مصر»، وضد الدول العربية الأخرى، ويمكن استخدامها من قبل الولايات المتحدة والقوى الغربية لتنفيذ مخططاتهم الاستعمارية»^{٨٢}. وفي وزارة الخارجية السوفيتية اعتبرت الإشارة إلى تقرير الأمين العام للأمم المتحدة بتاريخ ٢٤ يناير الوارد في القرار، تنازلاً خطيراً لإسرائيل. «فالقرار بشأن نشر قوات للأمم المتحدة في الأراضي المصرية على طول الخط الفاصل مع إسرائيل، ومنحها مهام موسعة، يوفر لإسرائيل فرصة أن تأمن على نفسها من الجانب المصري، الأمر الذي يطلق أيدي إسرائيل في انتهاج سياسة استفزازية، وعدوانية تجاه سوريا والأردن»^{٨٣}.

80 - Op.cit. Sheet 4.

81 - Ibid.

82 - Op.cit. Sheet 3.

83 - Op.cit. Sheet 4.

كانت موسكو ترى أن الصلّة بين مبدأ أيزنهاور و«رغبة الولايات المتحدة، وقوى غربية أخرى احتلال مناطق ذات أهمية إستراتيجية في مصر من قبل القوات المسلحة للأمم المتحدة»، لعزلها عن الدول العربية الأخرى، التي تعتزم الولايات المتحدة - كما يعتقد الاتحاد السوفيتي - جرّها إلى تكتلات عدوانية. وقد كانت موسكو غير راضية عن موقف مصر غير النشط، وغير الواضح بشكل كاف حول هذه القضية.

في هذا الصدد جاء في مسودة التعليمات للسفير السوفيتي لدى سوريا أن الولايات المتحدة، جنباً إلى جنب مع إنجلترا وفرنسا وإسرائيل، من خلال ممارسة ضغط متزايد على سوريا والأردن، «يخفون خططاً للإطاحة بالنظام الجمهوري في سوريا، وتقطع أوصال الأردن»⁴. في هذه العملية، كما جاء في مسودة التعليمات، تم إخبار شكري القوتلي أنه ليس كل الدول العربية تدرك «الارتباط بين مبدأ أيزنهاور ورغبة الولايات المتحدة وقوى غربية أخرى، احتلال مناطق ذات أهمية إستراتيجية في مصر من قبل القوات التابعة للأمم المتحدة». وكان يتعين على السفير أن يعرف كيفية تقييم القوتلي للعواقب المحتملة لقرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة الصادر في ٢ فبراير حول نشر القوات المسلحة للأمم المتحدة في الأراضي المصرية على طول الخط الفاصل مع إسرائيل، وعلى طول ساحل خليج العقبة، وفي قطاع غزة، وأيضاً معرفة ما هي الخطوات التي يرى الرئيس السوري ضرورة اتخاذها «من أجل عرقلة تنفيذ التدابير المزمع اتخاذها من قبل المستعمرين في الشرق الأدنى والأوسط».

وسعت القيادة السوفيتية، وفقاً لحكمتنا على السجلات الدبلوماسية في تلك الفترة، إلى الاعتماد على أكبر عدد من البلدان العربية - أطراف الصراع العربي الإسرائيلي - مستغلين خوفهم من ضغط أمريكي متصاعد ومحتمل عليهم (مصر، سوريا، والأردن بدرجّة أقل، حيث كان التعويل على

الحكومة التي يرأسها زعيم الحزب الاشتراكي الوطني سليمان النابلسي، التي جاءت إلى السلطة بعد الانتخابات في أكتوبر عام ١٩٥٦. وكانت المهمة الرئيسية، بطبيعة الحال، منع تزايد نفوذ الولايات المتحدة، وزيادة عدد الدول المشاركة في أحلاف مع العضوية الأميركية. وبعد أحداث عام ١٩٥٦ أصبح الاتحاد السوفيتي يميل أكثر إلى دعم العرب في الصراع العربي الإسرائيلي. في الوقت نفسه أظهرت موسكو ضبط النفس، داعية العرب إلى أن تحذو حذوها، غير راغبة في الدخول في مواجهة مع الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة، مع الأخذ في الاعتبار حقيقة أن حكومة أيزنهاور تمارس ضبط النفس أيضا في دعم إسرائيل. وبعد تحسن العلاقات مع مصر بصورة ملحوظة بعد أزمة السويس لفتت مصر انتباه موسكو بشكل كبير.

في فبراير عام ١٩٥٧ أبدى الدبلوماسيون السوفيت اهتماماً بتطورات الوضع، فيما يتعلق بالقناة. وقد جاء في المباحثات بين وزير الخارجية المصري محمود فوزي وهمرشولد في نيويورك أن مصر تعتقد أنه قبل انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي المصرية، فإن الحديث عن مستقبل قناة السويس أمر سابق لأوانه. وقد قال علي صبري للسفير السوفيتي في القاهرة «إي.د. كيسليوف» أن مستخدمى القناة الذين حضروا مؤتمراً في لندن في يناير ١٩٥٧ فشلوا في التوصل إلى أي اتفاق^{٥٥}. وقد عارضت مصر أي أولوية مهما كانت لمرور السفن عبر القناة. وأبلغ صبري السفير مخاوف ناصر المتصاعدة بشأن خطة عقد مؤتمر للقوى الموقعة على اتفاقية عام ١٨٨٨، وكذلك حقيقة أن مصر تعتبر أنه من الضروري أن تعلن موقفها بشأن قضية السويس، متعهداً بإرسال نص الإعلان قبل يوم أو يومين من نشره. وكانت النقطة الأساسية فيها، أن مصر أصرت على دفع عوائد القناة حصرياً إلى الإدارة المصرية. وقال صبري إن ذلك يهدف إلى إحباط خطط الولايات المتحدة

وقوى غريبية أخرى الرامية إلى دفع عوائد القناة عبر البنك الدولي^{٨٦}. وكان الهدف الرئيس للمصريين كما جاء في المحادثات، منع إنشاء نظام مؤقت للقناة بمبادرة من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا.

كان تبادل المعلومات بشأن التصريحات التي كان من المفترض أن يتم نشرها، أصبحت بالفعل شيئاً معتاداً في الاتصالات السرية السوفيتية المصرية. وفي ١٠ فبراير التقى السفير السوفيتي أيضاً ناصر وأطلعته على المبادئ الرئيسة للإعلان المقترح من قبل الحكومة السوفيتية، إلى القوى الثلاثة الكبرى بشأن قضية السياسة في الشرق الأدنى والشرق الأوسط. وقد أيد ناصر جميع بنوده باستثناء نقطة واحدة فقط وهي امتناع القوى الأربعة لتوريد الأسلحة إلى دول المنطقة (نقطة رقم ٥)، مشيراً إلى أنه في مثل هذه الحالة تصبح إسرائيل أقوى بكثير من مصر، وخاصة في مجال الطيران^{٨٧}. وقال إنه إذا كان من الممكن أن يتم «إشباع» مصر من الطائرات قبل اعتماد الإعلان، فسيتم رفع الاعتراضات ضد النقطة الخامسة. وأعرب ناصر أيضاً عن شكوكه بشأن الجوهر الحقيقي لنقطة تصفية القواعد العسكرية، وانسحاب القوات الأجنبية. ورداً على ملاحظة الرئيس المصري، أشار السفير السوفيتي بالأصالة عن نفسه، أنه إذا تم تزويد إسرائيل بالسلح بعد اعتماد الإعلان من قبل كندا على سبيل المثال، فإن مصر سوف تجد الكثير من الأصدقاء الذين سيزودنها بالسلح، مثل الصين أو تشيكوسلوفاكيا.

وقد حكى الرئيس المصري ذلك في رسالة إلى همرشولد، معلناً أن بلاده قد توقف تطهير القناة في حالة إذا سحبت إسرائيل قواتها من خليج العقبة وقطاع غزة، إلا أنه أوضح أنه لن يؤخر التطهير لفترة طويلة.

86 - Op. cit. Sheet 24.

87 - Record of conversation with President Nasser of 10 February 1957 // AVP RF. 0879/4/20/. Sheet 17.

وفقاً لناصر فإن لبنان، حيث أراد شمعون «تأمين حملته الانتخابية بالمال الأمريكي»، كان نقطة ضعف في العالم العربي من جهة تغلغل مبدأ أيزنهاور⁸⁸. كان في رأي عبد الناصر أن الحافة القاطعة الرئيسة لمبدأ أيزنهاور ليست موجهة ضد الشيوعية والاتحاد السوفيتي فحسب، ولكن ضد القومية العربية ومصر بالذات التي تعد القاطرة بالنسبة لها. هنا تختلف وجهات نظر القيادة المصرية والقيادة السوفيتية بشكل واضح. إذ أن موسكو تعتبر أن مبدأ أيزنهاور مجرد منشور للعداء السوفيتي - الأمريكي .

في ١٤ من فبراير عام ١٩٥٧ م أرسل سفير مصر لدى الاتحاد السوفياتي «القونى» معلومات إلى قسم الشرق الأوسط في وزارة الخارجية السوفيتية بشأن بيان مدير إدارة الإعلام في مصر عبد القادر حاتم، حول خطة دالاس والتي، كما صرح «تهدف إلى تلبية مطالب إسرائيل فيما يتعلق بحرية الملاحة في المياه الإقليمية المصرية في خليج العقبة، ونشر قوات الأمم المتحدة في غزة بحجة الدفاع عن إسرائيل من العدوان المصري»⁸⁹. وقد أولى البيان اهتماماً كبيراً لحقوق العرب الفلسطينيين، وعدم التزام إسرائيل بقرارات الأمم المتحدة. وفي ١٥ فبراير استقبل «القونى» نائب وزير الشؤون الخارجية «ف.أ. زورين». ومشيراً إلى المقترحات السوفيتية التي عبر عنها وزير الخارجية «د. ت. شيبولوف» في تقريره في جلسة مجلس السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتي، ذكر السفير المناورات المحتملة من القوى الغربية حول قضيتين هما : فرض حظر على شحنات الأسلحة إلى بلدان الشرق الأدنى والشرق الأوسط، وتصفية القواعد العسكرية في المنطقة. وأشار السفير إلى أن الغرب اقترح عدم توسيع نطاق تطبيق الحظر على تركيا وباكستان وإيران، وخاصة تركيا عضو حلف شمال الأطلسي. وقال «القونى» أيضاً إن الولايات المتحدة تتطلع بعد تدويل خليج العقبة إلى دعم إسرائيل، من خلال ممارسة الضغط على مصر، لذلك فإنه «من مصلحة الاتحاد السوفيتي إحباط خطط القوى الغربية فيما يتعلق بخليج العقبة»⁹⁰.

88 - Op. cit. Sheet 18.

89 - AVP RF. O87/ 20/ 41/ 6. Sheet 5.

90 - Op. cit. Sheet 3.

كان من الأهمية لتفسير الخط السياسي المصري في ذلك الوقت، استنتاج السفير أن الضالع في هذه المسألة ليس فقط الخلاف بين مصر وإسرائيل، حيث إن القوى الغربية في محاولتها تحييد العراق والمملكة العربية السعودية كافتحت لكي تثبت ذلك، ولكن النزاع بين إسرائيل والدول العربية مجتمعة. وأكد السفير وهو يسعى للحصول على دعم سوفياتي أكثر فاعلية للحقوق المصرية في خليج العقبة، وفهم جوهر قلق موسكو الأساسي، أن الدفاع عن هذه الحقوق من شأنه أن يساعد على تدمير مبدأ أيزنهاور.

من جانبه أشار « ف . ب . زورين » إلى أن موسكو « لم تفهم تماماً موقف مصر خلال اعتماد قرار الأمم المتحدة حول نشر قوات دولية في منطقة خط الهدنة المصرية الإسرائيلية، وأنه كان هناك انطباع بأن مصر لم تعترض بشكل خاص على نشر قوات الأمم المتحدة على أراضيها⁹¹. وكان رد فعل السفير دليلاً على عدم رغبة مصر في الدخول في مواجهة مع القوى الغربية بشأن هذه المسألة. وبعد أن اقتنع بأن نشر هذه القوات في سيناء يعد خطوة خطيرة، أشار «القوني» أن «همرشولد رجل ذو قلب دافئ ونوايا حسنة». وقد لاقى هذا رفضاً قوياً من جانب الدبلوماسي السوفياتي الذي ادعى أن «همرشولد» مسئول دولي يرفع مصالح منظمة، تشكل فيها الولايات المتحدة الأمريكية الآن القوة المهيمنة⁹².

تساءل وزير الخارجية السوفياتي الجديد « أ . أ . جروميكو » عند استقباله السفير المصري في ٢٥ فبراير ١٩٥٧ ، عما إذا كانت البيانات حول إمكانية عقد اتفاق حول بقاء قوات الأمم المتحدة في قطاع غزة، وعلى موافقة مصر على نشر قوات الأمم المتحدة في سيناء صحيحة. أشار السفير أن هذه البيانات ليست صحيحة، ولكن توضيحاته كانت مشوشة جداً. وقد جاء في تقرير جروميكو للسلطات السوفياتية العليا (هذا التقرير تم تداوله بين كبار

91 - Op. cit. Sheet 4.

92 - Op. cit. Sheet 5.

القيادات الحزبية السوفيتية، والقادة التنفيذيين) «إن حقيقة هذا الموقف تتمثل فى أنه على الرغم من أن قوات الأمم المتحدة قد تكون موجودة بالقرب من غزة، لكن لا ينبغي لها أن تتواجد على أراضي غزة، وإلى جانب ذلك، حتى لو كانت قرب غزة فإنها ربما تتواجد فقط طالما وافقت مصر على ذلك. وأضاف أيضاً عدم صحة البيانات فيما يتعلق، بأن مصر مستعدة لتوافق فى المستقبل على تقرير مسألة مدة بقاء قوات الأمم المتحدة فى الأراضي المصرية بشكل مستقل»⁹³.

وافق جروميكو على وثيقة عمل المصريين⁹⁴ بشأن مسألة السويس، لكنه قال إنه سيكون من الأفضل لو أنها تضمنت أيضاً اقتراحاً بشأن عقد مؤتمر دولي واسع النطاق بخصوص قناة السويس؛ لجذب جميع الأطراف من البلدان المشاركة فى اتفاقية عام ١٨٨٨ م.

كما تطرق «القونى» إلى مؤتمر القمة العربي، الذي من المقرر أن يبدأ عمله فى القاهرة فى ٢٥ فبراير. ومتحدثاً عن موقف المشاركين فى المؤتمر، أضاف أن مصر يمكنها أن تعتمد كلية فقط على القوتلي. وقد طرح رأياً مفاده، أن ناصر من أجل الحفاظ على وحدة الدول العربية، فلن يدين فى البداية مبدأ أيزنهاور مباشرة، لكنه، على الأرجح، سيدلي ببيان حول ضرورة الالتزام الصارم باستقلال الدول العربية، وبالتالي فسوف يعد هذا إدانة غير مباشرة للمذهب أعلاه». وقال السفير: إن العراق ولبنان وافقتا على مبدأ أيزنهاور، وسوف تتذبذب الأردن والمملكة العربية السعودية. ويمكن توسم الخير من جانب بن سعود باعتباره «أبو القومية العربية»⁹⁵.

93 - AVP RF. 0875/40/20/. Sheet 1-2.

94 - The memorandum, in particular, contained provisions stipulating the procedure of col-lection of dues for the passage of ships through the canal and for the opening of accounts in the Egyptian National Bank and the Bank for International Settlements, measures for canal maintenance and development – an item for which 25 percent of the total dues was earmarked -the procedure for the settlement of disputes

95 - Op.cit. Sheet 3.

بالمناسبة، بعد ذلك المؤتمر، صرح القوني أن مصرراضية عن نتائج المؤتمر، وأن البيان المنشور يعد تعبيراً عن وحدة العرب^{٩٦}. أبلغ القوني «زورين» أنه بخصوص مسألة انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي المصرية، فإن المصريين فشلوا في إظهار الحزم المطلوب. (٢٥) تتضمن المذكرة، على وجه الخصوص، أحكام تنص على إجراءات تحصيل مستحقات لمرور السفن عبر قناة وفتح حسابات في البنك الأهلي المصري وبنك التسويات الدولية، واتخاذ تدابير لصيانة القناة والتنمية. وهو العنصر الذي تم تخصيص ٢٥ في المئة من إجمالي المستحقات له ولتسوية المنازعات التي قد تنشأ بين مستخدمي القناة والإدارة المصرية.

ومع ذلك، فبخصوص قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة الذي دائماً ما ينتقده الدبلوماسيون السوفيت في محادثاتهم مع المصريين، قال السفير إنه لم يؤثر على الحقوق السيادية لمصر في أراضيها، حيث إنه بعد انسحاب القوات الاسرائيلية من شبه جزيرة سيناء، فسوف تكون السلطات المصرية قادرة على التصرف فيها وفقاً لتقديرها الخاص.

من الواضح أن المصريين وافقوا على نشر القوات الدولية؛ على أمل انسحاب القوات الاسرائيلية، بينما اعتبر الاتحاد السوفيتي نشر هذه القوات خطوة نحو تقوية مواقع الولايات المتحدة في المنطقة، وتحقيق مبدأ أيزنهاور.

وقد أطلق «زورين» على البيان الرسمي للبلاد العربية الأربع، الذي نشر بعد المؤتمر «وثيقة سياسية هامة»، لكنه عبر عن حيرته؛ لأن البيان لم يعبر عن موقفة حيال مبدأ أيزنهاور، ولم يذكر أي شيء عن مقترحات الاتحاد السوفيتي بشأن قضية السلام والأمن في الشرق الأدنى والأوسط.

وقد ساهم رد «القوني» في توضيح موقف مصر بهذا الصدد. قال السفير: «إن مبدأ أيزنهاور غير مقبول من جانب الدول العربية، ولكن إذا عرضت الولايات

المتحدة مساعدتها دون أية شروط عسكرية أو سياسية، فإن الدول العربية ستقبل هذه المساعدة من حيث المبدأ، حيث إن هذه البلاد تعاني العوز في كل شيء. ولم يعبر قادة الدول العربية الأربعة - علناً - عن موقفهم، حيال مبدأ أيزنهاور، ومبادئ الاتحاد السوفيتي الأساسية، لأسباب تكتيكية. وتقوم الدول العربية الرئيسية عملياً، وليس نظرياً بتنفيذ سياسات تتطابق مع المبادئ الأساسية، وتضاد مبدأ أيزنهاور⁹⁷. ولم يستجب السفير لطلب « زورين » إبلاغه عن موقف الملك سعود والملك حسين في المؤتمر. وأعلن « القوني » أيضاً أن التصريح العلني بخصوص « المبدأ » و « المباديء » يعد شيئاً محرراً، لأنه في هذه الحالة على ما يبدو سيكون من الضروري رفض مبدأ أيزنهاور والموافقة علناً على مبادئ الاتحاد السوفيتي. وهذا قد يعني أن الدول العربية تخرج عن المسار المحايد في العلاقات مع الغرب والشرق. وسيعطي هذا الطعم ؛ لشن حملة جديدة من الدعاية المعادية في الغرب⁹⁸. وقد أشار إلى أن الأمريكيين على ما يبدو، يخططون لإضافة بند في مبدأ أيزنهاور، ينص على تقديم « المعونة » من جانب الولايات المتحدة لقوات الأمم المتحدة في الشرق الأوسط « في حالة الضرورة »، وإذا تم إدراج هذه الإضافة بالفعل، فإن مصر سترفض رسمياً مبدأ أيزنهاور.

بعد دخول قوات الأمم المتحدة إلى قطاع غزة، نشأ وضع جديد هناك. فقد قامت في غزة مظاهرات للمطالبة بالعودة الفورية للإدارة المصرية هناك، غير أن القوات الكندية أطلقت النار عليها. وفي الحادي عشر من مارس أرسلت الحكومة المصرية إلى همرشولد برقية احتجاج، جاء فيها، أنه وفقاً للترتيبات بين الحكومة المصرية والأمين العام للأمم المتحدة، وكذلك قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة، فإن وظيفة القوات الدولية تنحصر في مراقبة وقف إطلاق النار، وانسحاب القوات المعتدية من الأراضي المصرية. ومع ذلك، فقد بدأت القوات الدولية في قطاع غزة تنفيذ مهام إدارية، وحاولت أن تنقل للإدارة في قطاع غزة الطابع الدولي.

97 - Reception by V. A. Zorin of Ambassador Al-Kuni on 6 March 1957 // Op.cit. Sheet 4.

98 - Op.cit. Sheet 5.

أبلغ علي صبري « ب . أ . جيراسيموف » القائم بالأعمال السوفيتي في مصر، أنه بعد دخول قوات الأمم المتحدة في غزة، دعت قيادة قوات الأمم المتحدة أعضاء المجلس البلدي (الذين انتخبوا قبل العدوان) ، وطلبت منهم التعاون مع القيادة. أعلن أعضاء المجلس البلدي أنهم سيوافقون على اتباع تعليمات القيادة، بشرط أن تعطي الحكومة المصرية موافقتها على ذلك. وبعد أن اتخذت الحكومة المصرية قراراً بالأمس، يقضي بتعيين الجنرال عبد اللطيف حاكماً لغزة، رفض المجلس البلدي التعاون مع قيادة قوات الأمم المتحدة. وبدأت حملة المقاومة السلبية لهم. والحاكم المعين حديثاً سوف يذهب بشكل عاجل إلى غزة، إذا سمح له بالدخول⁹⁹. ورغم أن الحكومة المصرية تلتزم بموقف ثابت بخصوص خليج العقبة، فإنها لا ترغب في إثارة قضية انسحاب قوات الأمم المتحدة من شرم الشيخ، في انتظار تسوية قضية غزة.

وقد حكى صبري أيضاً قصة التأخير في نشر تصريح الحكومة المصرية بشأن قناة السويس، المعروفة بالفعل لموسكو، وذلك بسبب اعتراضات من جانب الهند. ففي تلك الفترة قدم «كريشنا مينون» مقترحاته بشأن تلك القضية التي تم رفضها من جانب ناصر؛ لأنها تضع قناة السويس تحت وصاية البنك الدولي. ولم توافق الحكومة المصرية كذلك، على التوصية السوفيتية لكي تدرج في البيان بند خاص بالدعوة إلى عقد مؤتمر دولي موسع حول قناة السويس .

أما بالنسبة للعلاقات بين الاتحاد السوفيتي وإسرائيل في تلك الفترة. فقد كانت تمر بأزمة شديدة بشكل واضح. وأثناء حديثه مع السفير الإسرائيلي في موسكو «أ. أفيدار» في ١٦ فبراير، رد «جروميكو» على لوم السفير أن الاتحاد السوفيتي في الشهور الأخيرة، توقف عن تطوير النتائج الإيجابية التي تحققت في وقت سابق، وألغى الاتفاقية الخاصة بشحنات النفط لإسرائيل في عامي ١٩٥٧-١٩٥٨، واستدعى سفيره من تل أبيب. ووفقاً للوزير «بالفعل تشهد علاقاتنا مع إسرائيل تدهوراً كبيراً، وذلك بسبب الحقائق المعروفة

99 - Record of conversation of 12 March 1957 // AVP RF. 0879/41/20/. Sheet 36.

التي انبثقت من سياسات وأفعال الحكومة الإسرائيلية، وقد سببت إسرائيل الضرر لموقفها، وقضية السلام والهدوء في الشرق الأوسط بشنها حرباً عدوانية ضد الدولة المصرية. وقد تفقد إسرائيل أصدقاءها إذا ما واصلت مثل هذه السياسة. ومن جراء هذه السياسة، فإنها سوف تخسر في نهاية المطاف أكثر مما ستكسب. وقد يمكن أن تدعم في هذه المرحلة من قبل الدوائر المتطرفة في بعض البلدان، وحتى من قبل بعض الحكومات، ولكن من نقطة الاستشراف لإمكانية وجودها ذاته، وتنميتها، فإن إسرائيل ألحقت بنفسها ضرراً سياسياً كبيراً. وإن تنفيذ مثل هذه السياسة أيضاً من شأنه أن يسبب مزيداً من الضرر لها من الآن فصاعداً .

بالإشارة إلى الحقائق الراهنة التي تظهر أي نوع من السياسة الخارجية تنتهجها إسرائيل، فقد توليت مسألة غزة . وفي القيام بذلك، أكدت حقيقة أن الموقف الإسرائيلي بشأن مسألة انسحاب القوات من غزة أظهر للعالم كله، أنها لا تسعى نحو الحفاظ على السلام والأمن في الشرق الأوسط، ولكن تعمل في الاتجاه المعاكس^{١٠١}. حاول أفيدار إقناع الوزير أن أعمال إسرائيل في أكتوبر-نوفمبر ١٩٥٦ تحمل طابعاً دفاعياً، ذلك لأنها كانت مهددة بالخطر من الجانب المصري. وقال إن الدول العربية « لم ترغب في التوقيع على معاهدة سلام، وأعلنت المقاطعة، وأغلقت قناة السويس وخليج العقبة في وجه الملاحية الإسرائيلية. وقد أكدت الوثائق المصرية التي استولت عليها القوات الإسرائيلية في شبه جزيرة سيناء ظاهرياً، حقيقة أن القيادة المصرية تتحمل المسؤولية عن إرسال قوات الكوماندوز إلى الأراضي الإسرائيلية^{١٠٢}. وقد رفض وزير الخارجية السوفيتي بشكل قاطع الحجج الإسرائيلية: « قلت إن السفير كان يحاول أن ينسب لمصر نوايا عدوانية، ولكن لا يكاد أحداً يعتقد بجدية هذا في ضوء ما حدث في الشرق الأوسط. ما حدث هو أنه ليس مصر التي قامت بغزو إسرائيل ولكن إسرائيل هي التي شنت عدواناً ضد مصر،

100 Record of conversation of 16 March 1957 // AVP RF. 0892/23/10/. Sheet 5.

101 - Op.cit. Sheet 5.

وغزت الأراضي المصرية، متعاونة مع بريطانيا وفرنسا. غزو الأراضي المصرية من قبل القوات الإسرائيلية هو حقيقة ثابتة، ولا يمكن تغيير ماهيته، استناداً إلى أن مصر كانت تضم نوايا سيئة تجاه إسرائيل، أو تستعد لغزو الأراضي الإسرائيلية»^{١٠٢}.

بالتزامن مع المساعي والجهود في الاتجاه المصري، كانت موسكو تحاول أن تضمن الدعم لمقترحاتها. وقد أخبر «إحسان مراش» القائم بالأعمال السوري في الاتحاد السوفيتي «أ. زورين» أثناء اجتماعه معه في السادس عشر من فبراير أنه في رأيه أن «الحكومة السورية سوف تجد صعوبة إلى حد ما لتحديد موقفها من هذه المسألة. وترتبط هذه الصعوبة - حسب رأيه - بوجود الصراع العربي الإسرائيلي، والقضايا العالقة الناجمة عنه.^{١٠٣} أسعت دمشق، مثل القاهرة، انطلاقاً من فهمها مصلحة موسكو في دعمها، ورغبتها في إحباط الخطط الأميركية إلى تأمين أكبر قدر من المساعدة من جانب الاتحاد السوفيتي. ولم تحظ جميع الاستنتاجات والمطالب السورية برضاء وتقدير موسكو. وفي يوم ٣٠ مارس أصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي قراراً تم صياغته في وزارة الخارجية، رداً على برقية الكي جي بي (المخابرات السوفيتية) الواردة من دمشق بتاريخ ٢٧ مارس ١٩٥٧، والذي جاء فيه أنه «في الوقت الحاضر لا تعتبر موسكو أن أي هجوم عسكري من دول معادية للعالم العربي على سوريا أمراً حتمياً، ولكن ليس مستبعداً أن الاستعدادات العسكرية الإسرائيلية، تكرر الابتزاز والترهيب للدول العربية؛ بهدف إجبارها على تقديم تنازلات كبيرة للقوى الغربية، في حل مشاكل الشرق الأوسط الملحة»^{١٠٤}. ودعا الاتحاد السوفيتي سوريا ودول عربية أخرى إظهار الجلد، ورباطة الجأش، وليس اتخاذ خطوات يمكن أن «تعرض على التدخل في سوريا، على سبيل المثال، من قبل إسرائيل وتركيا»^{١٠٥}. وجاء في الرد، أن الاتحاد السوفيتي «يقدم وسوف

102 - Op.cit. Sheet 6.

103 - AVP RF. 012827/2/20/. Sheet 26.

104 - AVP RF. 08733/42/20/. Sheet 4.

105 - Op.cit. Sheet 6.

يقدم المساعدة لسوريا في شكل شحنات الأسلحة على أساس التفاهم الذي تم التوصل إليه». ومع ذلك، ردأ على سؤال طرحه الحوراني حول إرسال طيارين متطوعين من قبل الاتحاد السوفييتي إلى سوريا أو مصر، فقد أعلن أنه «في ظل الظروف الحالية فإن مثل هذه الإجراءات قد تنطوي على عواقب سلبية على كل من الدول العربية والاتحاد السوفييتي»^{١٠٦}.

وحيث أن الاتحاد السوفييتي كان يهتم بقضية السويس، فقد راقب عن كثب كل تحركات الدبلوماسية المصرية بشأنها، وكان يكيف موقفه طبقاً لتطورات الوضع. وتضمنت التعليمات الموجهة للسفير السوفييتي في القاهرة المصدق عليها من جانب اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في نهاية مارس، رأياً بشأن مشروع مذكرة الحكومة المصرية حول هذه المسألة بأنها «ذات دوافع سياسية»، لكن القوى الغربية ستعارض اعتماده، في محاولة لفرض شروطها على مصر، وتفاقم الأوضاع في المنطقة. وكان هذا من الأهمية، بأن يؤخذ، في الاعتبار خاصة أن ذلك يتزامن مع عقد لقاء في برمودا بين أيزنهاور وماكميلان، وانضمام الولايات المتحدة إلى لجنة عسكرية بحلف بغداد^{١٠٧}.

وفي الوقت نفسه، كانت موسكو تدرس عن كثب عند أي نقطة ستكون مصر تحديداً، مستعدة لتقديم تنازلات بشأن هذه المسألة إلى القوى الغربية. ويشهد على صدق ذلك - على وجه الخصوص - المرجع التالي لوزارة الخارجية التي تمت صياغته في ٢٩ ما عام ١٩٥٧ بشأن البنود الرئيسية لمشروع مذكرة الحكومة المصرية على قناة السويس، التي تتوافق جزئياً مع مقترحات القوى الغربية :

البنود التالية من مشروع مذكرة الحكومة المصرية بشأن قناة السويس، ربما تظهر كأنها تتوافق مع مقترحات القوى الغربية بدرجة أو بأخرى :

١. التزام مصر بتنفيذ إتفاقية القسطنطينية لعام ١٨٨٨ بشأن حرية الملاحة على طول قناة السويس.

106 - Op.cit. Sheet 7.

107 - Op.cit. Sheet 8.

٢. الإبقاء على رسوم القناة في المستوى الحالي. ويجب أن تكون أي زيادة في الرسوم بأكثر من ١ في المائة نتيجة التفاوض.

٣. الالتزام بالحفاظ على القناة وتطويرها ؛ لمواكبة الطلبات المتزايدة للملاحة، وتخصيص ٢٥ في المائة من مجموع الرسوم التي تحصل لمروور السفن عبر القناة لهذا الغرض.

٤. لا يكون فتح الحسابات بغرض دفع رسوم عبور القناة في البنك الوطني المصري فقط ، ولكن في بنك التسويات الدولية.

٥. الموافقة على التحكيم في المنازعات التي قد تنشأ بين إدارة القناة والمستخدمين للقناة.

٦. موافقة مصر على التحكيم فى القضايا التي تنطوي على مطالبات ، فيما يتعلق بتأميم شركة قناة السويس في حالات عدم وجود اتفاق بين الأطراف المعنية^{١٨}.

أبلغ السفير السوفيتي لدى مصر، عبد الناصر أن الولايات المتحدة من خلال قنوات مخابراتاتها، حاولت تضليل الحكومة السوفيتية برسالة مفادها، أن الرئيس جمال عبد الناصر توصل إلى اتفاق مع الولايات المتحدة الأمريكية حول العديد من القضايا، وبوجه خاص، الاتفاق بشأن شحنات أسلحة مجانية لمصر^{١٩}. كان ذلك أحد العناصر؛ لاستطلاع الخطوات الممكنة من جانب مصر والولايات المتحدة الأمريكية؛ لتلاقى مواقف بعضهم البعض. على ما يبدو، لم تكن موسكو تثق في مصر حتى هذه اللحظة. وقد عبر ناصر عن رأيه لفترة طويلة فيما يتعلق بسياسات الولايات المتحدة قائلاً «في واقع الأمر، لم تقدم الولايات المتحدة مساعدة حقيقية لمصر في أي حالة». وذكر أن السفير الأمريكي لدى مصر مارس ضغطا عليه من أجل إجباره على إلغاء قرار إرسال الحاكم المعين إلى غزة، مما جعل ناصر فى اليوم التالي إثر ذلك، لا يرسل

108 - AVP RF. 08733/42/20/. Sheet 12-13.

109 - Record of conversation of 31 March 1957 // AVP RF. 0879/41/20/. Sheet 50.

الحاكم فحسب، بل أمر القوات المسلحة المصرية ووحدات الشرطة بالدخول إلى أراضي قطاع غزة. بعد هذا، وصل السفير في الليل، وهذه المرة مع رسالة من أيزنهاور الذي كان يصر على أن «ناصر يلجأ إلى الأعمال الاستفزازية والخطرة والمعرضة للصراع في قطاع غزة»، مطالباً بسحب الحاكم، وإلا فإن إسرائيل ستستأنف عدوانها¹¹⁰. وبناءً على هذا المثال، فقد سمى ناصر العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية بالباردة، ودعماً لهذا الاستنتاج ذكر أيضاً للسفير السوفيتي، الفضيحة التي اندلعت بين السفير الأمريكي ووزير الخارجية فوزي بسبب نشر المذكرة المصرية بشأن قضية السويس.

نظراً للاهتمام السوفيتي خاصة بمواقف القادة العرب الأربعة في مؤتمر فبراير في القاهرة، وعد ناصر إصدار تعليمات لصبري بإطلاع كيسليوف اطلاعاً كاملاً على السجل المفصل للمؤتمر. وقد تم إبلاغ الرئيس المصري بشكل سري ما يلي: «إن تعقيد الوضع يكمن في موقف الملك سعود. وقد تمكنا من إقناعه أنه على الرغم من أن الجميع يدرك أنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً مع الولايات المتحدة، إلا أنه لا ينبغي له الموافقة على مبدأ أيزنهاور حتى لا يعطي دافعاً لتفعيل نشاط القوات الموالية للولايات المتحدة في دول عربية أخرى. وافق سعود على ذلك، وتصرف بإخلاص في هذا الشأن. وتجدر الإشارة إلى أن الصحافة غطت بشكل غير صحيح مسألة الأسلحة الأمريكية للمملكة العربية السعودية. فالملك سعود لا يتلق أسلحة مجانية من الأمريكان، ولكنه يدفع لهم بنفسه. وقد ورد في الصحافة أن سعود حصل على ٥٠ مليون لاستئجار قاعدة القوة الجوية في الظهران، وبالنسبة للأسلحة، فإنه سيدفع للولايات المتحدة الأمريكية ١٢٠ مليون دولار¹¹¹».

وقال ناصر إنه «لاعتبارات تكتيكية تم الاتفاق في مؤتمر رؤساء الدول العربية ألا يناقش مبدأ أيزنهاور على المستوى الحكومي، بغرض

110 - Op.cit. Sheet 54.

111 - Op.cit. Sheet 57.

منع «ريتشاردز» - بوقاحة - من زيارة الدول العربية، على الرغم من أنه لا أحد، بطبيعة الحال، لديه شكوك حول فشل مهمته، حيث إن مصر وسوريا والأردن وحتى المملكة العربية السعودية تشعر بالقلق¹¹².

وفيما يتعلق بمسألة قوات الامم المتحدة، قال ناصر للسفير السوفيتي : طالما لم تستكمل مصر إعداد قواتها المسلحة بشكل جيد، فإن وجود قوات الأمم المتحدة على الحدود مع إسرائيل مفيد، وسيسمح مثل هذا الوضع لمصر أن تكسب الوقت لإعادة تسليح، وتدريب جيشها، ويسمح بمجال أكبر للمناورة. وإذا ما غادرت قوات الأمم المتحدة - الآن - فهذا من شأنه أن يضع مصر في موقف صعب: إذ أن أي هجوم إسرائيلي على غزة، نظراً للنقص في سلاح الجو المصري، سيؤدي إلى وضع لن يكون لدى مصر فيه أي شيء ترد به هذا الهجوم.

أحاط ناصر القيادة السوفيتية علماً، بمعلومات المخابرات المصرية، بشأن إعداد إسرائيل لعدوان جديد على مصر، بناء على معلومات سرية وردت من شخصية فرنسية رفيعة المستوى. ووفقاً لهذه المعلومات، أصر وزير الدفاع الفرنسي على الانتقام من مصر، معتبراً أن الإجراءات العسكرية ضد مصر في أكتوبر ونوفمبر ١٩٥٦ كان خطأ كبيراً، وموقناً أن «تصفية نظام عبد الناصر في مصر كان ولا يزال فرصة فريدة، لدعم مواقف فرنسا في الشرق الأوسط¹¹³». لهذا على ما يبدو، اقترح إرسال وحدة من المظليين قوامها ستة آلاف بقيادة الجنرال «ماسو» إلى القاهرة؛ بغرض اغتيال ناصر والشخصيات القيادية المصرية الأخرى وتشكيل حكومة جديدة برئاسة مرتضى المراغي وزير الداخلية المصري السابق (قبل ثورة عام ١٩٥٢) المقيم في بيروت.

112 - Ibid.

113 - Op.cit. Sheet 60.

فيما يتعلق ببناء عبد الناصر، أرسل جروميكوفي ٦ أبريل إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي مشروع قرار، بخصوص أخذ المشورة ؛ لتسليمه إلى ناصر عن طريق السفير السوفيتي بعض البيانات التي في حوزة دائرة المخابرات الرئيسية لهيئة الأركان العامة للجيش السوفيتي. وكانت التعليمات الصادرة للسفير بهذه المناسبة، والتي وافقت عليها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي على النحو التالي : « يرجى زيارة علي صبري، وإبلاغ ناصر من خلاله، أنه وفقاً للبيانات المتاحة لنا، فإن البحرية الفرنسية وجهت بالفعل في يوم ٢٦ مارس من ميناء طولون في اتجاه الجزائر، نفس القوات تقريباً التي كان الرئيس قد تحدث عنها. ومع ذلك، فإن هذه القوات البحرية، لم تسرف في الاتجاه الشرقي وبقيت في الجزائر، تزاوّل مهام التدريب العسكري .

واعتباراً من ١ إبريل من هذا العام، واصلت الوحدة العاشرة من المظليين الفرنسيين البقاء في منطقة أورلينسيلف بالجزائر، ولا توجد أية بيانات عن تحركات هذه الوحدة، أو عن أي وحدات أخرى متجهة إلى جزيرة قبرص.

الجيش الإسرائيلي حالياً في حالة زيادة الاستعداد القتالي، وتلقت القوات المدرعة أمراً بتجديد الإمدادات ومخزونات الغذاء. ومع ذلك، لم يلاحظ تواجد عدد كبير من القوات على الحدود مع مصر.

من فضلك، قل لعلي صبري إنه إذا تلقت أجهزة الاستخبارات لدينا أية معلومات، تشير إلى أن هناك عدواناً عسكرياً يجري إعداده ضد مصر، فسوف نقوم على الفور بإبلاغه للرئيس.^{١٤} وقد حاول الدبلوماسيون السوفيت باستمرار - صرف إسرائيل عن أي محاولات لحل الصراع مع العرب بالوسائل العسكرية. على وجه الخصوص، قال السفير السوفيتي لدى إسرائيل «أبراموف» في محادثة له مع نائب الكنيست الإسرائيلي ريفتن «أن إسرائيل لن تحقق تسوية للصراع عن طريق القوة العسكرية، ولكن قد

تفقد الكثير إذا مضت في هذا الطريق، وأن الطريق الوحيد هو الصداقة مع الدول العربية، وطريق التعايش السلمي. بالإضافة الى ذلك، فقد قلت إن تحقيق هذا الطريق يعتمد فقط، وبشكل حصري على إسرائيل نفسها، التي يجب أن تقلع عن سياسة حماية مصالح الاحتكارات النفطية، وتكون أول من يتخذ خطوات سلمية تجاه الدول العربية. هذه الخطوات قد تمهد الطريق لتسوية سلمية.¹¹⁵

ويمكن أن يرى بوضوح، أنه فيما يتعلق بقضايا السياسة الخارجية التي تمت مناقشتها خلال المحادثات، لم يكن ناصر يتصرف دائماً بناءً على توصيات من موسكو، ولكنه في بعض الأحيان كانت سياساته تسبب إزعاجاً للكركمليين. حتى أن السفير السوفيتي لدى سوريا « ناميتشينا » أعرب عن سخطه من سلوك الوفد المصري في الأمم المتحدة، الذي تقوقع على نفسه، ولم يتواصل مع الوفد السوفيتي. وقد أبلغ ناصر السفير السوفيتي أنه بعد عقد اتفاق حول تسليم الأسلحة السوفيتية إلى مصر، حاول المبعوث الأمريكي إغراءه بإمكانية الحصول على مساعدات مالية كبيرة من الولايات المتحدة، في مقابل « التعاون الكامل » معها، إلا أنه لم يوافق على ذلك. وقد أبلغ رئيس مصر موسكو، أن الملك سعود الذي « يقوم بلعبة مزدوجة، وسياسة مزدوجة » ربما يخضع لوعود الولايات المتحدة¹¹⁶. وقد أشار ناصر، على وجه الخصوص، أن جميع الإجراءات الأردنية ضد مصر، والقوى الوطنية الأردنية تعمل وفقاً لتحريض سعود. وقد صرح الرئيس المصري للسفير أنه في حين فضلت الحكومة المصرية في وقت سابق عدم انتقاد الملك حسين والملك سعود علناً، فالآن، ومنذ العشرين من إبريل « لا مناص من شن هجوم ضد محاولات حسين وسعود إخضاع العرب إلى مبدأ أيزنهاور¹¹⁷. وإذا تراجعت الأردن فستكون « شاهد قبر » مبدأ أيزنهاور.

115 - Record of conversation of 19 April 1957 // AVP RF. 0893/23/10/. Sheet 57.

116 - Cable of 25 April 1957 // AVP RF. 059166/48/38/. Sheet 151.

117 - Op.cit. Sheet 153.

كان ناصر يتوقع بوضوح أنه سيتودد إلى موسكو عن طريق توجيه النقد لمبدأ إيزنهاور. ومع ذلك، في الواقع، فقد أظهرت خطواته التالية، أنه اتخذ موقفاً أكثر حذراً.

أذاع ناصر، أنه يعتبر الخطر الرئيس له « احتمال العدوان الإسرائيلي ضد الأردن»، وفي هذه الحالة، فلن تقف مصر مكتوفة الأيدي بل ستستخدم كل ما لديها من سلاح ضد إسرائيل، وبكل الوسائل المتاحة لها من طيران وجيش^{١١٨}. لم يحدث هذا البيان أي حماسة لدى السفير السوفيتي الذي كان يحاول إقناع الرئيس بفعالية وسائل الضغط السياسي والدبلوماسي. وكذلك في الأحاديث السابقة، أبلغ ناصر السفير عن المحاولات الرامية لاغتياله، وهذه المرة من قبل « أجهزة الاستخبارات الأمريكية ». وقال: إن المخابرات المصرية قد اكتشفت بالفعل ثمانى محاولات .

وكان انتقاد الملك سعود من جانب ناصر في تلك المحادثة قاسياً نوعاً ما. وقد وعد ناصر السفير، بمنحه نسخة من نص المعاهدة عن عقد استئجار الولايات المتحدة قاعدة عسكرية في الظهران. رداً على برقية السفير، أرسل « أ. أ. جروميكو » وزير الخارجية السوفيتية برقية، بتعليماته إلى « كيسي ليوف » في التاسع والعشرين من أبريل عام ١٩٥٧. وطلب منه أن يبلغ ناصر أن موسكو نظرت بإيجابية إلى إعلان الحكومة المصرية بشأن قضية السويس، وأن الاتحاد السوفيتي سيدعم مصر في مجلس الأمن. وأراد جروميكو أن يستعلم عن رأي ناصر، عما إذا كان من الضروري أن يثير في مجلس الأمن قضية عدم جواز التدخل الأجنبي في الأردن، والتي - بالمناسبة -، ستصرف الانتباه عن مشكلة السويس، وهذا يتوافق مع مصالح مصر^{١١٩}.

118 - Op.cit. Sheet 154.

119 - Cable from Gromyko // AVP RF. 059173/41/38/. Sheet 49.

وقد تم توجيه اهتمام كبير في المراسلات إلى مشكلة المضيق. وقد أصدر جروميكو تعليمات للسفير السوفيتي : «حيث أن مسألة النظام القانوني لخليج العقبة هي المعنية، أبلغ ناصر أنه في رأي الخبراء السوفيت في القانون الدولي، أنه لا توجد معايير محددة لتنظيم نظام الملاحة في مثل هذه الخلجان. ويعتقد الخبراء المتميزون في القانون الدولي أن نظام الملاحة في مثل هذه الخلجان، يجب أن يؤسس عن طريق الاتفاق بين الدول المطلة على الخليج. ومن الواضح أنه بالنظر إلى العلاقات القائمة بين الدول المطلة العربية وإسرائيل، فإن هذا الاتفاق في الوقت الحاضر من الصعب تحقيقه. وفي الوقت نفسه يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أن سواحل مضيق تيران تخضع في الوقت الحاضر للمراقبة من قبل قوات الأمم المتحدة، وأن الوضع في الأردن لم يتضح تماماً بعد. وأنه من غير الواضح أيضاً الموقف الحقيقي للملك السعودي، الذي، حسب رأي الرئيس جمال عبد الناصر، يستخدم أسلوب الخداع، وربما كان متورطاً في مؤامرة معينة مع الأمريكان.

لذلك يبدو من المستحسن لأسباب تكتيكية في هذه اللحظة، عدم التركيز على مشكلة الملاحة في خليج العقبة، والتركيز على التسوية النهائية لقضية السويس. مثل تلك التسوية، ستقلل من أهمية مشاريع مد خط أنابيب النفط عبر أراضي إسرائيل، التي نشأت متزامنة مع أزمة السويس، والقناة الفرعية، وما إلى ذلك. وإن تسوية قضية السويس على أساس الاعتراف بالحقوق السيادية لمصر تعزز وضع مصر أكثر، ليس في البلدان العربية الأخرى فحسب، ولكن على الساحة الدولية ككل^{١٢٠}. وأوصى الوزير السوفيتي ناصر بضرورة تحديد موقف مصر بشأن مسألة العقبة «، عن طريق منع الحكومة المصرية نفسها من إصدار بيانات حول مضيق تيران الذي يقع في المياه الإقليمية المصرية، وأن مرور السفن الأجنبية من خلال هذا المضيق يخضع للوائح^{١٢١}.

120 - Cable from Gromyko // AVP RF. 059173/41/38/. Sheet 50-51.

121 - Op.cit. Sheet 51.

وفي الوقت نفسه، أوصى جروميكو بالامتناع عن اتخاذ تدابير عسكرية تهدف إلى منع السفن الأجنبية من المرور عبر هذا المضيق. في أبريل عام ١٩٥٧، تحول الانتباه الرئيس للحكومة السوفيتية وفقاً للتطورات الجديدة في الشرق الأوسط إلى الأردن. فهناك استقبلت حكومة النابلسي، وفرضت الأحكام العرفية، وتم حظر نشاط الأحزاب السياسية. وفي ١٩ أبريل قدمت الحكومة السوفيتية في مذكراتها إلى الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا اقتراحاً؛ لإصدار بيان مشترك يدين استخدام القوة كوسيلة لتسوية المشاكل غير المستقرة في منطقة الشرق الأدنى والشرق الأوسط.

جاء بيان الحكومة السوفيتية بشأن الأحداث في الأردن من ٣٠ أبريل كالتالي: «تدهور الوضع في الشرق الأدنى والشرق الأوسط في الوقت الحاضر مرة أخرى. وحدث هذه المرة في الأردن التي أصبحت هدفاً للمؤامرات الإمبريالية. فخلال الأسبوعين أو الثلاثة الأخيرة، تم ممارسة ضغط فح على الأردن والحكومة الأردنية من الخارج، مصحوباً - الآن - بتهديدات لتقطيع أوصال أراضيها، وحرمان الشعب الأردني من الاستقلال الوطني، والآن عن طريق وعود بتقديم المساعدات المالية ومساعدات أخرى في حالة إذا ما تم إجراء عمليات انتقامية ضد القوى الوطنية في الأردن التي تعارض خضوع الأردن لإملاءات خارجية. في هذه العملية، لا يخفون أن الأردن وسوريا وكذلك مصر، التي ترفض بحزم مبدأ «دالاس - أيزنهاور» سيء السمعة، وأية محاولات لجذبهم إلى تكتلات عدوانية، وتقويض استقلالهم الوطني وإخضاع سياستهم الخارجية لخطط الدوائر الاستعمارية، قد يصبحون أهدافاً لإجراءات استعمارية مماثلة»^{١٣٣}. وتوقعت موسكو أن مصر سوف تتخذ موقفاً حازماً فيما يتعلق بالأحداث في الأردن. لكن، وكما ورد في الخطاب السياسي للسفارة السوفيتية لدى مصر، «أن الحكومة المصرية امتنعت عن تقديم الدعم المفتوح للقوات الوطنية في الأردن والتي كانت، تتكفي في سياستها على مصر وسوريا.

ومع ذلك، فإنها - جنباً إلى جنب - مع الحكومة السورية، حاولت التأثير على مجرى الأحداث في الأردن من خلال الملك سعود. وكما ذكرنا صبري، لم تسفر المحاولات مع سعود عن أي نتائج مرغوب فيها، لأن الملك سعود أعلن أن الملك سوف يدافع عن مصالحه في الأردن بكل الوسائل المتاحة تحت تصرفه. وأوضح ناصر وصبري أن مصر لا يمكن أن تعتمد الآن على سعود، الذي تحول إلى شريك أميركي في الشرق الأوسط .

بعد أن امتنعت الحكومة المصرية عن اتخاذ موقف رسمي فيما يتعلق بأحداث الأردن، وسلوك سعود، أعطت تعليمات للصحافة بشأن حملة ضد القوى الرجعية في الأردن والولايات المتحدة، والتدخل العراقي في هذه الأحداث، دون المساس بالملكين: حسين وسعود¹²³. وانتقد ناصر الاتحاد السوفيتي؛ لرفعه قضية أحداث الأردن إلى مجلس الأمن، مبرراً ذلك بالقول: «أن القوى الرجعية ستحاول بعد ذلك أن تنوب عن العناصر الديمقراطية والوطنية في البلاد، كوكلاء شيوعيين، وبالتالي تعقيد نضالهم ضد قوى الرجعية، وتسهل للولايات المتحدة تنفيذ سياستها المتمثلة في عزل مصر¹²⁴ وهكذا كانت الأشهر الستة التي انقضت منذ انتهاء العمليات العسكرية من قبل بريطانيا وفرنسا وإسرائيل في مصر حتى الأزمة في الأردن، فترة التدخل الأكثر نشاطاً من منطقة الشرق الأوسط في الحرب الباردة. وسعى الاتحاد السوفيتي لكسب حلفاء في المنطقة من خلال توجيه الجزء الأكبر من جهوده الدبلوماسية في تشويه سمعة مبدأ ايزنهاور الذي - كما تعتقد موسكو - هدد بضم دول جديدة في المنطقة إلى كتلتات معادية له. وأيد الاتحاد السوفيتي على نحو متزايد العرب في صراعهم مع إسرائيل. لكن، وكما يمكننا أن نرى من المراسلات الدبلوماسية مارست القيادة السوفيتية الحد الأقصى من الحذر، حتى لا تسمح لنفسها بالانجرار إلى مواجهة مع الغرب في المنطقة، وحاولت ثني شركائها العرب عن اتخاذ إجراءات متعجلة. وفي علاقاتها مع موسكو، واصلت هذه الدول أهدافها الخاصة، وحاولت في كثير من الأحيان أن تلقي عليها عبء إحباط التهديدات الموجهة ضدهم .

123 - Political letter of the Soviet embassy to Egypt, 15 May 1957, in: AVP RF, 0873/40/20/, sheet 6-7.

124 - Op.cit. Sheet 7.

الدبلوماسية السوفيتية (*)

لقد كتب الكثير حول أحداث عام ١٩٥٦، عندما هاجمت إسرائيل، وبريطانيا، وفرنسا الأراضي المصرية. ولكن لم يتم الاستفادة بالقدر الكافي من القاعدة الوثائقية؛ نظراً، للطبيعة السرية للعديد من وثائق الأرشيف في الأعمال المكرسة لتلك الأزمة الخطيرة، التي دارت رحاها بين خصوم الحرب الباردة. وتهدف هذه المقالة إلى سد هذه الفجوة بمساعدة وثائق رفعت عنها السرية مؤخراً من سجلات السياسة الخارجية للاتحاد الروسي، لتسليط ضوء جديد على السياسة السوفيتية في الشرق الأوسط، بشأن أزمة السويس - قبل وأثناء - الأعمال العدائية.

لن أتطرق إلى الأسباب التي أدت إلى تدهور الوضع في المنطقة، والتي تم تحليلها بالتفصيل في أعمال المؤرخين، أو العواقب الوخيمة للهجوم المسلح على مصر ومستقبل الشرق الأوسط، والوضع الدولي على نطاق أوسع، ولكن سيتم التركيز على الجوانب العملية للسياسة السوفيتية.

من المعروف أنه، بحلول خريف عام ١٩٥٦، حدد الاتحاد السوفيتي - بوضوح أولويات سياسته في منطقة الشرق الأوسط، وتمثلت تلك الأولويات في دعم متزايد للدول العربية، ونقد متصاعد، أكثر من أي وقت مضى للسياسة الإسرائيلية. وقد لفت بيان الحكومة السوفيتية، الذي أبلغه نائب وزير الخارجية «فاليريان زورين» لممثل إسرائيل يوم ٢٤ سبتمبر - على وجه الخصوص - الانتباه إلى الأحداث التي وقعت بين إسرائيل من جهة، ومصر والأردن من جهة أخرى، مشيراً إلى أن «هذه الحوادث وقعت على مسافة بعيدة من خطوط التماس، في عمق أراضي مصر والأردن، والتي لا يمكن أن يحدث دون اختراق متعمد من الوحدات العسكرية الإسرائيلية إلى أراضي هذه الدول».

(*) في الشرق الأوسط أثناء أزمة ١٩٥٦ «تقرير عن المؤتمر العالمي الأول للدراسات الشرق

أوسطية» مدينة ماينز، من ٨ - ١٣ سبتمبر ٢٠٠٢

كما هو الحال دائماً، كان كسب القادة السياسيين من الدول العربية إلى جانبها، وتقديم القروض لأولئك الذين يفضلون الاتحاد السوفيتي، وسيلة مهمة لنشاط موسكو الدبلوماسي. وهنا تجدر الإشارة إلى التعليمات التي أعدتها وزارة الخارجية السوفيتية بخصوص، زيارة الرئيس السوري شكري القوتلي للاتحاد السوفيتي، والتي جرت في الفترة من ٣١ أكتوبر إلى ٣ نوفمبر عام ١٩٥٦. أشارت الوثيقة إلى أنه «ليس هناك توافق في الدوائر الحاكمة في سوريا بخصوص آلية التعاطي مع السياسة الخارجية للبلاد»، وأن «هناك تيار قوي ضد التقارب بين سوريا والاتحاد السوفيتي»^{١٢٥}. في هذه المرحلة، اعتبر القوتلي واحداً من قادة مجموعة تطالب بتوثيق العلاقات مع موسكو وحلفائها. وقد تم إبلاغ القوتلي أن «الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا قد غيروا تكتيكاتهم بشأن قضية السويس، ولكنهم لم يتخلوا عن نواياهم لوضع أيديهم على الوظائف الحيوية لإدارة القناة». وكانت النية تتجه نحو تحقيق هذا الهدف عن طريق إنشاء رابطة محدودة من مستخدمي قناة السويس، وعن طريق الوسائل التي كان من المتصور أن «تعزل مصر عن الدول التي تساندها». وفي الوقت نفسه، كان يتعين على المفاوضين الرسميين «التنبه إلى الدور الرئيس للولايات المتحدة في هذه المسألة، التي تسعى لوضع يدها على المواقع الرئيسية لقناة السويس، واجبار بريطانيا وفرنسا للخروج منها»^{١٢٦}.

من البديهي، أن وراء ذلك رغبة الدبلوماسية السوفيتية أن تكثف النيران على الخصم الاستراتيجي وهو الولايات المتحدة الأمريكية. اقترح واضعو الوثيقة كتابة إشارة خاصة لدور سوريا، والقوتلي - شخصياً - في مقاومة محاولات توسيع حلف بغداد على حساب الدول العربية. وقد رأى أن يقترح على الضيف السوري فكرة، وجود تهديد خاص لسوريا من قبل حلف بغداد، في ضوء حقيقة مفادها، أن سوريا يحدها مباشرة اثنان من المشاركين فيه

125 - AVP RF. 01287/24/19/. Sheet 37.

126 - Op.cit. Sheet 39.

وهما العراق وتركيا. وفي هذا الصدد، أفتتح خلال المحادثات أن نقول أن «قلق سورية بخصوص تعديتات تركيا في المنطقة الحدودية السورية مفهوم من قبل الاتحاد السوفيتي». ^{١٢٧} ولا ينبغي للمرء أن ينظر بشكل بسيط إلى هذه الحجج لمؤلفي التعليمات فقط من منظور الاستفادة من الدول العربية لمصلحة الاتحاد السوفيتي في معارضة الغرب، وأبرزها الولايات المتحدة الأمريكية. والصفة المميزة للدبلوماسية السوفيتية في تلك الأيام، بالإضافة إلى حسابات واضحة، وفعلية معقولة، وساخرة أحيانا، مرتبطة بمصالح ضمان أمن البلاد وتحييد التهديدات القائمة، كانت أيضا الرغبة في دعم الدول العربية المستقلة. واستندت الرؤية السوفيتية للمنطقة في ذلك الوقت على فكرة الدور البالغ الأهمية من الصراع بين القوى المؤيدة لتوطيد الاستقلال، والقوى الأخرى المؤيدة للسياسات الغربية «الاستعمارية الجديدة».

اعتبرت وزارة الخارجية أنه من الضروري للقيادة السوفيتية، أن تدلي بتعليق مناسب على قرار البرلمان السوري بإقامة الاتحاد المصري السوري. وفيما يتعلق بالقضية الفلسطينية تقرر أن يوصي القوتلي بإبداء أقصى درجات الحكمة في البحث عن حل لهذه القضية «حتى لا يعطي القوى الغربية ذريعة لتفاقم الصراع العربي الإسرائيلي، من أجل تنفيذ خططه الاستعمارية في الشرق الأوسط». ^{١٢٨} اقترح الدبلوماسيون السوفيت «مناقشة مسألة جدوى عقد معاهدة للصدقة، والوفاق بين سوريا والاتحاد السوفيتي، «والوعد بإعطاء رد إيجابي على أي رغبات من قبل سوريا في مجال التعاون الاقتصادي. وأيضا إذا طرح الجانب السوري مسألة تقديم المساعدة في التدريب على استخدام معدات خاصة واردة من الاتحاد السوفيتي»، فنقول: إن موسكو مستعدة لإرسال المدربين والمختصين إلى هناك. أبقى الدبلوماسيون السوفيتات الاتصالات مع القيادة الإسرائيلية أيضا، ناهيك عن القوى الغربية» ^{١٢٩}. وقبل فترة وجيزة من غزو مصر، من قبل القوات الأنجلو-فرنسية الإسرائيلية في ٢٦ سبتمبر، تم استدعاء

127 - Op.cit. Sheet 40.

128 - Op.cit. Sheets 40-41.

129 - This article deals exclusively with materials of diplomatic correspondence concerning Middle Eastern states.

السفير السوفيتي لدى إسرائيل «أ. أبراموف» لوزارة الخارجية الإسرائيلية، حيث أعربت وزيرة الخارجية جولدا مائير معارضة حكومتها «لاتهامات موسكو الخاطئة والمنحازة ضدها.» حاولت مائير إقناع أبراموف أن إسرائيل كانت تتعرض «لهجوم شبه يومي من قبل الدول العربية» (على وجه الخصوص من الأردن) وأن «العمليات الانتقامية العكسية هي التي كانت وحدها تحجم العدوان العربي» وأن «العرب كانوا يهددون بالقضاء على إسرائيل يوماً بعد يوم» وقد ذكر ناصر مراراً أن «إسرائيل يجب أن تلتقى في البحر»^{١٣}.

احتج أبراموف بشكل قاطع لدى الوزيرة، مدافعاً عن البيان التقييمي الذي أعلنته الحكومة السوفيتية في الرابع والعشرين من سبتمبر. وقال إن الادعاء بأن إسرائيل كانت تنتقم - فقط - رداً على الهجوم العربي مخالف للحقيقة، وأشار إلى البيانات العدائية من الجانب الإسرائيلي الموجهة ضد العرب القائلة بصفة خاصة إن الشطر الأعظم من الصحافة الإسرائيلية، يطالب الآن «بمعاقبة» مصر والأردن. وقد ناشد السفير «الضمير الاشتراكي» لجولدا مائير قائلاً:

إن مصر الآن تخوض نضالاً صعباً، ولكنه عادل ضد القوى الإمبرالية من أجل استقلالها، ومن أجل حقها في أن تسترد أرضها. وإذا أصبحت - الآن - مكتوفة الأيدي، فإن الحيوانات المفترسة الإمبريالية ستلتهمها. وإنك اشتراكية، وإنني أدرك تمام الإدراك أن هذه الحيوانات المفترسة لا تعترف إلا بالقوة وحدها.^{١٤} عشية العدوان الثلاثي كثفت الدبلوماسية السوفيتية نشاطها في إدانة سياسات إسرائيل تجاه الدول العربية. وفي ٢٦ من أكتوبر عام ١٩٥٦ أوعز أندريه جروميكو النائب الأول لوزير الخارجية السوفيتي في برقية إلى البعثة السوفيتية في الأمم المتحدة تحمل ختم «سري للغاية» وغير مسموح بعمل نسخ منها «إلى الدبلوماسيين السوفيت أثناء مناقشة شكوى الأردن في مجلس الأمن، حول أعمال إسرائيل العدوانية ضدها،

الحصول على الدعم من قبل أعضاء مجلس الأمن الآخرين، وذلك باستخدام «المواد الفاضحة للمتطرفين الإسرائيليين في هذه العملية والتي توجد بحوزة همرشولد والممثلين العرب». وقد كتب جروميكو «من المستحسن التأثير على همرشولد وضرورة العمل على تهدئة التوترات في منطقة الأردن، وادانة الأعمال العدوانية الإسرائيلية»^{١٢٢}. في هذه الحالة، اقترح عليهم استخدام بيان الحكومة السوفيتية في الرابع والعشرين من سبتمبر.

صدرت تعليمات لمندوبي الاتحاد السوفيتي، تقضي بأنه «بالتزامن مع إدانة الأعمال العدوانية التي ترتكبها إسرائيل ضد الدول العربية تحت ذريعة «ضربات انتقامية» و «أعمال عقابية» يجب أن يوضحوا أن هذه الأعمال تتعارض مع مبادئ الأمم المتحدة، وتتعارض مع قرارات الأمم المتحدة الخاصة بالقضية الفلسطينية.

كانت التعبئة في إسرائيل، تسبب قلقاً متزايداً في موسكو، وفيضاً من النشاط الدبلوماسي في منطقة الشرق الأوسط. ونوقشت مسألة الوضع في الشرق الأوسط على أعلى مستويات الحزب وقيادة الدولة. ووفقاً لذكريات قدامى رجال السلك الدبلوماسي، هذه الحالة تطلبت من جميع الإدارات أن ترصد تطور الوضع بدقة. وفي التاسع والعشرين من أكتوبر قدم السفير السوفيتي لدى مصر «كيسليوف» تقريراً عن لقائه مع علي صبري مدير مكتب الرئيس المصري فيما بعد. وشرح صبري لكيسليوف عملية التعبئة في إسرائيل بسبب النقاط التالية:

١. فشل الخطة البريطانية لجلب القوات العراقية إلى الأردن.
٢. إبرام تحالف عسكري بين الأردن وسوريا ومصر (يوم ٢٥ أكتوبر وقعوا اتفاقاً بشأن إنشاء قيادة موحدة).
٣. بيانات معينة «ذات لهجة متشددة متضاربة» في الأردن، فيما يتعلق بإسرائيل.
٤. موالة الحكومة الأردنية الجديدة لمصر.

كما أبلغ صبري محاوره، رأي القيادة المصرية، أن التعبئة في إسرائيل كانت أيضا لأسباب داخلية، تمثلت في هيبة بن جوريون المهتزة داخل البلاد، والتي بسببها كان رئيس الوزراء يحاول «صرف انتباه شعبه عن الأخطاء السابقة بإعلان حالة الطوارئ والتعبئة»^{١٣٣}. وذكر صبري، رأياً استرعى اهتمام الجانب السوفيتي مفادة، أنه عشية الانتخابات كانت الولايات المتحدة غير مستعدة لدعم إسرائيل في رغبتها «خلق صراع عسكري حقيقي» وفي الوقت نفسه كان المصريون على يقين من أن إسرائيل كانت غير مستعدة لحرب حقيقية، والتي كان لا يوجد سبب مباشر لها. وتم التوصل إلى استنتاج مفاده، أنه لا يوجد أي تهديد حقيقي لقيام الحرب.

ومع ذلك، في اليوم التالي تلقت القيادة السوفيتية نص تقرير «شتمينكو» رئيس الاستخبارات التابعة للأركان العامة، إلى وزير الدفاع «جورجي جوكوف» وقد تم توزيعه على جميع الأعضاء، وأعضاء مجلس الرئاسة، وسكرتيري اللجنة المركزية للحزب الشيوعي. وأفاد أنه، استناداً إلى بيانات تم اعتراضها من اللاسلكي، أنه في مساء يوم ٢٩ من أكتوبر عبرت القوات الإسرائيلية الحدود المصرية، وتوغلت لمسافة ٩٠ كيلومتراً داخل أراضيها. ووفقاً لتقرير من تل أبيب، أنه في صباح يوم ٣٠ من أكتوبر هاجمت القوات الإسرائيلية مستوطنة على مسافة ٣٠ كم شرق قناة السويس. وقد صيغت الرسالة التالية في لهجة غامضة: «ترغم بريطانيا أنها مستعدة لتقديم المساعدة لمصر في طرد القوات الإسرائيلية من مصر، وأنها مستعدة لتوجيه ضربة خلال ٢٤ ساعة ضد إسرائيل، أو أي معتد آخر في الشرق الأوسط»^{١٣٤}. وكانت هناك تقارير عن مؤتمرات عقدها أيزنهاور ودالاس.

يبدو أن القيادة السوفيتية العليا، كانت مستعدة لمثل هذا التحول في الأحداث. ففي اليوم نفسه، أوبرق وزير الخارجية السوفيتي «ديمترى شيبيلوف» إلى المندوب السوفيتي في الأمم المتحدة «أ. سوبوليف» أنه يجب عليه فوراً أن

133 - AVP RF. 059a/74/13/. Sheet 154.

134 - AVP RF. 059a/74/13/. Sheet 2.

يضع أمام مجلس الأمن قضية العدوان الإسرائيلي على مصر، ويسعى للحصول على إدانة إسرائيل، ووقف فوري لإطلاق النار، وانسحاب القوات الاسرائيلية. وفي الوقت نفسه، أبرق سفير الاتحاد السوفيتي لدى مصر « كيسليوف» إلى موسكو بخصوص «السلوك الاستفزازي للولايات المتحدة الأمريكية»، التي دعت مواطنيها لمغادرة مصر، حتى قبل بدء الأعمال العدائية. وأعتبر ذلك في برقية السفير إشارة إلى أن الولايات المتحدة كانت تعطي « الضوء الأخضر» لإسرائيل، على الرغم، مما نعرفه اليوم، لم تكن القضية كذلك. كان من الواضح أن كيسليوف قد تأثر بالبيانات المصرية. وكتب ذلك وفقاً لبيانات جهاز المخابرات المصرية «يعتقد الأمريكيون والبريطانيون أنه، بعد أحداث المجر قد حانت اللحظة المواتية لتدخل القوى الغربية في الشرق الأوسط بما في ذلك التدخل العسكري». وفي هذا الصدد، أفاد السفير أن « الولايات المتحدة وبريطانيا تؤكدان، أنه في ظل هذه الظروف لا يجرؤ الاتحاد السوفيتي على الخروج بقوة لدعم العرب، لأن الحكومة السوفيتية مشغولة بالكلية. الآن في أوروبا الشرقية». وكان الانطباع أن موسكو ليس لديها حتى الآن فكرة واضحة عن الخلافات السياسية، بشأن هذه المسألة بين الولايات المتحدة من جهة، وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى. ومع ذلك، فقد كان من مصلحة موسكو عدم فصل الولايات المتحدة عن بريطانيا وفرنسا، وذلك لتعبئة الرأي العام ضد جميع القوى الغربية الكبرى، الشركاء في العدوان .

في الحادي والثلاثين من أكتوبر نشر بيان شديد اللهجة من قبل الحكومة السوفيتية، يستنكر الهجوم المسلح على مصر. وبالفعل في نوفمبر أعطى جروميكو تعليمات لسوبوليف في الدورة الطارئة للجمعية العامة للأمم المتحدة أن يبدأ من الطابع الثلاثي للعدوان، مع الأخذ في الاعتبار أن بريطانيا وفرنسا « تقومان بالفعل بعمليات عسكرية ضد مصر». على ما يبدو، كان هذا التحول في الأحداث غير متوقع بالنسبة لموسكو. أصدر جروميكو تعليمات إلى سوبوليف بضرورة أن يقترح تبني قرار يدين تصرفات الدول الثلاث، ويطالب بالوقف الفوري للأعمال العدائية، وسحب القوات المسلحة

للدول الثلاث. طالب جروميكو أيضا بإدراج بند في القرار بتعيين لجنة خاصة للأمم المتحدة لتنفيذ هذه التوصيات، ومن المستحسن أن تضم ممثلين من الدول العربية، وكذلك الاتحاد السوفيتي، ويوغوسلافيا ، و «الديمقراطيات الشعبية» على سبيل المثال، تشيكوسلوفاكيا والولايات المتحدة الأمريكية. الآن، اتضح لموسكو بالفعل، أن الولايات المتحدة ليست في طريقها للمشاركة في عمل عسكري ضد مصر، ولا حتى الموافقة عليه .

وفقاً لقدامى ممثلى الدبلوماسية السوفيتية في تلك الأوقات، فإنهم قد فهموا أنه بالرغم من أن القيادة السوفيتية كانت تدعم مصر، إلا أنها لم ترغب في الانجرار إلى المواجهة المسلحة، وسعت لمنع القاهرة من اتخاذ خطوات محفوفة بالمخاطر. في ١ نوفمبر دق « كيسيوف » ناقوس الخطر بسبب بيان صادر عن الحكومة المصرية مفاده ، أن مصر لن تقطع علاقاتها مع بريطانيا وفرنسا فقط ، ولكن أيضاً « تدرس مسألة الانسحاب من الأمم المتحدة. »^{١٢٥} كتب كيسيوف أن مثل هذا القرار خاطيء تماماً ، وطلب الحصول على إذن لمقابلة ناصر على وجه السرعة، وتوجيه النصح له بعدم اتخاذ هذه الخطوة. على أية حال، كان ناصر حصيماً جداً في تصرفاته. وأشار كيسيوف أيضاً أن الصحف المصرية لم تنشر البيان الصادر عن الحكومة السوفيتية، لأنه على حد تعبير أحد الصحفيين، لم يتضمن أى شيء عن المساعدات لمصر، وعلى ما يبدو على أمل التدخل السوفيتي .

قبل انعقاد دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة ، اتصلت القيادة السوفيتية عن طريق الممثلين الدبلوماسيين بمندوبى الهند؛ بهدف اتخاذ موقف مماثل. جاء ذلك خلال الزيارة التي قام بها شكري القوتلي إلى موسكو، وخلال اجتماع مع وزير الخارجية السوفيتي « شيبيلوف » ، تحدث وزير الخارجية السوري صلاح البيطار في شكل حذر، عن تدخل عسكري من قبل الاتحاد السوفيتي. وقال إن الطائرات البريطانية والفرنسية تقصف مصر تحت راية إسرائيل، مع القوات المسلحة الإسرائيلية باستخدام الطيارين البريطانيين والفرنسيين، لذلك « نحن بحاجة إلى مساعدة مماثلة من جانب

الاتحاد السوفيتي^{١٣٦}. تظاهر شيبيلوف أنه لم يفهم -تماماً- كلمات البيطار واقترح أنه يجب على السوريين التفكير في أشكال ملموسة من المساعدة مثل : شحنات الأسلحة، ووسائل إيصالها، وهلم جرا. وتحدث شيبيلوف عن القرار المحتمل من جانب مصر بشأن الانسحاب من الأمم المتحدة، ووصفه بأنه خطأ. ومن الواضح أن موسكو تتوقع أيضاً من السوريين محاولة إقناع عبد الناصر بعدم القيام بذلك. وبعد أن سمع التصريحات السورية التي تشكك في دور الأمم المتحدة، أشار شيبيلوف : «أنا شخصياً لأعلق أما لا خاصة على الأمم المتحدة. ويجب على المرء أن يفكر في أشياء أكثر واقعية، لكن لا ينبغي للمرء أن يتبرأ من الأمم المتحدة ، بل يتعين عليه أن يستخدمها». وأضاف بأنه أعطى السفير المصري نصيحة بعدم مغادرة الأمم المتحدة.

كذلك نوقش دور الولايات المتحدة ، وتساءل البيطار عما إذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية، قد عرفت عن الإبرار على الأرض المصرية. أشار شيبيلوف إلى أنه على يقين أن البريطانيين والفرنسيين لم يقوموا بمثل هذه الخطوة بدون موافقة أميركا، بطريقة أو بأخرى^{١٣٧}. إن منطق الحرب الباردة يقضي أن الخصم الاستراتيجي دائماً ما يوجد على الجانب الآخر من المتاريس، حتى لو كان، كما في هذه الحالة، لم يشارك في غزو مصر. ، وعلاوة على ذلك، في ظل حكم أيزنهاور، كانت أجواء العلاقات الأمريكية- الإسرائيلية غير صافية. بالنسبة لموسكو، رغم ذلك، كان من المهم أن يرى الشركاء العرب دوماً أن الولايات المتحدة وراء جميع الإجراءات المعادية للعرب. كانت موسكو كما يتضح من المحادثات مع أولئك الذين شاركوا في الأحداث تعتقد بإخلاق أن دور بريطانيا وفرنسا في هذا العمل العسكري يقوض مصالح هذه الدول في الشرق الأوسط إلى درجة أنه، ربما قد تم تحريضهم فقط من قبل واشنطن، من أجل أشياء كثيرة كان من ضمنها أن تحل محل هؤلاء الحلفاء الأوروبيين الذين كانوا منافسين لها. أبلغ شيبيلوف البيطار أنه «بعد الانتخابات سوف تكون الولايات المتحدة أكثر حزماً. وسوف تطالب بحصتها من الكعكة، ومطالبة بريطانيا وفرنسا

136 - AVP RF. 0536/1a/2080/. Sheet 3.

137 - Op.cit. Sheet 6.

بإفساح المجال، وإعطاء مكان إلى الولايات المتحدة الأمريكية وقال: «إن الدروس المستفادة من الهند الصينية وإيران تشير إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية تعمل على إزاحة الآخرين، من أجل أن تأخذ مكانهم»¹³⁸. وأكد أن المصالح الاستراتيجية والاقتصادية تلعب دوراً هناك، وفي المقام الأول، احتكارات النفط والبواخر. وقال الوزير إنه مع استبعاد إمكانية مشاركة الولايات المتحدة في الحرب ضد مصر، فإنها بالمقابل ستطالب حتماً «بامتيازات بترولية، ومواقع استراتيجية». وزعم شيبيلوف أن الولايات المتحدة الأمريكية هي العقل المدبر للصراع¹³⁹. كانت موسكو تنشط دبلوماسيتها بالتدريج للعمل في منطقة الشرق الأوسط، وتحشد الدعم السياسي لمبادراتها. وقد تم إجراء اتصالات مكثفة مع قادة جميع البلدان العربية والآسيوية التي تربطها علاقات صداقة مع موسكو. وقد أبلغ السفير السوفيتي لدى لبنان «سيرجي كيكيتيف»، الذي التقى الرئيس شمعون، نص حديث شمعون معه للقيادة السوفيتية «إن لبنان غير قادر على تقديم المساعدات المادية لمصر»، وأنه «ليس هناك أي نية للتدخل العسكري من قبل لبنان ضد إسرائيل»¹⁴⁰، ولكن سيتم تقديم الدعم السياسي لها. نقل كيكيتيف للرئيس شمعون رأي الحكومة السوفيتية، أنه يجب عقد اجتماع للمشاركين في مؤتمر باندونج والذي من شأنه أن يطالب بوقف العدوان ضد مصر وانسحاب القوات. وقد تم إرسال رسائل إلى الرئيس الإندونيسي سوكارنو، ورئيس الوزراء الهندي نهرو لهذا الغرض. كان شمعون، مثل العديد من القادة العرب الآخرين، الذين تم إجراء الاتصالات معهم، يدعم هذه الفكرة ولكنهم يعتقدون أن الأهم من ذلك هو عقد مؤتمر لرؤساء الدول العربية على الفور؛ لأنه لو تم الانتظار لحين عقد مؤتمر باندونج، ستكون مصر قد سحقت بالفعل. وكان بيان شمعون الذي مفاده أن العلاقات الوثيقة مع بريطانيا وفرنسا لن تمنع لبنان من قطع العلاقات الدبلوماسية غير متوقع للسفير. أكثر من ذلك، فقد أعرب عن ثقته بأنه إذا تم طرح مسألة قطع العلاقات في القمة العربية، فسوف يتم الموافقة

138 - AVP RF. 0536/1a/2080/. Sheet 6.

139 - Op.cit. Sheet 7.

140 - AVP RF. 01063/25/15/. Sheet 171.

عليها، حتى من قبل رئيس الوزراء العراقي نوري السعيد والعاقل الأردني الملك حسين^{١٤١}. وخلال الاجتماع نفسه، أبلغ السفير شمعون موافقة موسكو على الدخول في مفاوضات حول تسليم معدات عسكرية إلى لبنان.

تبنّت موسكو موقفاً متشدداً جداً في الأمم المتحدة، حيث أصدرت الجمعية العامة في الثاني من نوفمبر القرار رقم ٩٧٧ (ES) - يقضي بوقف فوري لإطلاق النار، وسحب جميع القوات خلف خط الهدنة، واتخاذ التدابير لاستئناف الملاحاة في قناة السويس. وفي الثالث من نوفمبر قدمت الولايات المتحدة للجمعية العامة للأمم المتحدة مشروعاً قرارين؛ لتسوية المشاكل العالقة بين الدول العربية وإسرائيل، وكذلك تسوية قضية قناة السويس. قررت موسكو التصويت ضد المسودتين، ودعم مشروع قرار قدمته ١٩ دولة من آسيا وإفريقيا.

طلبت مصر من موسكو مساعدتها في العديد من الجوانب، بما في ذلك إرسال المتطوعين السوفيت للمشاركة في الدفاع، وإرسال السفن الحربية السوفيتية إلى الشواطئ المصرية. غير أن موسكو لم ترد بشكل قاطع أن ترسل سفنها الحربية إلى الشواطئ المصرية، واعية لحقيقة أن هذا كان خليقاً بجرها إلى صراع خطير. تلقى السفير كيسيلوف بتاريخ ٣ نوفمبر برقية من وزير الخارجية شيبيلوف تتضمن تعليماته إليه بإبلاغ القيادة المصرية - كان الاتصال يتم عن طريق علي صبري - أن مثل هذه الخطوة من جانب الاتحاد السوفيتي «قد تعقد موقف مصر، لأنها يمكن أن تؤدي إلى أن تقوم بريطانيا وفرنسا بتعزيز أساطيلهما المتمركزة بالقرب من مصر، وإلى زيادة الهجمات ضد الأراضي المصرية^{١٤٢} وفي الوقت نفسه، أعربت موسكو عن استعدادها لإرسال شحنات إضافية من الأسلحة والذخائر إلى مصر، مؤكدة أن الخبراء العسكريين السوفيت سيواصلون العمل على تجميع المعدات وتدريب المتخصصين المصريين.

141 - Op.cit. Sheets 173 - 174.

142 - AVP RF. 059a/74/13/. Sheet 168.

لم ترفض موسكو، رفضاً قاطعاً النداء بإرسال «متطوعين»، وربما لم تستبعد مثل هذا الاحتمال من حيث المبدأ، عند مرحلة معينة. في نفس البرقية، فوض الوزير، السفير إبلاغ المصريين أن «هذا السؤال يجري - الآن - مناقشته مع حكومات جمهوريات آسيا الحليفة»، ولكن حتى الآن - ليس هناك شيء أكثر من ذلك يمكن قوله في هذا الخصوص.^{١٤٢}

كانت موسكو تهدف إلى إحباط المشروع الكندي، الذي ينص على إرسال قوات دولية تابعة للأمم المتحدة لمصر؛ لفرض وقف العمليات العسكرية. وعلى الرغم من أن المندوبين السوفيت أصروا على أن مثل هذا القرار لا يمكن أن يصدر إلا عن مجلس الأمن الدولي وحده، فقد أصدرت الجمعية العامة في ٤ من نوفمبر القرار رقم ٩٩٨. وقد صدرت تعليمات للمندوب السوفيتي بأن يسعى لبحث هذه المسألة في مجلس الأمن؛ لأن هذه المسألة قد تم تغطيتها من خلال اختصاصاته، وإذا تم تحقيق هذا، فيتم عرقلة التصويت، في إشارة إلى الإستجابة إلى طلب مصر.

في نفس الوقت، أصدر الوزير تعليماته إلى «سوبوليف» حين أدرك أن القوات الدولية، على الرغم من معارضة موسكو الفاترة، - سيتم تأسيسها - أن يأخذ في الاعتبار أنه «من غير المقبول على وجه الخصوص إدراج قوات من القوى العظمى، كعناصر في هذه القوات المسلحة».^{١٤٣} ومن الغريب أن التوجيهات الصادرة إلى الوزير، كان يجب إرسالها إلى «سوبوليف» على وجه السرعة، لدرجة أنه لم يكن لديه وقت للحصول على الموافقة عليها من قبل الجمعية العامة، فكان يكتب: «انتظر تصديقنا عليها». وكما هو معروف، فإن الجمعية العامة للأمم المتحدة أصدرت في الخامس من نوفمبر القرار رقم ١٠٠٠، بخصوص إنشاء قيادة القوات المسلحة للأمم المتحدة، شرط أنه، لن يتم فيها إدراج مواطني الدول غير الأعضاء في مجلس الأمن.

143 - Op.cit. Sheets 169.

144 - AVP RF. 059a/74/13/. Sheet 171.

ومع ذلك، بدأ في ذلك اليوم بالذات الهجوم الجوي الأنجلو-فرنسي على الأراضي المصرية في منطقة بورسعيد. وقد قام رئيس المخابرات «شتيمينكو» بإبلاغ جو كوف أنه من الصباح حتى الساعة ١٤,٣٠ تحت غطاء جوي، تم إبرار لواء محمول جواً. وجاء في الرسائل عن تحركات القوات الإسرائيلية، أن مفرزة إسرائيلية احتلت شرم الشيخ وتقدمت جنوباً، على طول الساحل الغربي لخليج العقبة، فضلاً عن إعادة نشر السفن الحربية البريطانية والفرنسية.

كان رد فعل موسكو حاداً، وصارماً. ففي الخامس من نوفمبر بعث رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفيتي «نيكولاي بولجانين» رسائل إلى رئيس الوزراء البريطاني أنطوني إيدن، ورئيس الوزراء الفرنسي جي مولييه، ورئيس الوزراء الإسرائيلي ديفيد بن جوريون، جاء فيها: «إن الحكومة السوفيتية عاقدة العزم على اللجوء إلى استخدام القوة من أجل سحق المعتدين واستعادة السلام^{١٤٥} وعند اتخاذ مثل هذا البيان الخطير، أخذت القيادة السوفيتية في الاعتبار المعلومات الواردة من الولايات المتحدة الأمريكية، عن طريق القنوات الدبلوماسية، أن الولايات المتحدة لا تدعم تصعيد الأعمال العدائية من القوى الثلاث ضد مصر. لذلك توقعت موسكو أنه لن يكون هناك أي اشتباك مع العدو الرئيس، الذي لم يرد أيضاً أن يتعرض للمخاطر. وفي نفس اليوم الخامس من نوفمبر أرسل «بولجانين» رسالة إلى الرئيس الأمريكي «دوايت أيزنهاور» يعرض عليه التعاون في كبح جماح العدوان على مصر، مقترحاً، استخدام قواتها البحرية والجوية، بالتعاون مع أعضاء الأمم المتحدة الآخرين^{١٤٦}

تلقى كيسليوف التعليمات بضرورة إخبار ناصر على الفور بنصوص تلك الرسائل. وطلب السفير من صبري ترتيب لقاء له مع ناصر، وقد أصابته الدهشة من أن صبري «لم يبدو مندهشاً، وقد كان ذلك أمر غير متوقع كنتيجة للخطوة التي قمنا بها^{١٤٧}.

145 - SSSR i arabskie strany. 1917-1960 (The USSR and Arab countries. 1917-1960). Moscow, 1961. - Doc. 81, 82, 83.

146 - Op.cit. doc. 80.

147 - AVP RF. 059a/74/13/. Sheet 172.

وكانت حالة الاكتئاب لدى صبري مفهومة، فالمعارك الدامية تدور رحاها في بورسعيد، ولا يثق المصريون في قوة قطع من الورق. وقد طلب من السفير الإسراع في إرسال المتطوعين، وسرعة إصلاح مدارج المطارات؛ لاستقبال الطائرات السوفيتية مع المتطوعين، وضرورة إرسال غواصات إلى شواطئ مصر، التي بمجرد أن يشاهدها البريطانيون والفرنسيون حتى يغادروا المياه المصرية على الفور. «على الرغم من تفهم صبري مخاوف موسكو، ظل يؤكد أن الوضع قد تغير نحو الأفضل، وأن الأمم المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية، غير مستعدة للعمل المشترك، وبشكل عام» فبيت القصيد هو كيف ستتصرف الولايات المتحدة، هل هي تستعد؟، أم أنها تريد أن تشن حرباً عالمية ثالثة ضد الاتحاد السوفيتي^{١٤٨} في ذلك المساء، التقى ناصر «كيسليوف» وأبلغه أنه في الثانية صباحاً، ستتوقف جميع العمليات العسكرية، حيث وافقت مصر، وإسرائيل، وبريطانيا، وفرنسا على ذلك، بعد أن أخطروا مجلس الأمن والأمن العام للأمم المتحدة بذلك. أعرب ناصر عن امتنانه للحكومة السوفيتية والشعب السوفيتي؛ لأنه كما أبلغ السفير «كان بيان موسكو ذا أهمية حاسمة».

وقال ناصر «يمكن التدليل على صدق هذا، إذا قارنا خطاب إيدين إلى الأمم المتحدة بالأمس في الخامس من نوفمبر، وحديثه اليوم في مجلس العموم. وقد شهد الشعب المصري مرارا وتكرارا من هو الصديق الحقيقي والأصيل. وقد خسرت بريطانيا وفرنسا الشرق الأوسط إلى الأبد. ولن ينس العرب أبداً هذه الأيام، وستوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل^{١٤٩}.

على الرغم من أن سفن الأسطول الأنجلو فرنسي استمرت في إنزال وحدات خدمة للقوات الموجودة على الأرض، وسط إطلاق نار متقطع، فإن العمليات العسكرية انتهت على نحو فعال. وقد بدأت مرحلة جديدة من

148 - Op.cit. Sheets 173.

149 - AVP RF. 059a/74/13/. Sheet 176.

النضال الدبلوماسي الحاد في الشرق الأوسط بين القوى العظمى، أطراف الحرب الباردة. وعلى الرغم من أن الأجيال الجديدة من المصريين لا تضر أي نوع من الاستياء ضد القوى الأوروبية الكبرى، واختفاء الاتحاد السوفيتي من الوجود منذ ما يقرب من اثنتي عشرة سنة ونصف السنة، يشهد التاريخ أن التدخل في شؤون الدول ذات السيادة بالقوة لا يكتب له الاستمرار.

obeikan.com

جزيرة العرب أواخر العشرينات (*)

نجاحات وإنجازات مهمة بن سعود التوحيدية (نقلاً عن السجلات الدبلوماسية الروسية)

حقق عبدالعزيز بن سعود مؤسس المملكة العربية السعودية في نهاية العشرينيات الانجازات الأساسية، لإنشاء الدولة المركزية في شبه الجزيرة العربية. ولم يكن ضم الحجاز إلى نجد الصحراوية- أي ضم المنطقة الساحلية التي تقع فيها المدينتان المقدستان الاسلاميتان: مكة والمدينة- يعني في حد ذاته اندماجاً ناجحاً في وحدة متكاملة، نظراً لكونها مناطق مختلفة من حيث العلاقات الاقتصادية والسياسية. وقد بذل الملك جهوداً جبارة من أجل تأمين الوحدة الاقتصادية، وإدخال العديد من القباطل في نظام الدولة، وإنشاء الجهاز الإداري، ودخول المملكة في نظام العلاقات الدولية، غير أنها اصطدمت بعقبات داخلية وخارجية خطيرة .

اعتمد هذا المقال على وثائق رفعت عنها السرية من أرشيف السياسة الخارجية الروسية في نهاية العشرينيات. في ذلك الوقت كان يترأس البعثة الروسية نذير «تورياكولوف»^{١٥} خلفاً لكريم حكيموف أول قنصل عام للاتحاد السوفيتي لدى المملكة العربية السعودية، والذي انتقل إلى مجال التجارة الخارجية. وكانت الوثائق المستخدمة هي خطابات «تورياكولوف» التي أرسلها للمركز الرئيس، وخطابات «تويموتوف» القائم بأعمال القنصل العام قبل ذلك بقليل، والخطابات الإرشادية الصادرة عن مفوضية الشعب للشؤون الخارجية التي كانت تسمى حينئذ إدارة السياسة الخارجية السوفيتية إلى البعثة السوفيتية .

(*) نشر هذا المقال في كتاب : المملكة العربية السعودية : الماضي والحاضر . موسكو عام

١٩٩٩ ص . ٢٩٠٣ .

١٥٠ - عين نظير تورياكولوف في هذا المنصب أواخر عام ١٩٢٧ الميلادي .

استطاعت الوكالة السوفيتية والقنصلية العامة (سميت فيما بعد البعثة الدائمة في عام ١٩٣٠ م) أن تقيم علاقات واسعة رسمية وغير رسمية في البلد المضيف. وكان رئيس البعثة يتقابل باستمرار مع قيادات إدارة العلاقات الخارجية فؤاد حمزة، ويوسف ياسين ووزير المالية عبد الله سليمان ورئيس البوليس السياسي للحجاز محسن الطيب، وموظفين بارزين آخرين ووفقاً لمذكرات ستيبان كوزمين سكرتير البعثة الدائمة في أعوام ١٩٣٠-١٩٣٢ «كان الزوار الدائمون هم الدكتور صالح (تركي الأصل) والحاج سيد الداغستاني، الذي أصبح من رعايا الحجاز. وكنا نعرف منهما كل شيء يحدث في المدينة. كما أن ممثلنا المفوض نذير بك كمسلم كان يزور مكة بصفة دورية، حيث كان يستقي لنا أيضاً المعلومات المهمة من هناك». بالإضافة إلى ذلك أقام الدبلوماسيون السوفييت صلات ممتازة مع موظفي البعثات الخارجية الأخرى. ويتذكر ستيبان كوزمين أن «النزهات إلى مكة أو إلى المدينة بمحاذاة شاطئ البحر بالسيارة» الفيات «ذات الستة سلندر كانت التسلية الوحيدة لنا. ونادراً ما كنا نذهب إلى الصيد، بل كنا نذهب للتنزه خارج المدينة مع ممثلي البعثات الأخرى الذين كان لنا معهم صلات طيبة»^{١٥١}.

وعلى الرغم من أن التقارير، وكتابة المحادثات، والوثائق المعلوماتية الأخرى، التي أرسلها الدبلوماسيون السوفييت لا تتضمن معرفة الكثير من التفاصيل عن المملكة، والتي يمكن أن نجدها في محفوظات إدارة السياسة الخارجية الانجليزية ذات الخبرة الكبيرة في العمل في شبه الجزيرة العربية، فإنهم كشفوا في نفس الوقت حقائق وظواهر كثيرة كانت خافية عن الدبلوماسيين الآخرين، وقدموا تحليلاً حقيقياً عن السياسة الخارجية والداخلية للمملكة. وقد قام الدبلوماسيون السوفييت بتحليل الصحافة المحلية، وتحديداً صحيفة «أم القرى» الصحيفة شبه الرسمية،

١٥١ - ورد هذا في مقابلة مع الكاتب.

وكذلك المقالات المنشورة عن المملكة والمنطقة في الصحف الأجنبية. ورصد الدبلوماسيون وفقاً لاعتراقاتهم جميع الشائعات التي ظهرت بكثرة في المملكة، وفحصوها فيما بينهم وبنوا فرضيات على أساسها .

الوضع الداخلي :

إن انضمام نجد والحجاز والإحساء وجبل شمر للمملكة، قد حدد سلفاً أعمال الملك المتعلقة بتنظيم إدارة هذه المناطق، وتكاملها الاقتصادي والسياسي. وانطلق الملك مظهراً الحزم المشوب بالحذر من حتمية الأسلوب المتنوع تجاه تلك المناطق ، مقدراً خصائص الوضع في كل واحدة منها .

قام الديوان الملكي في نجد بدور الحكومة، وكان حكومة الدولة كلها في نفس الوقت . وتولت الإدارات تصريف الأعمال في مجالات الإدارة المختلفة . وحكم المحافظون الأمراء في الأقاليم. وفي الحجاز كان يوجد نظام خاص للإدارة خاص بها . ونشرت في أغسطس عام ١٩٢٦ م « القوانين الأساسية للمملكة الحجازية»، والتي وفقاً لها أعلنت « دولة ملكية ذات مؤسسات استشارية». وحظيت منطقة الحجاز بحقوق استقلالية فريدة. وفيها أصبح الأمير فيصل نائباً للملك، وأصبحت المؤسسة الاستشارية الرئيسة هي مجلس الشورى . في عام ١٩٢٦ م بدأت عملية إعادة هيكلة النظام القضائي، وزاوت المحكمة التجارية عملها بصفة خاصة ، وفي وقت لاحق أحل الملك المحاكم الشرعية، التي كان يعين قضاتها بنفسه محل محاكم القبائل. وتم البدء في تشكيل جهاز إدارات الشؤون الخارجية والمالية .. الخ، وحصل الملك لنفسه على اعتراف العالم الاسلامي كحامي المقدسات الإسلامية . نظم الملك مؤتمرات إسلامية عالمية في صيف عام ١٩٢٦، وصيف عام ١٩٢٧ الميلاديين، لطمأنة الرأي العام للمسلمين في البلدان الأخرى والتي كانت تشعر بالقلق إزاء التزامت الوهابي العدوانى (خاصة الاستياء الشديد الذي عبر عنه المسلمون الهنود) .

لعب علماء الوهابية دوراً كبيراً في المملكة. وظهرت في نجد في العقد الثاني من القرن العشرين حركة الإخوان ، وهم بدو سابقون استقروا في الهجر (القرى - المترجم). تأسست الهجرة الأولى - الأوطاوية - في عام ١٩١٠م (هجر الإخوان هي هجر تأسست في شبه الجزيرة العربية؛ لتوطين البدو، وحثهم على التجارة والزراعة والجهاد في سبيل الله . المترجم)، وتأسست الهجرة الثانية - الغطف - في عام ١٩١٢م. وكان الإخوان هم الركيزة الهامة للملك لفترة طويلة، غير أنه في بداية الفترة التي يشملها البحث أصبحوا أكثر فأكثر، يهددون سلطات الملك، الذي اضطر إلى اتخاذ إجراءات لتهدئتهم. أصبح الأمير سعود نائباً للملك في نجد، في نفس وقت تعيين الأمير فيصل. وكان القصد من تعيين أبناء الملك نواباً في الأقاليم؛ المساعدة في توحيد البلاد تحت راية السلطة المركزية. وقد دخل الأمير محمد الذي أصبح محافظاً على المدينة المنورة الدائرة الضيقة للأمرء المشاركين في حكم البلاد، ثم لاحقاً الأمير خالد.

من خلال تطوير وتحسين نظام نقل السلطة والمشاركة فيها داخل العائلة الحاكمة ومشاركة الأسرة الحاكمة، واصل ابن سعود مهمة تدعيم الطابع المركزي للدولة، وتحقيق توازن القوى على جميع المستويات، مما يسمح بابعاد وإخماد التنافس والقضاء على الأسباب التي يمكن أن تؤدي إلى الصراع. ولعب التوازن المبني على نظام الضوابط والتوازنات دوراً هاماً في استقرار الحياة السياسية الداخلية للمملكة.

وقد أولت البعثة الدبلوماسية السوفيتية إزاء تحليلها الوضع في أقاليم لمملكة المختلفة، التطورات الاقتصادية والاجتماعية في كل منها اهتماماً خاصاً، مؤكدة على أهمية التغييرات الجارية لمستقبل المملكة. وقد تم اعتبار تطور الزراعة أحد التطورات المهمة في نجد.

تناول المبعوث المفوض نذير توريكولوف في الرسالة السياسية عن عام ١٩٢٨ م، الموقف في نجد بالتفصيل، وأشار إلى أن التغييرات كانت «نتيجة تحول غالبية السكان من الرعي إلى الزراعة»^{١٥٢}.

152 - Тюякулов – в НКВД, Февраль 1929 г. Архив внешней политики Российской Федерации (АВП РФ). – Ф. 0127. Оп. 1 П. 2. Д. 18. Л. 6.

ويعتقد الدبلوماسي الروسي، أن نجد منذ القدم، كانت «بلدا يسعى أن يعيش من كسب يده غير عابيء بدخول أخرى أكثر سهولة». قام «تورياكولوف» بتقييم التحول إلى الزراعة، وأشار إلى أنه قد تم في ذلك الوقت إحصاء ٢٠٠ هاجرة في نجد يعيش فيها ٣٠ ألف شخص. غير أن هذا الرقم مبالغ فيه. انطلق رئيس البعثة السوفيتية من مبدأ الحتمية الاقتصادية: التحول إلى أشكال أكثر رقياً من النشاط الانتاجي، يحدد سلفاً أشكالاً أكثر كمالاً لتنظيم المجتمع. فالبدو الذين استقروا في الأراضي ظهروا له تحديداً، ذلك الوكيل الاجتماعي الذي ساند نشاط بن سعود في إنشاء الدولة العربية المركزية .

أشار المبعوث المفوض أن الملك قد «ربط هذه التغيرات الحادثة في نجد بخططه الحربية والسياسية، بنجاح منقطع النظير». وحسب رأي «تورياكولوف» كانت تجربة صغار المحاربين المحليين التي أجراها في نجد قبل أن تنطلق خارج حدودها قد أفنعت أن القبائل الرحل التي تقع تحت التأثير غير المشروط لشيوخها تمثل «كعب أخيل جيشه» (كعب أخيل هو مصطلح يشير إلى نقطة ضعف مميتة على الرغم من كل القوة التي يمتلكها الشخص، والتي إن أصيبت تؤدي إلى سقوطه بالكامل - المترجم) .

حاول الدبلوماسيون أن يتفهموا خصائص المجتمع النجدي، على الرغم من أنه في المجمل كان ينقصهم معرفة الموقف؛ لكنهم أشاروا إلى الثقل النوعي العالي للقبائل في الحياة الاجتماعية والسياسية لنجد. أشار «تورياكولوف» إلى أن نظام الدولة النجدي لم يرق بعد إلى ذلك المستوى، بحيث يستطيع أن يفرض إرادته على القبائل»^{١٥٢}. لقد أبلغ موسكو مايلي : حقيقة الأمر أن جيش ابن سعود في غالبيته من البدو، ويدعم البدو أيضاً على وجه الخصوص «القتال على الحدود العراقية وشرق الأردن، وهو الشيء الذي يوضح بما فيه الكفاية، صعوبة وضع ابن سعود . والدليل على هذا الوضع الصعب وفقاً

١٥٢ - قواعد الإملاء والكتابة للأسماء الجغرافية في نصوص الوثائق هنا وفي كل مكان تغيرت إلى التسمية التقليدية .

للمبعوث المفوض أنه في مؤتمر الرياض الأخير لم يحضر شيوخ بارزين مثل فيصل الدويش وسلطان بن بجاد . خلصت البعثة إلى أن الدولة النجدية هي عبارة عن « الحلف السياسي للقبائل مع النواة الوهابية المستقرة التي كانت تعد الركيزة الأساسية لابن سعود»¹⁵⁴ .

ويمكن الافتراض أن تعاطف السياسيين السوفييت تجاه الوهابية، تولد بدرجة ما نتيجة التصور القائم بعد الحرب العالمية الثانية في الغرب (إذا افترضنا أنهم في موسكو كانوا على علم بها) عن هذه الحركة، أنها حركة اجتماعية تطالب كما قال الضابط السياسي البريطاني في بغداد «بأن يقتسم الأغنياء أملاكهم مع الفقراء. وهناك العديد من الحالات، حينما كان ينبغي على أحد الشيوخ أن يعطي الجمال التي يملكها لاتباعه»¹⁵⁵ . وكان ممثلو القوى المعارضة لابن سعود في الجزيرة العربية، قد أقنعوا الموظفين العسكريين والاستعماريين أن الوهابيين، في أصلهم «مسلمين بلا شفة». وقد ربط فيصل بن الشريف حسين الحجازي بطريقة مباشرة حركة الإخوان بالثورة البلشفية في روسيا . وأكد في خطابه إلى الجنرال اللنبي أن «الحركات المتمردة في أفغانستان ومصر والدولة الهندية المضطربة على الدوام. والجزء الصاخب في البلاد الآسيوية الأخرى تبين أنه هناك خطة منظمة يتم تنفيذها»¹⁵⁶ . ووفقاً لتقرير ضابط الاستخبارات العسكرية البريطانية، أكد «سيد» مصدره في مكة أن «أفضل وسيلة للدعاية البلشفية في البلاد الإسلامية، هي الدعاية الوهابية التي تعد شكلاً محسناً للبلشفية الإسلامية...»¹⁵⁷ .

154 - Обзор по арабским странам. 1927 г. АВПФ. – Ф. 0127. Оп. 1. П. 4, п. 47. Л. 9.

155 - Letter from the Political Officer, Muntafik Division, Nasiriyah, to the Civil Commissioner, Bagdad, 12 May 1919 // British Public Record Office, MSS, Foreign Office. – Vol. 4147. – Document № 118698.

156 - Letter from prince Faysal to Sir General Allenby, Cairo, 1919 // British Public Record Office, MSS, Foreign Office.- Vol. 4146.- Document № 108194, John Habib Ibn Saud. Warriors of Islam / John Habib Ibn Saud. – Riyadh: Mars Publishing House, 1997. P-47.

157 - Op. cit. p. 148.

اليوم، هذا التشبيه غير قابل للتصديق، ولكن حينئذ صدق كثير من الموظفين الانجليز الاستعماريين، مقارنة الوهابية مع البلشفية غير القائمة على أساس، وقام على أثرهم أعداء بن سعود من العرب بإجراء مقارنات مشابهة. اعتقد المندوب السامي الإنجليزي في مصر «ريجنالد وينجيت» أنه: «من المحتمل أن الملك حسين ... يمتلك أساساً لكي يعتبر نجد كعامل «بلشفي» في السياسة العربية، ويؤمن بوجود دعاية سرية، تعمل ضده وضدنا»^{١٥٨}. وكان السبب لمقارنة الإخوان مع البلاشفة، قيامهم بهدم مقابر الأولياء، على الرغم من أن هذه الأعمال كما هو معروف، كانت بسبب كره الوهابيين لتقديس الأولياء الذي لا يتوافق مع «الاسلام الصحيح». وإذا كان الموظفون الإنجليز أنفسهم في تلك السنوات حتى غزو ابن سعود للحجاز، يرون في الحركة الوهابية قوة معادية لانجلترا، فلا يجب أن ننكر أن السياسة السوفيتية، كان لديهم أساساً كافياً لكي يحاولوا أن يستخدموا هذه القوة المعادية لانجلترا، والحقيقة أن الإنجليز أعادوا النظر في سياستهم السابقة في الدعم غير المشروط للشريف حسين في منتصف عام ١٩٢٠ م، واقتنعوا بقوة موقف ابن سعود، وقرروا التعاون معه.

كانت نهاية عام ١٩٢٠ م فترة المعارضة النشطة ضد الملك من جانب حركة الإخوان الذين كانوا منذ فترة قريبة الركيزة الأساسية له. وكان على رأس حركة الإخوان^{١٥٩} شيخ قبيلة مطير فيصل الدويش من هجر الأرواوية، وشيخ قبيلة عتيبة بن بجاد (من هجر الغطط)، وشيخ قبيلة الدجمان زيدان بن خصيلان الذين قدموا للملك في عام ١٩٢٦ الميلادي مطالب إنذارية. وفي عام ١٩٢٧ م عقد الملك الكثير من اللقاءات مع شيوخ الإخوان جرت خلالها محاولات إعادة التفاهم المتبادل. وتعد «اتفاقية الصداقة والنوايا الطيبة» التي عقدها

158 - Letter to the Rt. Honourable Arthur James Balfour from Reginald Wingate, British High Commissioner, 3 October 1918. // British Public Record Office. MSS- Vol. 3390. – Document № 177596.

١٥٩ - إقرأ عنه بالتفصيل في كتاب فاسيليف: أ. م. فاسيليف. تاريخ السعودية العربية (١٧٤٥-١٩٢٧) / أ. م. فاسيليف - موسكو: ١٩٨٢. ص. ٢٩٨-٢٩٩.

الملك مع الإنجليز في عام ١٩٢٧م نصراً دبلوماسياً للملك، حيث اعترفت إنجلترا اعترافاً كاملاً باستقلال دولة ابن سعود، بيد أن ذلك جلب كراهية شديدة للملك من جانب قادة الإخوان، متهمين إياه بالتعاون مع الكفار. وقد انتهت الحرب التي شنها الملك ضد المتمردين بالانتصار مع حلول عام ١٩٣٠ م.

في خطاب «تورياكولوف» ذكرت محاولة تسوية علاقات الملك مع الإخوان خلال مؤتمر «الجمعية العمومية»^{١٦٠} في الرياض المنعقد بتاريخ ٥ نوفمبر عام ١٩٢٨ م، والذي شارك فيه زعماء القبائل، وشيوخ القرى، والعلماء، وممثلو سكان المدن والإخوان من الهواجر. وبالطبع جذب هذا المؤتمر (شارك فيه وفقاً لغلاب باشا من ١٢ ألف إلى ١٦ ألف شخص) انتباه الدبلوماسيين السوفييت، غير أنهم لم يفلحوا في حينه الإمام بجميع تفاصيل الخلاف بين الملك و الإخوان.

أشار المبعوث المفوض الروسي لدى تحليله علاقات البدو تجاه السلطة الجديدة إلى أن «شيوخ القبائل الحجازية في الوقت الراهن، لم يحصلوا على تلك المساعدات الوفيرة التي كان يهدىها إياهم السلاطين الأتراك كل عام»^{١٦١}، وأن الحياة أصبحت باهظة التكاليف، بالمقارنة بالأزمات الماضية، ومن غير الممكن أيضاً أن تعيش معتمداً على الحجاج. وأصبحت السلع المستوردة، ذات الاستهلاك الواسع تخضع للجمارك، علاوة على ذلك تم إرسال مفوضي الحكومة إلى القبائل؛ طالبين منهم السيطرة على الوضع^{١٦٢}. وقد تم القبض على بعض الشخصيات المؤيدة للهاشميين من بين القبائل وتحفظ عليهم الرياض.

يصف تورياكولوف قضية المركزية الحادثة في شبه الجزيرة العربية، كقضية متوافقة مع متطلبات التطور والطريق الحتمي للتحديث، مع الارتكاز في نفس الوقت على القيم الروحية الأصيلة الممتدة لقرون. وكان

160 - См. John Habib, Op. cit., C. 157.

161 - Тюрякулов. Цит. док. Л. 2.

١٦٢ - الاستشهاد من الوثيقة ل. ٢.

يتعامل علانية بلا ود تجاه محاولات عرقلة التطو المتزايد للجزيرة العربية، ذلك أن البدو الذين كانوا يتمتعون بوضعية الموردين المحتكرين لوسائل النقل قد فقدوا كل مزايا هذه الوضعية، إذ بلغ الآن عدد السيارات المخصصة لنقل الحجاج من ٩٠٠ سيارة الى ١٠٠٠ سيارة في بدايات الميكنة (بالطبع الهدف وقبل كل شيء هو مضاعفة عدد الحجاج الذين يدخلون للخزينة دخلاً كبيراً). وقد عبروا عن استيائهم وفقاً لقول المبعوث المفوض «بإلقاء الألواح الخشبية ذات المسامير على الطرق» (نفس المصدر)، بيد أن الحكومة لم ترغب في العبث بمصالح البدو والناقلين «فأقرت معدل لجمعيات السيارات، لا يحق لها أن تحدد سعراً أقل منه لنقل الركاب». علاوة على ذلك، كما رجح الدبلوماسي الروسي، فإن جماهير البدو الحجازية التي اعتادت الانصياع لشيوخها لم تفلح في ذلك الوقت أن تكون ركيذة يعول عليها في إجراءات ابن سعود الداخلية والخارجية. أشار توريانكولوف إلى أن قبيلة بني مالك رفعت في أغسطس عام ١٩٢٨ م راية العصيان خاصة، لمساندة القبائل المجاورة ذات القرابة. ولكن الملك أزال - فوراً - كما أبلغ السفير كل التكتلات القبلية ضد الحكومة، وعاقب فقط ممثلي القبائل المستقلين الذين ثاروا ضده، مستغلاً بنجاح «الخصومة المعتادة بين القبائل»^{١٦٢}.

حلل المبعوث المفوض الحياة الاقتصادية لدولة بن سعود، وخلص إلى أن العلاقات بين الحجاز ونجد كانت حينئذ ضعيفة للغاية. فقد كانت ترد إلى الحجاز من الأقاليم النجدية المجاورة - فقط - كمية غير كبيرة من السلع مثل الأغنام والصوف والزيت، .. إلخ. في نفس الوقت كانت «نجد» تحصل على جميع السلع الضرورية لها عبر الكويت وميناء الاحساء، الأمر الذي لم يكن له أي علاقة بالاستيراد عن طريق موانئ البحر الأحمر. وساعد على انفصال تلك المنطقتين قبل «عصر النفط» عدم وجود وسائل مواصلات حديدية بينهما، وكانت قوافل الجمال حسب قول السفير المفوض تقطع

١٦٢ - الاستشهاد من الوثيقة ل - ٤.

المسافة من مكة الى الرياض من ١٠ إلى ١٢ يوماً. وكان توحيد تلك المنطقتين مهمة صعبة جداً للملك .

يذكر «تورياكولوف» بطريقة عابرة العوامل التي ساعدت على إقرار السيطرة على الحجاز . تمثلت هذه العوامل تحديداً في «مصالح القبائل النجدية التي أضيرت من قبل الشريف حسين، الذي لم يكن يسمح للنجديين بالدخول إلى الحجاز» (كان الشريف حسين الحاكم الهاشمي السابق للمنطقة) . وقدم تورياكولوف عدة استنتاجات ، تفسر من وجهة نظره المواقف المتناقضة في العلاقات الداخلية في دولة بن سعود :

أولاً: لم تعد نجد قادرة في ضوء التطورات الحادثة داخلها أن تبقى أكثر من ذلك داخل حدودها الجغرافية والإدارية .

ثانياً: لم تستطع نجد بعد أن قامت بإعادة ترتيب أوضاعها «واشتبكت في صراع غير متكافئ مع الإمبريالية الانجليزية من أجل مصالحها» أن تصبر على دولة الشريف حسين المجاورة. فقد كان يجب عليها أن تؤمن ظهرها .

ثالثاً: يتيح امتلاك الحجاز عوائد الحج الفرصة لا استخدامه من أجل تطوير الدولة .

رابعاً: بالإضافة إلى جميع فوائد امتلاك الحجاز حسب رأي المبعوث الروسي، فإن امتلاك الحجاز قد كبل أيدي الملك، واضطر إلى المضي في طريق التنازلات .

مواقف طبقة تجار الحجاز :

يحلل «تورياكولوف» أيضاً علاقة سكان المدن تجاه السلطة. وحسب تقديره، فإن الحياة كلها في المدن تقودها طبقة التجار الكبيرة المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمصالحها مع السوق الإنجليزي والهندي. وقد أملت تبعية نخبة طبقة تجار الحجاز للعالم الانجليزي الهندي عليها « نفس النهج السياسي الذي كان في تلك الفترة يصوغه الإنجليز الذين يتبعون أساليب الضغط السياسي والاقتصادي، ويستخدمون على نطاق واسع أساليب التأثير الثقافي»^{١٦٤}.

١٦٤ - هناك أيضاً .

من الصعب القول إلى أي مدى لخص تورياكولوف ، النتائج التي توصل إليها من ملاحظاته والمعلومات الواردة للدبلوماسيين، وهل لم يسع - هو - إلى إبلاغ موسكو ما كانوا يرغبون - هناك - أن يسمعه، كان هذا الأمر منتشرا على نطاق واسع ، وليس فقط عند الدبلوماسيين السوفيت. وضعت موسكو مقاومة الإنجليز حجر الزاوية لسياستها الشرق أوسطية. كانت تريد أن ترصد مؤامرات « الإمبرياليين الإنجليز » في كل مكان حيث كانوا، وحيث لا يجب أن يكونوا .

وفقا للوثائق المشابهة المرسلت من جانب تورياكولوف إلى المركزالرئيس، نرى أن الملك بن سعود كان يوجد بين حجرين، فمن جانب كان يضغط عليه البدو الرحل الذين يميلون إلى الانقياد إلى إرادة شيوخ القبائل أكثر من السلطة المركزية، ومن جانب آخر الحالة المزاجية لكبار تجار الحجاز المحبة للإنجليز، والتي لا تقر مساعيه إنشاء دولة مستقلة في شبة الجزيرة العربية. اعتقد تورياكولوف أن الارتكاز فقط على التعاليم الاسلامية يضمن لابن سعود وحدة المجتمع الحجازي والنجدي المشتت. كتب المبعوث المفوض للاتحاد السوفيتي « إن المبدأ الشيوعراطي لبناء المجتمع ، والدولة الذي من خلاله يجمع بن سعود في شخصه كل السلطة والإمامة والملك يعطيه إمكانات واسعة لتحقيق مأربه »^{١٦٥}.

أبلغ تورياكولوف « أن المذهب الذي ينشره ابن سعود يتوافق مع النمط الحياتي للناس ، وهو تحديداً يعد ركيزة له في نضاله من أجل أشكال أكثر رقياً للنشاط الاقتصادي ». كان بن سعود كما ورد في التأثير التقليدي للشيوخ عن طريق جذبهم إلى صفوف الطائفة الوهابية^{١٦٦}.

لاحظ تورياكولوف الدور المتصاعد للإخوان في الدولة. - لاحظ على سبيل المثال - أنه « في جميع المراكز الكبيرة والمهمة بالحجاز تحتفظ

165 - Тюрякулов. Цит. док. Л. 7.

١٦٦ - هناك أيضاً.

الدوله بالإضافة إلى فصائل المرتزقة المحلية بحاميات وهابية». وأجبر التطور المطرد للأحداث وتحديداً حرب بن سعود المشار إليها مع الإخوان المتمردين تورياكولوف على إعادة تقييم أهمية الاعتماد على الإخوان . أبلغ السفير المفوض أنه « تحت راية السلام الدبلوماسي في البلد » كان التجار الحجازيون المؤثرون يدفعون بن سعود إلى تنازلات سياسية. وخير مثال خطبة ممثل جدة صاحب النفوذ محمد ناصر أثناء محادثات بن سعود مع كلايتون والذي ينصحه فيها بأن يتنازل للإنجليز .

قارن الدبلوماسي الروسي عن عمد بين بن سعود كمعبر عن الدولة المركزية، وحاكم يدافع عن مصالحه ضد الإنجليز و طبقة التجار الحجازية التي يراها مؤيدة للإنجليز بشكل فريد. ولم يكن الدبلوماسيون السوفييت يكونون وداً كبيراً لرأس المال التجاري، فقد تزايدت العلاقة السلبية أكثر في هذه الحالة تجاه ممثليه، إذ رأى السفير المفوض فيهم المدانين في فشل ترويج السلع السوفيتية في السوق المحلي .

كان تورياكولوف والدبلوماسيون الآخرون يفهمون جيداً أن المنظرين للشرق الخارجي في موسكو أرادوا بشدة ضم مملكة بن سعود إلى مصاف الدول التي حدثت فيها تغييرات ثورية بتأثير من ثورة أكتوبر، على الرغم من أن مقارنة الجزيرة العربية بإيران أو تركيا كان أمراً غير ممكن. على الأرجح، فإن تفهم عدم جدوى كل المحاولات لإنشاء حركة اجتماعية ثورية في الصحراء العربية كان بسبب عدم الوجود الفعلي لهذه المحاولات، وسيطرة الرؤى البرجماتية باعتدال على العلاقة مع السعودية. علاوة على ذلك، فإن الدبلوماسيين الذين كانوا يحللون الوضع الداخلي في هذا البلد سعوا إلى عدم نسيان الأسلوب الطبقي، ودائماً ما كانوا يسبون الكومبرادوريين (مصطلح سياسي يكثر استعماله من قبل التيارات الاشتراكية واليسارية ويعني طبقة البورجوازية التي سرعان ما تتحالف مع الرأسمال الأجنبي؛ تحقيقاً لمصالحها، وللإستيلاء على السوق الوطنية، أصل الكلمة برتغالي وتعني باللغة البرتغالية المشتري - المترجم) الحجازيين متهمين إياهم بأنهم سبب كل المشاكل بما في ذلك تدهور العلاقات السوفيتية السعودية .

كتب السفير المفوض إلى المركز أن « كثير من عائلات التجار يعلمون أولادهم في مدارس إنجليزية هندية أو يستأجرون معلمين ومربيين من أوساط موظفي القنصلية الإنجليزية ». حاول توريياكولوف توصيف الخط العام لطبقة التجار، فقام بإرجاعه إلى « الدفاع الخفي بشكل أكثر أو أقل عن المصالح الإنجليزية »^{١٦٧}.

كتب توريياكولوف « إن الأوساط الحاكمة للبرجوازية التجارية الحجازية ستسير » مع « ابن سعود فقط طالما لن يكون الأخير مضطراً باسم الصالح العام للبلاد أو بالأحرى » حسب التصورات النجدية « وضع مصالحها الرئيسية تحت الخطر، وعدم قطع علاقاتها مع الأسواق الخارجية والعلاقة الحرة، أي التجارة الاحتكارية داخل البلاد »^{١٦٨}.

يتطرق الممثل المفوض في مراسلاته مع المركز إلى الحالة المزاجية، لواحدة من طبقات سكان المدن في الحجاز وهم المطوفون الذين يخدمون الحجاج الوافدين للحج، الذين يؤثرون على جزء عظيم من « عامة الناس في المدن ». وكتب المبعوث المفوض « إن ضبط شئون الحج الذي كان يقلق ابن سعود ضرب هذه الطائفة بشكل جدي »^{١٦٩}. فقد كان هذا المجال من النشاط لابن سعود حسب قوله، موجهاً ضد استبدال المطوفين الذين أصبحوا جزءاً من الطقوس الديني.

استطاع توريياكولوف على الرغم من العوائق التي كانت بالفعل تمنع حرية التحليل في الوثائق الدبلوماسية السوفيتية، أن يقدر قوة وجاذبية نظام الدولة الجديد، وقاعدته الروحية .

كتب الممثل المفوض « يتعين افتراض أنه بقدر توسيع وتقوية الطائفة الوهابية في نجد، وبقدر النمو الاقتصادي للطوائف الوهابية الزراعية، سيقوى

167 - Тюрякулов. Цит. док. Л. 4-5.

١٦٨ - هناك أيضاً.

١٦٩ - هناك أيضاً.

التوسع السياسي والروحي للوهايية في الخارج»^{١٧٠}. وأعرب الدبلوماسي الروسي عن ثقته أنه «في حالة عدم وجود أي كوارث خارجية سياسية» فإن «حكم الوهايين سوف يترسخ بقوة ولدة طويلة .
السياسة الخارجية للمملكة :

بن سعود وإنجلترا

بطبيعة الحال، أولت البعثة السوفيتية السياسة الخارجية في البلد المضيف، اهتماماً زائداً. وقد أظهر «تورياكولوف» في مراسلاته مع المركز موقفاً متعاطفاً تجاه المملكة؛ بسبب الوضع المضطرب للمملكة مع كثير من الدول، فقال : «كان هذا وضعاً غير محتمل وصعباً لدولة بن سعود، لاسيما وأنها كانت في طور التوحيد»^{١٧١} .

كانت البعثة تعتقد بحق أن بن سعود كان مهتماً بتحسين العلاقات مع إنجلترا، والتي كانت حكومتها تبدي اهتماماً تجاه ذلك . كان الحدث الرئيس للسياسة الخارجية للمملكة حسب تقدير مفوضية الشعب للشئون الخارجية ، التصديق في السابع عشر من سبتمبر عام ١٩٢٧ م على الاتفاقية التي عقدها بن سعود مع إنجلترا في مايو من نفس هذه السنة. وفي استعراض العلاقات مع البلاد العربية الأخرى، تم إبلاغ الآتي : «أجلت إنجلترا التصديق على هذه الاتفاقية ساعية عن طريق الضغط على بن سعود للحصول على مزايا أكبر لنفسها، لحل القضايا الخلافية بين إنجلترا والحجاز . ومن الواضح أن بن سعود لم يقدم تنازلات، وتقبل الإنجليز مؤقتاً ما استطاعوا الحصول عليه من بن سعود، وصدقوا على الاتفاقية التي في واقع الأمر، تجعل لإنجلترا فقط - أهمية استعراضية بمعنى تأكيد الصداقة مع بن سعود كممثل للإسلام. كانت البنود المفيدة للإنجليزية هي تلك التي تتحدث عن أن الحجاز لن يسمح بأعمال معادية لإنجلترا على أراضيه. وظهر فشل الدبلوماسية الإنجليزية في هذا البند من الاتفاقية حيث يوافق بن سعود على الحد الذي يبقى العقبة خلف شرق الأردن، ولكن ينص على أن هذا لا يعد حلاً نهائياً للقضية، ويبقى له الحق في المطالبة بإعادة مراجعة تلك الحدود»^{١٧٢} .

170 - Тюрякулов. Цит. док. Л. 8.

171 - Тюрякулов. Цит. док. Л. 11.

172 - Обзор по арабским странам. Л. 14

في عام ١٩٢٨م ارتكز حل مشكلة تحسين العلاقات مع إنجلترا في رأي البعثة السوفيتية على المشروع الإنجليزي لإنشاء خط السكة الحديد حيفا- الكويت. وأسمح لنفسه فيما بعد أن أورد بالتفصيل الاستدلالات العقلية للمبعوث المفوض عن هذا الموضوع. «ينبغي النظر إلى قضية خط السكة الحديد - كما يبدو لي - كمهمة أساسية وضعتها نصب عينها الامبريالية الإنجليزية، وتصبح القضايا الأخرى بالمقارنة مع هذه المهمة ذات أهمية ثانوية. فعلى سبيل المثال، إذا اعتبرنا أنه يقع على عاتق القوات على الحدود العراقية مع نجد، مهمة الحفاظ على أمن شريط الخط الحديدي المستقبلي و إبعاد قبائل (مطير والعجمان) إلى الجنوب داخل حدود نجد، فإن الغارات الدائمة لقبائل شرق الأردن التي تشنها على أراضي المملكة، ينبغي اعتبارها كواحدة من طرق التأثير على بن سعود في الاتجاه المناسب. بالطبع يحدث هذا النوع من الغارات دائماً في هذه البلاد، من جراء أسباب محلية خاصة. ولكن التقييم السياسي للأحداث يجب أن يكون مثل الذي ورد في الأعلى آخذين في الاعتبار أن الانجليز يشجعون ويساعدون وينظمون هذه الغارات لأغراضهم الخاصة. وتعين من وجهة نظر ذلك التأثير السياسي الذي أوقع الخلاف المصري النجدي (عدم الاعتراف من جانب مصر، وخطط فؤاد للخلافة، والخلاف حول المحمل^{١٣٣}، وأخيراً النزاع المتزايد الذي ظهر مؤخراً حول الجزر في خليج العقبة)، والادعاءات المصرية المتزايدة باعتباره كأحد النقاط الإيجابية للسياسة الإنجليزية، بمعنى أن الإنجليز في أعين العالمين الاسلامي والعربي ليسوا وحيدين في نزاعاتهم مع «القلعة الأخيرة للاستقلال العربي» هكذا أسمت نجد صحيفة «أم القرى» فهم يتحالفون مع الدول العربية المجاورة لنجد»^{١٣٤} أشار السفير المفوض واصفاً التكتيك الإنجليزى تجاه بن سعود خلال السنوات الخمس الأخيرة إلى أن إنجلترا رفضت في عام ١٩٢٨م، منهج المعاهدات والحلول الوسط التي طبقتها الحكومة الإنجليزية قبل ذلك

فى الفترة من عام ١٩٢٥ الى ١٩٢٧ الميلاديين، والآن بدأت تدريجياً فى تطبيق طرق الضغط والتعقيد الكلى للوضع الخارجى لابن سعود. هذا ما كان يدركه السياسة النجديين الذين أيضاً انتهجوا خطأً جديداً لسلوكهم فى هذا الصدد .

كتب «تورياكولوف» إن هؤلاء القادة العرب مثل شريف توفيق^{١٧٥}، يعتقدون أن حكومة المحافظين فى إنجلترا الآن وعلى مشارف الانتخابات تأخذ بعين الاعتبار إمكانية وصول وزارة جديدة إلى السلطة أقل نشاطاً فى السياسة الخارجية، ولذلك فهى بجميع الوسائل تريد من أهمية قضية خط السكة الحديد حيفا - الكويت. لذلك وفقاً لرأى هذه الدوائر يكون مفهوماً رغبة الإنجليز إما : الحصول على حل سريع لهذه القضية، أو الحصول على نفس وضعية «الحرب» لكي يكون خلفاء المحافظين موضوعين أمام الأمر الواقع أو مضطرين بطريقة أو بأخرى مواصلة قضية حكومة المحافظين الآنية. كانت الدوائر السياسية المحلية تخشى وهى منطلقة تحديداً من هذا التحليل للنوايا الإنجليزية من التدهور الكبير للعلاقات الإنجليزية النجدية خلال الفترة القريية القادمة .

هذا الرأى للقريبين من الديوان الملكى والخبراء بأمزجة القيادة العليا يعبر جزئياً عن رأى وخطط الأخيرين (أى بن سعود وخاصة) ويصف بشكل غير مباشر التكتيك الجديد لابن سعود، كتكتيك البقاء لكسب الوقت على أمل حدوث بعض التغييرات فى السياسة الشرقية لإنجلترا بعد الانتخابات^{١٧٦} .

يتعين على بن سعود قبل حلول هذه « التغييرات كما رجح رئيس البعثة السوفيتية أن يبتعد بكل الوسائل عن الحل الحاسم للقضايا الخلافية، متجنباً فى الوقت نفسه تلك الخطوات، التى يمكن أن يستخدمها الإنجليز لإثارة المواجهات.

يعتقد تورياكولوف أن السياسة الحذرة لابن سعود الذى كان يفهم الخطر كاملاً، وجميع العواقب المحتملة لذلك الصراع، الذى لا طاقة له به

١٧٥ - حتى نوفمبر ١٩٢٧ - سكرتيرة الأمير فيصل .

176 - Тюрякулов. Цит. док. Л. 13

كانت لا تزال مقيدة بحدود معروفة: «ظهرت صعوبة وضع بن سعود كقائد مسئول للبلاد بشكل واضح، خاصة في الوقت الأخير في مؤتمر الرياض». وأوضح قياس الرأي العام الذي قام به بجديّة بن سعود قبل الافتتاح الرسمي لهذا المؤتمر في خلال أسبوعين، أن إرادة الملك في كثير من قضايا الدولة محدودة بالفعل. ينص قرار اللجنة الخاصة بقضايا العلاقات الخارجية أن الملك يحاول بكل الوسائل عقد الاتفاقية مع الإنجليز بالطريق السلمي، وإذا بدت خطوات الملك هذه بدون نتائج، فإن القبائل يكون لها حق المبادرة والحرية في الأعمال المستقلة. إن هذا القرار من حيث طابعه يعد إتفاقية للحلفاء يصف وضع الملك. وتجدر الإشارة إلى أن الملك الذي يتصرف في تلك القضية (التعزيزات العراقية) كوسيط سلام، وكنصير للسلام، يحتفظ لنفسه بدور صانع السلام، وأثناء بحث قضايا السياسة الداخلية»^{١٧٣}.

يخلص توريا كولوف إلى النتيجة الآتية: كما أن الملك يقوم عادة بدور «وسيط سلام»، متجنباً اتخاذ مواقف متطرفة، إنه يستخدم أيضاً في السياسة الخارجية «تكتيك المراوغة». ومن جديد نتوجه إلى النص: «إن المثابرة التي يناضل بها بن سعود خلال العديد من السنوات، من أجل هدم التحصينات العراقية الحدودية، توضح بشكل رئيس الاهتمام الحيوي للقبائل وبن سعود بهذه القضية، ولذلك فمن المستبعد حل الخلاف عن طريق الحل الوسط في البيان الإنجليزي الحديث (المطالبة ببقاء التحصينات والمطالبة بتسليم وادي السرحان مع مركز الجوف.. إلخ). لذلك نشأت سياسة المراوغة التي يطبقها بن سعود، لكي يتجنب المباحثات الحازمة للنزاع مع عدوه الرئيس. وأبلغت بعض الصحف العربية عن أن اللقاء المقترح منذ مدة ليست طويلة لابن سعود مع الإنجليز في الإحساء (على شاطئ الخليج الفارسي) لم يتم لأسباب غير معلومة. الآن تتداول الشائعات باصرار عن استئناف المحادثات في جدة فور وصول الملك، والتي تجري في العقبية في الوقت الراهن، استعدادات كبيرة لاستقباله. ولكن بغض النظر عن هل ستستأنف المحادثات بين الطرفين أم لا؟ فإن التقدير العام للوضع والموقف في البلاد يؤكد أن بن سعود أزاء تلك الأحوال، يتفادى المعركة الحاسمة،

ويفضل خط الترقب. والخط الآخر من وجهة نظري سيقود بن سعود لامحالة إلى إضعاف وتدهور حلف الوهابيين مع القبائل الذي يعتمد عليه داخل البلاد. وهذه الحالة تعطي العدو مزيداً من الأفضلية في كفاح ناجح ضد الخطط الواسعة لابن سعود. هذه من وجهة نظري آفاق العلاقات الإنجليزية النجدية خلال الأشهر الستة المقبلة إذا لم يتغير الموقف»^{١٧٨}. افترض المبعوث المفوض السوفيتي أن صعوبة الوضع القائم في العراق قد أثمرت تأثيراً كبيراً على سياسة الإنجليز في الجزيرة العربية: «كان الوضع السياسي الداخلي للبلاد يتصف باشتداد، وتفاقم صراع الأحزاب البرلمانية (بما في ذلك اليمينية) مع الإنجليز بخصوص القضايا العسكرية (الخدمة العسكرية والقيادة العليا للجيش العراقي إلى الخ) والمالية (إخضاع كل مصادر الدخل، بما في ذلك إدارة ميناء البصرة لهيئة الرقابة العراقية). بالإضافة إلى ذلك، فإن المجادلة التي جرت مؤخراً بين صحيفتي «العراق» (بغداد) و«أم القرى» (مكة) شكلت لوحة ممتعة إلى حد ما للعلاقات.

في المقال الافتتاحي للصحيفة الأولى الذي كتب بصيغة حادة جداً وصف النجديين بدايةً بأنهم همجيون وماشابه ووجه اللوم إلى القادة النجديين؛ لأنهم لا يجرون مفاوضات مع الحكومة العراقية بخصوص القضايا التي تهم العراق، ولكن مع أشخاص «ثوالث» وأنه ليس لدى النجديين رغبة صادقة في الاتفاق مع العراق. وفي ردها المتحفظ جداً أشارت «أم القرى» بصدق إلى وضع العراق تحت الانتداب. وتعتقد هذه الصحيفة أن النجديين مرغمون على بحث القضايا المشار إليها مع الذين وثق فيهم العراقيون بالفعل لإدارة شئونهم الخارجية. بحكم ذلك تعتقد صحيفة «أم القرى» أن المسؤولية عن هذا الوضع الذي تشتكي منه صحيفة «العراق» لا تقع على عاتق النجديين». (تشير كل الدلائل إلى أن هذا الرد قد صاغه يوسف ياسين، وبالتالي فهو معروف لابن سعود). وفي علاقاته الخارجية يحتاج العراق بدون شك إلى أن يسوي علاقاته مع جيرانه القريبين مثل: نجد وتركيا (الادعاءات التركية على الموصل ومنطقته)^{١٧٩}.

أولى «تورياكولوف» في اتصالاته الدبلوماسية كما عرف من الوثيقة المستشهد بها، هذه القضية اهتماماً كبيراً: «أبلغوني في بعض دوائر مكتة أن الغارات من جانب تركيا ونجد عادة ما تتوافق في الزمن، وأحدثت انطباعاً بأعمال متفق عليها. ونفى وجود اتفاق بين تركيا ونجد في ذلك الوقت، ولكن أشار إلى وضع العراق غير الطبيعي؛ لوجوده بين نارين. لذلك يبدو لي صدق الأخبار التي تتناولها الصحف العربية عن أن كلايتون الذي عين مندوباً سامياً للعراق ذهب إلى مكان عمله عن طريق أنقرة. وإذا تأكد هذا الخبر فإن سفرة كلايتون إلى أنقرة تكتسب أهمية كبيرة وترتبط بالخطط العربية للإنجليز. وأن إزالة الشكاوى التركية في شمال العراق ربما تقوي مواقف الإنجليز في جنوب العراق في خلافهم مع بن سعود، وربما تمنح إمكانية الصراع مع الأخير بدون خوف على المؤخرة. ولتحديد هذه الأهمية، أود أن أعطيها للمندوب السامي للعراق إلى أنقرة في الوقت الراهن»^{١٨٠}.

العلاقات مع العالم الإسلامي

من القضايا السياسية الأخرى التي وصفها السفير المفوض، نذكر علاقات المملكة مع اليمن. ومرة أخرى نستشهد بنص الخطاب السياسي «عادة ما يقال أنه لا يوجد في الوقت الراهن بين ابن سعود والإمام يحيى مسائل خلافية كبيرة تمنع من تحسين العلاقات، فحسب مقسم بالفعل وحظي كل جانب منهما بنصيبه. ثم إن نجد واليمن في الوقت الراهن مشغولتان بهضم الغنيمه، ولا يفكران في أكثر من ذلك. فضلاً عن ذلك، أخذ بن سعود في الاعتبار إمكانية سوء علاقاته مع الإنجليز، فهياً كل الظروف للدفاع عن بلده، وتعين عليه أن يحسن علاقاته مع الأمام يحيى، ويؤمن علاقاته مع العالم الخارجى في حالة الضرورة عبر اليمن. لذلك يفترضون أنه «في خلال الفترة القريبة القادمة يجب أن يحدث تحسن للعلاقات بين نجد واليمن وإقرار علاقات ودية بينهما. غير أن الواقع يمكن أن يبرر هذه التوقعات في المستقبل إزاء ظروف معروفة (الصدام الإنجليزى النجدى)، لكنه الآن يفند تلك التوقعات النظرية.

وعلى الرغم من وجود العديد من الظروف السانحة لعقد الاتفاقية، فنحن حتى هذا الوقت نقف أمام علاقات غير سوية بين نجد واليمن»^{١٨١}.

لم يلبث السفير المفوض هنا ولأكثر من مرة، أن ركل الكومبرادورية الحجازية الذين رأى فيها قوة رجعية أساسية للبلاد : «سبب هذه الظاهرة فيما أعتقد، يجب أن تبحث عنه ليس في تكتيك بن سعود الحذر، ولكن في تأثير الدوائر الانجليزية التي تعرقل كل أمر تقديمي للبلاد العربية. وينتقد رجال السياسة مثل شريف توفيق الإمام بحذر بالغ، ويشيرون بصورة رئيسة إلى خطأ وعدم جدوى محاولاته أن يتسور «بحائط الصين» حماية لنفسه من الحضارة الأوربية. ورجال من أمثال عبد الوهاب دائماً ما يشاركون في الدوائر الإنجليزية ويعكسون وجهات النظر، والحالة المزاجية تحديدا لهذه الدوائر»^{١٨٢} «ينتقدون» الإمام يحيى على غبائه وتعصبه وبخله ومكره واليمينين الذين فيما عدا «مضع التبغ» ليس لهم مقدرة على فعل أي شيء. من العجيب أن هذا التقرير عن الإمام الذي كان سببه أسئلتي عن مستوى التطور في اليمن، لم يثر أي معارضة أو ملاحظات من جانب الذين كانوا يجلسون هنا : عبد الله فضل وآخرين. أبدى فقط فؤاد حمزة ملاحظة أنه «لا ينبغي أن تقدح في إنسان يعد رئيس البلد بأكمله، بهذه الصيغة الحادة» (في أكتوبر عام ١٩٢٨ في مكة).

إذا كان النقد من جانب الأوائل لا ينفى على كل حال، موقفهم الطيب نحو إقامة علاقات طيبة بين نجد واليمن، فإن العلاقات العدائية للأخريين (عبد الوهاب) تتحدث عن وجود مثل تلك الميول (أو الخطط) ، في الدوائر الحجازية التي يمكن أن تعرقل بالفعل أمر التقارب بين هذين البلدين»^{١٨٣}. اعتبرت البعثة السوفيتية أن تحسين العلاقات بين دولة بن سعود واليمن أمراً مهماً للاتحاد السوفيتي. كتب تورياكولوف : «أعتقد أن قضايا العلاقات النجدية اليمنية من حيث تقوية الدول العربية المحلية في شبه الجزيرة العربية، والصدام الحتمي لمصالحها مع خطط الامبريالية البريطانية

181 - Тюрякулов. Цит. док. Л. 17

182 - Тюрякулов. Цит. док. Л. 17-18

تحظى بأهمية كبيرة. وينبغي على الوكالة في جدة أن تضع نصب عينيها مهمة الدراسة الشاملة لقضية العلاقات النجدية اليمنية، وأحوال تطورها (الجزء الثالث ص. ١٨) جدير بالذكر في هذا السياق، أن بن سعود في الفترة محل البحث، قد دعم بنجاح سياسته التوحيدية تجاه الأراضي المتنازع عليها مع اليمن. وفي أكتوبر عام ١٩٢٦ وقع اتفاقاً مع الأمير الفارسي الحسن الإدريسي، والتي طبقاً لها فرضت الحماية السعودية على الإمارة، ولكن في أكتوبر عام ١٩٣٠م، قيدت الاتفاقية الجديدة بشكل أكثر سلطة الأمير المحلي (انظر الجزء الرابع صفحة ٣١٦).

يمثل استنتاج السفير المفوض بخصوص علاقات المملكة مع تركيا وأفغانستان وإيران أهمية كبيرة. استنتج الدبلوماسيون السوفييت أن تركيا كانت تحتل المرتبة الأولى في عداد البلدان التي كان «التقارب معها قد يمثل للمملكة أهمية حقيقية»، ولكن لم يكن بين الرياض وأنقرة في هذا الوقت أي إتفاقيات. ومما يذكر أن الممثل الدبلوماسي التركي «سانيك» حاول في عام ١٩٢٨م أن يعقد اتفاقية، أحضر مشروعها من أنقرة ولكن لم يكتب لها النجاح حيث أن مشروع الاتفاقية لم يراع مصالح أي من الطرفين.

اعتبر «تورياكولوف» أن أسباب الوضع القائم، هي الخطط السياسية العامة، وتصورات بن سعود، وكذلك المصالح المادية للحجاز في تركيا. وكمثال للأسباب الأولى عدم رغبة بن سعود في الإسراع بعقد الاتفاقية؛ حتى حل الخلاف الإنجليزي / النجدي، والخوف من الادعاءات التركية بخصوص الموصل، وعدم رغبة الملك إغضاب العلماء الذين كانوا يتعاملون بالسلب تجاه بلد انسلخ من الاسلام. وقد قصد السفير المفوض عندما تحدث عن المصالح المادية، أملاك الوقف التي تنتمي إلى الأماكن المقدسة، وتمت مصادرتها لصالح الصندوق الحكومي التركي. أبلغ تورياكولوف: «يتعقد موقف بن سعود أكثر، بسبب أن كل تنازل يدفعه إليه الأتراك في هذه المسألة، يمكن أن يخلق سابقة غير مفيدة للحجاز في خلافه مع مصر، والبلاد الأخرى. ولم تستطع العلاقات التركية الحجازية، وهي محملة بمثل هذا الحمل الثقيل من النقاط غير الواضحة أن تتبلور في شكل اتفاقية. بعد كل ذلك حولت

تركيا التي وضعت أمام هذا العائق في إقامة العلاقات اهتمامها إلى اليمن^{١٨٣}.

وبالمثل فيما يتعلق بتركيا، كان الرأي العام في المملكة تجاه الإصلاحات الأفغانية، كما أبلغت المفوضية السوفيتية سلبياً أيضاً. وكتب تريكولوف: إن المشاعر السلبية للدوائر الاجتماعية للمملكة تفاقمت؛ بسبب تأثير «الأشخاص ذوي الأصل السوري»، والعداء العربي التركي الذي كان بن سعود مضطراً أيضاً أن يأخذه في الاعتبار.

وقد وصف الدبلوماسيون الروس العلاقات الحجازية الإيرانية بأنها غير «محددة». وكان الأمر يتلخص كما رجح توريكولوف في أن الملك في ذلك الوقت لم يرد على خطاب الشاه. وحسب رأيه، فقد كانت هناك حالتان فقط تعوقا البلدين عن إقامة علاقات، وعقد اتفاقات وهما: عدم وجود اهتمامات مشتركة، والعداء السني الشيعي^{١٨٤}.

إدارة السياسة الخارجية لابن سعود

يبين اتصال الدبلوماسيين السوفييت مدى الدور المهم الذي كان يلعبه في النشاط الدبلوماسي للمملكة، الأشخاص الرسميون ذوي الأصل غير السعودي الذين عينهم بن سعود في مناصب حكومية. من المحتمل أن هذا كان بسبب أنه لم يكن من بين أبناء نجد عدد كبير ممن يملكون خبرة إدارية، ومعرفة بالعالم الخارجي، أما أبناء الحجاز فلم يكن بن سعود يثق فيهم بعد، في هذه المرحلة من وجود المملكة. على أية حال، فإن ولاء الأشخاص ذوي الأصول العربية الأخرى الذين لم يكن لهم جذور في المملكة العربية السعودية، وتابعين كلية لإرادة الملك، كان مضموناً بدرجة كبيرة مما لدى الحجازيين، واستطاع الملك أن يدفع إلى هذا المجال الأكثر حساسية، مثل السياسة الخارجية بأشخاص لم يكن يثق فيهم فحسب، بل ويسيطر عليهم.

183 - Тюрякулов. Цит. док. Л. 19.

184 - Тюрякулов. Цит. док. Л. 21.

فضلا عن ذلك، فقد جذب الملك إلى الخدمة أشخاصاً ينحدرون من أصول عربية أخرى كانت لهم وجهات نظر مختلفة وتوجهات مختلفة. واستطاع أن يتحكم فيهم بنجاح من جانب، ومن جانب آخر أن يستغل تعاطفهم الخفي والظاهر، وكذلك سمعتهم من أجل تحريك علاقات المملكة مع هذه أوتلك البلد من البلدان الأخرى. وكانت الميزة المهمة لهؤلاء الأشخاص معرفتهم الجيدة بالسياسة، والوضع الداخلي للدول العربية^{١٨٥} (انظر عن هذا بالتفصيل : ص ٣٩-٤٠)

وقد برز من بين هؤلاء الموظفين ذوي الأصول غير السعودية السوري يوسف ياسين القاطن في المملكة منذ أوائل العشرينات والذي لعب دوراً مميزاً في الحركة القومية العربية. عين في البداية محرراً للجريدة الرسمية «أم القرى» ثم تقلد لاحقاً مناصب مختلفة في وزارة الخارجية أثناء حكم بن سعود. كان يوسف ياسين في الفترة التي يتناولها البحث، المهندس المعماري الأهم للسياسة الخارجية لابن سعود. ومن الطبيعي أن ياسين كان معادياً لتركيا، ولكنه استطاع أن يفعل الكثير فيما يتعلق بالتوجه العربي للسياسة الخارجية لابن سعود. لعب أيضاً فؤاد حمزة اللبناني المقرب من الملك، والقادم إلى المملكة في العشرينات دوراً مهماً في تنفيذ السياسة الخارجية للمملكة. وقد تم تكليفه بجميع الاتصالات مع البعثة البريطانية والبعثات الأخرى.

وقد تقابل الدبلوماسيون السوفييت أيضاً، مع أحد مستشاري الملك المؤثرين في القضايا السياسية الخارجية، وهو الليبي خالد الناركني (الاسم الصحيح خالد القرقي- المترجم) الذي ظهر على الساحة السياسية للمملكة في عام ١٩٣٠ م. وفيما بعد في نهاية الثلاثينات أدار علاقات المملكة مع دول المحور. ومن بين الدبلوماسيين السعوديين البارزين في ذلك الوقت المصري حافظ وهبه. كان في البداية مستشار الملك للقضايا السياسية الخارجية، وبعد

١٨٥ - انظر. عن هذا بالتفصيل في كتاب

Yizraeli , Saraha. The Remaking of Saudi Arabia / Sarah Yizraeli – Tel Aviv : Dayan Center Papers, 121, 1997.- P. 3940-

ذلك تقلد منصب السفير السعودي في لندن، والعراقي عبد الله الدملوجي الذي عمل مستشاراً للملك حتى عام ١٩٢٨ الميلادى، والسوري بشير السعداوي (بشير السعداوى ليبي الجنسية- المترجم) .

لم تكن هذه المجموعة من المستشارين، على الرغم من أنها لعبت دور كبيراً غير مسبوق، في تنفيذ النهج السياسي الخارجي لابن سعود، الوحيدة التي كان لها علاقة بالسياسة الخارجية. في المراحل المختلفة في هذا المجال تم الاستعانة بالأوروبيين وخاصة الشهير جداً « سانت جون فيليبي »، و « جيرالدي جوري » الذي كان طبيباً شخصياً للملك. وتم الثناء على تأثير فيليبي على سياسة المملكة فى الأدبيات الغربية، ولكن طبقا لأرشييف الدبلوماسية السوفيتية كان دوره محدوداً. كل ما قيل ليعني أنه لم يوجد بين الإداريين للدولة في العشرينات شخصيات من الأقاليم السعودية. فقد لعبت عائلة السليمان الحمدان من قبيلة عنيزة، دوراً كبيراً بصفة خاصة. وإليها ينتمى محمد سليمان السكرتير الشخصى للملك وكذلك أخوه عبد الله الذى ترأس فى عام ١٩٣٠ م الادارة المالية، وأصبح فى عام ١٩٣٢ م أول وزير للمالية، وظل فى هذا المنصب حتى عام ١٩٥٤ م. ونذكر أيضاً عائلة كسيبي من الإحساء، وعلى رضا من الحجاز، ولاحقاً عائلة بن لادن النازحين من اليمن (حصل ممثل هذه العائلة أسامة فى وقتنا الحاضر على شهرة كإهابى دولي)

العلاقات السعودية السوفيتية

فيما يخص العلاقات السعودية السوفيتية فى تلك الفترة فإنه فى البداية اعتُ من عام ١٩٢٧ م قامت مفوضية الشعب للشئون الخارجية بتقييم العلاقات بأنها « طبيعية ». وجدير بالذكر وخاصة فى عام ١٩٢٧ م « نفذت عمليات تجارية فى المملكة السعودية » وجهت اهتمام التجار الحجازيين إلى السلع السوفيتية. وتم تسيير الرحلات البحرية لنقل السلع والتي أيضاً أصبحت تنقل الحجاج عبر ميناء أوديسا لأول مرة، بعد عشر سنوات من التوقف. كما أقيم فى جدة معرض للسلع السوفيتية^{١٨٦} .

بيد أنه في نهاية عام ١٩٢٧ م ساء الوضع. فقد أبحرت إلى جدة سفينة «يانتومب» التابعة لشركة «روسوتورك» تحمل بضائع روسية وتم بالكاد إفراغ حمولتها برعاية «تويميتوف» والذي عهدت إليه شركة «روسوتورك» بتولي هذا الأمر، نظراً لعدم وجود ممثلين تجاريين متخصصين. لكنها بقيت مدة طويلة متحفظ عليها في الميناء. وقد منع «ستاكوفيتش»، و «بلكين» ممثلو شركة «روسوتورك» من النزول إلى الشاطئ، بحجة أنهم لا يملكون تأشيرة دخول الحجاز. كانت القضية كما اعتقد الدبلوماسيون تتلخص في موقف التجار المحليين المؤيدين من قبل بعض الموظفين. واستنتجت مفوضية الشعب للشئون الخارجية أن «محاولات ت. تويميتوف تسوية الأمر بمساعدة وزارة خارجية الحجاز، لم يكتب لها النجاح. وأخبرت. تويميتوف أن نائب الملك على الحجاز «فيصل» محاط بأناس يتعاملون معنا بعداء. وأصبح معلوماً لتويميتوف، أنهم بصدد إصدار قرار يقضي بمنع «المسلمين» الشيوعيين من دخول مكة. وفي نفس الوقت شنت حملة ضد تويميتوف متهمين إياه بأنه يزاول التجارة. ويعتقد تويميتوف أنه من المحتمل أن تطرح قضية طرده. وجدير بالذكر، أن كل هذا كان يحدث في غياب سعود الذي يوجد الآن في نجد.

لدراسة الوضع القائم في الحجاز، تم استدعاء «ت. حكيموف» الذي كان يعالج في ألمانيا إلى موسكو، وكان من المرجح إرساله بصورة عاجلة، إلى الحجاز؛ لاستيضاح الموقف، وإزالة الصعوبات القائمة، وبدء المفاوضات لعقد اتفاقية تضمن عملنا المستقبلي في الحجاز، والمساعدة في «إدخال» مبعوثنا الجديد «تورياكولوف» إلى الحجاز الذي يستطيع أن يسافر إلى الحجاز خلال شهر أو شهرين»^{١٨٧}.

واعتبرت قيادة مفوضية الشعب للشئون الخارجية أن المهمة الرئيسية في ذلك الوقت، هي عقد اتفاقية، من شأنها «خلق أساس قانوني متين» للعلاقات مع السعودية. وطبقاً لتقدير مفوضية الشعب للشئون الخارجية، فإن سبر التربة الذي أجراه «حكيموف» أظهر أن بن سعود اعتبر أنه من الممكن عقد

١٨٧ - الاستشهاد من الوثيقة ل. ١٧.

اتفاقية مع الاتحاد السوفيتي، ولكن كما تم الإبلاغ في تقرير عام ١٩٢٧ م لم تقدم موسكو في ذلك الوقت لابن سعود عرضاً مباشراً .

غير أن حكيموف لم يفهم الموقف بشكل حقيقي، وإما أن رأي ابن سعود قد تغير. ولكن مهما كان الأمر لم تستطع موسكو أن تحظى باتفاقية، عندما اتخذت قراراً فيما بعد بعرض تقدمت به للملك لعقدها^{١٨٨}. علاوة على ذلك في نهاية عام ١٩٢٨ م قامت السلطات السعودية باتخاذ اجراءات مقيدة، في حق السلع السوفيتية ذات الأسعار المنخفضة، والتي تهدد مصالح التجار الذين كانوا يجلبون سلعاً مماثلة من بلاد أخرى. وقد ألغيت هذه الاجراءات العنصرية - فقط - في أوائل الثلاثينيات عندما ساء الوضع الاقتصادي للمملكة بشكل كبير، ولم يقدم الغرب لها مساعدة مالية، فقرر الملك التوجه إلى طلب العون من الاتحاد السوفيتي. وفيما يخص الفترة التي يتناولها البحث، فإنه بالإضافة إلى الإجراءات العنصرية في مجال التجارة، كانت قرارات السلطات تحمل طابعاً معادياً للروس والتي تقضي بمنع الأوروبيين الذين كانوا يعدون أنفسهم مسلمين في الظاهر، ولكنهم بالفعل ينكرون الدين! من دخول مكة. ومن الواضح أنه تحت هذا التحريم، يمكن أن يدخل كذلك الدبلوماسيون السوفيت المسلمون، وقد قدر «تويميتوف» في مراسلاته هذا الأمر، كقرار خطير للغاية.

وقد كتب نائب المفوض «ليف كاراخان» في خطابه الإرشادي الموجه إلى «حكيموف» في ٢٧ من نوفمبر عام ١٩٢٧ م: «هدفنا الأساسي هو عقد الاتفاقية بأسرع وقت ممكن.... وضع في اعتبارك أن مجرد بدء المفاوضات... سيكون بمثابة دليل واضح أن ابن سعود بعقده اتفاقية مع الإنجليز، لم يفقد استقلاله في مجال السياسة الخارجية»^{١٨٩}. وعلى الرغم من الاختلافات العميقة بين الدولتين، فإن موسكو وخاصة قيادة مفوضية الشعب للشئون الخارجية

- 188 - После того как летом 1929 г. Ибн Сауд согласился вступить в переговоры по этому вопросу, саудовской стороне был предоставлен проект договора, и первоначально 14 декабря 1929 г. Фауд Хамза сообщил, что он был встречен «сочувственно» (потом позиция саудовской стороны изменилась).
- 189 - Кархан – Хакимову, 26 ноября 1927 г. // АВП РФ. –Ф. 0127. Оп. 1, п. 4 Д. 44 Л. 45

ذات الميول البرجماتية، ممثلة في شخص رئيسها «جيورجي تشيتشيرين»^{١٩٠} كانت تبدي تعاطفا مع الملك .

وقد كتب تشيتشيرين موصياً «حكيموف» عندما كان يشغل وظيفة القنصل العام للاتحاد السوفيتي لدى السعودية: «بالطبع فإن المهمة الأساسية في الحجاز في الوقت الراهن تعد تقوية بن سعود. أما ما يخص البنود الخمسة التي صغتها بنفسك للمهام العملية لتدعيم سعود (تقوية الصداقة بين سعود ويحيى، وإبعاد بن سعود عن مغامرة الخلافة، ودفعه إلى سياسة سلمية تجاه كل دول الجوار، والتخلي عن نظام الامتيازات الأجنبية، لمساعدة بن سعود الغاء هذا النظام في حق الدول الأخرى، وتأييد بن سعود عن طريق إسلامنا)، فإنه من الواجب أن نضيف إليها المزيد. ينبغي علينا : ١- إبعاد سعود عن الدخول في العصبة (يقصد بها عصبة الأمم) فيتالي ناؤمكين .

٢- تقديم النصح لابن سعود في صيغة حذرة جداً، وتحت زاوية سياسة بدرجة استثنائية إلى اتخاذ موقف أقل تشدداً، وأقل تعصباً للعقيدة في مجال الخلافات الدينية بين الوهابيين، والمسلمين من المذاهب الأخرى»^{١٩١} .

ساعدت الدبلوماسية السوفيتية بشكل عملي في تدعيم المواقف الدولية لابن سعود، ولم تقتصر فقط على النصائح. فقد أبلغ تشيتشيرين حكيموف: «لقد استطعنا في الوقت الراهن أن نحد من الحملة الموجهة ضد الوهابية في إيران. وقد سهل من نجاح الحملة الموجهة لإضعاف العداء ضد الوهابية أن رضا شاه أصبح مهتماً بإضعاف رجال الدين الذين يحاولون أن يكتسبوا على حساب «الفضائح الوهابية» مالا سياسياً»^{١٩٢}. وكان الدبلوماسيون السوفيت يخططون أيضاً للتعاون الوثيق مع تركيا في الحجاز.

190 - Роль Чичерина нельзя оценивать однозначно. Если в данный период и применительно к данному региону он проявлял очевидный прагматизм, то в первые годы после Октябрьской революции был одним из инициаторов левацких, авантюристических акций в Иране, Турции.

191 - Чичерин – Хакимову, 31 октября 1926 г. // АВП РФ. – 0127. Оп. 1, п. 2. Д. 18. ١٩٢ - تشيتشيرين، الاستشهاد من الوثيقة ل. ٢٥.

واستمر دعم بن سعود في النهج السياسي الخارجي لموسكو خلال بعض الوقت في المستقبل .

والمثير للدهشة أن الملك بن سعود الذي لم يكن لديه في عام ١٩٢٠م خبرة دولية ، أظهر مهارة دبلوماسية كبيرة هجبهات متعددة في نفس الوقت. وأظهرت المراسلات الدبلوماسية السوفيتية أن بن سعود استغل ببراعة لتنفيذ هذه المهمة ، الخلافات بين الدول الأوربية المختلفة ودول المنطقة، محاولاً توجيه اهتماماتهم بنجاح وسعيهم لإضعاف أو عدم السماح بتقوية نفوذ هذا أو ذاك الجانب لمصلحته. ويرجع هذا - على وجه الخصوص - إلى لعبته الدبلوماسية مع إنجلترا والاتحاد السوفيتي، وسمحت الخلافات التي بينهما للملك في الحصول على الراحة اللازمة لحل مشاكله الداخلية، والحصول على التأمين المحتمل بطريقة قصوى لمصالحه في العلاقات الثنائية مع هذه الدول .

في نفس الوقت لا يجب اعتبار علاقات بن سعود مع روسيا في ذلك الوقت جزءاً من لعبته الدولية. وعلى الرغم من الكراهية التي كان يكنها بن سعود للأيدولوجية السائدة آنذاك في الدولة السوفيتية، فقد أحس بطريقة صحيحة بالود الذي أبداه الاتحاد السوفيتي تجاه سعيه لإنشاء دولة مركزية قوية في الجزيرة العربية ، وإجراء نهج غير تابع للدول الاستعمارية ، واعتباره كمصدر دعم .

وقد تم رصد المناورة الدبلوماسية التي لاريب فيها ، في تطور علاقات بن سعود مع الدول الأخرى في الشرق والغرب. وقد مزج بن سعود بين الضغط الدبلوماسي مع الاستعداد إلى القبول بحلول وسط ، أملت عليه الفرص المحدودة. وكان من أبرز المعوقات لخطه على الصعيد السياسي الخارجي في النصف الثاني من العشرينيات ، الوضع غير المستقر بعد داخل البلاد ، والمقاومة التي واجهت النشاط التنظيمي للملك من جانب العديد من المجموعات التي حاولت العمل

بطريقة منفردة أو استقلالية، وتحت تأثير القوى الخارجية كذلك في بعض الأحوال . غير أنه هنا كما تظهر مواد سجلات الدبلوماسية الروسية، فإن بن سعود في الأحوال الصعبة قبل ظهور النفط ، استطاع الحصول على نجاحات باهرة في توحيد البلاد بشكل كامل .

obeikan.com

الأمير فيصل في روسيا (*)

كان الأمير فيصل بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود الذي ولد سنة ١٩٠٥م، من أبرز رجال السياسة في العالم العربي، وقد اضطلع منذ مقتبل شبابه بما أوكله إليه والده من مهام بالغة المسؤولية داخل البلاد وخارجها، وقاد الزحف الظافر للقوات السعودية إلى عسير، وهو في الثامنة عشرة من عمره. الذي انتهى بالنصر المبين، وبعد إقامة حكم الملك على الحجاز، عين فيصل نائباً للملك في هذا الإقليم، كما ترأس دائرة الشؤون الخارجية أيضاً، التي أعيد تشكيلها فيما بعد، فأصبحت تسمى وزارة الخارجية، وأسفرت زيارة فيصل لإنجلترا عن اعتراف لندن باستقلال دولة ابن سعود، واعترف به ملكاً للحجاز، وسلطاناً لنجد وملحقاتها، بموجب المعاهدة المعقودة في جدة في العشرين من مايو سنة ١٩٢٧.

كان الاتحاد السوفيتي أول دولة اعترفت باستقلال مملكة ابن سعود، وأقامت العلاقات الدبلوماسية معها على أكمل وجه وأتمه، وكانت المملكة أول دولة عربية أقامت موسكو معها علاقات الدبلوماسية، ففي جدة كانت تنهض بمهامها الوكالة الروسية والقنصلية العامة التي تغير تسميتها في الأول من يناير سنة ١٩٣٠م فأصبحت مفوضية.

لقد كانت الدولتان تديان اهتماماً كبيراً بتطوير العلاقات مع بعضهما البعض، رغم الفوارق الجسيمة في نظام الدولة والقيم والتوجهات السائدة في المجتمع، وكانت موسكو تنظر بعين العطف إلى طموح

(*) تم نشر المقال باللغتين العربية والإنجليزية: الأمير فيصل في روسيا: ١٩٣٢، الرياض مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الانسانية، ٢٠٠٢ (٢٥٠).

عبد العزيز لإنشاء دولة موحدة قوية في جزيرة العرب. ففي الرسائل العاجلة المرسلة إلى موسكو أثنى الدبلوماسيون الروس على سياسة بن سعود ودعوا لتأييده النص مخصص للقاريء الأجنبي قبل السعودي، لذلك فإن النبذات المختصرة الضرورية المتضمنة فيه، عن الشخصيات الرسمية السوفيتية التي قابلتها البعثة بقيت بدون تغيير. وإذا أدرك أصحاب الطابع الحامي الحاد من بين الثوار- الذين حاولوا إشعال نار الثورة في عدد من بلدان الشرق- أن المملكة كانت بعيدة عن روسيا، وتفهموا الطابع الخاص للمجتمع العربي، فإنهم لم يعزموا على التدخل في الشؤون الداخلية للمملكة، مما أنشأ أساساً جيداً للتفاهم المتبادل. وكان الملك عبد العزيز- بدوره- يحتاج إلى تعزيز المواقف الدولية، وإلى معالجة الخلاف مع إنجلترا، وتبين أن روسيا كانت قادرة على تحقيق هذا الغرض في ذلك الوقت، إضافة إلى أنها كانت شريكة تجارية جيدة، وقد راق للملك أن موسكو أقامت العلاقات معه على أساس التكافؤ في الحقوق، بدون محاولة إملاء الشروط كما تفعل ذلك إنجلترا كثيراً، وساعد على التطور الهاديء للعلاقات، أنها لم تكن مرتبطة بالمصالح الحيوية المهمة الخاصة بأية دولة من الدول.

وحيث لم تكن في موسكو بعثة دبلوماسية دائمة للمملكة، فقد جرت مباحثات بين موسكو والرياض في العشرينيات بشأن إيفاد بعثة مؤقتة إلى روسيا، أي وقد دبلوماسي برئاسة فيصل، غير أن الزيارة قد أرجئت. وفي سنة ١٩٢٧، وتحديدًا في الثاني من ذي الحجة سنة ١٣٤٥هـ، أرسل الملك عبد العزيز خطاباً إلى سكرتير اللجنة التنفيذية المركزية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية «ميخائيل كالينين»، أخبره فيه أن الظروف اضطرت نجله فيصل إلى «عدم زيارة الاتحاد السوفياتي»، ودعا الله تعالى أن يتيح الفرصة لتلبية دعوة إيفاده في المستقبل. وفي أوائل الثلاثينات تغير الوضع في المملكة، فمن ناحية انتهت عملية توحيد أراضي الوطن سنة ١٩٣٢ تقريباً، ومن ناحية أخرى، ازداد الوضع المالي والاقتصادي في الدولة سوءاً عقب

عدة سنوات من الأزمة العالمية التي شملت جزيرة العرب أيضا. وشهد الاتحاد السوفيتي تطوراً كبيراً ووطد مواقعه، وهذا ما أدركه بن سعود جيداً، فغدت موسكو شريكة جذابة على نحو متزايد من الناحية الاقتصادية، وكان في وسعها أن تصدّر المواد الغذائية ومنتجات البترول، بل الآلات والمعدات أيضا. وفي الوقت ذاته اتضح ان محاولات إشعال شرارة الثورة العالمية- التي سبق ان لجأت موسكو إلى القيام بها في اوائل العشرينيات- طواها النسيان تماما. لقد كانت السمعة السيئة للبلاشفة الروس في ابتعادهم عن الدين، عامل تقييد خطير بالنسبة إلى عبد العزي، ولكن لم يكن بوسع بن سعود أن يعلم علم اليقين كل الأمور الدالة على إلحاد السلطات الروسية. أضف الى ذلك، أن المكسب الفعلي الطائل من التقارب مع الاتحاد السوفيتي في هذه المرحلة حجب كل جوانبه السلبية، وكان بمقدور الملك الذي يفيض ثقة بالنفس تماما، ألا يخشى أي تأثير سلبي لموسكو- مهما كان في الوضع الداخلي في المملكة.

هذا ما حدا بالملك عبد العزيز إلى أن يقرر لدى إعداد جولة الأمير فيصل في جملة من البلدان الأجنبية عام ١٩٣٢م (فرنسا، وانجلترا، وبولندا، وتركيا وروسيا ضمن هذه البلدان أيضاً)، وفي ١٥ ذي القعدة سنة ١٣٥٠هـ (٢٢ مارس سنة ١٩٣٢م) أرسل فؤاد حمزة الذي كان وكيل الأمير فيصل خطاباً إلى شاكرا إسماعيلوف القائم بأعمال مفوضية الاتحاد السوفيتي في المملكة، أخبره فيه أنه : « تقرر إيفاد بعثة سياسية إلى الدول الصديقة ومن ضمنها روسيا، وقد عهد إليّ بأن أستعلم منكم عما إذا كانت حكومتكم ترحب بقدم بعثة كهذه أم لا؟ وفي حال الموافقة، فإن زيارة روسيا يمكن أن تقع في يونيو القادم، وفي ٢٥ مارس طلب إسماعيلوف موافقة موسكو على ذلك، وفي ١٥ أبريل سنة ١٩٣٢م/٩ ذي الحجة سنة ١٣٥٠هـ أرسل سكرتير اللجنة التنفيذية المركزية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ميخائيل كالينين خطاباً إلى بن سعود هذا نصه :

صاحب الجلالة أنتهز فرصة عودة السفير فوق العادة والوزير المفوض « نظير تيرياكولوف » إلى جدة بعد انتهاء إجازته، وأرغب في تأكيد مشاعر الاحترام العميق لجلالتكم ولشعبكم الكريم .

إنه لخبر سار ذلك الذي تلقيناه، عن الزيارة التي سيقوم بها نجلكم الكريم صاحب السمو الأمير فيصل إلى موسكو صيف هذا العام، وذلك لأنها تعد واحدة من المظاهر السعيدة للصدقة التي تربط بين بلدينا، ومن خلال ضيفنا المحترم سيكون لنا الشرف أن نحیی كذلك جلالتكم زعيم الدولة الصديقة لنا .

وإني على ثقة بأن العلاقات الصادقة بين بلدينا سوف تتطور إلى الأمام نحو الصيغة الأقوى والمليئة لصدقتنا، وأن كلا الطرفين سوف يبذل ما في وسعه من أجل تحقيق مهمة تلبية المصلحة العليا لبلدينا، من خلال تعزيز العلاقات المتبادلة وتقويتها . في الختام، أرجو من جلالتكم أن تتقبلوا أطيب تحياتي الصادقة .

(كاليين) :

صدق عليه: نائب مفوض الشعب للشئون الخارجية (كاراخان) وقد تلقى الرد الآتي من بن سعود المؤرخ في ٨ محرم ١٣٥١هـ (١٤ مايو ١٩٣٢) :

صاحب السيادة :

تلقيت بشعور الرضا العميق تحياتكم التي تضمنها خطابكم الكريم، الذي أرسلتموه لي من خلال صاحب السعادة الوزير المفوض والمبعوث فوق العادة لحكومتكم الموقرة في بلدنا « نظير تيرياكولوف . » تلقينا بكل ترحيب تمنياتكم الطيبة التي وجهتموها لي ولشعبي، وأبعث لكم شخصياً، ولشعب اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية تأكيدنا باحترامنا الأسمى لكم وحرصاً على تعزيز علاقات الصداقة القائمة بين بلدينا، نوفد

اليكم نجلنا الأمير فيصل في زيارة لسعادتكم ولبلدكم الصديق، ونحن على ثقة تامة بأن هذه الزيارة ستسهم في تطوير علاقات الصداقة بين بلدينا، تلك العلاقات التي نتطلع باستمرار إلى توطيدها وتعزيزها .

وتفضلوا سيادتكم بقبول فائق الاحترام والتقدير .

obeikan.com

عبد العزيز بن سعود آل سعود

كان عقد معاهدات الصداقة والتجارة - التي جرت المباحثات بشأنها مدة طويلة - المهمة الرئيسية لموسكو في ما يتعلق بالملكة العربية السعودية، ولقد وضع عبد العزيز نصب عينيه مهمة الحصول على قرض تجاري من موسكو، وكان كل من الطرفين مستعداً لأن يستجيب لرغبة الشريك وفق شروطهما فقط، علاوة على ذلك، كانت هناك أيضاً قضايا لم يتم التوصل إلى حل لها في العلاقات بين الدولتين .

وكانت قضية الأوقاف في الدول الأجنبية واحدة من تلك القضايا المعلقة، وتقدمت الرياض بالدعوى إلى إنجلترا وفرنسا قبل غيرهما، وتحديداً إلى مستعمراتهما، وطلبت التنازل لها عن الأراضي العقارية، كما قدمت مطالب مماثلة حيال روسيا أيضاً، رغم أنه لم يكن هناك كثير من الأوقاف فيها (فقد تم تأميمها كلها حينذاك، ولم تشأ موسكو أن تعمل أي استثناء - مهما كان - في القانون العام) .

كان تأمين وصول الحجيج المسلمين من الاتحاد السوفيتي إلى الحجاز قضية أخرى، وعلى رأي الطرف السعودي كان من الممكن شطب مسألة التضييق على الإسلام في الاتحاد السوفيتي لو بلغ عددهم من ١٠-١٥ ألف حاج سنوياً. بيد أن الدولة التي كان الإلحاد فيها أيديولوجية رسمية، لم تكن مستعدة - للأسف - لتأمين حرية العقيدة الدينية التي أعلنتها، وحاول الطرف الروسي إقناع الشركاء السعوديين بأن تأدية الحج أمراً شخصياً بحتاً للمؤمنين، وزعم بأنه ليس في مقدور الدولة أن تفعل شيئاً في هذا الشأن. وأصر المفوض « نظير تيرياكولوف » على أن عقد المعاهدات لا ينبغي أن يربط بحل قضية الأوقاف والحجيج . أقدم الطرف السعودي على تقديم بعض التنازلات،

ولكن الرياض لم تكن لديها رغبة في أن يصل إلى البلاد عدد كبير من الحجيج، فقد كانت هناك شكوك حول انتمائهم الحقيقي للإسلام، وأخبر فؤاد حمزة في أثناء المباحثات مع نظيره «تيرياكولوف» بأن المعاهدة التجارية مع الاتحاد السوفيتي يمكن أن تعقد وفق الشروط الآتية :

١. تمتنع الحكومة السوفيتية عن تأسيس تمثيل تجاري في البلاد، وهو الذي من شأنه لو حدث ان يماثل نظام الامتيازات الأجنبية، ويكون سابقة للأخرين .
٢. تُعلن الحكومة السوفيتية أنها لن تقوم بإغراق السوق بالبضائع .
٣. على التجارة السوفيتية، ألا تسهم في هبوط الأسعار في السوق أو تحدث ما يشبه ذلك .
٤. يتم بيع البضائع السوفيتية خلال مدة معينة، بواسطة الحكومة التي يجب أن تعقد معها اتفاقية خاصة بالقرض التجاري .
٥. تعقد المعاهدة التجارية لمدة ٣ - ٤ سنوات .

لم يتقبل الطرف الروسي هذه الشروط ، ولكن المباحثات لم تنقطع، وكانت موسكو تأمل أن تقدم الرياض في ظروف سوء الوضع المالي والاقتصادي الشديد في جزيرة العرب، مزيداً من التنازلات. علاوة على ذلك، ظلت قضية أخرى مختلف عليها لم تتم تسويتها، ذات صلة مباشرة بالعلاقات التجارية والاقتصادية بين الدول، ألا وهي قضية دين النفط ، وأخيراً، كان النظام التمييزي فيما يتعلق بالبضائع الروسية الذي وضع موضع التطبيق في المملكة سنة ١٩٢٨م، عقبة جسيمة على طريق تنفيذ شروط الرياض بالنسبة لموسكو.

كان على الأمير فيصل خلال زيارته للاتحاد السوفيتي أن ينظر في مجمل العلاقات الشاملة مع موسكو، وأن يحاول حل المسألة الخاصة بالقرض

التجاري. في الثامن عشر من مايو، سافر الأمير بالطائرة من أمستردام إلى برلين، يرافقه حرس شرف يضم عشرين طائرة. وبعد برلين توجه فيصل إلى بولندا ومنها إلى موسكو، وفي التاسع والعشرين من مايو، يوم وصول الأمير فيصل نشرت في صحيفة «إزفيستيا»، الناطقة الرسمية بلسان اللجنة التنفيذية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، مقالة جاء فيها تقييم لحالة العلاقات بين المملكة العربية السعودية.

أشارت المقالة إلى أنه في ظل الاستبداد العثماني، ظهر وضع خاص في وسط جزيرة العرب - في نجد - وفي العالم العربي بأسره تقريباً: «إن التنظيم العشائري والديني المتين للقبائل النجدية (الوهابيين)، والموقع الملائم لما يشغلونه من الأراضي (صحراء العرب) مهدأ لها إحراز استقلال نسبي، والحفاظ عليه ضمن تشكيل الامبراطورية العثمانية». وورد في المقالة أن إنجلترا استخدمت العرب ضد تركيا، ولم تف بالوعود التي قطعتها على نفسها للشريف حسين، بخصوص إنشاء مملكة عربية مستقلة تضم كل الأراضي العربية، بل تقاسمت مع فرنسا الأراضي الواقعة تحت الانتداب، أما الشريف حسين الذي حاز مقاليد الإدارة في الحجاز «فقد تبع إنجلترا في كافة الأمور»، وبموجب المعاهدة المعقودة سنة ١٩١٥م أصبحت نجد «محمية لإنجلترا»، ثم انتقل كاتب المقالة - المعتمد من دون شك من قبل أعلى السلطات السوفيتية - بالحديث إلى ما حققته حركة بن سعود من نجاح في ضم أراضي جزيرة العرب، منطلقاً في تقييمها على إنها حركة تحرر وطنية، وأشار بوجه خاص إلى أن «الاتحاد السوفيتي أول دولة اعترفت باستقلال الدولة الجديدة بلا شروط، وأقامت العلاقات الدبلوماسية الطبيعية معها»، وقومت نجاحات السياسة الخارجية للمملكة حق التقييم، وعلى وجه الخصوص، الاعتراف بها من جانب دول العالم الكبرى الأخرى. أما ما يخص علاقات المملكة مع اليمن فإنها - كما ورد في المقالة - «تعد أكثر علاقات الصداقة ودية، رغم كل الجهود التي تبذلها أجهزة المخابرات الإنجليزية لإثارة التطاحن والاشتباك بينهما، ومن ثم إضعافهما». «حظيت سياسة الملك الداخلية بتقدير عال أيضاً» ففي السياسة الداخلية أجرت حكومة الحجاز / نجد - وتجري - جملة من

الإصلاحات الهادفة أساساً إلى إنشاء إدارة حكومية مركزية قوية، وهي مقدمات ضرورية لتحقيق النجاح في مواصلة النضال من أجل الاستقلال الوطني» .

وفقاً لكاتب المقال ما جاء في مجلة « أولتريماري » الشهرية الصادرة في روما، فإنه يذكر رأيه عن أهمية المملكة ويقول: « أصبحت جزيرة العرب بعد الحرب العالمية الأولى، مركزاً للاتصال بين القارات، فإن طرق السيارات والطرق الجوية التي تقطع شبه الجزيرة من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج العربي، وسكة الحديد الجاري تخطيطها تربط - أو ستربط - بأقصر طريق ثلاث قارات، وستضفي على هذا البلد الأهمية التي لم يحظ بها حتى الآن، ويضاف إلى كل ما سبق ذكره الأهمية التجارية المتزايدة لشبه الجزيرة العربية» . وجاء في المقالة أن زيارة الوفد الحكومي السعودي « تهدف إلى توطيد الروابط الدولية للدولة العربية الناشئة، وأعرب عن الثقة بأن قدوم الوفد إلى الاتحاد السوفيتي، واتصاله المباشر بأعضاء الحكومة السوفيتية، سيؤدي إلى تدعيم العلاقات الودية ومضاعفتها وتقويتها بين البلدين» .

لقد دل نشر مقالة شبه رسمية كهذه - مثلها مثل مستوى استقبال الوفد على الأهمية العظيمة التي أضفتها السلطات السوفيتية على العلاقات مع المملكة العربية السعودية، ومن الطبيعي أن السلطات المذكورة عملت جاهدة على اظهار حركة بن سعود على أنها حركة معادية للإنجليز ومناهضة للاستعمار، واستغلال العلاقات مع المملكة، من أجل إضعاف نفوذ إنجلترا في الشرق الأوسط ، وهو الذي كان إحدى المهام الرئيسية لسياسة موسكو الخارجية في المنطقة تلك الأيام . عندما عبر القطار الذي كان يقل الوفد إلى موسكو الحدود البولندية - السوفيتية ، كان في استقباله رئيس القسم الشرقي الأول لمفوضية الشعب للشؤون الخارجية «سيرجي باستخوف» ، و «بولياكوف» ، والمفوض السابق للاتحاد السوفيتي في الحجاز «كريم حكيموف» . ووصل مع الأمير فيصل إلى روسيا نائب وزير

الخارجية السعودية فؤاد حمزة، ومرافق الأمير خالد الأيوبي، وسكرتير الوفد شاهر السمان، وحاشية الأمير. سار القطار من الحدود السوفيتية- البولندية عبر أراضي روسيا البيضاء وروسيا، وقد يبدو للوفود التي تعودت على الطيران السريع أن مثل هذا التنقل شاق ومتعب، إلا أنه كان في تلك الأيام رحلة سهلة، وشهدت موسكو استقبالاً حافلاً للأمير فيصل، زينت محطة سكة حديد بيلوروسكو- بالتيسكي صباح التاسع والعشرين من مايو بالأعلام وشعارات الدولة الرسمية السوفيتية والسعودية؛ بمناسبة قدوم الوفد، ولعله أول مرة ترفرف على إحدى المحطات الرئيسية في العاصمة الروسية رايتة كتب عليها « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله »، وعلى الرصيف كتابة باللغة العربية « أهلاً وسهلاً » واستقبل الضيوف لفيف من كبار المسئولين الذين تقرر أن يجتمع الأمير فيصل معهم أيضاً، وأظهر حضورهم المستوى العالي للاستقبال والاهتمام البالغ بالضيف الكريم، وهم : القائم بالأعمال مفوض الشعب للشئون الخارجية كريستينسكي، ونائب مفوض الشعب للشئون الخارجية كاراخان. ونائب مفوض الشعب للأسطول البحري الحربي، ونائب رئيس مجلس الثورة العسكرية «كامينيف»، وقائد منطقة موسكو العسكرية « كورك»، ورئيس مجلس موسكو « بولجانين»، والمسؤولون في مفوضية الشعب للشئون الخارجية، والسفير الإيراني في الاتحاد السوفيتي «ياكريوان»، وممثلو الصحف .

عندما خرج الأمير فيصل من عربة القطار تنأهى إلى الأسماع أمر: «انتباه»، فوقف حرس الشرف موقف الاستعداد، وطلب رئيس الحرس من الأمير التقدم لاستعراض حرس الشرف الذي كان جاهزاً للاستعراض، واستعرض الأمير برفقة : كامينيف وكورك وكريستينسكي وكاراخان وأعضاء الوفد حرس الشرف، الذي كان مؤلفاً من وحدات المشاة والفرسان التي مرت أمامه بالخطأ، غير أن الوقت المتاح للراحة كان ضيقاً، ففي الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثلاثين من اليوم نفسه استقبل الوفد من جانب رئيس اللجنة

التنفيذية المركزي لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية «ميخائيل كالينين»، الذي كان رئيس الدولة شكلياً، مع إنه يقبض على زمام السلطة بثبات واستمرار وبطريقة مرتبة محكمة، ولعل هذه أول مرة يتعامل فيها الأمير فيصل مع رجال دولة من هذا النمط .

أصبح كالينين (١٨٧٥ - ١٩٤٦م) -العامل المتحدر من أسرة ريفية ثوريا محترفاً. تعرض للاعتقال مراراً في الامبراطورية الروسية. كان كالينين رئيساً للجنة التنفيذية المركزية لعموم جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية منذ عام ١٩١٩م، وبعد ذلك أصبح رئيساً للجنة التنفيذية المركزية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، منذ تشكيلها عام ١٩١٢م حتى وفاته عام ١٩٤٦م، وبين عام ١٩٢٥م إلى ١٩٤٦م كان عضواً في الهيئة القيادية العليا للحزب الحاكم المكتب السياسي .

وفي الساعة الثانية بعد ظهر اليوم نفسه أقام كالينين مأدبة تكريمية للوفد الحكومي السعودي، حضرها نائب رئيس مجلس مفوضي الشعب «كويبيشيف»، وأعضاء حكومة الاتحاد السوفيتي وروسيا الاتحادية، ومسؤولو هيئة مفوضية الشعب للشؤون الخارجية وأعضاؤها (كافة الوزارات في الاتحاد السوفيتي، في تلك الأيام كانت تسمى مفوضيات الشعب)، وقد ساد تلك المأدبة جو احتفالي مهيب للغاية، وكان هذا اول استقبال رسمي لشخصية قيادية من دولة عربية في تاريخ روسيا. وسنحت الفرصه للأمير فيصل أثناء حفلة الاستقبال أن يتعرف إلى عدد من الشخصيات المميزة من الصفوة السوفيتية العليا، مثل فاليريان كويبيشيف (١٨٨٨-١٩٣٥م) المنحدر من أسرة نبيلة غالبها ضباط، وكان منذ مرحلة الدراسة في المدرسة الحربية الخاصة للصفوة المختارة من الطلاب (في روسيا القيصرية) يخوض النشاط الثوري. ثم أصبح ثورياً محترفاً، وكان إدارياً بارزاً يدبر الشؤون الاقتصادية، وشارك في وضع خطة التنمية الخمسية الأولى، وفي السنوات ١٩٢٧-١٩٣٥م كان عضواً في المكتب السياسي أيضاً .

وتبادل الأمير فيصل ورئيس اللجنة التنفيذية المركزية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ميخائيل كالينين الكلمات .

قال كالينين :

السيد النائب وزير الخارجية :

يسرني أن أحيي بقدمكم إلى الاتحاد السوفيتي ممثلاً رفيعاً لدولة صديقة لنا هي حكومة الحجاز ونجد وملحقاتها، أحيي من خلال شخصكم زعيمها جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود . حملت العلاقات بين بلدينا خلال سنوات عديدة طابع الصداقة الحقيقية، وتعد زيارتكم للاتحاد السوفيتي- بلا شك- أحد المظاهر السعيدة للصداقة التي تربط بلدينا .

وبهذا السرور أرحب بكم في عاصمة اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية، لأنكم تمثلون حكومة شعب عربي استطاع بعد الحرب العالمية وبفضل سياسة قيادته الشجاعه والرائدة والبعيدة النظر أن يحرز ويعزز استقلاله التام الذي يعد شرطاً ضرورياً للتطور الاقتصادي والثقافي للبلد . إن الاتحاد السوفيتي، حكومة وشعباً، يتابع باهتمام شديد التطور الموفق لسياسة الحكومة التي تمثلونها، الموجهة للدفاع ولحماية الوجود المستقل للشعب العربي، وإلى تعزيز رفاهيته الاقتصادية والثقافية .

وانني لأعرب عن ثقتي بأن الصداقة بين دولتي، تلبى مصالح شعبينا ومنفعتهما، ولا شك أن زيارتكم إلى الاتحاد السوفيتي ستساعد على تعزيز هذه الصداقة، وأرجو منكم أن تنقلوا أطيب تمنياتي بالصحة والرخاء للملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود . كذلك ومن خلال شخصكم، أحيي بحرارة الممثل الرفيع للحكومة الصديقة لنا، وقائد سياستها الخارجية، وأتمنى بصدق وحرارة، التقدم والازدهار للشعب العربي والتطور المستمر، وتعزيز روابط الصداقة بين شعبينا .

قال الأمير فيصل رداً على هذه الكلمة :

السيد الرئيس :

أشكركم بحرارة على كلمة الترحيب التي توجهتم بها لي بمناسبة وصولي إلى بلدكم، وأشكركم أيضاً أيها الرئيس وبقيّة مسؤولي الدولة على ما لقيته من الاستقبال المشرف .

إنني لسعيد بزيارة الاتحاد السوفيتي الذي تربطه بحكومة مليكي جلالة الملك عبد العزيز، أوثق عرى الصداقة، وبلا شك فإن هذه الزيارة، ستخدم التوطيد الأكيد لأواصر الصداقة في المستقبل. وأمل أن تسهم اتصالاتي الشخصية في حل ما يهّم مصالح الطرفين بروح الصداقة والإخلاص، وأرى لزاماً عليّ أن أشكركم أيها السيد الرئيس على تلك المشاعر الطيبة التي تفضلتم بالتعبير عنها، تجاه صاحب الجلالة الملك وبلده وشعبه، وبالشعور نفسه استقبلت بسعادة بالغة تصريحكم الذي عبرتم فيه أنكم تتابعون باهتمام بالغ التطور الاقتصادي والثقافي في بلدنا، وإنني أسألكم أن تولوا لنا أيضاً في المستقبل اهتماماً أكبر، مما يجلب المنفعة لكلا الطرفين .

إن الحفاوة الرائعة التي لقيتها في بلدكم، وشعور المودة تجاهي ومرافقي، تركت أثرها الطيب في نفسي، وإنني لعلّي ثقتاً أن هذه الزيارة، ستساعد على توثيق علاقاتنا، وسنحتفظ لها بأطيب الذكريات . مرة أخرى أشكركم لموقفكم الصادق، وأتمنى لكم سيادة الرئيس، ولشعب الاتحاد السوفيتي الازدهار والسعادة . جرى تنظيم العديد من حفلات الاستقبال، ففي مساء اليوم نفسه، أقام القائم بأعمال مفوض الشعب للشئون الخارجية نيكولاي كريستينسكي حفلة استقبال بمناسبة وصول الأمير فيصل إلى روسيا. أما مفوض الشعب للشئون الخارجية مكسيم ليتفينوف - الذي كان قد عين في هذا المنصب عام ١٩٣٠ - فلم يكن في موسكو في ذلك الوقت. ولم يحضر حفلة الاستقبال في مفوضية الشعب للشئون الخارجية أعضاء الحكومة ورؤساء إدارات السياسة الخارجية فقط، بل حضرها سفراء الدول الأجنبية المعتمدون

في موسكو. إن زيارة الأمير فيصل غدت منذ اليوم الأول حدثاً مشهوداً في الحياة السياسية للدولة. كان برنامج إقامة الوفد يتضمن الاطلاع الواسع على مختلف نواحي حياة الدولة الروسية، بالإضافة إلى المحادثات الرسمية، أبدى الأمير فيصل اهتماماً عاماً، بحالة القوات المسلحة السوفيتية، ففي الثلاثين من مايو زار الأمير وأعضاء الوفد المقر المركزي للجيش الأحمر، حيث استقبلهم كامينيف وكورك. كان سيرجي كامينيف (١٨٨١-١٩٣٦) رجلاً عسكرياً متعلماً تعليماً متطوراً، ورجلاً وسيماً ذا شوارب طويلة ضخمة، وينتمي إلى ما يسمى الخبراء العسكريين، أي الضباط الذين انتقلوا من الجيش القيصري للخدمة في الجيش الأحمر بعد ثورة ١٩١٧. خدم كامينيف في الجيش القيصري حتى رتبة عقيد، وفي عام ١٩٣٥ تم ترفيقه إلى رتبة قائد من الدرجة الأولى (التالي بعد مارشال الاتحاد السوفيتي) ولد أغسطس كورك في عام ١٨٨٧ بإستونيا، ومنذ عام ١٩٣٥ أصبح قائداً من الدرجة الثانية، وفي عام ١٩٣٧ تم التنكيل به جنباً إلى جنب مع مجموعة كبيرة من العسكريين. وقام الضيوف بجولة في القاعات الخاصة بالعلوم ومعرض المقر المركزي للجيش الأحمر ومكتبته، وتعرفوا إلى ما فيها، وأتيحت لأعضاء الوفد -نهاراً- فرصة التمتع بمشاهدة المشهد الذي كان أقرب إلى نفوسهم -مقارنة بالمسرح ألا وهو سباقات الخيل في ميدان موسكو لسباق الخيل، حيث جاء إليه كاراخان وكامينيف وكورك ومسئولو مفوضية الشعب للشئون الخارجية وأعضاء السلك الدبلوماسي (إن روسيا مشهورة بخيولها، فما كان لسباقات الخيل إلا أن تولد انطباعاً عميقاً لدى الأمير)، وفي المساء شاهد الوفد باليه «دونكيشوت» على خشبة مسرح بولشوي ذائع الصيت في العالم بأسره.

إن تنفيذ الجزء العسكري من البرنامج لم يتوقف، فالضيوف السعوديون كانوا في نظر القادة الموسكوفيين ممثلين للدولة التي أنشأها مقاتلون مهرة، استطاعوا تحرير أراضي جزيرة العرب وتوحيدها معاً، بالإضافة إلى ذلك أطلعوا الضيوف من الشرق - وفقاً للتقاليد المرعية- على القوات المسلحة التي كان مستوى تطورها مبعث فخار موسكو الفائق. وفي الحادي والثلاثين

من مايو زار الوفد الأكاديمية الجوية الحربية، حيث تجاذب أطراف الحديث مع الضيوف رئيس الأكاديمية خوركوف، ورئيس الأركان للقوات الجوية ميجينينوف (وهو من «الخبراء العسكريين» من طبقة النبلاء، ولد في عام ١٨٩٠، وأصبح قائد فيلق في عام ١٩٣٥، وفي عام ١٩٣٧ تم التنكيل به).

وتعرف الضيوف السعوديون باهتمام إلى ما في مكاتب الأكاديمية ومختبراتها، ثم ذهبوا إلى المطار حيث شاهدوا تحليلات استعراضية. واطلع الأمير فيصل على الصناعة الروسية أيضاً، وهي التي كانت تشهد تطوراً متسارعاً للغاية في نطاق النهج الذي اتخذته الدولة الرامي إلى تحقيق التصنيع. وقام الوفد في اليوم نفسه بزيارة مصنع السيارات المسمى باسم ستالين (مصنع أموسابقا)، وبالاستماع إلى ما قاله الضيوف، وما شهدوه في المصنع، فقد تركت هذه الزيارة في نفوسهم أثراً هائلاً.

أولت سفارة إيران اهتماماً كبيراً بالوفد، فقد أقامت في الحادي والثلاثين من مايو مأدبة تكريمية لوجوده في موسكو، ووجهت الدعوة للمشاركة فيها إلى كرستينيسكي، وأمين مفوضية الشعب للشئون الخارجية للشئون الخارجية ستومونياكوف، ونائب رئيس القسم الشرقي أوسيتروف، والمفوض السابق في المملكة حكيموف الذي رافق الوفد في كل مكان. وكذلك غيرهم من ممثلي مفوضية الشعب للشئون الخارجية. وكان من المستبعد أن يعرف كريم حكيموف في ذلك الوقت إنه كان من المقرر أن يسافر في المستقبل القريب إلى المملكة العربية السعودية مرة أخرى بصفة مفوض الاتحاد السوفيتي، وأن يمكث هناك حتى توقف العلاقات الدبلوماسية بين المملكة وبلاد السوفييت في عام ١٩٣٨م. ناهيك عن أنه كان من المستبعد أن يدرك أنه سيعامل المعاملة القاسية نفسها التي عامل بها الآخرين، الذين قضت عليهم آلة التنكيل الستالينية، التي لم تفلح في تلك الأيام في بلوغ قساوتها المحققة بعد. وفي عام ١٩٣٢م كان نظير تيرياكولوف الممثل المفوض للاتحاد السوفيتي في المملكة. وقد رله أيضاً أن يذهب ضحية للتنكيل والاضطهاد.

كان برنامج إقامة الوفد في موسكو مشحوناً للغاية، وكان الحادي والثلاثين من مايو يوماً للقاءات بالغة الأهمية، واستقبل «فيتشيسلاف مولوتوف» الذي كان رئيساً لمجلس مفوضي الشعب (كانت تلك هي تسمية حكومة الاتحاد السوفيتي آنذاك) الأمير فيصل وفؤاد حمزة، وجرت محادثة حول التنمية اللاحقة للعلاقات بين البلدين. كان فيتشيسلاف مولوتوف (١٨٩٠-١٩٨٦م) واحداً من أبرز رجال الدولة والحزب في البلاد وأقرب أنصار ستالين، وعاش طويلاً وشهد كافة مراحل تاريخ البلاد السوفيتية من عهد لينين إلى فترة جورباتشوف. وقد ترأس الحكومة في الفترة من سنة ١٩٢٣م حتى ١٩٤١م، وكان وزيراً للخارجية لسنوات عدة فيما بعد، وفي السنوات ١٩٢٦-١٩٥٧م كان عضواً أيضاً في الهيئة القيادية العليا للحزب الحاكم. كان ممشوق القوام، قصير الشعر. ولعل هذا المظهر الخارجي الأنيق لمولوتوف يذكر الأمير الشاب بموظف أوروبي غربي أكثر من أنه رئيس بلشفي.

شارك في المحادثات مع الأمير فيصل ونائبه في أثناء الاجتماع مع مولوتوف كل من: كريستينسكي، ونائب مفوض الشعب للشئون الخارجية كاراخان، وغيرهما من رؤساء مفوضية الشعب للشئون الخارجية. إن ليف كاراخان (١٨٨٩-١٩٣٧م) نجل محام، ولد في تفليس (تبليس)، وكان من أكثر الدبلوماسيين السوفيت خبرة، وأصبح نائباً لمفوض الشعب للشئون الخارجية في سنة ١٩١٨م، حينما كان جيورجي تشيشيرين (١٨٧٢-١٩٣٦م) رئيس إدارة السياسة الخارجية الروسية ثم السوفيتية، وكان مسؤولاً عن متابعة العلاقات مع بلدان الشرق، ومن ضمنها المملكة العربية السعودية حتى سنة ١٩٣٠م. كانت مارينا سيمينوفا زوجة كاراخان راقصة شهيرة بمسرح البولشوي، وكانت تعيش في موسكو حتى رحيلها. ولم يبتسم الحظ كثيراً لزوجها! فقد ذهب ضحية للتنكيل والتصفية أيضاً. وقبيل الزيارة، سمح الوقت للوفد أن يشاهد نفائس متحف الأسلحة الواقع في الكرملين، حيث تعرفوا إلى الكنوز التاريخية للإمبراطورية الروسية في ذلك المتحف

الذي يضم كثيراً من النفايس القيمة التي تعود إلى عهد القياصرة الروس . في الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم نفس وصل الوفد الى مجلس موسكو « الهيئة العليا للسلطة التنفيذية والتشريعية في العاصمة » ، حيث استقبله رئيس مجلس موسكو « بولجانين » وأعضاء هيئة رئاسة مجلس موسكو واللجنة التنفيذية لمدينة موسكو. لم يكن بولجانين (١٨٩٥ - ١٩٧٥م) من جماعة الثوريين المحترفين البارزين. لقد كان من فئة المثقفين وانضم إلى صفوف البلاشفة، بعد عدد من القادة الآخرين الذين قابلهم الأمير فيصل، ولم يكن من الصفوة الحزبية الرفيعة. وتولى - لاحقاً - منصب وزير الدفاع ، وأصبح مارشال الاتحاد السوفيتي عام ١٩٤٧م، ورئيس مجلس الوزراء للاتحاد السوفيتي في السنوات ١٩٥٥ - ١٩٥٨م، ولم يصبح عضواً في الهيئة القيادية العليا للحزب إلا في عام ١٩٥٨م، وكان رئيساً لمجلس موسكو في السنوات ١٩٣١ - ١٩٣٧م .

قال بولجانين مخاطباً الأمير فيصل : إنه يحيي عبر شخصه البلد الذي أحرز استقلاله ووطده على هذا القدر من الشجاعة والتفاني، وقال بولجانين: «إن زيارة الوفد لموسكو، العاصمة التي تشهد تطوراً عارماً وواسع النطاق في البناء، سواء في عاصمة الاتحاد السوفيتي أو الاتحاد السوفيتي بأجمعه، وحيث أن كادحي الاتحاد السوفيتي منهمكون جميعاً في هذا البناء، فإنهم مع ذلك يتابعون ببالغ الاهتمام والتعاطف التطور السياسي والثقافي لشعب الحجاز - نجد - وعبر رئيس موسكو عن ثقته بأن قدوم الوفد سيعزز علاقات الصداقة الودية بين شعوب الاتحاد السوفيتي والمملكة العربية السعودية، وتسنى للأمير فيصل أن يتأكد مرة أخرى من أنهم في روسيا يعيرون العلاقات مع بلده الاهتمام، وفي الكلمة المقابلة أعرب الأمير عن شكره العميق على حسن الاستقبال، وشعور الصداقة والأخوة التي عبر عنهما رئيس مجلس موسكو، وقال: « إن المملكة العربية بلد متخلف الآن، غير أن وضعاً كهذا لن يستمر لفترة طويلة، فحتماً ستتبوأ مكانتها بين الشعوب الأخرى، وستدرك البلدان الأوروبية في التطور الاقتصادي والثقافي ». وترك الأمير الشاب بما أبداه من

الذكاء وحسن البيان والثقة بالنفس، والتواضع واللطف والود أثراً كبيراً في نفوس مستقبلية. وأكد الأمير في معرض كلمته صفاء العلاقات الودية المتبادلة بين الاتحاد السوفيتي والمملكة العربية السعودية، وأعلن أنها ستساعد على تقدم بلده وازدهارها. ولم يتوقع الحاضرون أن كلمة الأمير حول مستقبل بلاده ستغدو مؤشراً ببوادر طيبة، وأنها ستشهد خطوات واسعة جداً في تطورها .

وفي مساء اليوم نفسه، زار الوفد مسرح بولشوي مرة أخرى، حيث طربوا، لسماع أوبرا «كارمن» للموسيقار الفرنسي «بيزيه». واصل الوفد التعرف إلى الحياة الثقافية في البلد، ففي الأول من يونيو، زار الأمير فيصل وأعضاء الوفد برفقة رئيس التشريعات بمفوضية الشعب للشئون الخارجية لفلورينسكي، وغيره من المسؤولين حديقة الثقافة والراحة المركزية. وأطلعت مديرة الحديقة الضيوف على المباني الرئيسية في الحديقة، ومدينة الأطفال والساحات الرياضية، وقدم تلاميذ مدرسة الرياضة البدنية الجماهيرية أمام الضيوف عرضاً من التمرينات الرياضية. كان الاطلاع على الحياة الرياضية والمسرحية في العاصمة، يدخل في عداد المراسم الخاصة بإقامة جميع ضيوف الشرف للحكومة في الاتحاد السوفيتي، وفي نهاية الجولة شاهد الضيوف السعوديون بعض العروض من برنامج السيرك .

استمرت تنفيذ الجزء العسكري من زيارة الوفد في الثاني من يونيو، حيث قام الأمير فيصل مع أعضاء الوفد برفقة باستوخوف وفلورينسكي وحكيموف، وغيرهم من مسؤولي مفوضية الشعب للشئون الخارجية بزيارة معسكرات أكتوبر العسكرية، واستقبل الضيوف كامينيوف وكورك ورئيس دورة معسكر أكتوبر يجوروف، وأتيحت للأمير فرصة حضور التدريبات الفنية بعض الوقت، ثم تعرف إلى حياة أفراد الجيش الأحمر في المعسكر . وفي مساء اليوم نفسه، وبموجب البروتوكول المعتاد في الاتحاد السوفيتي، فقد حان وقت البرنامج الثقافي، وزار الوفد المسرح التجريبي، حيث شاهد أوبرا «سيفيلسكي

تسيريونيك» للموسيقار الايطالي «روسيني»، وبعد ذلك شاهد الضيوف فيلماً، تم تصويره عن قدوم الوفد إلى موسكو وإقامته.

وفي الثاني من يونيه كان كريستينسكي وكورك، وجمع من مسئولو مفوضية الشعب للشئون الخارجية، قد ودعوا الوفد السعودي للقيام برحلة إلى لينينجراد تستغرق يومين. غادر القطار محطة أكتيابرسكي في العاصمة إلى لينينجراد في وقت متأخر من المساء. ووصل إلى العاصمة الشمالية لروسيا في صباح اليوم التالي. وكانت لينينجراد (التي عرفت سابقاً باسم بطرسبورغ ثم بيجرجراد) حتى سنة ١٩١٨م، عاصمة روسيا، حيث عاش فيها الأباطرة الروس خلال قرنين، وفي الثالث من يونيو، كانت محطة «موسكوفسكي» في لينينجراد - مثلها مثل المحطة في موسكو مزينة بالأعلام والشعارات السوفيتية والسعودية، ورفعت راية الإسلام الخضراء على المحطة هنا لأول مرة، وأعد للوفد استقبال حافل، لا يقل عن الاستقبال الذي حدث في موسكو، واستقبل الوفد في لينينجراد كل رؤساء المدينة: رئيس مجلس لينينجراد «كاداتسكي»، وقائد وحدات منطقة لينينجراد العسكرية بيلوف، ونائبه رئيس مجلس لينينجراد «بوجدانوف»، ووكيل مفوض الشعب للشئون الخارجية في لينينجراد «فاينشتين»، وغيرهم. أخذت الفرقة الموسيقية تعزف بالآت النفخ النحاسية.

ثم طلب رئيس حرس الشرف رئيس مدرسة المشاة الأولى في لينينجراد - كالفان - من الأمير استعراض حرس الشرف، وكما جرى في موسكو استعرض الأمير فيصل برفقة المستقبلين وأعضاء وفده، طابور حرس الشرف من المشاة والفرسان، وبعد ذلك أنزل الوفد الذي رافقه «حكيموف» في فندق «استوريا» - أرقى فندق في لينينجراد وقتها - حيث كان ينزل فيه الضيوف عادة، وفي هذا اليوم نفسه بدأ تنفيذ برنامج لينينجراد المشحون بالزيارات الخاص باقامة الأمير فيصل في الاتحاد السوفيتي. فقد زار مجلس لينينجراد، حيث استقبل رئيسه «كاداتسكي» الوفد السعودي. وأطلع رئيس مجلس

إدارة المدينة الضيوف على الأعمال الجارية في لينينجراد ؛ لتعمير اقتصادها، وقبيل مغادرة قصر سمولني-مقر السلطات المحلية-شكر الأمير المضيفين ، على حفاوة الاستقبال والترحاب، وزار الضيوف السعوديون متحف إرميتاج الواقع في المقر السابق للقيصرة الروس، وهو القصر الشتوي، ومصنع « كراسنايا زاريا». وقال الأمير في معرض ثنائه على المضيفين: «إن وفدنا قد اقتنع بأنه في الوقت الذي ينخفض مستوى الصناعة في البلدان الأخرى التي زرتها، فإن مستوى الصناعة في بلدكم يرتفع ويتحسن» ، وفي الواقع ففي ظل الأزمة التي كانت مستمرة في أوروبا، كانت الأمور في مدن روسيا التي شهدت تطوراً كبيراً في التصنيع، تبدو على نحو لا بأس به، فقد تم في عام ١٩٢٢م تنفيذ خطة التنمية الخمسية الأولى، التي أرست أساس عدد من فروع الصناعة الحديثة في البلاد .

كان الملك عبد العزيز الذي عزم على تحديث المملكة، يراقب باهتمام تجربة روسيا، ولذلك فإن جولة الأمير فيصل في المؤسسات الصناعية لم تكن بالنسبة له مجرد جولة للنزهة، ولكن الأمير كان يطلع على تجربة الاتحاد السوفيتي وإمكاناته على أنه شريك للمملكة. وفي صباح الخامس من يونيو عاد الوفد إلى موسكو حيث استقبله في محطة أكتيابرسكي ليف كاراخان، وغيره من مسئولو مفوضية الشعب للشئون الخارجية. وفي ذلك اليوم نفسه أقيم في ملعب «دينامو» - أكبر ملعب في العاصمة في ذلك الوقت- حفل رياضي كبير؛ تكريماً للوفد، حضره ٤٥ ألف مشاهد، ففي روسيا يحب المواطنون الرياضة، افتتح الحفل بمباراة في كرة القدم بين منتخب موسكو وكيفيف، انتهت بالتعادل ١/١، ومن الصعب القول إن الضيوف تعصبوا- في التشجيع- لفريق دون آخر. وعقب المباراة جرى سباق التتابع ٥٥٠٠ متر للسيدات، وسباق الدراجات لمسافة كيلومتر واحد بمشاركة رياضيين من العمال الإنجليز، وسباق التتابع ١٠*١٠٠٠ متر للرجال، وسباق الانطلاق بالدراجات لمسافة ١٥ ميلاً، وسباق الدراجات النارية لمسافة ١٠ أميال.

وبعد انتهاء المباراة ذهب الوفد إلى محطة بريانسكي، وسافر منها إلى أوديسا يرافقه رئيس التشريفيات بمفوضية الشعب للشئون الخارجية فلورينسكي، ونائب القسم الشرقي الأول بهذه المفوضية « أوسيتروف » توديعات أخرى- هي الأخيرة- وحرس شرف أخير. استجاب الأمير فيصل إلى طلب استعراض حرس الشرف فصافح أفراد الجيش الأحمر. وودع مودعيه وهم : كريستينسكي وكاراخان وكامينيف ونائب قائد قوات منطقة موسكو العسكرية كوسيتش وسفير إيران باكريفان ومستشار السفارة التركية جيواد بييم، وغيرهم. ومن أوديسا أبحر أعضاء الوفد إلى إسطنبول، ورافقهم إلى هذه المدينة فلورينسكي .

هكذا انتهت أول ، وآخر زيارة رسمية قام بها الأمير فيصل إلى الاتحاد السوفيتي . لم يتسن للطرفين في أثناء الزيارة، تحقيق انطلاقة في حل كافة القضايا المتنازع عليها، ومواصلة التقارب بينهما. بيد أنه ، تم الحفاظ على العلاقات الودية الطيبة وتوطيدها، ولم تمض عدة شهور على الزيارة حتى أبلغ الأمير فيصل عن طيب خاطر في ١٦ فبراير ١٩٣٣م / ٢٢ شوال ١٣٥١هـ رداً على إستفسار الحكومة السوفيتية عن طريق المفوض تيرياكولوف- بأن جميع القيود التي كانت قائمة فيما يتعلق بالتجارة السوفيتية في المملكة العربية السعودية ألغيت اعتباراً من التاريخ المذكور.

وفي معرض الحديث الذي جرى بين الملك عبد العزيز ونظير تيرياكولوف في يونيو سنة ١٩٣٣م، أعرب المفوض السوفيتي عن أسفه ؛ لأن الإلغاء لم يتم قبيل رحلة الأمير فيصل إلى موسكو، فقد كان من الممكن أن تسير الأمور على نحو أفضل بكثير آنذاك، وعلى ما أخبر به المفوض الروسي، فإن الملك عبد العزيز اعترف بمدى صدق هذا القول، وفي الوقت نفسه قال الملك للمفوض الروسي، إنه يشعر بوجود شيء من التردد في السياسة العربية التي تنتهجها الحكومة السوفيتية. وتؤكد ذلك في نظره؛ لأن الأمير فيصل لم يتلق الرد على المسألة الخاصة بالقرض في أثناء إقامته في موسكو. وتحدث الملك آنذاك

عن الوضع الحرج للمملكة، وأنه لا يتكل إلا على الله تعالى، وأعرب أيضاً عن أمله في الحصول على المساعدة والمعاضدة من جانب روسيا وتركيا وإيران، وقد أخبر المفوض الروسي بأن الملك قال له: «إنا في حاجة إلى المساعدة السوفيتية، وأود أن أحظى بتأييد الاتحاد السوفيتي في المسائل السياسية العسكرية» .

وعلى ما يبدو، فإن إطلاع الأمير فيصل على الآلة العسكرية للاتحاد السوفيتي، أسفر عن نتائج العملية، وأدرك المفوض الروسي من اتصالاته مع المسؤولين المفوضين من جانب المملكة أن الحكومة السعودية، تطرح من جديد المسألة الخاصة بالقرض التجاري، وأضافت إليها مسألة شراء أسلحة من كافة الأنواع في الاتحاد السوفيتي .

لأسباب غير معروفة لنا، لم تُقدم الحكومة السوفيتية على منح القرض للمملكة، ولعل الإسراع بالتحديث في مرحلة تنفيذ التنمية الخمسية الثانية، قد ابتلع كافة الموارد. في حين كان ينظر إلى التقارب المحتمل مع المملكة العربية السعودية على أنه مهمة غير واقعية، أو غير ملحة. ومهما كان الأمر، فقد شهدت العلاقات الروسية-السعودية فتوراً، فاحتمال استخراج البترول أتاح إمكانيات جديدة للرياض وخفض بدرجة الاهتمام بالصدقة مع موسكو. أما تشدد نظام ستالين التعسفي، وظهور توزيع جديد للقوى في المنطقة على أعقاب الحرب العالمية الثانية، فقد أفرغها هذه العلاقات من محتواها الحقيقي. إن تحالف المملكة العربية السعودية وروسيا لم ير النور، ولم يصبح واقعاً بحكم الملابسات التاريخية الموضوعية، بيد أن إقامة الأمير فيصل في العاصمتين الروسيتين تركت أثرها في تاريخ العلاقات بين الدولتين. وكفلت استئنافها وولوجها مرحلة جديدة بظهور روسيا الحديثة . (٢٥١)

توجد الصور التي التقطت خلال زيارة الأمير فيصل والوفد المرافق له ، فى اثنين من الأرشيفات الروسية وهما: الأرشيف الحكومى الروسى للتصوير السينمائى، والتصوير الفوتوغرافى (بموسكو)، والأرشيف الحكومى المركزى للأفلام والصور (بسانت بطرسبورج) . ولكن مع الأسف، لم أتمكن من العثور على كل الصور التي تم التقاطها أثناء الزيارة، فبعضها كان فى حالة سيئة من الناحية الفنية، والبعض الآخر كان مخبئاً فى مكان ما فى تلك الأيام ، عندما كانت الشخصيات السوفيتية الرسمية الموجودة فى الصور تحت الحظر «كأعداء الشعب»، كما كان يطلق آنذاك على كل المقبوض عليهم المتهمين بارتكاب جرائم ضد الدولة (مثل الخيانة، والعداء للشورة، والتجسس، والتآمر، وغيرها) . ومع ذلك، فعشرات الصور الباقية لا تزال تعطي تصوراً عن رحلة الأمير فيصل إلى موسكو وسان بطرسبرج .

* * *

سقطرى : صفحات التاريخ (*)

كان الناس يعرفون جزيرة سقطرى حتى في الزمن السحيق، بيد أنه لم يكن معلوماً متى ومن سكنها لأول مرة؟ ولم يخاطر أحد من الباحثين حتى الآن بافتراض زمن أبعد للسكنى من عصر الدول العربية الجنوبية القديمة. ويعتقد المختصون بالتاريخ القديم للمنطقة مثل علماء الآثار الإنجليز: «ددوى»، و «ب. بوكسغول» أن الإنسان سكن الجزيرة من أجل جمع اللبان (البخور) حين كان يعد «ذهب الشرق»، وعندما انخفض الطلب علي في القرن الرابع الميلادي اضطر سكان الجزيرة الذين أصبحوا سكاناً أصليين إلى الاعتماد بالكلية على رعي الماشية وصيد السمك مما أدى إلى تدهور التنمية الزراعية والاجتماعية^{١٩٢}.

يتأكد احتمال سكنى سقطرى من قبل مواطني شبه الجزيرة العربية، لكون العرب القدامى كانوا بحارة مهرة، بيد أن الملاحة البحرية في المنطقة كما تظهر الأبحاث الجديدة التي تناولت جميع الأدلة المتاحة بالبحث المفصل كانت أكثر قدماً من الحضارات العربية الجنوبية.

(*) نشر هذا النص كفصل في كتاب : السقطريون. - موسكو:
دار نشر نافوكا: هيئة التحرير الرئيسية للأدب الشرقي، عام ١٩٩٨. ص. ٢٢ - ٤٦

193 - Doe, D. B. Socotra: An Archaeological Reconnaissance in 1967 /
D. B. Doe. - Miami, 1970.

لا يدخل البحث الفصل لهذه القضية في موضوعنا لذلك نحيل القارئ لكتاب «ت. أ. سوموفسكي» (العرب والبحر)¹⁹⁴، حيث تم إثبات الغزو المبكر جداً من قبل الملاحين لحوض المحيط الهندي. وتذكر في هذا الصدد أنه كان هناك بالفعل في الألفية الثالثة قبل الميلاد صلات بحرية بين بلاد ما بين النهرين (بلاد الرافدين) من جهة ودمون (البحرين) وماجان (عمان) وميلوفا من جهة أخرى¹⁹⁵.

كان الهنود والعرب والمصريون يجوبون بهمة أرجاء المحيط الهندي. وكان لدى العرب الجنوبيين كما نعرف جيداً، في منتصف الألفية الأولى قبل الميلاد موانئ على الشاطئ، كما أنهم اشتغلوا بالتجارة، بيد أننا لا نعرف إلا قليلاً عن العصور السحيقة. ولا يمكننا إلا أن نتكهن فقط بخصوص العلاقات المحتملة للعرب (قبل نشوء الحضارات العربية الجنوبية والقرون الأولى لوجودها) مع الهنود، أو على سبيل المثال مع الأسترونيزيون¹⁹⁶.

كانت سقطرى في الألفية الأولى قبل الميلاد تعتمد على التجار العرب الجنوبيين. وفي منتصف هذه الألفية كان للجزيرة أهمية كبيرة لتجارة الترانزيت. وقد أطلق عليها الهنود «دفيبا سو كخاديرا» أو بالسنسكريتية «الجزيرة السعيدة». ومن البديهي أن هذا يتوافق مع تسميتها اليونانية - ديوسكوريدا - وسقطرى بالمسمى العربي.

194 - Шумовский, Т.А. Арабы и море / Т.А. Шумовский // Введение к кн.: ибн Маджид, Ахмад. Книга польз об основах и правилах морской науки: Арабская морская энциклопедия XV века. Критич. Текст, пер. с араб., коммент., исслед. и указатели Т. А. Шумовского. Т.1: Исслед., пер., коммент. и указатели/ Ахмад ибн Маджид. -М., 1985.

195 - Цит. соч С. 20.

196 - Цит. соч. С. 34, о миграциях индонезийцев.

كل هذه المسميات كما افترض لأول مرة كاتب هذه السطور ترجع إلى المسمى الأصلي باللغة السقطرية di saqotri دي سقطرى. كانت الجزيرة التي تشتهر بأشجار اللبان على ما يبدو وفي تلك الأزمنة خاضعة لدولة حضرموت .

كانت سقطرى مع البلاد الجنوبية لشبه الجزيرة العربية تعد منطقة مشهورة في العالم كله، كبلد اللبان (البخور) ، ذلك أن البخور في العالم القديم كان يعد من البضائع الثمينة جداً، ويستخدم بكميات كبيرة. كان الكهنة الكلدانيون يحرقون البخور كل عام أمام مذبح بعل بمقدار عشرة آلاف مثقال. وشيدت مخازن عملاقة في القدس حيث كانت تخزن هذه الهبة - القربان للإله. وفي اليونان كانوا يحرقون البخور في كل مكان تكريماً لزيوس. وكانت السفن تأتي بانتظام من الجزيرة العربية إلى روما محملة بالبخور .

قال هيرودوت (القرن الخامس قبل الميلاد) «جزيرة العرب هي البلد الوحيد الذي ينتج لبان البخور و المرو القرفة و الصمغ . ويحصل العرب على كل هذا بصعوبة فيما عدا المر. هم يجمعون البخور بحرق العبير، الذي يحمله الفينيقيون إلى اليونان؛ يحرقونه ويحصلون على البخور، لأن الأشجار الحاملة للبخور تحرسها ثعابين مجنحة، صغيرة الحجم متعددة الألوان، وحول كل شجرة تتواجد أعداد كبيرة منها».

ولكي يحصل العرب على «السنا» على سبيل المثال فإنهم يغطون أجسادهم ووجوههم فيما عدا أعينهم بجلود البقر وجلود أخري . «والسنا ينمو في بركة ليست عميقة جداً، وحول البركة وفي داخلها يريض على ما يبدو وحوش مجنحة تشبه تقريبا الخفافيش، وهي تصرخ بأصوات مرعبة وتقاتل بشجاعة. ويجب عليهم أن يبقوها بعيدا عن أعينهم لكي يتمكنوا من قطع السنا .

أما القرفة فهم يجمعونها «بطريقة أكثر عجباً». يقولون إن طيوراً كبيرة تحمل الأعواد الجافة (التي تعلمنا من الفينيقيين أن نسميها «كينامون») إلى أعشاش مصنوعة من الطين ومثبتة على رؤوس الجبال الشاهقة. يقوم العرب «بتقطيع أطراف الشيران والحمير الميتة وحيوانات أخرى قطع كبيرة ويوصلونها إلى تلك الأماكن وابتعدون عنها بعد أن يضعونها قرب الأعشاش، ثم تنزل الطيور وتحمل أطراف الحيوانات إلى الأعشاش، فلا تقوى الأعشاش على حملها فتتهار وتقع على الأرض فيأتي العرب ويجمعون القرفة...». «أما اللبان الذي يسميه العرب «اللادن» فيحصلون عليه بطريقة أكثر عجباً حتى مما سبق، لأنه رغم كونه أزكى الأشياء رائحة، إلا أنه يأتي من أخبث الأشياء رائحة. إذ أنه يوجد في لحي الماعز يظهر هناك كما يظهر الصمغ من الخشب. وهو يستعمل في صنع كثير من العطور ويستخدمه العرب في الغالب كبخور»^{١٩٧}.

اعتبر اللبان مقدساً، ففيه حسب الأسطورة مات طائر العنقاء، وكان الناس يستخدمونه بغرض التطهر الديني. وعن الطبيعة المقدسة للبان قال المؤرخ الروماني بليني ستارش إن موسم جمع اللبان يبدأ فقط بعد تلقي الفأل الحسن الذي يفسر على أنه إشارة من الرب، وينبغي على ملاك مزارع اللبان أثناء الموسم أن يبتعدوا عن المرأة وزيارة المقابر.

لا يعرف إلا القليل عن استخدام اللبان في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، ولكن عثر عليه في أطلال مذبح إلهة العرب الوثنية «اللات» في الطائف. وقد عرفنا من مدونات الدول العربية الجنوبية أنهم قد أحرقوا البخور هنا؛ لكي يعرفوا: هل يعارض الآلهة ذلك العمل أو غيره (على سبيل المثال بناء بيت جديد) أو لحماية المتوفي من الأرواح الشريرة (كانت المباخر توجد بجانب القبر). كان طائر العنقاء يعرف على نطاق واسع في الميثولوجيا (علم الأساطير - المترجم) الشرقية، وهو طائر مقدس عند الفينيقيين. من

وجهة نظرهم تعيش العنقاء من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ عام ، ثم تطير إلى مدينة الشمس (هليوبوليس) في مصر . وكانوا يعتقدون أنها كانت تطير قادمة من جزيرة سقطرى . كتب بلين عن طائر العنقاء : «... إنه طائر عربي مشهور في حجم نسر ولديه ريش بديع حول الرقبة وجسده أرجواني اللون ' إلا أن ريش ذيله ذو لون لازوردي يتخلله ريش وردي اللون . والرقبة يزينها عرف، أما الرأس فتزينها خصل من الريش .

وهو يكرس نفسه للشمس، وعندما يصبح عجوزاً فإنه يبني عشاً من القرفة وأفرع اللبان التي تملأ عشه بالروائح العطرية، وبعد ذلك يضطجع فيه ليموت . ومن عظامه وعظام الدماغ تتكون دودة صغيرة لا تلبث أن تكبر لتصبح طائراً صغيراً . وأول ما يفعله هو القيام بدفن سلفه، ونقل العش إلى مدينة الشمس ... وهناك يضعه على المذبح الإلهي . وتتم دائرة السنة العظيمة مع حياة الطائر، ومن جديد تحل دورة جديدة مثل السابقة حسب الفصول وظهور النجوم^{١٩٨} .

كتب «هيرودوت» عن العنقاء أيضاً ، وأكد أنه لم ير طائر العنقاء حياً؛ لأنه نادراً ما يأتي إلى مصر : «فكما يقولون في هليوبوليس (مدينة الشمس) إنه يأتي إلى هنا مرة واحدة كل خمسمائة عام»، «يأتي طائر العنقاء إلى هنا فقط عندما يموت أبوه . ولو كانت صورته حقيقية فإن الشكل الخارجي لهذا الطائر وحجمه على النحو الآتي : ريشه ذهبي اللون جزئياً، والجزء الآخر لونه أحمر، ومن حيث الشكل والحجم فإنه أقرب شهاً بالنسر . ويحكون عنه الآتي (هذه القصة تبدو لي غير حقيقية) يطير طائر العنقاء كما يزعمون من شبه الجزيرة العربية إلى معبد الشمس حاملاً جسد أبيه المتوفي مغطى بالسيمزي (أي المرفيتالي ناؤومكين) ويدفنه هناك . ويحمله على النحو التالي : يصنع في البداية من المربيضة كبيرة بالقدر

198 - C. Plinius Secundus. Historia Naturalis // Ed. Maynoff. - B., 1909. - P. 3-5.

الذي يستطيع حملها ثم يجرب رفعها، وبعد هذه المحاولة يثقب طائر العنقاء البيضة ويضع فيها جسد أبيه . وبعد ذلك يقوم بتصميغ الجزء المكسور في البيضة حيث وضع جثمان أبيه ، وتصبح البيضة مع جثمان أبيه ثقيلة كما كانت. حينئذ يحمل طائر العنقاء البيضة (معه) إلى مصر وتحديداً إلى معبد هليوبوليس. وهذا هو ما يفعله ذلك الطائر طبقاً للروايات»¹⁹⁹.

وربما انعكست التصورات عن سقطرى في الحكايات عن الجزيرة الغامضة «الواق واق» التي تشغل مساحة ليست صغيرة في التراث الشعبي العربي.

إذا قمنا بمقارنة ما كتبه «تيودور الصقلي» عن جزيرة بانخي خالطاً المعلومات الصحيحة بالأسطورة، فإنه من الممكن التعرف على بعض الملامح التي تتشابه مع سقطرى . في رأى تيودور الصقلي (كما يقول مفسروه) أن الجزيرة كانت تزود العالم كله بالمر واللبان وأعشاب الطيب الأخرى . وكان سكانها يبيعون للعرب على اليابسة أعشاب الطيب ، ويرسلها هؤلاء إلى مصر وسوريا والبلاد الأخرى . ويتكون سكان الجزيرة من أربع مجموعات من الناس وهم : السكان الأصليون واليونانيون والهنود والعرب ، الذين كان من بينهم الرعاة والمزارعين والمحاربين والحرفيين والكهنة وبالطبع التجار الذين كانوا يبيعون المواد العطرية) ... وكان هذا حال الجزيرة في القرن الأول قبل الميلاد .

من المنطقي أن نفترض أن السقطريين الذين كانوا يتاجرون في أعشاب الطيب الثمينة ، استطاعوا أن يصبخوا أغنياء. يتفق هذا جداً مع الأدلة التي تؤكد بأن المصريين كانوا يجلبون الذهب والخشب العطري الغالي من الجزيرة، وهذه البضائع كانت تجلب إلى هنا عن طريق اليابسة من اليمن، وذلك بمقايضتها بالمواد العطرية الخاصة بهم ! وقد ذكر الصقلي معلومات

عن معبد « جوبيتر » الفخم والرائع الذي كان قائماً على الجزيرة ، والذي كانت تزينه الأعمدة الضخمة والتماثيل الرائعة .

كتب يوهيميروس من مدينة ميسينا (نهاية القرن الرابع وبداية القرن الثالث قبل الميلاد) مؤلف المدينة الفاضلة الفلسفية « التاريخ المقدس » والتي وصلت إلينا في اقتباسات « ديودور » أنه أثناء تجواله وصل إلى جزيرة بانتيسيف الواقعة غير بعيد عن شواطئ الهند . على هذه الجزيرة كانت تسود المساواة ولم يكن بها ملكية خاصة . ويزعمون أن معبد زيوس تريفالي كان يوجد في إحدى الجزر الواقعة هناك وعليه خُطت هذه العبارة « أعمال أورانوس وكرونوس وزيوس »²⁰⁰ .

كتب عن سقطرى في القرن الأول بعد الميلاد تاجر يوناني مجهول من مصر، هو مؤلف الدليل البحري بعنوان « الطواف حول البحر الإرتيري » (البحر الإرتيري هو إصطلاح أطلقه الرومان والكاتب المجهول على بحر العرب وبحر عمان والخليج العربي - المترجم) . تحدث فيه فقط عن المستوطنات التجارية المختلطة في الشاطئ الشمالي للجزيرة غير أنه لم يذكر شيئاً عن السكان الأصليين . في الحقيقة بما أن مؤلف (الطواف) يسمى المستوطنين بالغرباء ، فيمكن أن نستنتج أنه كان يعيش على الجزيرة سكان أصليون . ومن المحتمل جداً أنه منذ ألفي سنة عاش السكان الأصليون في جبال سقطرى كما هو الحال الآن في الكهوف ، وفي البيوت المصنوعة من الحجر ، والتي كانت حرفتهم الأساسية الرعي ، أما التجار اليونانيون والهنود المستعمرون ، فلم يعلموا أي شيء عن وجودهم . وهذا ما تأكد جزئياً في أخبار تيودور الصقلي التي تفيد بأنه « بالإضافة إلى سكان المستوطنة التجارية الأجنبية في سقطرى كان يعيش السكان المحليون لهذه البلاد » .

200 - Волгин, В.П. Предшественники современного социализма/
В. П. Волгин. -М., 1928. -Т. 1. - С.28, 30.

كشفت الريان اليوناني «جيبال» كما هو شائع حوالى عام ١٠٠ قبل الميلاد سر الرياح الموسمية التي تهب على المحيط الهندي وتغير اتجاهاتها طبقاً للفصول. وقد استطاع «جيبال» استغلال ملاحظاته في الملاحاة البحرية، ووصل إلى الهند بأمان مدفوعاً بالرياح الموسمية بعد أن أبحر في الصيف من الميناء على شاطئ أفريقيا الشرقية، لكن في الشتاء عندما هبت الرياح في الاتجاه المعاكس رجع من حيث أتى. وسرعان ما أبحرت المراكب الشراعية اليونانية والرومانية من مصر إلى الهند خلال شهرين. كانت هذه السفن تنقل البضائع التجارية وكذلك الركاب. اتجهت بعض المراكب صوب الجنوب إلى سواحل شرق أفريقيا حيث أنشئت أول مستوطنات تجارية رومانية. ووصلت سقطرى كثير من السفن التجارية .

في كتاب « الطواف حول البحر الأثري » وصفت جزيرة «ديسكوريدا» وصفا مفصلاً: «ديسكوريدا» كبيرة جداً، وهي أرض صحراوية رغم أنها غنية بالماء. توجد فيها أنهار وتماسيح وحيات كثيرة وسحالي كبيرة يأكلون لحومها، ويسخنون الدهن، ويستعملونه، بدلاً من زيت الزيتون، ولا تنتج الجزيرة بلحاً أو عنباً أو حبوباً. وسكانها قليلون، ويسكنون في أحد أطرافها الشمالية التي تواجه اليابسة. هؤلاء السكان غرباء فهم خليط من العرب (عرب الجنوب- فيتالي ناؤمكين) والهنود واليونانيين الذين أتوا إلى هنا لمزاولة التجارة. في الجزيرة يصطادون السلاحف الحقيقية المائية والبرية والسلاحف البيضاء الموجودة بكثرة جداً، وهم يفضلونها بسبب دروعها الكبيرة وكذلك السلاحف الجبلية. في الجزيرة يحصلون أيضاً على «الزنجفر» الذي يسمى بالهندي وهم يجمعونه بالقطرات من الشجر. تخضع هذه الجزيرة لسلطة ملك بلد اللبان. وقد زاول الزائرون المؤقتون من داميريكا وباريجازا (المواني القديمة عند مصب نهر السند - فيتالي ناؤمكين) التجارة قديماً في هذه الجزيرة. وكانوا يجلبون الأرز والقمح والقماش القطني الهندي والجواري يأخذون كمية كبيرة من دروع السلاحف»^{٢١}.

201 - Псевдоарриан. Плавание вокруг Эритрейского моря /
Псевдоарриан // Вестник древней истории. – 1940. – Т. X,
№2. – С. 3–5.

من غير المعروف إلى أى مدى صدق هذه المعلومات ، فالسلاحف المائية في الجزيرة يتم صيدها بكثرة جداً حتى الآن ، ويمكن أن نصدق أن سقطرى كانت تصدر للعالم القديم دروع السلاحف ، ولم يبق أي أثر للتماسيح والسحالي الضخمة والعدد الكبير من السلاحف البرية. ومن المشكوك فيه أنهم قد تواجدوا هنا في وقت من الأوقات ، وعلى الأرجح أن الحكايات عن السلاحف الضخمة البيضاء ثمرة مخيلة الكاتب. على أية حال ، يمكننا أن نستنتج أن دروع السلاحف في الأزمنة الغابرة كانت تعد سلعة قيمة. إذ قرر الكاتب زيارة الجزيرة فقط من أجلها. أما فيما يتعلق بالإبحار إلى سقطرى فمن المهم أن نأخذ في الاعتبار تعليمات الهمداني المؤرخ العربي في القرن العاشر أنه إذا خرج المسافر من عدن إلى بلاد الزنج أو السواحلي (ساحل أفريقيا الشرقي) أخذ كأنه يريد عمان ويجعل جزيرة سقطرى عن يمينه ، وبعد ذلك عندما تكون الجزيرة خلفه يدور حولها ويتحول إلى بحر الزنج .

وطبقاً لملاحظة « شبرينجر » الصادقة فإن هذا الطريق يخضع لهيمنة الرياح الجنوبية على الساحل الشرقي الجنوبي الإفريقي^{٢٠٢} . وطبقاً لمعلومات الجغرافيين العرب في العصور الوسطى أمثال : الإدريسي ، وابن بطوطة ، وياقوت والمقدسي ، فإن جزيرة سقطرى تكون على اليسار عند العودة بحراً من بلد الزنج إلى عدن .

وهكذا ، فطبقاً لجميع المعلومات المتاحة ، فإن الملاحين قد داروا حول شواطئ سقطرى عبر الطريق بين عدن وساحل أفريقيا الشرقي . وحين كانوا يبحورن إلى سقطرى من عدن ، فإن السفن كانت تلزم اتجاه رأس فرتك مبحرة على امتداد الساحل العربي . من المحتمل لهذا بالذات كان موقع الجزيرة يتحدد في القدم حسب رأس فرتك^{٢٠٢} . ويورد مؤلف « تاج العروس »

202 - Sprenger, A. Die Alte Geographie Arabiens / A. Sprenger. – Bern, 1875 – P. 87.

203 - Schoff. W. H. The Periplus of Erythraen Sea / W.H. Shoff. – N. Y.,

1912 – P. 30.

حساباً من الواضح أنه بدأه من الطريق المباشر، والذي طبقاً له، فإن سقطرى تبعد عن «المخا مسيرة ثلاثة أيام وثلاث ليال إبحاراً. وطبقاً للإدريسي، فإنه من الشاطيء العربي الجنوبي حتى سقطرى مسيرة يومين مع ريح مواتيية.

تنسب الرواية التقليدية دخول المسيحية إلى الجزيرة على يد المحتلين اليونانيين (القرن الرابع الميلادي)، على الرغم من أن المسيحية يمكن أن تكون قد دخلت الجزيرة قبل ذلك^{٢٠٤}.

كتب الهمدانى المؤرخ العربي الشهير مايلى: «من بين الجزر التي تقع بالقرب من سواحل اليمن، جزيرة سقطرى والتي ينسب إليها الصبار السقطري. وهذه الجزيرة وجزيرة «بربرا» تقعان على خط السميت ما بين عدن وبلاد الزنج. فإذا خرج الخارج من عدن إلى بلد الزنج، أخذ كأنه يريد عمان وجزيرة سقطرى تماشيه عن يمينه حتى تنقطع، ثم التوى بها من ناحية بحر الزنج، ويبلغ طول الجزيرة ثمانين فرسخاً، وفيها من جميع قبائل مهرة، وبها نحو عشرة آلاف مقاتل وهم نصارى. ويذكرون أن قوماً من بلد الروم طرحهم بها كسرى، ثم نزلت بها قبائل من مهرة فساكنوهم، وتنصر معهم بعضهم، وبها نخل كثير ويسقط إليها العنبر، وبها دم الأخوين وهو الأيدع والصبار كثير. وأما أهل عدن فيقولون إنه لم يدخلها من الروم أحد ولكن أهلها الرهابنة، ثم فنوا وسكنها مهرة وقوم من الشراة، وظهرت فيهم دعوة الإسلام ثم كثرت فيها من الشراة قعدوا على من بها من المسلمين فقتلوهم غير عشرة أنفس، وبها مسجد بموضع يقال له السوق»^{٢٠٥}.

وكتب ياقوت الحموي الجغرافي الشهير في العصور الوسطى (القرنين الثاني عشر والثالث عشر الأتى): «سقطرى ... اسم جزيرة عظيمة فيها عدة

204 - Ахмд ибн Маджид. Цит. соч. Т. 1: Исслед., пер., коммент. и указатели. – М., 1985

205 - Ал-Хасан б. Ахмад ибн Йакуб ал-Хамдани. Сифат джазират ал-араб. – Сана, 1983. – С. 9394-

قرى ومدن، تناوح عدن جنوبيها عنها، وهي إلى بر العرب أقرب منها إلى بر الهند، والسالك إلى بلاد الزنج يمر عليها وأكثر أهلها من نصارى عرب يجلب منها الصبر (الصبار) ودم الأخوين، وهو صمغ شجر لا يوجد إلا في هذه الجزيرة، ويسمونه القاطر، وهو صنفان خالص يكون شبيها بالصمغ في الخلقة، إلا أن لونه أحمر شيء خلقه الله تعالى، والصنف الآخر مصنوع من ذلك. وكان أرسطاطاليس قد كتب إلى الإسكندر حين سار إلى الشام في أمر هذه الجزيرة يوصيه بها (احتلالها) وأرسل إليه جماعة من اليونانيين ليسكنهم بها لأجل الصبر القاطر... فسير الإسكندر إلى هذه الجزيرة جماعة من اليونانيين، وأكثرهم من مدينة أرسطاطاليس، وهي مدينة «إسطاغرا». وسيرهم بأسرهم في بحر القلزم (البحر الأحمر)، فلما حصلوا بها غلبوا على من كان بها من الهند، وملكوا الجزيرة بأسرها، وكان للهنود بها صنم عظيم فنقل ذلك الصنم إلى بلاد الهند في أخبار يطول شرحها، فلما مات الإسكندر وظهر المسيح بن مريم عليه السلام، تنصر من كان من اليونانيين، وبقوا على ذلك إلى هذا الوقت، فليس من الدنيا موضع، والله أعلم، فيه قوم من اليونانيين يحفظون أنسابهم، ولم يداخلهم فيها غيرهم غير أهل جزيرة سقطرى، وكان تأوي إليها بوارج الهند الذين يقطعون على المسافرين من التجار، فأما الآن فلا»^{٢٠٦}.

في محاولتها العثور على أي آثار لوجود اليونانيين على الجزيرة. لم تجد بعثة أكسفورد في عام ١٩٥٦ أي شيء غير أطلال بعض المنازل في مكان يسمى السوق الذي كان في السابق كما يعتقدون عاصمة سقطرى. والآن السوق هو قرية صغيرة سكانها في الغالب ينحدرون من أصل أفريقي، ويعيشون في أكواخ من القش وبيوت مصنوعة من بقايا الشعب المرجانية. ويقع السوق على شاطئ خور، ومن المحتمل أن السفن كانت تأتي إليه في العصور القديمة. وهنا حتما عاش الإغريق الإيونيون الذين كتب عنهم المؤرخون اليونانيون والعرب.

206 - Шихаб ад-Дин Йакут б. Абдаллах ал-Хамави ар-Руми. Китаб мууджам ал-булдан. Т. 1-10. Каир, 1906. - С. 93

في جبال سقطرى عشر الباحث الإنجليزي « ن. أورا » على أطلال مبان بناها بلا شك شعب أكثر تطوراً من أولئك السكان الحاليين الذين يسكنون الكهوف. علاوة على ذلك لا يمكن التأكيد أن هذه هي أطلال مبان مسيحية. وقد رجح « أورا » أنه ربما كانت توجد هنا كنائس حجرية صغيرة .

يبدو لنا أنه من المحتمل جداً وجود مستعمرة يونانية على هذه الجزيرة. ومن المحتمل أيضاً أن اليونانيين تحديداً، قد حثوا السكان المحليين على اعتناق المسيحية. والحكاية التي يحكيها ياقوت الحموي عن أن اليونانيين لم يرغبوا في الزواج من النساء المحليات ، ولذلك انقرضوا تجافي الحقيقة. عموماً، قضية مصير الجالية اليونانية والجاليات الأخرى لازالت تنتظر الحل .

تم العثور أيضاً على مبان تشهد بالمستوى الرفيع لتقدم السكان القدامى للجزيرة . وفي منطقة فراجي، تم اكتشاف آثار طريق قديم عملاق. وعثر في الجزء الرئيس للجزيرة على الطريق المرصوفة بالحجارة المؤدية إلى وادي هضيب، وهي الآن مغطاة بالنباتات ومهجورة ومنسية. وفي قشن اكتشفت بعض الشرفات المبطنة بالحجارة والتي تشبه بعضها البعض . الاكتشاف الطريف هو التجويف الطبيعي العميق في الأرض في سلسلة جبلية جيرية على شكل دائرة قطرها ٣٠ متراً ، بجوار الطريق من جوبا إلى كالانيسيو على مسافة ٨ كم تقريباً من القمة الجبلية الشهيرة جبل الدخان. وفي الأعلى وجدت أطلال بناء حجري شغلت موضعاً دائرياً متحد مع المركز. وقد رجح «دو» أنه كان هنا مبنى مخصص للري أو خزان للمياه. وقد رأى «دو» أيضاً من الطائرة في غرب كالانس ساحات حجرية مربعة محاطة بأسوار حجرية منخفضة على منحدرات الجبل .

لم تتوافر تقريباً معلومات جديدة عن سقطرى بعد القرن الرابع الميلادي . وعادة ما ردد الجغرافيون والمؤرخون العرب أقوال الرومان واليونانيين السابقة، عندما كانوا يحكون عن الجزيرة، ومع ذلك فبعض معلومات ذلك الزمن

كانت ذات أهمية. ففي عام ٥٢٨ في عهد جستينيان زار سقطرى الراهب اليوناني من مصر «كوزما إنديكوبلوف». وقد وصف الجزيرة وصفاً مفصلاً في «الطوبوغرافيا المسيحية»^{٢٠٧}.

وطبقاً لرأى كوزما ، فإن سكان سقطرى لازالوا يتكلمون باليونانية، وجميعهم من المسيحيين ويخضعون لحكم بابل النسطوري الكاثوليكي. وقد نسب الاستعمار اليوناني للجزيرة إلى عهد البطلمة.

كتب الجغرافى العربى المسعودي فى القرن العاشر الميلادى، أن الجزيرة كانت قاعدة للقراصنة. وقد أكد «ماركوبولو» هذا الخبر فى القرن الثالث عشر. وحكى الرحالة الإيطالى عن سقطرى أن «السكان هنا مسيحيون معمدون، ولهم رئيس أساقفة. والعنبر هنا كثير وعندهم البنباسين (المنسوجات القطنية - فيتالي ناؤمكين) ، وكثير من البضائع الأخرى. ويوجد هنا سمك مملح كبير شهير. ويأكل السكان الأرز واللحم واللبن، وليس عندهم أي حبوب أخرى. وهم يسيرون عراة على غرار وعادات الهنود الوثنيين. وتأتي إلى هنا سفن كثيرة محملة ببضائع مختلفة، ويبيع التجار بضائعهم على الجزيرة. ويأخذون من هنا البضائع المحلية ويتاجرون فيها مما يدر عليهم ربحاً كبيراً. وتتوقف جميع السفن والتجار الذين يبحرون إلى عدن قبالة الجزيرة. وليس لرئيس أساقفتهم علاقة مع الرسول الروماني (البابا - فيتالي ناؤمكين) ، لكن يخضع لسلطة المطران في بوداك (بغداد - فيتالي ناؤمكين) ، ويقوم برسامته على الجزيرة مطران بغداد، وكذلك رسامة المطرانة الآخرين في البلاد الأخرى في العالم ، كما يفعل تماماً الرسول الروماني . وكل هؤلاء الأساقفة لا يدينون بالولاء للكنيسة الرومانية، ولكن يخضعون لكبير الأساقفة في بوداك (بغداد) فهو بالنسبة إليهم بدلاً من البابا. ويذهب إلى هناك الكثير من قطاع الطرق على سفنهم ،

207 - McCrindle. The Christian Topography of Cosmas, an Egyptian monk / M. crindle. - L., 1897 .

وبعد الغارات يقفون هنا في معسكر، ويبيعون الأشياء المنهوبة. أقول لكم إنهم يتاجرون بهمة، ويقوم المسيحيون المحليون بشراء البضائع؛ لأنهم يعرفون أن هذه البضائع تم نهبها من الوثنيين والساتراتسين (المسلمين - المترجم) وليس من المسيحيين. وحين يموت رئيس الأساقفة المحلي يأتي بالتأكيد آخر من بغداد، وبدون ذلك لن يكون هنا أبداً رئيس أساقفة»^{٢٠٨}.

يتضح من أخبار البندقي (يقصد ماركو بولو - المترجم) أنه ساد في ذلك الوقت في سقطرى المذهب النسطوري المسيحي، فقد كان السقطريون يخضعون للمذهب الكاثوليكي النسطوري الذي يوجد في بغداد. من الواضح أن النسطورية تغلبت هنا على اليعاقبة، الذين كانوا في أوائل العصور الوسطى الجالية المسيحية الغالبة في بعض مناطق الإقليم بما فيها سقطرى.

أكد ماركو بولو أن السحرة السقطريون يستطيعون أن يجبروا السفن أن (تلقني بنفسها) إلى الشاطئ عندما يريدون أن ينهبوها. ومن المحتمل أن هذا كان صدى شائعات سيئة عن سكان الجزر الذين كانوا ينيهون السفن التي عادة ما كانت تتحطم في الشعاب الخطرة عند رأس مومي. وقد كانت الجزيرة مشهورة بالقرصنة على امتداد العصور الوسطى. كتب الرحالة العربي بن بطوطة (القرن الرابع عشر الميلادي) عن أنها كانت قاعدة للقرصنة، وأكد نفس الشيء الإدريسي والمقدسي.

بعد ذلك حتى أواخر القرن الخامس عشر، لم يذكر شيء محدد ودقيق عن سقطرى، بالطبع يمكن التأكيد أنه خلال ذلك الوقت، لم يعد المستوطنين اليونانيين والعرب والهونود «غرباء»، فقد تحولوا إلى سقطريين، وتحدثوا اللغة المحلية، وتخلقوا بعادات السكان المحليين، وشكلوا معهم شعب متحد.

في منتصف القرن الخامس عشر أنشأ الكثيرون وهو الاتحاد القبلي القوي من ظفار في جنوب شبه الجزيرة العربية، سلطنة فرتك وعاصمتها في شهري (حضر موت) وكانت سقطرى خاضعة لها²⁰⁹.

في البداية، اعترف الكثيرون بهيمنة الأسرة اليمنية الطاهرية عليهم، وقاموا في عام ١٤٥٦ الميلادي بمحاولة إنهاء تلك التبعية، بيد أنهم منوا بهزيمة ساحقة. وأصبحت الأراضي التي بحوزتهم تحت سيطرة الطاهريين، الذين امتدت أملاكهم من البحر الأحمر حتى ظفار. وفي عام ١٤٨٢ الميلادي استولى الطاهريون على سقطرى وأخذوها من الكثيرين²¹⁰.

في أواخر القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلادي عثر قدم الملاح العربي العماني أحمد بن ماجد، الذي - فيما بعد - أرشد سفن «فاسكودي جاما» من الميناء الصومالي «ماليندي» حتى ساحل الهند، معلومات شقيقة عن سقطرى. (ولد بن ماجد في جلفار في رأس الخيمة، والتي كانت تدرج ضمن

سواحل عمان في ذلك الوقت، أما في الوقت الحالي فهي إحدى مدن دولة الإمارات العربية المتحدة. ولد عام ٨٣٦ هـ وتوفي عام ٩٣٦ هـ أي أنه عاش مائة عام - المترجم).

كتب أحمد بن ماجد: «سقطرى هي الجزيرة العاشرة. وهي جزيرة مسكونة، وتقريباً مستديرة، وسقطرى أقل من الجزر السابق ذكرها في الأعلى إذ يبلغ طولها وعرضها حوالي خمسين فرسخاً، ولكن بالأحرى هي أكثر من ذلك، تحيطها المياه من كل مكان. تقع الجزيرة شرق الساحل

209 - Stripling, G.W.E. The Ottoman Turks and the Arabs / G.W.E Stripling. - U - bana, 1942. - P.23.

210 - Serjeant, R. B. The Portuguese of the south Arabian Coast / R. B. Serjeant. - Oxf., 1963 - C. 7. Также: The Book of Duarte Barbosa, An Account of the Countries Bordering on the Indian Ocean and their Inhabitants. L., 1921. P. 28-29.

الصومالي، ويسكنها رعا ع المسيحيين. ويقال إنهم ما تبقى من اليونانيين، وهؤلاء وغيرهم يذكرهم عمر بن شاهنشاه بن أيوب مؤلف كتاب تقويم البلدان .

السكان كثيرون في الجزيرة، ويبلغ عددهم تقريباً حوالى عشرين ألف نفس. وقد ملكها كثيرون منذ القدم، ولكن كان يملكها بشكل كامل سكانها الأصليون. وفي قرننا هذا يحكمها محمد بن على بن عمرو بن عفرار، وابن عبد النبي سليمان الحميري، وهما من شيوخ المهرة. كلاهما أقاما حدوداً منيعة على الجزيرة، وفرضا سلطتهما على جزء من السكان، وأجبروهما على العمل بدون أجر وكانا يأخذان من الرجل المن (٥٦، ٨٩٨) زيت، ومن المرأة معطفاً من قماش مدينتهم. حكم سقطرى في عهد بني العباس (العباسيين) شخص ما من غير العرب، ولجأ سكان الجزيرة إلى الحيلة ضده، فقاموا بتخديره هو وخاصته وقتلوه، وكذلك قتلوا أحمد بن محمد بن عفرار الذي أصبح حاكماً عليهم بعد وفاة أبيه، وحينئذ ظهر أعمامه وقبيلته، وانتقموا له، وأجبروا السكان على العمل بدون أجر، وقاموا بتولية عبد النبي حاكماً عليهم . لذلك يقال إن سقطرى تعد مأساة لكل من يملكها .

السكان هم أنفسهم من يساعدون الغرباء على إحراز النجاح ، فعندما يأتي إليهم الغريب، فإنهم يقدمون له الشراب والطعام، وعلاوة على ذلك يقدمون له ملابسهم ونساءهم. وكانت الحاكمة عليهم امرأة. وكان يقوم بإقامة مراسم الزواج لهم القساوسة المسيحيون المقيمون في الكنائس، والتي يديرونها وفقاً لتوجيهات تلك المرأة . وفي قرننا ضعف حكمها وانقضى . لم يرغب المهرة في امتلاك سقطرى، بيد أنهم كانوا يرغبونها فقط ؛ بسبب تبعات أعمالهم السيئة. إذ يتجمعون فيها أثناء الضعف والفرع من حكام حضرموت، والحكام الآخرين. وقد طلب محمد بن علي بن عمرو مني النصيحة عنها أعماماً، ولكني لم أمتثل له في ذلك. وعندما أصبح حاكماً على المهرة وجه ثروته وأملكه لسقطرى، ولكن عندما مات، قامت قبيلته بتولي الأمر،

ومكثوا فيها سنوات. وقد تم طرد الأحجار تحت الماء (أى الأعداء السريين) لملوك الشجر منها خلال ثلاثين عاماً، وساعدهم أخوالهم المهرة ضد الشجر، واستولوا عليها. أصبح حاكماً عليهم سعد بن مبارك بن فارس. بعد أن قام الأخير بمحاصرتها ثلاثة شهور كاملة. وقد جاع (المحاصرون)، وهؤلاء أخرجوهم من حصار الشجر إلى بلدتهم حضرموت. كان حاكماً على الشجر حينئذ بدر بن محمد الكثيري. وقد رحلوا وقبلوا بالحماية عليه وخاصة في عام ٨٩٤ هجرية. يمتلك المهرة الجزيرة الآن، ويتشارك فيها أبناء سليمان وأبناء عفرار. وهم عشيرة من عشائر المهرة أولاد زيد»^{٣١}.

يتضح من ملاحظات الملاح الشهير أنه في عام ١٤٨٩ كانت سقطرى ملكاً للمهرة. ومن المحتمل أنهم لم ينجحوا في بسط سيطرتهم المباشرة على الجزيرة كلها (كتب بن ماجد عن هذا، وبذلك تشهد بعض الأحداث التي حدثت فيما بعد أثناء الغزو البرتغالي). لقد فرضوا على السكان - فقط - ضريبة طبيعية (عينية). وكان بين المهرة والسكان الأصليين عداوة، ترسخت بقتل السكان الأصليين للشيخ المهري.

قاومت قبيلة بنى عفرار التي كانت تعيش في منطقة شمال مدينة «قشن» الحديثة الواقعة على ساحل شبه الجزيرة العربية المحتلين. وقد كتب البرتغالي «باروش» أنه في بداية الغزو البرتغالي، أي في أوائل عام ١٥٠٧ كانت سقطرى خاضعة لحكم سلطان قشن مدة ٢٦ عاماً. وهكذا فإن الاحتلال قد انتهى تقريباً في عام ١٤٨١ الميلادي.

كانت قلعة المهرة السوق - وسط سقطرى الحالية - توجد في الشرق من العاصمة الحالية للجزيرة «حديبو». وقد شيدت قبل عام ١٤٨١ الميلادي. وأعيد بناؤها بعد الغزو البرتغالي. كانت القلع تقع على مسافة ٣٥٠ أو ٤٠٠ متراً تقريباً من الميناء على الرأس الصخري. وقد أطلق البرتغاليون على هذا المكان إما سوكو أو سوتو أو كوسو (فمن الواضح أن هذا هو المقابل الإسباني والبرتغالي للكلمة العربية «السوق»).

يعتقد جميع الباحثين (بما فيهم العالم الإنجليزي « سيرد جينيت » الذي درس المدونات التاريخية للعصور الوسطى) استشهاداً بالبرتغاليين، وكذلك المؤرخين العرب أيضاً، الذين أطلقوا على هذا المكان اسم السوق، أن هذا المسمى حقيقي.

بالفعل توجد في اللغة السقطرية كلمة «السوق» ، وهي مقتبسة من الكلمة العربية «سوق»، وربما كان يوجد سوق بجانب الميناء حيث كانت تأتي السفن في القدم ببضائع من الخارج ، بيد أن السقطريين أنفسهم يسمون هذا المكان شيك، والذي لا يمت بصلة إلى السوق ، وإنما يرجع كما نتصور إما إلى الكلمة السقطرية koš «المسلح» أو إلى جذور الكلمة ekeš «يكون قريباً ، يقترب» وفي هذه الحالة يقترب إلى البحر.

لم يخبرنا المؤرخون العرب في العصور الوسطى أمثال: بن المغافير، والهمداني عن الميناء فحسب، بل عن المدينة المسماة السوق. وقد وصف الأول هذه المدينة. وتحدث البرتغالي جوان دي كاسترو عن القلعة في السوق التي تقع شرق حديبو في عام ١٥١٤ الميلادي، حتى أنه قام بنشر صورتها. ويضع كذلك الرحالة الإنجليزي نهاية القرن التاسع عشر «ت. بنت» «السوق في شرق حديبو.

بقيت من القلعة - فقط - كومة من الأحجار، وجزء من بناء مشيد بالطوب، غير أنها كانت في القرن الخامس عشر بناءً دفاعياً قوياً حسب ذلك الزمن. وكما يشير كثير من المتخصصين في العمارة العربية الجنوبية، فإن الأطلال تذكر بالحصون على نمط «يافع»، والتي بقيت حتى وقتنا هذا في يافع الجبلية وحضرموت. ويعد النموذج الرائع لذلك النمط هو القصر السابق للحاكم السلطان الكثيري في سيئون العاصمة الشمالية لحضرموت.

212 - Bent, Mrs. Theodore J. Southern Arabia / Theodore J. Mrs. Bent.

L., 1990.

وحصون « يافع » مربعة أو مستطيلة، وفى الأركان مستطيل، أو مربع
تكونه الحوائط ويعلوها أبراج أسطوانية بمزاغل من الأعلى. وسكان يافع
الذين بنوا هذه المعقل أسموها hisn bi – ma'asirih «حصن بالأبراج» .

كان يبلغ طول القلعة التي كانت توجد في السوق حوالى ٢٥ متراً
وعرضها ٢٠ متراً ، طبقاً لمعلومات الأثري «ب. شين» من بعثة أكسفورد الذي
كان هو و «د. ديو» من أوائل الذين تناولوها بالبحث .

كان يوجد أيضاً على مسافة ١٠٠ متر في الجنوب الشرقي من القلعة
الرئيسية بناء على ذلك النمط ، بقي منه فقط جزء من البناء مثل الذي بقي
من القلعة ، وكانت أحجار البناء متماسكة، بفضل محلول جيرى . يبلغ
قطر البرج في الركن الشمالي الشرقي للمبنى ٣,٦ متر. وبناء على ذلك، فإن
الحائط الشرقي للمبنى المستطيل كما يعتقد «ديو» - ربما - كان مسجداً.
وفي شمال أطلال المسجد المفترض توجد بقايا كنيسة سيدة النصر، التي
بناها البرتغاليون ، إحياءً لذكرى الاستيلاء على القلعة. هذه الكنيسة
بنيت مكان مبنى آخر أكثر قدماً ، ربما كان أيضاً كنيسة أو مسجداً
(على الرغم من احتمال كونه مسجداً أقرب). عن هذا تشهد بقايا الأرضية
الحجرية، والتي اكتشفها علماء الآثار تحت الأرضية الأولى. ومن الطريف أن
تسعة أعمدة من المبنى الأول بقيت منها فقط الأساسات المصنوعة من الحجر
والمتماسكة بفضل محلول حجري، لها جميعاً مقطع مختلف (أي أن الأعمدة
كانت ذات أشكال مختلفة). على سبيل المثال كان أحد الأعمدة مربعاً
في الشكل، والآخر مثنى الزوايا والأضلاع، والثالث على شكل نجمة
والرابع على شكل دائرة. ولقد بقيت صورة هذا المبنى في الرسم الذي صنعه
«جواندى كاسترو» في عام ١٥٤١ الميلادي . والصورة مفصلة جداً على الرغم
من أنه، لم يتبع فيها القواعد الحديثة للأفاق والنطاقات، ومن الممكن التعرف
على قمم جبال حجهر، إلا أنه لا يرى أي حصن غير جبل خنفر الذي يعلو السوق.

اكتشف «ت. بنت» في عام ١٨٩٧ م أطلال قلعة أخرى في «فيراجى» في جنوب جبال حجهر. وتوجد بالقرب من القلعة أطلال مدينة قديمة. يبلغ طول أسوار القلعة المبنية من صخور كبيرة ملساء ٣٠ متراً وارتفاعها ١,٥ متر ويصل سمكها إلى ٣ أمتار. ومن الجائر أن البنائين كانوا يعرفون كيف يرفعون وينقلون الأحجار الثقيلة. ومن الممكن أن نفترض أن فيراجى كانت في القدم أحد المراكز الهامة، فقد كان هناك إما : مزارع الأشجار التي تنتج الصمغ، وإما خمائل لنباتات عطرية .

في عام ١٩٥٦ الميلادى قبل أن يصف «بنت» تلك الأطلال، وصالة صغيرة وفناء داخلي وكذلك جزء من السور. تحت أحد الأسوار كان يوجد حمام سباحة صناعي من الواضح أنه كان يعتبر خندقاً كانت تملؤه المياه عندما تغمر الوادى. قال أحد الرحالة إن هذه هي أطلال قلعة برتغالية، غير أن «شيني» توصل إلى أنه لا يوجد شيء خاص في تلك الأطلال ينبئ بأنها كانت تنتمي للبرتغاليين، ولكن طبقاً لعمارة المبنى وموقعه، فيمكن القول بيقين إنه كانت توجد قلعة. يبدو أن المهرة أثناء الاحتلال البرتغالي للجزيرة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر كانوا يستخدمونها كقاعدة . كانت القلعة تتحكم بالكامل في الطريق الرئيس من شمال إلى جنوب الجزيرة، فقد كانت قائمة في قلب المساحة التي يشغلها السكان الأصليون، لذلك كانت مثالية لتوغل المهرة في العمق، أو للقيام بالحملة التآديبية. والحقيقة أننا لا نعلم مدى مقاومة السكان للتوغل المهري في الجزيرة، ويمكن الافتراض أن الاحتلال كان سلمياً نسبياً، لاسيما أن السقرطيين لم يكونوا متعصبين للمسيحية، والا كانوا قد قاوموا بشدة انتشار الإسلام. بيد أنه سرعان ما قدر على شيوخ المهرة أن يكابدوا أوقاتاً صعبة. قال المؤرخ الحضرموتي «شنبل» عن الحدث الرئيس في عام ١٥٠٧ الميلادي : «في هذا العام شرع الإفرنج الكفار(الأوروبيون فيتالي ناؤومكين) في احتلال سقطرى، وقتلوا ابن طوعري الزويدي مع خمسين من المسلمين وشيدوا حصناً هناك»^{١١٣}.

كما هو معروف فإن هذا حدث في إبريل عام ١٥٠٧ م، وقد انقطع حكم شيوخ بني عفرار الذي استمر ٢٧ عاماً لعدة سنوات . كانت بداية القرن السادس عشر قد افتتحت فترة في تاريخ الجزيرة، ربما كانت معروفة لنا أكثر من أي فترة أخرى. كانت هذه فترة التوسع البرتغالي في بلاد حوض المحيط الهندي. وقد أسس البرتغاليون في هذه السنوات إمبراطوريتهم الضخمة قصيرة الأجل في الهند وأفريقيا والخليج الفارسي .

كانت البرتغال الدولة البحرية العظمى في العالم جنباً إلى جنب مع أسبانيا، في القرنين الخامس والسادس عشر تبحت لفترة زمنية طويلة عن طريق من أوروبا إلى الهند. وخلال القرن الخامس عشر كله، كانت السفن البرتغالية تجوب آفاق المحيطات متوغلة في جنوب الساحل الغربي لأفريقيا. وأخيراً، في فبراير عام ١٤٨٨ م أصبح « بارثولوميو دياز » أول البرتغاليين الذي دار حول الطرف الجنوبي لأفريقيا، وقد وصل إلى المحيط الهندي . قام البرتغاليون في يوليو عام ١٤٩٧ الميلادي بتجهيز حملة « فاسكو دي جاما » إلى الهند. وقامت سفنه الثلاثة « سان جابريل » و «وسان رافاييل» و «بيريو» بالإضافة إلى سفينة نقل صغيرة بالإبحار من لشبونة، وعبروا الساحل الغربي الأفريقي كله، وداروا حول رأس الرجاء الصالح ، وتحركوا بامتداد الساحل الشرقي في عام ١٤٩٨ الميلادي، ثم وصلوا إلى الميناء الصومالي « ماليندي ». وهكذا فإن البرتغاليين، هم أول الأوروبيين الذين اكتشفوا الساحل الجنوبي الشرقي لأفريقيا ، وزاروا العديد من المواقع الساحلية على امتداد هذا الساحل حتى ماليندي .

إلى هناك « د. ج. أويكلي » و « ب. شيني » وطبقاً لمعلوماتهم ، فإن القلعة كانت قائمة في هذا المكان حيث يضيق الوادي . كانت المباني مبنية من قطع الصخور الخام ، و القلعة مثلثة الشكل، ويربط السور الضخم الذي يبلغ ارتفاعه ٣,٦ - ٤,٥ متراً والمشيد من صخور جرانيتية ضخمة ذات لون أحمر بين جزئين. وكان البرج الثالث يقع كما يزعمون على قمة المثلث وبجواره تم

اكتشاف أطلال حجرات . بيد أن شرف البطولة العظيمة في تاريخ الملاحة العالمية وهي اجتياز المحيط الهندي لا يرجع إلى فاسكودى جاما ولكن للملاح العربى « أحمد بن ماجد»، الذي أستدعى إلى سفينة القيادة البرتغالية في «ماليندي»، وطبقاً لإرشاداته البحرية، فقد قاد السفن البرتغالية إلى ميناء « كاليكوت». وفى نهاية أغسطس عام ١٤٤٨ م أقام فاسكودى جاما علاقات مع حاكم كاليكوت، وأخذ من هنا حمولة التوابل، وانطلق عائداً أدراجه .

كان لاكتشاف طريق بحري منتظم من أوروبا إلى ساحل مالابار الهندي أهمية تاريخية كبيرة لكل العالم، وهو ما جعل البرتغاليين سادة مستعمرين لكثير من البلاد الآسيوية. وفى عام ١٥٠٢ م، قام فاسكودى جاما مجدداً بقيادة أسطول مكون من ٢٠ سفينة وتوجه إلى الهند، وأسس عدداً من القلاع على ساحل مالابار، ونهب الكثير من المدن، وقمع مقاومة السكان المحليين، ورجع بغنيمة كبيرة إلى لشبونة. وقام البرتغاليون باكتشاف سقطرى من أجل مصلحتهم فقط فى عام ١٥٠٣ الميلادى. وقد فعل ذلك الريان فرنانديز بيريرو .

في عام ١٥٠٥ م خرج أسطول برتغالى آخر بقيادة فرانسيسكو دي أميدا من ميناء لشبونة. وكان يوجد على متن السفن ألف وخمسمائة عسكري. في هذه المرة سيتم القيام بحملة غزو أكثر توسعاً فى أفريقيا الشرقية. فقد أصدر قراراً بإنشاء ٦ قواعد حربية وتجارية على الطريق بين أفريقيا الشرقية والهند. وقد سيطر فرانسيسكو دي أميدا سيطرة كاملة على المناطق الساحلية الشرقية لإفريقيا .

بدأ البرتغاليون علاقتهم مع البلاد الواقعة في تلك المنطقة بالتجارة ثم قاموا باحتلالها . في الخامس من أبريل عام ١٥٠٦ م قام الأدميرال البرتغالى الشهير تريستان داكونا ببناء على أمر من الملك مانويل بقيادة أسطول مكون من ١٤ سفينة ومغادرة ميناء لشبونة متجهاً إلى الهند. وفى اليوم التالي رفع العلم

مساعدته ألفونسو دي ألبوكيرك الذي كان يتبعه ٦ سفن أخرى. وقد دارا حول رأس الرجاء الصالح ، ولكن عند وصولهما إلى ماليندي توصلا إلى أنه في هذا الموسم كان الوقت بالفعل متأخراً جداً لعبور المحيط .

وقد عهد قادة الأسطول البرتغالي لعمالئهم بجمع المعلومات عن الأماكن الصالحة للتوقف في موسم العواصف، وبعد مشاورة غير طويلة تم اتخاذ قرار بالإبحار إلى سقطرى، وهناك يكون الانتظار لعدة شهور حتى يتحسن الطقس. علاوة على ذلك قرر البرتغاليون إنشاء قلعة هناك يمكن أن تؤمن الطريق البحري إلى الهند ولاسيما أن سكان الجزيرة مسيحيون. إن الذي حدث في يناير ١٥٠٧ الميلادي منذ انقضاء حوالى عشرة شهور من إبحار الحملة من البرتغال كان كالآتي: أبحروا ولم يعرجوا على أي أرض، ورسوا في سوكون (السوق - فيتالي ناؤومكين) الميناء الرئيس للجزيرة وقتئذ حيث كان يسكن السكان المحليون. وفي يوم إحتفالي كانت الأعلام فيه ترفرف على جميع السفن قاموا بتحيةة الجزيرة تحية عسكرية بالمدفعية. إذ أن سكانها مسيحيون. رأى تريستان داكونا قلعة هناك شيدها العرب محاطة بسور وأبراج بالإضافة إلى برج عال فى المنتصف الأمر الذى كان يخالف المعلومات التى تلقاها ملكهم مانويل فأرسل فى طلب ألفونسو دي ألبوكيرك وجميع قادة الأسطول. قام بإبلاغهم أن سيده الملك قد أمر ببناء قلعة على هذه الجزيرة وأن يبقى هنا قائداً لها ألفونسو نورونيو من أجل الحماية والدفاع عن المسيحيين الذين يعيشون على هذه الجزيرة منذ زمن القديس «فوما» وأن الملك أمر بنشر اسم الرب على كل الأراضي التي يقومون باحتلالها .»

بدأت القلعة العربية مفاجأة غير سارة للبرتغاليين ، وبأبت كل المحاولات بالاتفاق مع الشيخ الذي يحكم القلعة بالفشل، فلم يرفض العرب فقط مغادرة القلعة، بل لم يرغبوا أيضاً فى أن يكون لهم أي علاقة مع هؤلاء الغرباء الذي لا يعلم إلا الله من أين أتوا. حينئذ قرر الأدميرال تريستان معتمداً

على قلة عدد الحامية (وعلى الرب) بمهاجمة القلعة، وكان الإنزال صعباً للغاية حيث كان البحر هائجاً ولم يكن بالشاطيء أي ساتر. وقد قام ألفونسو دي البوكيرك في مركب صغير باستطلاع الشاطيء، ووجد بجانب حديقة نخيل خور حيث كان هناك البحر أكثر سكوناً، وقرر أن تتم عملية الإنزال هناك». «أمر العظيم ألفونسو دي البوكيرك ابن أخيه دون ألفونسو دي نوروني أن يجهز مركبة بأربعين فارساً ويأخذ معه مدفعاً وباروداً وقذائف واثنين من المدفعية البحرية، الذين يقذفون بالقنابل وكذلك كابريو (الترافعة - فيتالي ناؤومكين)، وسلمين من الحبال كي يقتحموا الأسوار إذا دعت الحاجة إلى ذلك. وأبحر خلفهم في مركب شراعي صغير مع دون أنطونيو دي نورون، ودون خوان دي ليما، وأخوه، دون جيرو نيمودي ليما وآخرون من الهيدالجو».

أبحر البرتغاليون إلى الجزيرة في الفجر وقد كان تريستاندا كونا في الأمام وألفونسو دي البوكيرك في المؤخرة. لاحظ البوكيرك حين كانوا مبحرين على امتداد الشاطيء أن البحر أصبح هادئاً تقريباً، وأنهم يمكنهم القيام بعملية الإنزال بجوار القلعة. ورأى الشيخ العربي يخرج من القلعة مع مائة شخص، ويتجه إلى سياج من الخوازيق أقامه ليلاً كي يمنع العدو من الإنزال في الخور. أمر البوكيرك حينئذ بالبدء في الإنزال بسرعة، ولكن قبل أن يفعل البحارة ذلك رأهم الشيخ وأمر بعض الناس بالعودة إلى القلعة، وقرر هو بنفسه قطع الطريق على العدو. «عندما تواجه الطرفان نشبت بينها معركة حامية، وتم إطلاق الخطاطيف والسهام وأصيب قرابة الثمانين شخصاً بجروح. وقام دون ألفونسو دي نوروني بقتال الريان العربي وكادت ضربات الخطاطيف أن تقطعه إرباً حتى ظهر ألفونسو دي البوكيرك مع رجاله الآخرين وقتل الشيخ».

عندما رأى المحاربون العرب أن قائدهم قد قتل انسحبوا عائدين إلى القلعة. وكتب المؤرخ البرتغالي مايلي: «قبل أن يصلوا إلى الحصن قتل رجالنا

ثمانية منهم، وفر الآخرون تاركين القلعة واختبأوا في الجبال . وعندما رأى العرب الذين كانوا يراقبون في برج الحراسة أن رجالنا يقتربون من القلعة بدأوا في إلقاء الأحجار من الأعلى وقد أرهقهم هذا جداً. وقد أصابوا ألفونسو دي البوكيرك في رأسه بحجر كبير، ووقع من فورهِ على الأرض في حالة رهيبَة، ورغم ذلك لم يفقد الوعي وأمر الناس أن يحاصروا القلعة عن قرب وأرسل نونو فاج دي كاستيلو - برانكو لإحضار القذائف والآلة الرافعة والسلالم والبلط والكباش كي يكسروا أبواب القلعة. وعندما أحضر نونو فاج السلم أمر ألفونسو البوكيرك بوضعه على السور وبدأ رجالنا في التسلق. وكان من أوائل الرجال الذين صعدوا جاشبار دياز دي أكاسيري دي سال الذي رفع علمه، ونونو فاج بعلم جوبا كيماو وتبعهم الآخرون .

فقد الكثير من المقاتلين أرواحهم في المعركة العنيدة على الأسوار وأبراج القلعة ، ولكن كانت نتيجة المعركة محسومة، إذ لم تكن القوى متكافئة. وبعد أن لحق بالعرب خسائر فادحة، اختبأوا في البرج الرئيس. وقام البرتغاليون بمساعدة البلط وآلة الكباش بالدخول إلى القلعة وحاصروا الممر المؤدي إلى البرج منتظرين وصول تريستان داكونا. وعند سباح الخوازيق في الخور لقي هذا مقاومة ضعيفة من جانب العرب، وتم إبادة الكثيرين منهم وفر الآخرون إلى الجبال، وبعد ذلك انضم إلى دي البوكيرك ودخلوا القلعة، وبقي من المائة وخمسين محارباً عربياً على قيد الحياة خمسة وعشرون فقط، ولكن لم يتم الوصول إليهم في البرج الحجري المنيع. وقد حاول البرتغاليون الاستيلاء على البرج بالهجوم عليه صاعدين إلى الأعلى عن طريق السلم ولكنهم سرعان ما أدركوا أنهم سيتكبدون خسائر فادحة لأنهم هم أنفسهم سيكونون هدفاً للسهم الطائرة إليهم من الأعلى . وكان العرب سيحطمون رأس أنطونيو دي نوروني إذا لم يتلق الضربة بدرعه دي البوكيرك . وقرر تريستان داكونا الدخول في مفاوضات مع البقية الباقية من العرب ولكنهم رفضوا الاستسلام واستمرت المعركة .

تم الاستيلاء على القلعة ، ولكن المعركة بدت صعبة بشكل غير متوقع . « في صباح اليوم التالي توجه تريستان داكونا مع جميع رجاله إلى جامع مافروف (العرب - فيتالي ناوومكين) وتحول المسجد إلى كنيسة رئيسة وأطلقوا عليها اسم سيدة النصر. وفيها أقام الأب أنطونيودي لاوريرو من طائفة الفرنسييسكان القديس الإلهي» .

بعد القديس الإلهي تحدث تريستان داكونا مع السكان الأصليين المسيحيين، وأعلن أن الملك الرحيم أرسله مع محاربيه للدفاع عن السكان ضد ظلم العرب. والآن لا يجب أن يخافوا من أي شيء. وفي مقابل هذه الحماية طلب من سكان الجزيرة أن يحافظوا على السلام والهدوء في علاقتهم مع الحماية البرتغالية، وإمدادها بالمؤن، وكذلك تعلم قواعد وتقاليد العقيدة المسيحية التي نسوها من زمن بعيد، غير أن السكان المسيحيين في سقطرى كانوا ينجذبون إلى المسلمين المهرة أكثر من البرتغاليين الذين يشاركونهم العقيدة وأظهروا عداً علنياً ضد البرتغاليين .

قام البرتغاليون بترميم القلعة وأطلقوا عليها اسم قلعة القديس ميخائيل. وبقيت هناك حامية مكونة من ١٠٠ شخص بقيادة ابن أخ دي ألبوكيرك دون ألفونسو دي نوروني . وفي الأول من أغسطس عام ١٥٠٧ م أبحر أسطول تريستان داكونا إلى الهند .

حين عاد ألفونسو دي ألبوكيرك إلى سقطرى بعد سبعة أشهر، وجد أن ابن أخيه قد مرض مرضاً شديداً. وقد توفي أربعة من رجاله، أما الآخرون فكانوا في حالة صعبة جداً، إذ قام العرب الذين فروا إلى الجبال بإقناع السكان المحليين بأن الإفرنج جاءوا؛ ليتخذونهم عبيداً، فقام سكان الجزيرة بالتمرد على البرتغاليين ونهبوا القلعة وقتلوا بعض الأشخاص وامتنعوا عن تزويد الحماية بالمؤن. نتيجة لذلك كابد البرتغاليون جميع أنواع الحرمان إذا اضطروا إلى أكل لحاء النخل والثمار البرية وتعفنت مراكبهم واحتاجت سفنهم إلى الصيانة. وقام دي ألبوكيرك باقتسام جميع المؤن التي معه بالتساوي وكذلك دفع مرتبات الحماية عن كل هذه الأشهر .

في مايو قامت جميع سفن الأسطول البرتغالي بالتوقف الموسمي في الميناء .
«حينئذ قام ألفونسو دي ألبوكيرك بكل ما أوتى من قوة بمحاربة السكان المحليين. وقد طالبوا بعقد سلام بعد أن ضربوا ضرباً مبرحاً، ونالوا عقاباً شديداً على قتل رجالنا. وقد وافق على أن يليي رغبتهم بشرط أن يدفعا كل سنة للرجال في القلعة تعويضاً قدره ٦٠٠ رأس من الغنم وعشرين رأساً من البقر وأربعين جوالاً من التمر» .

بعد انتهاء الحملة التأديبية غادر ألفونسو دي ألبوكيرك سقطرى. وفي نوفمبر عام ١٥٠٩ الميلادي أصبح نائباً للملك على المستعمرات البرتغالية في الهند، ولم يعد ثانية إلى الجزيرة. بعد هذا الشتاء الأول لم يعودوا يستخدمون ميناء سقطرى للتوقف الشتوي، حيث كادت الرياح الموسمية الجنوبية الغربية أن تدفع الأسطول البرتغالي إلى البحر، على الرغم من أنه في الأعوام التالية كانت السفن البرتغالية التي تجوب المحيط تعرج من حين لآخر على الجزيرة للتزود بالماء. وفيما بعد كانت الأساطيل البرتغالية تشن الغارات من سقطرى. وتواترت الأنباء عن أن الحامية في الجزيرة قد تلاشت. وفي عام ١٥١٦ الميلادي أشار الفلورنسي أندريا كوسالي الذي كان يطوف مع أسطول لوبو سواريز أن القلعة وقعت من جديد في أيدي العرب^{٢١٤} .

جدير بالذكر، أن المهرة الذين كسرهم البرتغاليون لم يزمعوا أن يغادروا سقطرى للأبد. وقد أخبر المؤرخ الحضرموتي « شنبل» في عام ٩١٥ الهجري/ ١٥٠٩، ١٥١٠ الميلادي أنه توفى في « قشن » شيخ قبيلة طوعرى الزويدي. ويرجح «رسيرداجنت» أن الحديث ربما يدور عن ابن ذلك الشيخ من قبيلة طوعرى الذي قتله البرتغاليون المحتلون في عام ١٥٠٧ الميلادي (وقد أطلق عليه المؤرخون البرتغاليون الذين قاموا بوصف الاستيلاء على القلعة

214 - De l'Afrique, contenant la description de ces pays et la navigation des anciens capitaines portugais // Temporal. - P. 1830 - T.4.P. 334-335.

المهريّة» خضادج إبراهيم». وقام أبناء ذلك الشيخ الآخرون في ٩١٦ هـ / ١٥١٠ م، ١٥١١ الميلادي بالإغارة على سقطرى ووجهوا ضربة قوية للقلعة البرتغالية. ونقرأ أيضاً في مدونات شنبل: «في هذا العام قام حامي وعمرو أولاد سعد الزويدي بغزوة على سقطرى، التي كانت في ذلك الوقت في أيدي الإفرنج. وقد دخلوا إلى البلاد وعقدوا معهم (واضح مع السقطريين - فيتالي ناؤومكين) اتفاقاً، ولكن الإفرنج ثاروا على المسلمين وأخذوا في قتالهم. وقد مات حوالى عشرة من الكفار، وغلبهم المسلمون وأخذوا جزءاً من أملاكهم»^{٢١٥} ...

وبخصوص هذا الخبر يذكر سيردجنت أنه حسب قول المؤلف البرتغالي كستانيدا فإن البرتغاليين تركوا القلعة، لأن «سكان البلاد كانوا يتعاملون بود أكثر مع العرب .. وكثيراً ما ثاروا (ضد البرتغاليين)، عندما كان العرب يشنون الحرب»^{٢١٦}. من الممكن أن سبب خروج البرتغاليين يرجع لذلك السبب، ولكن مهما كان الأمر فإنهم لم يفلحوا في أن يجدوا لغة مشتركة مع السكان المحليين. وقد تحدث دوارتي باربوزا الذي زار الجزيرة تقريباً في ذلك الوقت «بدون حماس عن الجزيرة»^{٢١٧}.

وهكذا فإن البرتغاليين اضطروا إلى مغادرة سقطرى في عام ١٥١١ الميلادي، ومن ذلك الوقت أصبح المهرة هم الملاك الرئيسيون للجزيرة والذين قاموا بتأسيس أسرة حاكمة من السلاطين حكمت الجزيرة حتى ثورة عام ١٩٦٧ الميلادي. وقد قاموا بإعادة بناء القلعة، وهدموا كنيسة سيدة النصر. ولكن من غير المعروف بالضبط أين أقام المهرة قلعتهم الجديدة. وقد افترض بوتينج أنها في منطقة تل حسون في الوادي غير بعيد عن حديبو. وقد كتب

215 - Serieant, R. B. Op. cit. P. 155.

216 - - Ibid.

217 - -The Book of Duarte Barbosa. C. 59-63. Также: La Routier de Joao de Castro: L'exploration de la Mer Rouge par le Portugais en 1541, trad, du portugais... par A. - Kammerer. P., 1936 ... P. 37.

أيضاً توماس روي الذي زار الجزيرة في عام ١٦١٥ الميلادي أنه رأى في هذه المنطقة قلعة إلا أنهم لم يسمحوا له بالاقتراب من الأسوار. وتلك الأسوار حسب قول روي كانت تبدو سميكة جداً والقلعة نفسها تقع في مكان عال يسيطر على الوادي كله ، وهي منيعة للغاية. وفي عام ١٩٥٦ الميلادي حاول ب . شيني أن يصور أطلال الأسوار وقياسها ، ولكن منعتة القوة الهائلة للرياح التي كانت تهب على التل. وطبقاً لشيني فإن سرعة الرياح بلغت ٩٦ كم في الساعة.

زار سقطرى في عام ١٥٤١ م الأدميرال البرتغالي دون خوان دي كاسترو التي رست سفينته في نفس المكان بالقرب من السوق الأمر الذي فعله من قبل دي البوكيرك. وقد أبحر إلى ميناء كلانسيا الذي يقع من الجانب الغربي للجزيرة. وقد كتب دي كاسترو في يومياته عن الجزيرة : «ببجل سكان سقطرى الإنجيل وحسب شهادتهم الخاصة فإن الذي عرفهم على الإنجيل هو الرسول صاحب الغبطة فوما والذي يرجع إليه الفضل في اعتناقهم ديننا. وتوجد كنائس كثيرة في كل مكان على الجزيرة. وكل واحدة منها يتوجها صليب الرب. ولا يعرف السكان الكثير عن تعاليم الدين، وتقاليد الكنيسة الرومانية التي يعدونها الكنيسة الوحيدة الجيدة. وهم يدينون بالولاء تحديداً لهذه الكنيسة .

ولدى سكان الجزيرة أسماء مثلنا مثل بيير وجان وأندريه ونساؤهم في الغالب يسمون باسم مريم. ولسكان الجزيرة نمط للحياة خاص بهم، وليس لديهم ملك أو محافظ أو حبر (مدبر للكنيسة) وعموماً، ليس عندهم من يدينون له بالطاعة أو يتلقون منه الأوامر. وهم يعيشون كالوحوش البرية، وليس عندهم أي حياة سياسية أو هيئة حقوقية، ولا يوجد على الجزيرة أي مدن أو قرى كبيرة، فهم يعيشون في الكهوف وأحياناً في الأكواخ ، ويشغلون في جمع الأخشاب والرعي، ويأكلون اللحم والتمر، ويشربون اللبن وفي أغلب الأحيان يشربون الماء... يحمل الجميع تقريباً صليباً على صدره .

هم جنس جميل، فهو يملكون مظهراً جذاباً أكثر من أي من سكان هذا الإقليم. وسكان سقطرى معتدلون وطوال القامة وأجسادهم متناسقة، ووجوه الرجال لوحتها الشمس، ووجوه النساء أفتح وأجمل بدرجة كبيرة. ولا تجد في الجزيرة أسلحة هجومية، أو دفاعية فيما عدا القليل فقط من سيوف الشيش الصغيرة الصدئة. ويسير الرجال عراة ويرتدون فقط من أجل الأناقة أحزمة، والتي يسمونها Camboles ويصنعونها بأنفسهم. والأرض في الجزيرة جدياء ولا يوجد فيها أي شيء غير الصبار وشجرة دم الأخوين بعدد هائل وتحيط الجبال بالجزيرة من جميع الجهات.

في الجزيرة أصبحوا يأكلون أسراب الطيور التي توجد هنا بكثرة. ولا ينبت في الجزيرة أرز أو قمح أو أي محاصيل غذائية أخرى. ومن وجهة نظري هذا ليس فقراً في التربة ولكن عدم وجود همة وكذلك لنمط الحياة الذي يلتزم به سكان الجزيرة. وفي الجزء الداخلي يكون المناخ بارداً، ولا يشتغل السكان بالملاحة أو صيد السمك على الرغم من وجود أماكن غنية بالأسماك. وفي الجزيرة يوجد قليل من أشجار الفواكه بينما يمثل النخيل استثناءً فقط. فهم يولون زراعة النخيل عناية فائقة إذ أن النخلة تنتج المواد الهامة للغذاء. وتنتج هنا محاصيل بستانية متنوعة، وكذلك نباتات دوائية، ويغطي الريحان والنباتات العطرية جميع الجبال»^{٣٨}.

لم يجد الرحالة الأوروبيون في منتصف القرن السادس عشر الميلادي أسقفاً أو راهباً، على الرغم من أن القديس الإلهي كان يقام جهازاً مرات في اليوم، والمسيحية هناك ضعيفة للغاية، ولقد ظل سكان الجزيرة يكونوا الاحترام لرمز الصليب.

انتقد مؤسس طائفة اليسوعيين «إيجناتي لويلا» الذي تواجد هنا السقطريين على عقيدتهم الضعيفة. وحسب قول الراهب الكرمليني «فينشنسو» فإن آثار المسيحية بقيت في الجزيرة على الأقل حتى منتصف

القرن السابع عشر^{٢١٩}. وذكر ذلك أيضاً موظف شركة «أوست» الهندية التجارية صامويل بيرشاس^{٢٢٠}.

كانوا لا يزالون يتذكرون البرتغاليين جيداً في ذلك الوقت. ونورد شهادة الرحالة أنري أجنيار الذي جاء إلى سقطرى في عام ١٦٣٣ الميلادي: «يوجد على شاطئ النهر ثلاثة مدافع مسبوكة على عربات مدافع قديمة. وهنا يمكن رؤية سلاح برتغالي، فهم (السقطريون - فيتالي ناؤومكين) قد قاموا بانتشال سفينة محطمة، وهم أعداء للبرتغاليين»^{٢٢١} يوجد الآن القليل الذي يذكر بالبرتغاليين في سقطرى. وقد بقي من تلك الأزمنة الجامع، الذي حولوه إلى كنيسة سيدة النصر وأطلال القلعة (حسب المصادر العربية قام المهرة بهدم القلعة بعد أن غادر البرتغاليون الجزيرة وقاموا ببناء قلعة جديدة أخرى في مكان آخر والبرتقال الوارد من البرتغال «يسمى باللغة السقطرية» «تينيجي» من «لارينجا» بالبرتغالية»، وكذلك بعض أسماء المواقع الجغرافية. لكن هل بقي شيء ما في ذاكرة السقطريين من ذلك العصر البعيد؟ لا، فالسكان المحليون لا يتذكرون ماضيهم وجميع الباحثين يصلون إلى الاستنتاج بأن الغزو البرتغالي كان «حدثاً عابراً» في تاريخ الجزيرة، غير أنني سمعت من شيوخ القبائل الجبلية الذين سألتهم عن أغانيهم القديمة، أنهم قد عرفوا منذ زمن غير بعيد في بعض مناطق الجزيرة أغنان، تتحدث عن أن سكان الجبال قد عاشوا زمناً في مكان آخر حيث كانوا أحراراً وأغنياء وسعداء، ولكن بعد ذلك «بسبب الذنوب» أخرجوا من هذه الأرض المباركة، وتم جلبهم إلى هذه الجزيرة حيث يعيشون هنا منذ سنوات طويلة. ولكن من أين ظهر هذا الموتيف في الفلكلور السقطري؟ ربما قام البرتغاليون طبقاً للسياسة المتبعة في العصور الوسطى بنفي رعايا الملك المغضوب عليهم والقراصنة الواقعين في الأسر؟.

219 - Bent. Mrs. Theodore J. Op. cit. P. 355.

220 - Hakluytus Posthumus or Purchas His Pilgrims. - L., 1625 - Vol. 1- 4- P. 72.

221 - Recueil des Voyages... de la Compandnie des Indes Orientales. - Amsterdam, 1754. P. 294.

سرعان ما اهتزت سلطة البرتغال في منطقة الخليج الفارسي، وبعد مغادرة البرتغاليين للجزيرة وقد انطفأ مجدها كأول دول بحرية عظمى أزاحت من هذه المنطقة الملاحين العرب والفرس والهنود. وكانت أول ضربة تلقاها البرتغاليون هنا على يد قوات السلطان العماني ناصر بن مرشد بن سلطان (حكم عمان خلال ٢٤ عاماً بدءاً من عام ١٦٢٤ الميلادي)، وأجبر السلطان ناصر البرتغاليين الذين تواجدوا في هذه المنطقة على دفع الجزية له (هي ضريبة يفرضها الحكام المسلمون على غير المسلمين)، وطردهم من بعض الأماكن وقام بتحجيم تجارتهم.

انتقلت السلطة في سلطنة المهرة وسقطرى (أوقشن وسقطرى كما كانت لا تزال تسمى دولة السلاطين المهرة) بالتتابع من فرع آخر إلى قبيلة المهرة بن زيد إلى فرع آخر. وكانت عاصمة السلطنة مدينة قشن في المهرة. وهنا كانت توجد أيضاً مناطق أخرى كبيرة مثل: صيخوت والجيدة (في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، وعاصمة محافظة المهرة). منذ مدة أقام السلطان بصفة دائمة في سقطرى، وكان أقرباؤه يمثلونه في قشن، ولا يغادر سقطرى إلا نادراً لأداء فريضة الحج في مكة. وكانوا يجلبون العبيد اللذين كانوا ينخرطون في الخدمة العسكرية، وكذلك الجواري (كان الغرض من جلبهن أن يكن محظيات في الحريم، وللإشتغال بالأعمال المنزلية) إلى السلطنة من بلاد شرق أفريقيا. في عام ١٨٠٠ م، قام الوهابيون المؤسسون للدولة السعودية العربية لاحقاً، بإجراء عملية إنزال إلى الجزيرة، وحطموا المقابر والكنائس في الأرض الواقعة على الشاطئ بالقرب من «حديبو»، وفرضوا سيطرتهم من أجل أن يقوم السكان بتنفيذ متطلبات العقيدة الإسلامية. وغير معلوم لدينا إلا قليلاً، تفاصيل ذلك الغزو الذي لم يحدث أي أثر ملحوظ على مصير الجزيرة وسكانها، ومن المحتمل أن تكون هناك معلومات في الأدبيات الوهابية عن هذه الحملة وتوابعها بالنسبة للسكان المحليين. إننا نعرف فقط أن هؤلاء الغزاة الجدد قد بقوا في سقطرى مدة ليست طويلة.

في عامى ١٨٢٤ - ١٨٢٥ الميلاديين قام الريان «س. هاينس» بناءً على تكليف من شركة أوست الهندية، بعمل قياسات عند ساحل سقطرى في السفينة البحثية «بالينوروس (بالينوروس - ريان إيني من «إينيدي» فرجيليا من أجل تأليف كتاب إرشادات الملاحة. وقد أبحر إلى هنا من شواطئ أفريقيا الشرقية. وذكر هاينس «أن الطبقات الدنيا من السكان، تظهر عدم الاكتراث بالدين وكثيرون منهم غير قادرين حتى القيام بالأركان الإلزامية للصلاة الإسلامية»^{٣٣}.

في عام ١٨٢٤ الميلادى، قام الملازمان في الأسطول البريطانى الهندي الاستعماري «ويلستيد»، و «كراتيندين» بتصوير الجزيرة. وفي تقريرهما قدما رأياً حسناً عن سقطرى، وقررت الحكومة البريطانية إنشاء قاعدة هناك لتزويد السفن الذاهبة إلى الهند بالفحم، وعرضوا على السلطان بيع الجزيرة للتاج البريطانى، ولكنه رفض، حينئذ احتلت القوات البريطانية الاستعمارية سقطرى. ولكن لم تعد هناك حاجة لمحطة التزود بالفحم. إذ أنه في عام ١٨٣٩ الميلادى قام الإنجليز باحتلال عدن. وبعد حين من الزمن غادرت الحامية الإنجليزية الهندية سقطرى بعد أن أصيبوا بالمalaria. وحسب قول الملازم كراتينين، فإن دخل الجزيرة في عام ١٨٤٧ الميلادى بلغ ٣٢٠ دولار. وفي عام ١٨٧٧ الميلادى قدر الريان الإنجليزي «هنتر» الدخل بأكثر من ضعف هذا المبلغ.

في يناير عام ١٨٧٦ الميلادى جاء إلى الجزيرة من عدن، المندوب السياسى الإنجليزي المقيم (رئيس الإدارة الاستعمارية) الذي عقد مع سلطان قشن وسقطرى إتفاقية، يدفع الإنجليز بمقتضاها للسلطان ٣ آلاف دولار مرة واحدة، ويلتزمون بدفع ٣٦٠ دولار سنوياً بشرط ألا يقوم السلطان وكذلك خلفاؤه وورثته، بتأجير أو بيع أو رهن أو بأي طريقة أخرى السماح باحتلال أرخبيل سقطرى، باستثناء الحكومة الإنجليزية، وعلاوة على ذلك، فإنهم

222 - An account of the Arab Tribes in the Vicinity of Aden. -
Bombay,

1908. - P. 111.

من الآن فصاعداً، يضمنون حماية حمولات وركاب السفن الإنجليزية في سقطرى .

في عام ١٨٨٦ الميلادي أصبحت الجزيرة محمية إنجليزية، وتم مضاعفة معاش السلطان ، واختار السلطان سقطرى لتكون مكان إقامته الدائمة . كتب كثير من المؤلفين الإنجليز، مبررين الاحتلال الاستعماري للجزيرة أن سقطرى « لم تكن لتستطيع أن تحافظ على استقلالها» وأن مصيرها كان بعدها لتكون تابعة وبلد « تحت الحماية» ، حيث إن السلطان الذي لا يملك جيشاً أو حلفاء أو مال، ولديه عدد قليل من السكان لم يكن يستطيع على أية حال، أن يقف وحيداً أمام الخطر من قبل أي دولة. وقد احتفظ الإنجليز بسقطرى كمركز إحتياطي إستراتيجي في حالة الحرب، أو حالات الضرورة الأخرى . واقتصرت « مساعدة » بريطانيا العظمى « للمحمية » السقطرية على المعونات النادرة للسقطريين أثناء المجاعة أو الأوبئة. وهى عبارة عن إرسال كميات من الأدوية والمؤن الغذائية .

في نهاية القرن التاسع عشر، اكتسبت الجزيرة سمعة كواحدة من أخطر المناطق للسفن العابرة، وتمثل الخطر خاصة في الإبحار بالقرب من رأس مومي، حيث كانت سرعة التيار وقوة الرياح كبيرة جداً. ولهذا كان يتم تحذير السفن المبحرة من السويس إلى الهند بصفة خاصة بأن ينبغي عليها عند الدوران حول الجانب الشرقي لسقطرى أن تبتعد أكثر ما تستطيع عن الشاطيء . ووجود التيار والرياح معاً يمكن أن يؤدي إلى أن ترتطم السفينة بالشاطيء الصخري بشدة، والذي يكون دائماً مغلفاً بالضباب والسحب. وتمتد الشعاب الصخرية من الرأس إلى البحر كسلسلة مختلفة تحت الماء ، وقد غرقت كثير من السفن التي اصطدمت بهذه الشعاب .

في نهاية القرن الماضي، حدثت حادثتين كبيرتين لتحطم السفن. ففي عام ١٨٨٧ م ، اصطدمت في ظلام الليل السفينة الألمانية «أودر» بالشعاب عند

رأس مومي ، وبعد عشر سنوات في نفس المكان حدثت كارثة أكبر من هذه. أبحرت السفينة الإنجليزية من الدرجة الأولى « عدن » ، والتي كانت حمولتها تبلغ ٣٩٢٥ طن وتنقل ١٢٨ راكب وطاقم السفينة والحمولة الثمينة (الشاي والقصدير والحير) من كولومبو في أوائل يونيو في ذروة الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، وفي منطقة رأس مومي تحطمت السفينة « عدن » ولقى ٩٣ شخصاً مصرعهم . في أثناء الحرب العالمية الثانية ، كانت توجد في سقطرى القاعدة الجوية الحربية الإنجليزية . وبانتهاء الحرب غادر الإنجليز سقطرى ، وأخذوا معهم ما كان يوجد في القاعدة حتى المحرك النقال، وقد تركوا حطام الطائرات فقط والشحنات المهتمة التي كانت مبنية من الحجر الخام .

خلال السيطرة البريطانية على سقطرى وفدت بعض البعثات العلمية. في عام ١٨٨٠ م، قام « ج. بلفور » في سقطرى بأبحاث نباتية وحيوانية وجيولوجية مهمة^{٢٢٣}. وقام بدراسة مجموعة الصخور التي جمعها أثناء رحلته « ج. بوني^{٢٢٤} ». وفي عام ١٨٨١ م قامت بعثة ريببكي ، والتي اشترك فيها ج. سفيانفورت لأكثر من شهر بدراسة ضواحي حديبو، وسفوح التلال القريبة^{٢٢٥}.

في عام ١٨٨٢ م ، عمل مع سفيانفورت عالم الطبيعة الفرنسي ش. مانويل^{٢٢٦}. وقد نشر زاوير في عام ١٨٨٨ الميلادي كتاباً عن علم المعادن في سقطرى . في عام ١٨٩٧ الميلادي قام « ت. بنت » مع زوجته بالطواف في سقطرى خلال شهرين . وقد استرعى انتباههما الأماكن الأثرية . وقامت زوجته بنشر

223 - Balfour I.B. The Botany of Socotra / I.B. Balfour // Transactions of the Royal Society of Edinburgh. – 1888. – Vol. XXXI.

224 - Bonney J.G. On a Collection of Rock Specimens from the Island of Socotr/ J.G Bonney // Philos. Transactions of the Royal Society, I..., 1883. – Vol. 184. – P. 273.

225 - Schweinfurth G. Das Volk von Socotra / Schweinfurth G. // Unsere Zeit. – 1983; Ein Besuch aut Socotra. – Freiburg, 1884; Erinnerungen von einex Fahrt nach Socotra // Westerman's Monatshefte 1891. – T. 34. – P. 603 и сл.; T. 35. – P. 29 и сл.

226 - An Account of the Arab Tribes. P. 114.

بحثه بعد موته^{٢٢٧}. ويتضمن هذا البحث خارطة مفصلة لسقطرى. وكان رفيق عالم الحيوان «بينت»، هو أول الأوروبيين الذي صعد إلى قمة جبل هجر. وفي عام ١٨٩٩ الميلادي قام بعمل ذلك الأستراليان «أو. سيموني» و«ف. كوسمات».

وفي نوفمبر عام ١٨٩٨ الميلادي بتكليف من أكاديمية فيينا للعلوم، توجهت البعثة إلى جنوب شبه الجزيرة العربية على متن السفينة السويدية «جوتفريد»، والتي أجرت أبحاثاً أثرية واثنو جغرافية والتاريخ الطبيعي. وكان أعضاء في هذه البعثة ك. لانديريج و د. مولير و أو. سيمون و ف. كوسمات و يان بولي. وانضم إليهم في عدن أ. بيرن وبعد ذلك ج. فوريس و أو. جرانت، الذين كانوا يزمعون أن يجمعوا مجموعة حيوانية ونباتية لمتحف لندن وليفربول. وبعد التوقف المفاجيء للأبحاث على يابسة شبه الجزيرة العربية، توجه جزء من البعثة في يناير عام ١٨٩٩ م إلى سقطرى. وقد عمل العلماء هنا لمدة شهرين، وقاموا في المقام الأول بدراسة المناطق غير المشهورة وكذلك غرب الجزيرة. وقاموا بعد ذلك برحلة إلى عبد الكوري وسمحه. كان هذا العمل مثمراً فظهرت نتيجة لذلك عدة مطبوعات منها كتاب ج. فوريس السالف ذكره^{٢٢٨}، والنصوص السقطرية الرائعة التي كتبها د. مولر مع الترجمة والشرح^{٢٢٩}. وكان وصف محاكمات الساحرات الذي كتبه العقيد الإنجليزي إي. سنيل في عام ١٩٥٥ الميلادي يمثل فائدة علمية محددة^{٢٣٠}. وفي عام ١٩٥٦، جاءت إلى الجزيرة بعثة أو كسفورد برئاسة «س. بوتينج» الذي كتب كتاب «أرض دم التنين»^{٢٣١} وقد نشر العضو المشارك في البعثة المشار

227 - Bent, Mrs. Theodre J. Op. cit.

228 - The Natural History of Socotra and Abd-el-Kuri: A monograph of the Island // Ed. By Henry O. Forbes. – Liverpool, 1903.

229 - Müller, D.H. Die Mehri und Soqotri-Sprache / Müller D.H. / I, 1902; II, 1905; III, 1907, Südarabische Expedition der Kaiserlicheb Academie der Wissenschaften in Wien. IV, VI, VII.

230 - Snell, I.E. Witch Trials in Socotra. American Documentation Institute c/o Photo Duplication Service/ I. E. Snell // The Library of Congress – No 5623 – P. 47–53.

231 - Botting, D. Island of the Daragon's Blood / D. Bottihng. – L., 1958.

إليه أنفأ ب. شينّي تقريراً أثرياً قصيراً.^{٣٣٠}

في عام ١٩٦٦ الميلادي أجرى الخبير العقيد البريطاني ج. براون بناءً على تكليف من السلطات المحتلة، بحثاً للحالة الاجتماعية والاقتصادية لسقطرى، بهدف كشف آفاق تطور الاقتصاد في الاتجاه المفيد للمحتلين. وقد استطاع براون كونه متخصصاً خبيراً ومراقباً، ولديه إمكانات واسعة للتجوال في جميع أنحاء الجزيرة أن يجمع مادة قيمة قام بتلخيصها في تقريره الرسمي عن الرحلة^{٣٣١}.

وأخيراً، في عام ١٩٦٧ الميلادي قامت البعثة المجمعّة للعلماء الإنجليز بالعمل في سقطرى، وكان من بينهم: ر. ريتشن (عالم الأحياء جامعة ليدن) و. د. ديو (عالم الآثار مدير مصلحة الآثار في عدن) و. ك. كوتشارد (عالم الحشرات. المتحف البريطاني) و. ك. فريزر جينكينز (عالم الحشرات) و. ت. جونستون (عالم اللغة - جامعة لندن) و. م. تومكينسون (عالم اللغة وعالم الحشرات) و. ر. سيردجنت (طبيب صندوق إنقاذ الأطفال)، وأ. سميت (عالم النباتات. حديقة نباتات كيو) و. ج. لافارنوس (عالم النبات). وكانت هذه البعثة تستهدف أهدافاً عسكرية؛ فقد كان في قوامها ممثلون لوزارة الدفاع البريطانية.

تم كتابة العديد من المقالات حول نتائج البعثة. وكانت أكثر الأعمال تميزاً، والتي طبعتها في عام ١٩٦٧ م ما كينة طباعة روتابرننت في أمريكا (ميامي فلوريدا)، البحث العلمي الذي قام به د. ديو (سقطرى - مسح أثري عام ١٩٦٧ م)^{٣٣٢}. وللأسف فإن البروفيسور ت. دجونستون بموته المفاجيء، لم يكمل معالجة ونشر مادته العلمية عن سقطرى.

232 - Shnne P.L. Socotra / P.L. Shinnie. - L.: Antiquity. 1960. - Vol.24. - P.100-110.

233 - Brown, G.H.H. Social and Economic Conditions and Possible Development in Socotra / G.H.H. Brown. - Aden, 1966 (Ротапринт).

234 - Doe, D.B. Op.cit

في ٣٠ نوفمبر عام ١٩٦٧ الميلادي نزلت إلى الجزيرة كتيبة من الجبهة القومية . وهي هيئة الوطنيين لليمن الجنوبي التي قادت النضال إلى تحرير البلاد . وقد أبعدت سلطان المهري وسقطرى وضمّت سقطرى في نفس اليوم الذي أعلن فيه قيام الجمهورية الجنوبية الشعبية المستقلة (عام ١٩٧٠ الجمهورية اليمنية الديمقراطية الشعبية)^{٢٢٥}.

٢٢٥ - في عام ١٩٩٠ توحدت الجمهورية اليمنية الديمقراطية الشعبية مع الجمهورية العربية اليمنية في دولة واحدة تحت اسم جمهورية اليمن

النصوص الفلكلورية السقطرية (*)

كان تسجيل النصوص الفلكلورية باللغة السقطرية في المناطق المختلفة، وعن طريق رواة مختلفين. أحد الأشكال الرئيسية لجمع فيتالي ناؤومكين المادة العلمية خلال الدراسة الميدانية، لأعضاء البعثة الروسية اليمنية في جزيرة سقطرى. تعد اللغة السقطرية لغة قديمة غير مكتوبة، ولم تحظ بدراسة كافية، وتنتمي إلى مجموعة اللغات الأفروآسيوية السامية. في البداية تم تحديد دائرة أفضل الرواة اللذين يعدون حاملي المادة الشيقية النموذجية، وهم غالباً أشخاص من الجيل القديم، ينتمون إلى أكبر وأشهر العائلات في القبائل من سكان الجبال، وكذلك الشعراء الشعبيين والرواة بما فيهم الشباب. تم التسجيل بواسطة آلة التسجيل، ثم فك الرواة شفرتها وكتبت بنظام الرموز الصوتية المناسبة^{٣٦}. عند فحص النصوص بقيت جميع خصائص لهجات الحديث التي يمكن تتبعها بسهولة في المادة المنشورة، وكذلك ظهرت أخطاء في المعنى وأخطاء أخرى وقع فيها الرواة (انظر النص الثاني حيث يخلط الراوي بين النعجة والعنزة) أظهر العمل الميداني والعمل على المادة التي تم جمعها، فاعلية المنهج الذي تم اختياره. إذ أن النصوص تعد الوسيلة التي يمكن التعويل عليها، لحفظ ونقل المعلومة اللغوية والإثنوغرافية. وفي الحقيقة، فإن العمل التالي كله استهدف استخلاص هذه المعلومة من النصوص. وقد تحقق هذا الهدف جزئياً خلال استجواب الرواة عن

(*) «نشر النص في كتاب: حضرموت- موسكو: شركة النشر «الأدب الشرقي» . أكاديمية العلوم الروسية ، ١٩٩٥ ص. ٤٤٢-٤٦٨ ، شارك في التأليف ف. يا. بورخومفسكي»

٢٣٦- هنا تم استخدام نفس نظام التسجيل الذي استخدم في الأعمال السابقة للمؤلفين حول اللغة السقطرية. عن ذلك وكذلك بعض المعلومات عن لغة وثقافة السقطريين انظر: ف.ف. ناؤومكين وف.يا. بورخومفسكي «مقالات عن اللغات العرقية لسقطرى - موسكو ١٩٨١.

النصوص التي تم جمعها، على أساس موضوعاتها، ومفرداتها اللغوية، وجمع مادة إضافية من الموضوعات «قادتنا» إليها النصوص أثناء العمل البحثي بعد اتمام الموسم الميداني. ونظراً لطبيعة هذه المطبوعة، لم يقدم هنا وصفاً مفصلاً للنصوص المطروحة، فهدف هذا المقال هو عرض المواد التي تمت معالجتها بشكل واسع جداً، وكذلك عرض بعض النتائج للبحث الميداني الذي تم إجراؤه. تمثل النصوص الثمانية المنشورة اختياراً من بين أكثر من ١٠٠ نص للغة السقطرية تم فك شفرتها، وجمعت خلال ٣ مواسم ميدانية. وفي كل الحالات الثمانية، بالإضافة إلى النص السقطري تم كتابة نص روسي حرفي، مما يمكن المتخصصين من الاشتغال على النص (بما في ذلك حذف بعض الوحدات اللغوية الفردية منه، ووضع تصور عن علم النحو) وكتابة ترجمة أدبية (نسبياً) مخصصة لدائرة أكبر من القراء. وفي بعض الحالات (النص السابع والثامن) بدلاً من الترجمة الأدبية، تم كتابة تعليقات على النص (حيث بدون تعليق سيكون النص غير مفهوم) وفي الاختيار المطروح نعرض نصوصاً تنتمي إلى المجموعات الآتية:

١. الأساطير والخرافات القبلية والحكايات العائلية (١، ٢)
 ٢. مؤلفات الفولكلور الشفهي: الحكايات والنكات (٣، ٤)
 ٣. الأغاني الشعائرية والطقسية (٥، ٦)
 ٤. الشعر الشفهي الشعبي القديم (٧) والحديث (٨)، واللغة الشاعرية مهمة جداً في ثقافة السقطريين
- يتضمن الشعر بعض الأنواع الأدبية، ولكن حجم المقالات لا يسمح ببحث هذا الموضوع (انظر أيضاً التعليقات)

النص الأول (*)

ترجمة حرفية : حكاية رخبهن من قشن :

- ١- عاش رخبهن من قشن في الزمن القديم في أحد الكهوف بالغرب. وكان شجاعاً وغنياً، ولديه ولد واحد و خادم .
- ٢- ذات مرة أتى الفرنجة إلى جزيرة سقطرى. واستقر البعض منهم فيها وعندما رأى رخبهن هذا الأمر لجأ إلى الحيلة .
- ٣- ووجد أن أحد الفرنجة يسير مع فتاة، فأمر ابنه و خادمه أن يقبضوا عليهما.
- ٤- بعد أن قبض عليهما، أخذ الفتاة وغطاها بالتنورة الرجالية أمام هذا الرجل، وذبح عنزة كي يخرج الدم من التنورة أمام هذا الرجل .
- ٥- أخفى الفتاة ثم سلخ العنزة و أخفى الجلد و جمع الحطب و أشعل النار .
- ٦- وضع لحم العنزة على النار حتى ينضج، وأخذوا قطعة من اللحم ثم أكلوا. وسمح لخدمه أن يطلق سراح الرجل .
- ٧- جرى الرجل وكان رخبهن لا يراه ، وذهب إلى إخوانه.
- ٨- حكى لهم عن هذا الأمر. وقال إن المرأة ذبحت أمام عيني وشويت وأكلت .
- ٩- أطلقوا سراحي فجريت حتى وصلت هنا. والآن، افعلوها أنتم. انطلقوا واحداً وراء الآخر، فهربوا جميعاً . وأبحروا مغادرين .
- ١٠- تزوج رخبهن الفتاة ، وولدت له أولاد وتكونت منهم قبيلة قشن .

(*) سجله الراوي «على عبد الله ريجهي» من قبيلة ريجهي في الجزء الأوسط

للجزيرة والجنوب الغربي للعاصمة حديبو عام ١٩٥١ م.

الترجمة الأدبية: حكاية رخبهن من قشن :

في قشن غرب سقطرى في قديم الزمان، عاش في أحد الكهوف رجل شجاع وغني يدعى رخبهن. وعاش معه ابنه وخادمه. وفي ذلك الزمان هجم «الفرنج» على الجزيرة وسكنها بعضهم. أراد رخبهن طرد الفرنجة، ووضع حيلة لذلك الأمر. تربص برجل وامرأة من الفرنجة عادة ما كانا يسيران منفردين، وأمر ابنه وخادمه بالهجوم عليهما .

قاما بالقبض على قبضا الفرنجيين . وأخذ رخبهن المرأة حتى أن الإفرنجي لم يرد ذلك، وغطاها بالتنورة الرجالية، ثم ذبح عنزة تحت هذه التنورة . وتدفق الدم من تحت التنورة . اعتقد الإفرنجي أن المرأة قد ذبحت. وسلخ رخبهن جلد الماعز وغطى المرأة . أحضر حينئذ رخبهن الحطب وأضرم النار ووضع عليه لحم الماعز ليطبخه كما لو أن هذا هي المرأة المذبوحة . وهمس لخادمه أن يطلق الأسير كما لو أنه لا يعرف ذلك .

فك الخادم قيود الأسير الإفرنجي وتصنع رخبهن ، كما لو أنه مشغول بإعداد الطعام ولا يرى شيئاً . هرب الإفرنجي يغمره الخوف ووصل إلى ذويه. وصار يحكي لهم أن السكان المحليين ذبحوا السيدة وشوها على النار وأكلوها، وكانوا يريدون أن يأكلوه هو أيضاً، غير أن الرجل أشفق عليه وأطلق سراحه. وها قد نجح في الهرب . وقال لرفاقه «والآن افعلوا معي ما بدا لكم» . وتشاوروا فيما بينهم وقرروا الذهاب جميعاً . استقلوا السفينة وغادروا سقطرى . اتخذ رخبهن تلك المرأة الإفرنجية زوجة له، وولدت له أولادا كثر، ومنهم تكونت قبيلة قشن .

النص الثاني (*)

الترجمة الحرفية : حكاية ماكن

١. في زمان مضى، كانت قلعة ماكن تقع على قمة جبل حجهر. وشيد هذا «الماكن» في ذلك الوقت وكان هناك رجال حكموا هذا الماكن .
٢. كان عندهم رجل سواحلي قوي ، وقد وضع شروطاً تقضي بأن، كل فتى غير مختون يأتي إليه في هذا الماكن يجب أن يقول نبوءة .
٣. عندما يقول نبوءة يتركونه مدة، وعلى الطفل أن يأتي بعدها إليه. فإذا صدق كلامه سيقتل السواحلي وستهدم قلعة ماكن. وإذا لم يصدق فسوف يقتل الفتى غير المختون .
٤. قال كثير من الفتيان نبوءاتهم، ولم يصدقوا. وكان هناك شخص من ريجدهي (من قبيلة ريجدهي) عنده حفيد صبي غير مختون .
٥. قال الرجل لحفيده اذهب إلى حجهر وارعى أبقارنا في الأسفل ، ولا تدخل قلعة ماكن إنني أنصحك ، فذهب الفتى حتى وصل إلى حجهر .
٦. قال الفتى لماذا لا أذهب إلى ماكن ؛ لأرى وأسلم عليهم؟ قالوا له أنت مختون أم أنك غير مختون؟ قال أنا غير مختون . قالوا له من أين أنت؟ قال أنا ريجدهي .
٧. قالوا له قل لنا نبوءة حيث إنك غير مختون ، وحضرت إلى ماكن . قال وهل يجب علي أن أتحدث؟ قالوا له يجب عليك أن تتحدث .

(*) سجله الراوي علي عبد الله ريجدهي .

٨. قال سيحضر شخص قرية مملوءة بالتمر، لا تعرفون نوعه . قالوا لازال طفلاً ، وغير مختون لا يستطيع فعل ذلك .
٩. قال سيحضر شخص منكم إناءً مليئاً بالسمن، يعطس منه الناس بمجرد أن تفتحوه. قالوا مازال طفلاً ومازال غير مختون سوف لا يقدر على ذلك .
١٠. قال سوف يحضر رجل نعجة تحطم أنياب السواحلي. قالوا مازال طفلاً ، ومازال غير مختون لن يستطيع فعل ذلك. قالوا هل مازال عندك شيء أم أنك انتهيت ؟ قال ليس هناك شيء بعد .
١١. قالوا عش بسلام حتى يحل ميعادك منذ ذلك الوقت . ذهب الفتى حتى وصل إلى جده في ريجدهي.
١٢. قال له جده : هل ذهبت إلى ماكن ؟ قال : لقد ذهبت . قال : وكيف تكلمت ؟ قال : أنا قلت كذا وكذا وكذا
١٣. قال أنا لم أخطيء. غضب العجوز على الحفيد وفكر في الحكاية التي يمكن أن يخترعها.
١٤. حلب عنزة ووضع اللبن في جرة ثم وضعها على الموقد. وأزال القشدة من أعلى اللبن، وجمعها وملأها مع أزهار صوب خير حتى ملأ أنيته .
١٥. طمر الإناء، ومن بداية موسم الصيف أخذ يرش النخيل على كل مكان، وترك عليه ستة و سبعة أفرع ملقحة .
١٦. فعل ذلك بحيث يحترق التمر على الفروع وتبقى على الفرع من اثنين إلى ثلاثة تمرات. وملأ يده بالتمر، وفي موسم الحصاد قطع النخيل وفرشها في ساحة لتجفيف التمرفي الشمس .
١٧. نزع القشرة عنها، ونزع النواة حتى ملأ قرية عنزة كبيرة ، ووضع قريته وإناؤه، وخرج إلى قطيع الماعز .
١٨. كان لديه ثنتان من الماعز سود اللون في دي شهصي ، وكانتا حبلتين في ريدجهي، وبمجرد أن وضعتا، ذبح أحد الماعز الذي ولد، وأعطى لهما ماعزاً واحداً .

١٩. ترك كل شيء هكذا حتى يحين وقته. وقال لحفيده خذ القربة والإناء واذهب إلى ماكن .

٢٠. ستعد رجال ماكن للموعد المحدد و أحضر ما معه. وذهب إلى جده .

٢١. قال له جده غطي بالتنورة الرجالية هذا، ولا تنظرهنا أو هناك طالما لم تدخل من باب ماكن .عندما تشعر أنك في الوسط وأن العنزة قامت على أرجلها في مستوى قوائم الباب انطق لتحطم هي القلعة الحصينة. دخل ليجد تلك الماعز التي كانت عند العنزتين في دي شهصي التي ربوها ، والذين لم يترحلوا. أمطرت السماء وغدا الجو بارداً بسبب النجوم . وحينها التفت إلى العنزة .

٢٢. ذهب الفتى حتى أصبح في منتصف المكان ثم قال لماذا لا أنظر إلى العنزة هل تتبعنى العنزة أم لا ؟ وبمجرد أن نظره ريت العنزة حتى عادت إلى مكانها .

٢٣. عاد إلى جده. قال له : هل نظرت إليها قبل أن تصل ؟ قال نعم نظرت يا جدي .
٢٤. في الغد أرسل معه عنزته. قال الآن لا تنظر حتى تصل. ذهب الفتى حتى وصل ماكن .

٢٥. قال :هي تحطم القلعة الحصينة. دخل ليجد تلك التي أرضعتها عنزتان في دي شهصي» والتي لم تترحل من قبل . أمطرت السماء وأصبح الجو بارداً بسبب النجوم .

٢٦. بعد ذلك نظر إليها . قفزت فحطمت دعائم قلعة ماكن . قبضوا عليها . وقطع الرجال رأسها .

٢٧. لعق السواحي لسانه من اللذة. سلخوها ونزعوا عنها جلدها وقطعوا عنقها .

٢٨. أعطوا عنقها للسواحي . وضع الرقبة في جانب فمه، وأكل حتى تساقط منه نابين على الأرض . وضع الرقبة على الجانب الآخر، وأكل وتساقط نابين آخرين على الأرض .

٢٩. قطعوا القرية، ورأوا فيها التمر، الذي لم يعرفوا نوعه . أحضروا الإناء، ورفعوا عنه الغطاء. عندما نزعوا الغطاء عطسوا جميعاً .

٣٠. أوفى فتى ريجدهي بشرطه. ونفذ الرجال ملاك ماكن الحكم الذي حكموا به هم أنفسهم .

٣١. قطعوا رأس السواحي ، وانتهت ماكن في ذلك اليوم . وغمرته الفرحة .
الترجمة الأدبية : (حكاية ماكن) :

شيدت في الزمن القديم قلعة ماكن على قمة جبل حجهر . حكم قلعة ماكن عدة أشخاص ، كان من بينهم رجل سواحي قوي . سن هذا السواحي قانوناً يقضي بأن كل صبي غير مختون يصل إلى ماكن، لابد أن يحكي له شيئاً ما ثم يتنبأ . وبعد أن يتنبأ الصبي يتركه القوي عاماً ثم يأتي إليه بعد ذلك في نفس الوقت . وإذا تحقق الشيء الذي تنبأ به، فلا بد أن يقتلوا السواحي ويهدمون قلعته . ولم يستطع أحد من هؤلاء الصبية التعساء أن ينتصر على السواحي، وتم إعدام أولئك الذين لم تتحقق نبؤاتهم .

وهكذا مات جميع الغلمان الذين ذهبوا إلى ماكن . عاش في ذلك الزمان شخص من قبيلة (ريجدهو) وكان لديه حفيد صبي غير مختون . وفي ذات يوم قال هذا الشخص لحفيده :

- اصعد إلى حجهر وارعى أبقارنا في الأسفل، لكن أرجوك لا تدخل ماكن .
توجه الصبي إلى ماكن وفي الطريق أخذ يفكر :

- لماذا لا أشاهد ماكن بنفسي؟ سأذهب وأسلم عليهم ، وإن شاء الله لن يحدث شيء .

دخل الصبي إلى القلعة فسأله حكام ماكن :

- هل أنت مختون أم غير مختون ؟

أجاب الصبي :

- أنا لم أختن بعد .

حينها سألوه :

- ومن أين أنت ؟

أجاب الغلام .

- أنا ريجدهي .

قال حكام القلعة : حسناً والآن قل كلمتك طالما أنك غير مختون ،

وجئت إلينا في ماكن .

قال : وهل ينبغي علي أن أتحدث ؟

قالوا : تكلم لا مفر من ذلك .

قال الغلام :

سيحضرون إليكم قرية ملاء بالتمر، ولن تستطيعوا أن تعرفوا من أي

صنف من النخيل هذا الثمر .

أخذ أصحاب ماكن يفكرون :

إنه صغير وغير مختون، ولن يستطيع فعل ذلك .

قال لهم الولد مرة أخرى :

سيأتون إليكم بإناء مليء بالسمن ، وعندما تفتحونه ستعطسون

جميعاً .

أخذوا يفكرون :

إنه مازال صغيراً وغير مختون، ولن يستطيع فعل ذلك .

ومرة أخرى قال الغلام :

وسيأتون إلى هنا بعنزة ستكسر أنياب صاحبكم السواحلي .

أخذوا يفكرون :

إنه مازال صغيراً، وغيرمختون، ولن يستطيع فعل ذلك .

ثم قال له هؤلاء الأشخاص :

هل تريد قول شيء آخر أم أنك أكملت حديثك ؟

قال : هذا يكفي ، ليس لدي ما أقوله أكثر من هذا .

قال أصحاب القلعة : إذن اسمع . لديك بالضبط عام كامل منذ هذه

اللحظة عش بسلام .

عاد الغلام أدراجه إلى جده في ريجدهي .

نظر الجد إليه .

هل دخلت يا حفيدي إلى ماكن ؟

نعم دخلت .

وماذا فعلت ؟

أجاب الحفيد جده :

نعم قلت هذا وذاك، ولكن ربما لم أصدق في القول

غضب الجد من حفيده : والآن، لا بد أن نفكر في شيء ما لإنقاذ الولد .

فكر الجد ملياً واختلق شيئاً .

حلب الجد عنزاته ، ووضع اللبن في أنية ثم وضع اللبن على جذوة النار

المتقدة، ثم نزع القشدة من الأعلى وجمعها وعلى فيها زهور شجرة صوب وملاً

الإناء، ثم طمره في الأرض .

وبدءاً من موسم الصيف أخذ يرش النخيل . كان يرش على ستة أو سبعة

أفرع . وعندما اقترب نضوج التمر أحرق كل الأغصان مع الأوراق حتى بقي

فقط عنقود واحد بالتمر. وفي موسم جمع التمر، أمسك التمر في كفه وفصل بيده كل ثمرة عن العنقود، ثم فرشها في ساحة لتجفيفها في الشمس. بعد ذلك نظف التمر من قشرته، ونزع منه النوى، ثم ملأ هذا التمر في قربة. وكان لدى الجد عنزتان على وشك أن تضعاً حملهما، إحداهما في دي شهص، والأخرى في ريد جهي. ووضعت كل منهما عنزة فذبح إحداهما وأبقى الأخرى حية، ترضعه العنزتان معاً لتصبح العنزة قوية وكبيرة.

حان الموعد المحدد، واستعد أصحاب القلعة لمقابلة الولد والنظر في أمره. قال الجد لحفيده :

خذ الإناء والقربة واذهب إلى ماكن .

أخذها الفتى وذهب . أوقفه الجد وقال له :

انتظر.. اخف كل ما معك تحت تنورتك الرجالية، ولا تنظر بأي حال من الأحوال حواليك، طالما أنك لم تدخل إلى ماكن، وحتى تتيقن أن العنزة التي معك أصبحت في وسطها تماماً. وعندما يصبح كاحلها في نفس مستوى قوائم الباب حينها قل :

تحطم هي القلعة الحصينة .

دخل الغلام ليجد تلك التي أرضعتها العنزتان في دي شهص، وقام بتربيتها أولئك الذين لم يذهبوا إلى مكان قط . أمطرت السماء وغدا الجو بارداً بسبب النجوم .

وبعد ذلك فقط تستطيع أن تلتفت إلى العنزة .

مضى الغلام في طريقه وحين بلغ منتصف الطريق أخذ يفكر : « ولم لا التفت، لابد أن أنظر هل تسير العنزة خلفي أم لا ؟

والتفت الغلام وبمجرد أن نظر إليها جرت العنزة إلى الخلف، وعادت إلى البيت. فاضطر الولد أن يعود إلى جده. وكان العجوز حكيماً. قال الجد للولد :
ربما نظرت إليها قبل أن تصل إلى المكان

أجاب الصبي :نعم نظرت إليها .

في اليوم التالي أرسل معه عنزته وحذره :

لا تعاود الآن الالتفات طالما لم تصل إلى المكان .

وانطلق الصبي من جديد ،ووصل إلى ماكن .

ونطق الكلمات التي علمها له جده :

تحطم هي القلعة الحصينة

دخل الغلام ليجد تلك التي أرضعتها العنزتان في «دي شهص» ورببيتها أولئك الذين لم يترحلوا. أمطرت السماء وغدا الجو بارداً بسبب النجوم. وعلى الفور التفت ونظر إلى العنزة. قفزت العنزة بقوة لتحطم الأعمدة التي يستند إليها سقف ماكن .

أمسكها أصحاب القلعة وقطعوا رأسها. أخذ السواحلي يلحق شفتيه من اللذة، ولا يستطيع الصبر من أجل أن يأكل لحمها طازجاً. نزعوا جلد العنزة، ثم فصلوا رقبته وأعطوها للعملاق. أخذ الرقبة ووضعها في جانب فمه وغرر فيها أسنانه، فتساقطت أنيابه من فمه على الأرض. وما أن فقد أنيابه من أحد جوانب فمه، غرر في رقبة العنزة أنيابه في الجانب الآخر، ولكن هذه الأنياب لم تتحمل ووقعت أنيابه من فمه على الأرض .

وفي نفس الوقت قطع أصحاب ماكن القرية ورأوا ما فيها من تمر. ولكن لم يستطع أحد منهم أن يعرف من أي صنف من النخيل جاءت تلك التمور الغريبة .

ثم أحضروا الإناء ونزعوا عنه الغطاء. وما إن نزعوا عنه الغطاء حتى نفذت
الرائحة إلى أنوفهم، فعطسوا جميعاً على الفور. وهكذا فإن غلام ريجدهي
أوفى بما وعد. ثم نفذ أصحاب ماكن الحكم الذي كانوا قد أصدروه
بأنفسهم. قطعوا رأس السواحلي. وفي ذلك اليوم كانت نهاية ماكن وكان
فرحة الغلام لا توصف.

obeikan.com

النص الثالث (*)

(الزوجة الوفية والكذابون الثلاثة)

الترجمة الحرفية

١. تزوج رجل في الزمن القديم امرأة، وقضى معها فترة من الزمن. وبعد ذلك افتقر الناس وأصبح فقيراً.

٢. قال لها ابق هنا وسأذهب أنا. قالت يد الله معك اذهب. وذهب الرجل ومضى في طريقه.

٣. أبحر والله أعلم إلى أي البلاد، وعمل حتى يوم من أيام الله.

٤. قال ثلاثة رجال من قومه إننا سمعنا أن هذا الشخص اغتنى هناك، وبعد ذلك حسدوه.

٥. قالوا سوف نفسد زوجته، ليذهب أحدنا إليها، وجاء إلى هذه المرأة الذي اختاروه منهم.

٦. صنعت له القهوة وبعد القهوة تحدث معها.

٧. قالت له : إنها غير مستعدة الآن، ولم تعتن بنفسها جيداً، وطلبت منه أن يأتي إليها في الغد في مثل هذا الوقت.

(*) سجله «عمرو أحمد ديرهن» من قبيلة ديرهو في الجزء الأوسط الرئيس للجزيرة (السلسلة الجبلية حجه) عام ١٩٢٧ م.

٨. ذهب الرجل ولم تهدأ نفسه حتى الغد. وفي الغد، وفي نفس التوقيت وصل الرجل.

٩. جاء الرجل، وأعدت له مخدراً. وأعدت له خمراً، وخلطت أحدهما بالآخر.

١٠. ذهبت إلى أحد الأساتذة؛ لكي تتعلم كيف تخدر الرجل. وأخذت منه معلومات كي تخصيه

١١. أحضرت كأساً. ونظفت نفسها وتزينت وغيرت ملابسها.

١٢. رأى الرجل هذه التي غيرت ملابسها. رأى هو علامات تغيير الملابس والعطور، وماشابه.

١٣. وبعد ذلك أعطت له ذلك الكأس. قالت اشرب كي يكون عندك قوة رجولية. شرب الرجل كأسه. وعندما شرب أصابته إغماءة.

١٤. أمسكته وقطعت الخصيتين، ثم صنعت له دواءً.

١٥. استيقظ في الصباح الباكر، واكتشف ذلك وأصيب بالرعب. اكتشف أن هناك تورم حيث توجد الخصيتين.

١٦. ذهب وخرج من الباب وقابل أحد الرجلين قال له ماذا وجدت؟

١٧. قال وجدت خيراً، فهي لم تترك شيئاً لم تفعله لي، وعندما وصلت مكنتني من نفسها.

١٨. قال حسناً، أتبعك أنا غداً. قال: الآن، اذهب إليها في منتصف النهار؛ كي تحدد لك موعداً بالليل.

١٩. جاء إليها وقالت له: سيكون هذا وسيكون هذا وسيكون ذاك. قالت تعال إلي.

٢٠. جاء الرجل في الموعد كما فعل صاحبه. وجد أنها تزينت بالكامل واستعدت وما شابه. وأعطته كأسه، وشرب.

٢١. أمسكته، وقامت بقطع الخصيتين. ووضعت خصيتيه في كأسه وأعدت له كفرا الأحياء .

٢٢. استيقظ في صباح الغد. جاء إليهما الثالث. ثالث ثلاثتهم، وقال ما كان الأمر معكما أنتما الاثنان؟ قال له : لا تتكلم أكثر اذهب؛ حتى لا تفوتك الفرصة .

٢٣. ثم جاء دوره، وخصت المرأة الرجال الثلاثة.

٢٤. قال هذا الذي حدث معي. وجميعهم أظهروا لبعضهم البعض، حيث تم قطع الخصيتين. قالوا فلنلجأ إلى الحيلة؟

٢٥. قالوا نذهب الآن إلى زوجها. اثنان سيكونان شاهدين، ويرفع الآخر دعوى ضده ، بكل أمواله وجميع ممتلكاته .

٢٦. يشهد اثنان أنه لا يملك تلك الأموال، والثالث يقيم دعوى أنها له. وانطلق الرجال الثلاثة .

٢٧. سمعت المرأة أن الرجال عزموا على السفر. وبمجرد أن سمعت ذلك حلقت شعر رأسها .

٢٨. حلقت شعر رأسها حتى تظهر في صورة رجل، وانطلقت فسبقتهم إلى المركب.

٢٩. لم تهدأ حتى وصلت إلى البلد التي فيها زوجها، ودخلت إلى منزل حاكم البلد. فقال: من أين أنت؟

٣٠. قالت إنها سيد من الأشراف، وأبقى الحاكم هذا الضيف في بيته، وقدم له كرم الضيافة، من طعام وخلافه.

٣١. في يوم من أيام الله، وصل الرجال الى هناك، جاءوا للتقاضي، وهي مازالت هنا في بيت الحاكم على هيئة رجل وليست امرأة.

٣٢. جاء الرجال للتقاضي، واستمع الى القضية، وشهد اثنان منهم أن الأموال والممتلكات جميعها ليست لذلك الرجل، وانما هي ملك للمدعي .

٣٣. وحكم له الحاكم أن يأخذ أمواله، فخرج السيد من البيت وقال أنا من الأشراف، وأنا أعرف كل شيء .

٣٤. والآن تأكدوا إن كان هؤلاء الرجال مخصيين أم لا ، حتى تكون شهادتهم صحيحة.

٣٥. وتم فحصهم، وتبين أنهم جميعا مخصيون، وتم ايداعهم السجن.

٣٦. قال الرجل : الحمد لك يا الله على إظهار الحقيقة، وأنت أيها السيد الشريف ماذا تريد لأعطيه لك؟

٣٧. إذا كنت صادقا أنك ستعطيني ما أريد، فتعال إلى هنا، فاقترب منه فقال له اعطني زوجتك لأتزوجها..

٣٨. هم الزوج أن يرفع يده ليلطم بها وجه السيد، وقال أنا أقلع عيني، ولا أعطيك زوجتي.

٣٩. قال له السيد كفى، ولكن اعطني خاتم الزواج هذا، نعم هذا، وأعطاه خاتمه، ذهبت الزوجة وأبحرت عائدة أدراجها إلى المركب.

٤٠. سافرت هي وزوجها سوياً على سفينة واحدة باتجاه سقطرى، وقال السيد سأتي اليك في بيتك، فأنا أريد أن أرى زوجتك.

٤١. ولم تهدأ حتى وصلت الى الشاطيء، وحشت الخطى فسبقته في الطريق، وكان يوجد لديها في بيتها خادمة واحدة وحارس واحد يحرس بيتها.

٤٢. قالت لها نظفي البيت ورتبيه، فنظفت هذه المرأة البيت، ورتبته وجهزت كل شيء.

٤٣. وصل الزوج ودخل بيته، ووجد زوجته هناك وقال لها سيجيء إلينا أحد السادة، وحكى لها كل شيء.

٤٤. أعدي له عشاءً فسيأتي إلينا في المساء، فإني أعرف أنه ذهب إلى المسجد.

٤٥. انتظرا معاً (العائلة) وصول الرجل، ثم انتظروا وانتظروا، ولكنه لم يأت.

٤٦. انتظرنا ثم انتظرنا فما جاء، فما العمل إذن؟

٤٧. بعد العشاء استلقوا على الفراش، وقص الرجل كل شيء حدث معه (؟)

٤٨. بعد أن حكى لها كل شيء، أخرجت الزوجة الخاتم، وأحضرت الأنيبة التي حفظت فيها ما اقتطعته من الرجال الثلاثة، وحكت له عن كل شيء من أمرها معهم.

٤٩. اطلبي أي شيء أعطيه لك، قالت لا أريد أي شيء، يكفيني أنك لم تتنازل عني؛ ليتزوجني شخص آخر وهذا كل ماكنت أرغبه منك .

الترجمة الأدبية :

في سالف العصر والأوان، تزوج رجل وعاش مع زوجته في رغد قبل أن تحل بهما الكارثة. إذ أصيب الناس بالقحط والمجاعة، وأصبح ذلك الرجل فقيراً، وذات مرة قال لزوجته :

لتبقي أنت في البيت، وسأسافر لأجرب حظي في الغربة .

قالت له زوجته :

سافر، وليوفقك الله

ذهب الرجل في طريق بعيدة، أبحر طويلاً في البحر، واللّه وحده يعلم إلى أي البلاد وصل، ووجد هناك عملاً وفق فيه ونجح .

في يوم من أيام الله ، علم ثلاثة رجال من سكان تلك القرية، التي تعيش فيها عائلة ذلك الرجل، أنه قد أصبح غنياً ، فحسدوه على ذلك . أخذوا يفكرون ويفكرون ثم قرروا : لنسيء إلى زوجته. فليذهب إليها أحدا .

اختاروا أكثرهم وسامة ولباقة، فذهب إليها، فاستقبلته كما ينبغي ، وقدمت له القهوة ، ثم بدأ بمراودتها عن نفسها ، فقالت له :

لست مستعدة الآن، لا بد من ترتيب البيت وإعداد نفسي : أغتسل وأتطيب، تعال في الغد إلى هنا في مثل هذا الوقت .

فرح ذلك الرجل، ولم يهدأ له بال حتى مساء اليوم التالي ، وفي مساء اليوم التالي ذهب من جديد إلى تلك المرأة ، كما تم الاتفاق معها .

سارعت المرأة مباشرة إلى الاستات^{٣٣٧} وطلبت منه مسحوقاً يفقد الإنسان الوعي ، وكانت قد عرفت أيضاً كيف يمكن أن تخصي الرجل. عادت إلى البيت وأعدت العقاقير ومزجت ذلك المسحوق بالخمير^{٣٣٨} .

رتبت البيت، ولبست الثياب وتدهنت بزيت عطري، وتعطرت. وفي الوقت المحدد جاء الرجل فرحاً، ورأى أن كل شيء في البيت يتلألأ، ويفوح من المرأة العطر والبخور. فبدأ بإغرائها، وأحضرت له كأساً بالعقاقير وناولته قائلة : اشرب ليكون لك الفحولة الذكورية .

شرب العقار حتى وقع مغمياً عليه، فأخذت المرأة السكين وأخصته، ثم دهنته بعقاقير طيبة.

٢٣٧ - بالعربية - أستاذ

٢٣٨ - مشروب كحولي

استيقظ الرجل في الصباح، وحين شاهد نفسه أصيب بفزع شديد، إذ لم يبق لديه شيء في ذلك المكان. بل إنه كان متورماً. خرج من البيت، وفي الطريق قابل واحداً من أصحابه، فأخذ يسأله عن ما تم له مع تلك المرأة، فكذب عليه .

كل شيء جرى على ما يرام، فما أن وصلت حتى عملت كل شيء كما أردت .

قال الثاني فرحاً : اذن أذهب إليها في الغد .

قال له الأول : الأفضل أن تذهب الآن لتحدد لك موعداً في الغد بعد غروب الشمس .

ذهب الثاني إلى المرأة الوفية، فضيفته بالقهوة، وتكرر بينها وبينه ذلك الحديث مثلما جرى مع الأول. وحددت له موعداً في نفس التوقيت من مساء اليوم التالي، ومثلما قالت للأول كررت قولها بأنها ستستعد لاستقباله كما ينبغي .

جاء في الموعد المحدد، فرأى أنها قد هيأت البيت، وتزينت، وتعطرت، فارتاح لذلك، وأعطته الكأس بالعقاير فشربه بسرور، وسقط فاقداً وعيه، ثم قامت هي بخصيه، كما فعلت بالأول، ثم وضعت ما اقتطعته من الاثنين في أنية خاصة، ورشت ذلك بعقاير طيبة تسمى ” كفر الإحياء“، واستيقظ الرجل في الصباح، وحينما رأى ما حل به أصيب بالفزع، وخرج عائداً أدراجه .

قابل صاحبه الأول، وأصبح واضحاً لكل منهما أن ما حدث مع الآخر قد حدث معه. فذهب الاثنان إلى الثالث، وحين سأل عن كيف جرت الأمور مع المرأة، أجاباه :

لاتسأل، كل شيء على ما يرام .

أرسله إلى المرأة، وتكررت معه نفس القصة التي حدثت للثنتين. أخصت
المرأة الأصحاب الثلاثة

اجتمع الثلاثة معاً، وفي نهاية الأمر أفصح الأول والثاني عما جرى لكل
منهما، واعترف الثالث بأنه قد حل به نفس المصير أيضاً، حزنوا كثيراً، ولم
يكتفوا بما حدث لهم، بل قرروا أن ينتقموا من تلك المرأة. فكروا وتناقشوا
وفي النهاية قال أحدهم :

لنذهب إلى زوجها، وليرفع أحدنا دعوى ضده في كل أمواله وجميع
ممتلكاته، ويكون الاثنان الآخران شاهدين، يحلفان أنهما يقولان
الحقيقة.

فرح الثلاثة، وعزموا على فعلتهم السوداء، ومضوا في طريقهم. أدركت
المرأة أنهم ينوون عمل شيء ضد زوجها، فقصت شعرها ولبست ثياباً رجالية،
وسافرت على ظهر مركب فوصلت إلى ذلك البلد حيث يعيش زوجها قبل
وصولهم وذهبت مباشرة إلى منزل الحاكم، فسألها، وكأنه يخاطب رجل.

من أنت؟ ومن أين جئت؟

قالت :

أنا سيد من الأشراف^{٣٣٩} ورجل تقي.

أبقى الحاكم على ضيف الشرف هذا عنده في البيت، وقدم له كل أنواع
الضيافة. وفي يوم من أيام الله، وصل أولئك الثلاثة إلى هناك، فذهبوا مباشرة
إلى القاضي، وسلموه بلاغاً ضد زوج المرأة الذكية. كانت هي في ذلك الوقت
في بيت الحاكم في هيئة سيد تقي. استدعى القاضي الزوج وأخذ في نظر
قضيتهم. أقسم الشاهدان أن الأموال والممتلكات جميعها للمدعي.

٢٣٩ - من ذرية النبي محمد.

هنا خرج السيد على الفور من البيت متجهاً إلى القاضي. قال السيد المتنكر:

أنا سيد، وأعرف كل شيء. افحصوا هؤلاء الثلاثة « إن كانوا مخصيين أم لا » حتى يكون كل شيء مطابقاً للقانون ويمكن الاعتماد على شهادتهم .

تبين للكل أن هؤلاء الثلاثة جميعهم مخصيين، فأمر القاضي بإيداعهم السجن وإطلاق سراح الزوج. وقال الرجل لزوجته وهو يعتقد أنه يخاطب سيداً .
الحمد لله. لقد أنقذتني أيها السيد. والآن قل لي ماذا تطلب مني، سأعطيك ما تطلبه ؟

قالت زوجته : إذا كنت ستفي بوعدك، اقترب مني لأقول لك ماذا أريد منك.
اقترب الرجل من زوجته وانحنى فقالت :

اعطني زوجتك لكي أتزوجها .

اغتاظ الرجل لهذا الطلب، وهم أن يرفع يده ليلطم بها وجه السيد. لكنه تمالك نفسه وقال له :

خذ أعلى ما أملك، وحتى أقلع عيني، أما زوجتي فلن أعطيها لأحد .

فرد السيد المزعوم بقوله :

حسناً. اهدني إذا خاتم الزواج .

خلع الزوج الخاتم عن أصبعه وأعطاه السيد .

سافرا معا على سفينة واحدة إلى سقطرى، وذهبت المرأة الى زوجها وقالت :

سأحضر لزيارتك في البيت وأريد أن أرى زوجتك .

وفور وصولهما إلى الجزيرة تقدّمت المرأة زوجها في الطريق وكأنها تحث
الخطى مسرعة إلى المسجد لأداء الصلاة .

في الواقع فإنها أسرعت إلى البيت وتمكنت من أن تصل إليه قبل زوجها.
فوجدت الفتاة الوحيدة التي أبقتهما في البيت وطلبت منها أن تنظف البيت
بسرعة وترتب نفسها كما ينبغي، فيما أخذت هي في تلك الأثناء تغيير ثيابها
وتستعيد هيئتها السابقة .

وصل الرجل إلى البيت، وقابل زوجته وكان شيئاً لم يكن. وبعد أن سلم
عليها قال لها :

لقد جاء معي أحد السادة، وهو الذي أنقذني من الإفلاس. أعدى له عشاءً
طيباً فسوف يحضر إلينا بعد قليل .

انتظروا السيد.. وطال الانتظار .. ولم يصل أحد. تناولوا عشاءهم بدون
الضيف المنتظر، ثم استلقوا على الفراش، وأخذ الرجل يقص على زوجته
كل ما حدث. وعند ذلك أخرجت الزوجة الخاتم وأحضرت الأنيّة التي
حفظت فيها ما اقتطعته من الرجال الثلاثة و حكّت له عن كل شيء من أمرها
معهم.

اندهش الزوج، فقال لها :

قولي لي، كيف يمكنني أن أكافئك على كل هذا ؟

لقد كافأتني عندما رفضت أن تتنازل عن زوجتك لشخص آخر .. وهذا
يكفيني .

النص الرابع (*)

الترجمة الحرفية : أبوطير (بنو نواس)

١. كان هناك رجل اسمه علي أبو طير المشهور بحكاياته وبحكمته، وكانت هناك امرأة تعيش مع ولدها الوحيد.
٢. وفي أحد الأيام جاء إلى الولد رجلان من التجار من بلده وقالوا له إذا استطعت أن تبقى في البحر ولم تغمرك المياه
٣. كان الولد يريد أن يأخذ أموال هذين الرجلين ولكن البحر كان هائجاً وبارداً بسبب الشتاء .
٤. قال الولد : اكتبوا إن هذه الأموال ستؤول لي، وكتبوا تفاصيل حديثكما بأيديكما .
٥. سطروا الورقة ووضعوا توقيعهما عليها ، وذهب الولد بعد الغروب إلى البحر.
٦. وذهبت أمه العجوز إلى الشاطئ، وأوقدت النار لكي تدخن النرجيلة .
٧. ومكث الولد في البحر حتى أشرقت الشمس، وخرج من البحر وهو يصارع الموت ثم استراح حتى أيقظته الشمس.
٨. سار حتى وصل إلى هذين الرجلين، وقال لهما هلما أعطياي أموالكما .. أنعطيك أموالنا، وقد أوقدت أمك النار على الشاطئ ليلاً حتى الشروق؟

(*) قام بالتسجيل الراوي خميس سعد من كادوب الواقعة على الساحل الشمالي للجزيرة عام ١٩٤٩ ، حكاية علي أبوطير (بنو نواس) .

٩. قال : وهل تصل النار من الشاطيء إلى البحر؟ قالوا نعم تصل فيها اهرب بعيد عنا .

١٠. سار الولد حتى وجد علي أبو طير في الميناء، وقال له يا شيخ علي عندي مسألة فقال له ماهي مسألتك؟

١١. جاءني رجلان، وقال لي سنعطيك كل أموالنا، إذا مكثت في البحر من الغروب إلى الصباح .

١٢. ومكثت في البحر حتى أشرقت الشمس ، وأوقدت أمي النار من أجل أن تدخن النرجيلة .

١٣. وبمجرد أن أشرقت الشمس ذهبت إلى هذين الرجلين، وقلت لهما أعطيانى أموالكما .

١٤. قالان نعطيك أموالنا؛ لأن أمك أوقدت النار على الشاطيء وقد أصابك الدفء منها .

١٥. قال علي أبو طير: وهل حصلت منهما على أي وثيقه؟ فقلت نعم. قال أعطيني إياها، وتولى على أبو طير القضية، وقال اذهب أنت الآن .

١٦. سار علي أبو طير، وطلب من سلاطين ووزراء وقضاة البلد أن يحضروا إلى غداء أعده من أجلهم.

١٧. وذبح عشر عنزات، وأحضر حطباً وقدوراً وذبح العنزات .

١٨. وقال: فليضعوا الطست الذي سيجهز فيه الطعام هنا، وليوقدوا النار هنا، وكان بين النار والقدر مسافة عشرين خطوة .

١٩. جلس الناس وانتظر الناس الغداء حتى الساعة الثالثة ظهراً، وعندما رأوا هذا الأمر نظروا فرأوا أن النار في مكان ، والقدر في مكان آخر .

٢٠. قالوا يا شيخ علي كيف يمكن طهو هذا الطعام والنار بعيدة هكذا؟
قال إذن لا يمكن طهو الطعام هكذا

٢١. قالوا: نعم لا يمكن طهوه هكذا، قال هل أنتم واثقون؟ قالوا نعم. فقال
فكيف يصل دفة النار إلي من الشاطيء إلى البحر؟

٢٢. ورأوا توقيع هذين الرجلين، فأخذوا منهما أموالهما، وأعطوها للصبي .

الترجمة الأدبية :

في أحد البلاد عاش علي أبو طير، الذي اشتهر بالحكمة والحكايات .

وهناك كانت تعيش إحدى السيدات مع ابنها الوحيد .

ذات مرة، قدم إلى هناك من بلد آخر أناس غير شرفاء من التجار .

وأرادوا أن يسخروا من الصبي . فقال له :

إذا ذهبت إلى البحر، ومكثت في البحر من المساء إلى الصباح، يمكنك

أخذ كل أموالنا .

أراد ابن السيدة الفقيرة أن يفتني، وصدق التجارين غير أنه كان يخشى

الماء البارد. وطلب منهما أن يكتب ما وعدا به في ورقة، ثم يتبعا ذلك

بتوقيعهما، وأعطياه الورقة، وعليها توقيعهما.

وما أن غربت الشمس حتى ذهب الصبي إلى البحر، ودخل في الماء حتى

وصل الماء إلى حلقه، ووصلت أمه العجوز إلى الشاطيء، وأوقدت النار، وجلست

تدخن النرجيلة.

مكث الفتى في الماء البارد للبحر الهائج حتى الصباح، وقد تسرب البرد إلى

العظام، وكان على وشك التجمد.

ولكن عندما طلعت الشمس ، أصابه الدفء. وذهب الى التاجرين وقال :

الآن أعطيتاني الأموال التي وعدتوني بها .

أجاب المخادعان :

إنك لم تنفذ الشروط ، ذلك أن أمك جلست طوال الليل على الشاطيء، وأوقدت النار، وأدفأتك

قال الفتى :

كيف يمكن للنار أن تدفئني وأنا في الماء البارد ، والنار بعيدة على الشاطيء؟

ورد عليه المخادعان :

اذهب من هنا ، وأنت سليم ، فلن تأخذ شيئاً .

استاء الفتى؛ فقد مكث طوال الليل في الماء، وذهب يشكو للذكي علي بو طير من الخداع الذي لحق به. ووجد الشيخ علي الشاطيء، فقال له (ساعدني في قضيتي) ، وسأل الشيخ (وماهي قضيتك؟) احك لي .

قال الفتى :

جاءني رجلان ووعداني أن يعطيناني كل ما يملكان، إذا أنا استطعت أن أمكث في الماء حتى يصل إلى حلقي طوال الليل من المساء حتى الشروق. ومكثت في الماء البارد حتى الصباح، وأوقدت أمي النار على الشاطيء؛ لكي تأخذ منها ما يجعلها تدخن النرجيلة. وذهبت في الصباح إلى هذين الرجلين، وطالبت بمالي وقال لي إن أمي قد أدفنتني بشعلة النار التي أضرمتها من الشاطيء .

سأل علي أبو طير:

وهل أخذت منهم مستنداً بما وعدا به؟

أجاب الفتى : نعم أخذت وأعطاه للشيخ .

حسناً ، فلتذهب الآن .

سار علي أبو طير، وسلم جميع سلاطين ووزراء وقضاة هذا البلد دعوة للغداء في اليوم التالي. ذبح عشرة عنزات وأحضر حطباً وعدد من المراجل . وأمر بوضع اللحم في مكان وأضرم النار في مكان آخر، على مسافة عشرين خطوة.

جلس الضيوف وانتظروا حتى يقدموا الطعام . وبلغت الساعة الثالثة بعد الظهر، وقد أصابهم الجوع ولم يحضروا الغداء بعد . نظروا، ورأوا أن النار في مكان واللحم في مكان آخر.

سألوا الشيخ :

يا شيخ علي كيف يمكن طهي اللحم والنار بعيدة هكذا؟

أجابهم علي أبو طير:

إذن، هكذا لا يمكن طهي الطعام؟

اندهش الضيوف :

لا يمكن طهيه هكذا .

وسأل الشيخ الذكي من جديد :

هل أنتم واثقون أنه لا يمكن طهي اللحم هكذا؟

أجاب الضيوف بالطبع واثقون

فقال لهم علي أبو طير :

إذا، كيف استطاعت النار الموقدة على الشاطيء أن تدفء الصبي الواقف بعيد
في البحر.

وأظهر لهم المستندات التي وقعها هذان التاجران . وما أن رأوا تلك المستندات حتى
أمروا بأخذ أموالهما وإعطائها للصبي .

النص الخامس (*)

الترجمة الحرفية :

١-.....

٢-....اغفر لي يا الله .

٣- من أجل هاتين الشاتين التي أملكهما يا الله .

٤- أطلب منك مطراً خفيفاً يا الله .

٥- من أجل هاتين الشاتين يا الله .

٦- ارسل لي مطرك يا الله .

٧- وأعني بقوتك يا الله .

٨- أتوسل إليك يا الله .

٩- أتوسل إليك وأصلي لك يا الله .

١٠- في هذا الوقت الطيب يا الله .

١١- احفظ هذا الإنسان يا الله .

١٢- فلنأخذ منك العدل يا الله .

١٣- قد وهبتي هذه العنزة يا الله .

١٤- انزع عني الطغيان يا الله .

(*) هذا نص طقسي قديم يتلى حين يذبح الحيوان. وقد كتب عن الراوي

«عثمان جومان عثمان» من قبيلة ديرهو عام ١٩٤٨.

١٥- في هذا الوقت الطيب يا الله .

١٦- واحفظ ما بقى من العنزات الأحياء يا الله .

١٧- واحفظ ما بقى في الأحياء من العنزات متعددة الألوان يا الله .

١٨- وألا يقترب منهم الغريب يا الله .

١٩- في هذا الوقت الطيب يا الله .

الترجمة الأدبية :

(.....)

سامحني يا إلهي .

من أجل هاتين الشاتين يا إلهي .

ارسل لي مطراً خفيفاً .

لا يسبب لي أي ضرر يا إلهي .

من أجل هاتين الشاتين يا إلهي .

وكافنتي بالمطريا إلهي .

وامنحني عونك يا إلهي .

أتوسل إليك يا إلهي .

أتوسل وأصلي يا إلهي .

في هذه الساعة الرائعة يا إلهي .

احفظ هذا الشخص يا إلهي .

وهبني هذه العنزة يا إلهي .

انزع مني الطغيان يا إلهي .

في هذه الساعة الرائعة يا إلهي .

واحفظ من بقي في الأحياء من العنزات يا إلهي .

واحفظ هذه المتعددة الألوان من الذين بقوا يا إلهي .

وألأ يقترب منهم أي غريب يا إلهي .

في هذه الساعة الرائعة يا إلهي .

obeikan.com

النص السادس (*)

الترجمة الأدبية :

١. خيدون إيدون- يا شروق الشمس .
٢. خيدون إيدون- بتلك الثلاثة المكتوبة.
٣. خيدون إيدون- افتح خزائن الخير .
٤. خيدون إيدون- احترم الموحدين يا إيدون .
٥. خيدون إيدون- الآن سيأتي كاتين .
٦. خيدون إيدون- لوكنت تريد من قلبي .
٧. خيدون إيدون- فهو لاسمك معاد .
٨. خيدون إيدون- أنت تأكل بيدك اليسرى .
٩. خيدون إيدون- كنت أفكر سابقا كالأعمى .
١٠. خيدون إيدون- كنت كالأعمى يا إيدون .
١١. خيدون إيدون- وهو العجوز الذي فكر؟
١٢. خيدون إيدون- وحصلت منه على ثمن بخس إيدون .
١٣. خيدون إيدون- ودير يسموتين بلون الحديد .
١٤. خيدون إيدون - والعالم غير مترابط يا إيدون .

(*) أغنية طقسية تغنى حين ختان الفتى، وكتبت عن الراوي عمرو أحمد أحمد

ديرهي .

١٥. خيدون إيدون- وربان السفينة والمحاربون جيدون .
١٦. خيدون إيدون- وأقسم بالله أن جميع الناس جيدون .
١٧. خيدون إيدون- وقد أعطوا خيسخون للجنود .
١٨. خيدون إيدون- وأخذت ديريسموتين منه مالاً يا إيدون .
١٩. خيدون إيدون- وأخذ أبواب عمامة جديدة .
٢٠. خيدون إيدون- افتح سوقاً في القصر إيدون .
٢١. خيدون إيدون- عندما يكون البطن ممتلئاً يكون كل شيء على مايرام .
٢٢. خيدون إيدون- هيا هيا حتى الصباح .
٢٣. خيدون إيدون- وكم من العنزات قد مرت عليك؟
٢٤. خيدون إيدون- وكثير هم الجنود .
٢٥. خيدون إيدون- وديرهى كلها سوف تشكوك يديرهى .
٢٦. خيدون إيدون- طالما لم أقابل أناس راضين .
٢٧. خيدون إيدون- ومن أجل هذا الخبر السعيد ستة آلاف .
٢٨. خيدون إيدون- سوف نعطي من السوق الثمين- إيدون .

الترجمة الأدبية :

- أعيذك في الشروق برموز القرآن الثلاثة (ألم) .
- لتفتح كل الخير الذي تختزنه في داخلك .
- ولتبدى الاحترام للضيوف- والآن سيجيء الضيوف من كاتين .

إذا كنت تريد ، ولكن قلبي يريد - غير أنك تتصرف بصورة سيئة .
فأنك تأكل بيدك اليسرى .
وأنا لم ألحظ هذا .
مثل الأعمى لم أر هذا .
وعندما يفكر العجوز هكذا .
فإنك لن تتخلص منه بثمان بخس .
ديريسمويتن مكان جميل يشبه لونه لون الحديد .
والعالم منقسم ، لكن الناس فقط يصلون بعضه ببعض .
وربان السفينة والمحاربون الذين أتوا معه فى الاحتفال رائعون .
وكل الناس أقسم بالله رائعون .
وفي خيسخون يلهو الجنود .
وحصل أهل « ديريسموتين » منهم على مال وفير .
وحصل أهل أبوب على عمامة جديدة لكل منهم .
لا تندم وافتح السوق ، وليأخذ كل شخص ما يريد .
ولياكل الضيوف حتى الشبع ، وليسيروا متنزهين حتى الصباح .
وأنت لم تذبح بعد العديد من العنزات .
لقد وصل الكثير من الجنود .
لقد اعتقدت في البداية أنك بخيل وقد سببتك يا ديرهى .
ولكني الآن أرى أن الجميع راضون .
ومن أجل هذا الخبر السعيد ، لا بد من دفع ستة آلاف .
من خزنتك الثمينة .

تعليق توضيحي

النص المنشور هو أغنية طقسية تغنى عادة عند اجراء عملية الختان للصبيّة. وقد كتبت هذه الأغنية عن الراوي أحمد أحمد ديرهي من قبيلة دير الذي يعد حافظاً لأكثر الأغاني القيمة القديمة الطقسية والشعائرية والمؤلفات الشعبية الأخرى. وهذه الأغنية ترجع الى تقليد قديم جداً، ولكن الوقائع جديدة نسبية (ذكر ربان السفينة والذي يعد شخصية لاغنى عنها في كثير من المؤلفات الفلكلورية وكذلك الجنود والمحاربون. وهم ضيوف الشرف في الاحتفال .. إلخ) أي أنها مرتبطة بفترة السلطنة المهرية في سقطرى. يدور الحديث في الأغنية عن قرى ديرهو ديريسموتين وأبواب حيث تغنى هذه الأغنية، غير أنه في المناطق الأخرى في الجزيرة طبقاً للمواد التي تم جمعها، يوجد أغان تشبهها إلى حد كبير، وتغنى كذلك بلحن مماثل حزين .

والموضوع الرئيس في الأغنية، هو التأكيد على أهمية الحدث وضروة تقديم كرم الضيافة إلى جميع الضيوف . يمتدحون الضيوف وقرى القبيلة، ويوبخون بطريقه مازحة متعهد الاحتفال؛ إذ أنه لا يقدم واجب الضيافة كما ينبغي، ويبخل بالعنرات، ولم يتعلم أن يأكل باليد اليمنى (فلا ينبغي أن يأكل باليد اليسرى التي تعد قدرة)، ولكن يتوقفون عن اتهامه ويدعونه إلى الزيادة. والأغنية على الرغم من بساطتها الواضحة، فإنها ليست بسيطة إلى حد بعيد، ومليئة بالغموض، غير أن التعليق المفصل يمكن تقديمه في بحث خاص .

النص السابع

الترجمة الحرفية :

الوالدات يختلفن

واحدة عن الأخرى كمربيات

ويتمايز المسلحون (الرجال) بالعقل

والفكر الواحد يختلف من شخص لآخر

تعليق توضيحي :

هذا الشطر الشعري الوعظي القصير والذي وصفته الراوي علي عبد الله ريجدهي بأنه قديم جداً، كتب بطريقة خاصة بالشعر السقطري التقليدي، فهو قصير ومجازي. وينقسم الشطر الشعري بدقة إلى جزئين، وهذا البناء كثيراً ما تجده في المؤلفات الفلكلورية لهذا النوع الأدبي.

في الجزء الأول يدور الحديث عن أن النساء تربي أطفالها بطرق مختلفة، لذلك كما أوضح الراوي (يكون ابن إحدى السيدات صالحاً، وابن الأخرى طالحاً). ومما يلفت النظر هنا الشرط الأول الذي لا يخلو من المعنى فالأطفال يولدون متماثلون، ولكن التربية تجعلهم إما صالحين أو طالحين. لذلك فإن الاختلاف بين النساء يتضح في كيفية تربيتهم لأولادهم.

والرجال (حاملو الأسلحة) الذين يدور عنهم الحديث في الجزء الثاني من الشطر الشعري، يختلفون أيضاً بعضهم عن بعض. ووضع الرجال في المكان الثاني ليس من قبيل المصادفة. إذ أن الاختلاف بين الرجال تحدده التربية السابقة، فهم كأنهم ينبثقون من الاختلافات التي توجد بين النساء المربيات لهم. ويتميز الرجال بطريقة تفكيرهم وشخصياتهم وعقولهم وصفاتهم الأخلاقية والتي كما أوضح الراوي تحدد تصرفاتهم.

obeikan.com

النص الثامن

الترجمة الحرفية:

سقى : صواب لن يزلزل الجبال
والنار لا تستقر في يده
وتحرق يده ولسانه
وسوف أقهره بالقوة
صباغ : القوة في يد الله
وفي الرأس حكمة
وأنت لست سلطان روما
بل أنت من قبيلة سقى

تعليق توضيحي

هنا يعرض نموذج للمبارزة الشعرية التي كانت منتشرة بشكل واسع في الجزيرة، حيث كان يوجد الكثير من الشعراء الشعبيين. وقد نقل النص عن الشاعر علي عبد الله ريدجهي. وهنا ينقض شاعران شعبيان على بعضهما البعض أحدهما يدعى سقى، أي أنه من قبيلة سقى، وفي نفس الوقت هذا هو اسم قريته، والأخر يدعى صباغ، والذي يماثل في اللغة العربية (أصبع اليد). يسخر سقى من غريمه؛ ساعياً إلى مواجهته بنفسه كما ينبغي في مثل هذه الحالات، فالمنافس ليس لديه القدرة على زلزلة الجبال (ولكن هو من الواضح يستطيع) ولا يستطيع أن يوقد النار (والطريقة التقليدية لإشعال الناري حك العصي، والتي تتطلب مجهوداً كبيراً وقدرة)، ولكنه لديه القدرة فقط على تحريك لسانه والتلويح بيديه (وهو ما يفعله

الشعراء عادة عند إلقاء الشعر) والذنان يشتعلان من سرعة الحركة. وهو يتفاخر بأنه يستطيع بقوته أن يقهر عدوه .

فى هذه المباراة الهزلية يمكن إحراز التفوق على المنافس ليس فقط عن طريق السباب والسخرية الحادة والمفاخرة البذيئة ، ولكن بالطريقة غير العادية للأسلوب الجدلي والبراعة التي بها يفند حملات خصمه وبالفكاهة. وفي هذه الحالة لا يتفاخر صباغ بدوره بالقوة، أو بالقدرة على زلزلة الجبال. ولكن يقول إن القوة الحقيقية يملكها الله وحده ، ولكن قوة الإنسان في عقله، وهو يسعى لأن يخفض مفاخرة خصمه قائلاً إنه ليس سلطان روما (أي بيزنطة - رمز القوة) ولكنه مجرد بدوي من قبيلة سقهي . وجدير بالذكر أنه هنا وفي الحديث الشعري بصفة عامة للسقطريين (فيما عدا بعض الأنواع الأدبية) يستخدم كثير من الكلمات المقتبسة من اللغة العربية.

إن لغة الفلكلور والشعر الشفهي الشعبي هما درجة وظيفية في النظام العام لأشكال وجود اللغة ، وتتطلبان دراسة خاصة. وكمثال للملاحظة الأولية نذكر فقط الخاصية المميزة التي أشرنا إليها في الأعلى للغة الشعر السقطري الشفهي، وتحديداً وفرة الكلمات العربية التي لا تستخدم في الحديث العادي والأنواع الفلكلورية النثرية. ولإجراء تحليل كامل لهذه الظاهرة من الناحية اللغوية البحتة، ومن المنظور الثقافي العام يتحتم وجود معلومات من أجل عمل تحليل مقارن، يشمل الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية، وخاصة حضر موت والمهرة .

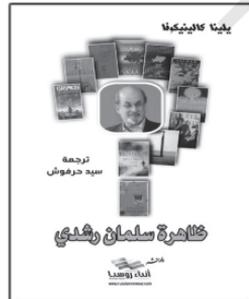
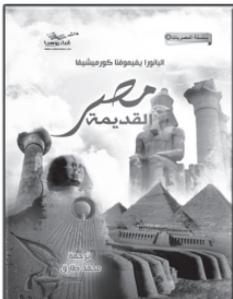
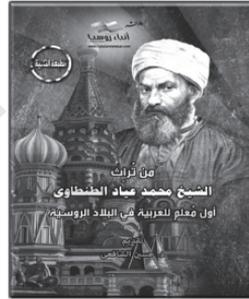
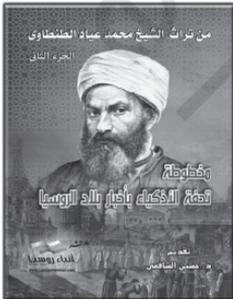
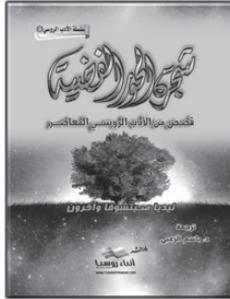
المحتويات

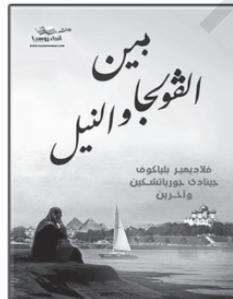
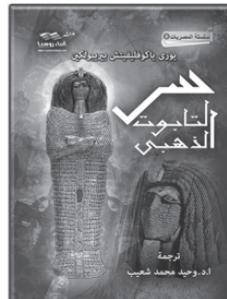
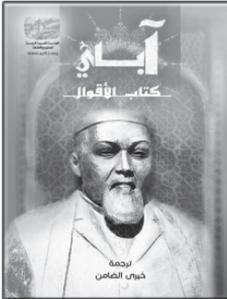
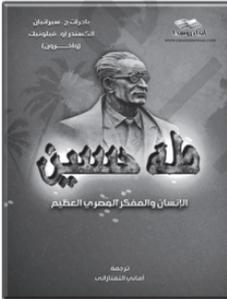
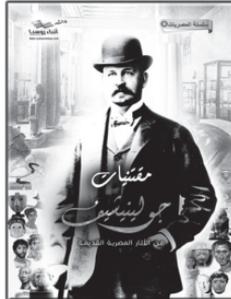
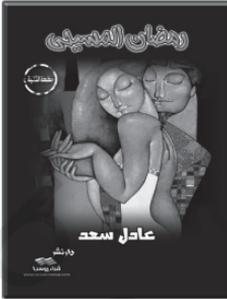
5	مقدمة (بقلم د. حسين الشافعى)
11	نبذة عن الكتاب
13	مقدمة المؤلف للطبعة العربية
15	نظرية الكسب في كتاب « إحياء علوم الدين » للغزالي
27	المفهوم التقليدى « للخاصة » و « العامة » في الثقافة العربية الإسلامية
41	الماليك
49	عبد اللطيف البغدادي وكتابه عن مصر
63	القسم الأول، الفصل الثالث عن الحيوانات المميزة
71	الجزء الثانى - الفصل الثانى حوادث سنة خمسة وتسعين وخمسمائة
79	الجزء الثانى . الفصل الثالث حوادث سنة ثمان وتسعين وخمسمائة
87	مصر والمصريون: الأمس واليوم
163	ستة أشهر عاصفة: الشرق الأوسط أثناء الحرب الباردة
193	الدبلوماسية السوفيتية
209	جزيرة العرب أواخر العشرينات
239	الأمير فيصل في روسيا
245	عبد العزيز بن سعود آل سعود
263	سقطرى: صفحات التاريخ
301	النصوص الفلكلورية السقطرية
303	النص الأول

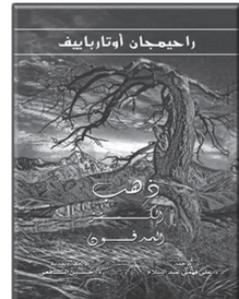
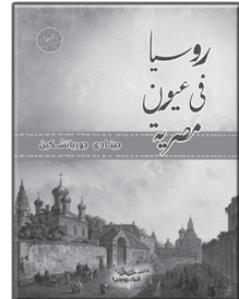
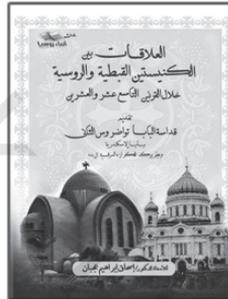
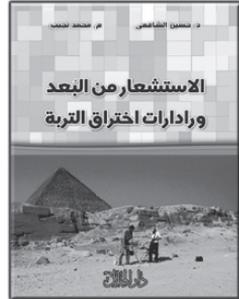
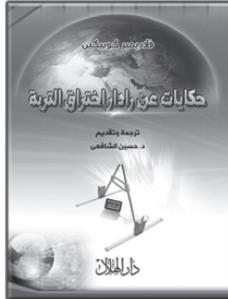
305	النص الثاني
315	النص الثالث
325	النص الرابع
331	النص الخامس
335	النص السادس
339	النص السابع
341	النص الثامن

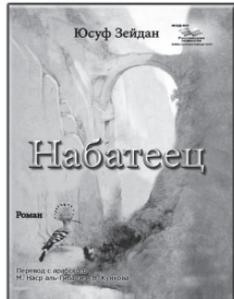
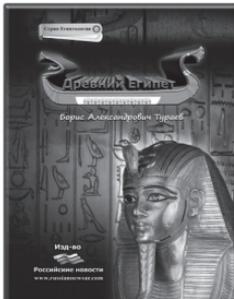
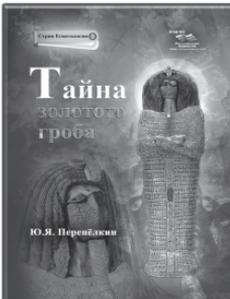
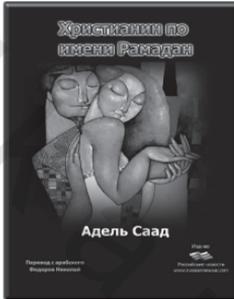
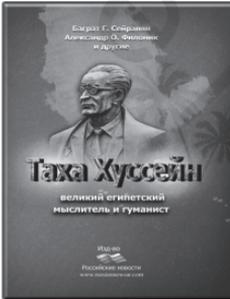
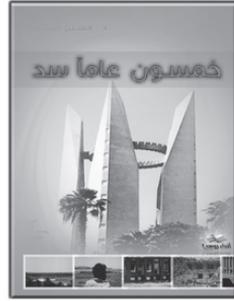
إصدارات دار نشر أنباء روسيا متوفرة لدى

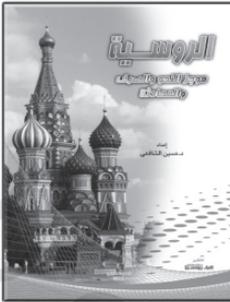
01006774027	114 شارع جوزيف تيتو برج رقم 2 - النزهة الجديدة - القاهرة	مقر المؤسسة المصرية الروسية للثقافة والعلوم
(+2) 02_24698170 & 8071	مدينة العبور - جمعية أحمد عرابي الزراعية 26/4 / 85 ص.ب. 72	
33028975 - 33043052 01006157783	4 ميدان بن خلدون مدينة الصحفيين العجوزة - الجيزة بجوار معهد القلب وأمام مستشفى أمباية العام	
0233370577	27 التحرير، الدقى، القاهرة	المركز الروسى للثقافة والعلوم
200 داخلى 25775109 - 25775000 01223100145_0100772711 -	كورنيش النيل - رملة بولاق - القاهرة	الهيئة العامة المصرية للكتاب
(+202) 27705019 (+202) 25786622	مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة	وكالة الأهرام للتوزيع
01002515013/14_01125043188 33362341/2 -	121 ش التحرير - الدقى الجيزة	شركة المكتبة الأكاديمية
01003361217 0223960047	15 ش طلعت حرب - أعلى مطعم فلفلة - القاهرة	مكتبة عمر بوك ستور
02 23926114 01003434967	4 ش محمد مظلوم - تقاطع هدى شعراوى وسط البلد - القاهرة	مكتبة أفاق للنشر والتوزيع
23922880	32 شارع صبرى أبو علم - باب اللوق - القاهرة	دار الثقافة الجديدة
01150575075 3901617 3923749	إدارة التسويق 21 شارع قصر النيل - 3 شارع طلعت حرب - 111 شارع رئيس	مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر شركة التوزيع المتحدة الجمهورية
23936123	27 شارع عبد الخالق ثروت وسط البلد - القاهرة	مؤسسة دار المعارف
25905948	9 شارع كامل صدقى بالفجالة	
23928963 01010524112	33 شارع شريف القاهرة	مكتبة دار حراء
(+202) 37627147	128 شارع قصر النيل - الدقى - الجيزة - جمهورية مصر العربية	دار البلسم للنشر والتوزيع

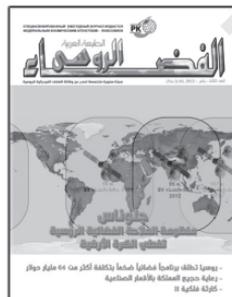
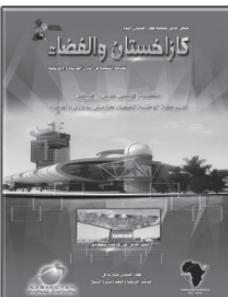












دار نشر



www.russiannewsar.com

والمؤسسة المصرية الروسية
للتقافة والعلوم



www.a.rfcs.org

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير
د. حسين الشافعي